

قسطنطين جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

ترجمة: فائز كم نقش

تقديم: د. عبدالله ابراهيم

رواية

الرواية التي مُنعت في أوروبا كلّها حتى سنة 1949

الطبعة التاسعة



قسطنطين جيورجيو

السّاعة الخامسة والعشرون

رواية

ترجمة: فائز كم نقش

مراجعة: شوقي العنيزي وأنور اليزيدي

مسكيلياني للنشر

ألف ـ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قسطنطين فرجيل جيورجيو
عنوان الكتاب: الساعة الخامسة والعشرون
ترجمة: فائز كم نقش
مراجعة: شوقي العنيزي وأنور اليزيدي
تقديم: د. عبد الله إبراهيم
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 8-34-833-9938-978

الطبعات الثماني الأولى: 1964-1987 دار اليقظة دمشق.
الطبعة التاسعة: مسكيليانى للنشر والتوزيع تونس2015

الساعة الخامسة والعشرون

تقديم: عبد الله إبراهيم

يشاطرني القرّاء الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيّام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربّما شبه مستحيلة، وقليل منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبديّ، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»، للكاتب الروماني «قسطنطين جيورجيو»؛ لأنّها تراهن على فرضيّتها منذ البداية، فأوّلا، تمتثل الرواية لأساليب الكتابة الكلاسيكية، بمشاهدها السرديّة الطويلة، وحواراتها المستفيضة المفعمة بالمشاعر الإنسانيّة الأصيلة، وبتنامي الأحداث تباعًا دونما ثغرة أو فراغ، وبذلك تتجنّب أيّة حذلقة من تلك التي يسعى إليها كثير من الكتّاب جهلا بمعايير الكتابة الأصيلة، فما إن يشرع القارئ في قراءتها حتى ينزلق إلى عالمها الافتراضي، فيتعذّر عليه مغادرته؛ لأنّ علاقاته بالشخصيّات تأسّست على قاعدة من المشاركة والمصاحبة في كلّ شيء. وثانيا، تقترح الرواية قضيّة أخلاقيّة مركّبة لها صلة بالدين، والمصير، والهوية، والحريّة، والاستعباد، والمنفى، فتربطها بالأيدلوجيات المتطرّفة التي تعجز عن الاعتراف بالذات البشرية؛ فتلجأ إلى إعادة إنتاج الإنسان باعتباره عدوّا يهدّد سلامة الجماعة، وبذلك تبيح لنفسها الفتك به بأية وسيلة تتوفّر عليها. وثالثا، تخترق الرواية بأجمعها، وتخيّم عليها، نبرة مأسوية تتبطّن شخصيّاتها الأساسية، فلا تنفك تتقبّل الأذى سعيا للبراءة، فتنتهي إلى

الاعتراف بأنّها غير قادرة على مواجهة عالم جعل من الشرّ ركنا أساسيّا من أركانه، فانحسر الخير، وتوارى، ولم يعد إلاّ ذكرى حبيسة في قلوب أنهكها التعذيب والترحيل. وأخيرا، تتجلى في الرواية أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقية، والمآسي الشكسبيرية، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، فكلّ ذلك يصلح أن يشكّل خلفيّة لقراءة الرواية التي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

تضمّنت الرواية تركيبا سرديّا متداخلا، يندرج ضمن ما يُصطلح عليه بـ«السرد الكثيف» وفيه يقوم «تريان كوروغا» بكتابة رواية بعنوان «الساعة الخامسة والعشرون» عن مخاطر الحياة الغربيّة الحديثة التي اتّجهت إلى قهر الإنسان باسم الحداثة، وقد انتقى شخصيّات روايته من معارفه، ومن أقاربه، ثمّ راح يتعقّب مصيرها في ظلّ وقائع الحرب العالميّة الثانية حيث التمييز قائم بين الناس على أساس الدين، والعرق، والأيدلوجيا، وما الساعة الخامسة والعشرون إلاّ تلك الساعة التي يتعذّر فيها على الإنسان النجاة بحياته من هلاك مؤكّد، هي «اللّحظة التي تكون فيها كلّ محاولة للإنقاذ عديمة الجدوى، بل إنّ قيام المسيح نفسه لن يجدي فتيلا. إنّها ليست الساعة الأخيرة، بل هي ساعة ما بعد الساعة الأخيرة. ساعة المجتمع الغربي، إنّها الساعة الراهنة.. الساعة الثابتة المضبوطة.»

نجحت رواية «الساعة الخامسة والعشرون» في بناء عالم افتراضيّ مذهل في سعته وكابوسيّته، فقد تحرّكت الشخصيّات بين الأرياف والمعسكرات، وبين القرى والمدن، وبين القصور والمعتقلات، وبين الكنائس والبيوت، وترحّلت في دول كثيرة مُجبَرة دونما أمل في النجاة، وانقلبت مصائرها رأسا على عقب، وتقلّبت بها الأحوال بين الكرامة والإذلال، والأمل واليأس، والفقر والثراء، والصحّة والمرض، والمقاومة

والاستسلام، وتضاربت أحلامها مع واقعها المرير، وانتهت إلى نهايات تقشعرّ لها الأبدان بحقّ وحقيق، فكلّما استجمعت قوّة للممانعة جرى تخريب كلّ مقاومة جسديّة أو ذهنيّة لها. ومع حفاظ بعضها على نبله، وبعضها على نذالته، فقد رسمت خارطة تفصيليّة للمأساة البشريّة في ظلّ الأيدلوجيات الشموليّة، والحروب العبثيّة، والكراهيّات العرقيّة، والتحيّزات الدينيّة، وكلما توقّع القارئ أنّ ضررا ما قد استنفد طاقته استجدّ غيره ما خطر ببال، فلا ينضب معين الأشرار من أعمال السوء.

تشابكت أحداث الرواية وشخصيّاتها بأسلوب يذكّر بالملاحم الكبرى، وهي تنتقل من حال إلى حال نقيضة؛ إذ يتحوّل الضحايا إلى جلادين. يُعدم المحقّق «دميان» من طرف المحاكم الشيوعية التي يترأسها اليهوديّ «ماركو غولدنبرغ» ويُلقى مع عشرة من وجوه القرية وسط كومة من القاذورات، وينتحر «إيوردان» النازيّ بعد أن تجتاح القوّات الروسيّة ألمانيا خلال الحرب، ويتعرّض الكاتب «تريان كوروغا» إلى ترحيلات كثيرة بين المعتقلات، ثم يُقتل في أحد سجون الأسرى، وينال أبوه الكاهن عقابا قاسيا لأنّه اتُّهم من طرف الشيوعيين بالصلاة في كنيسته لجماعة من الثوار الذين اعتبروا من الفاشيين، ثم ينجو بأعجوبة، فتحمله القوّات الألمانيّة المنسحبة، ويُتّهم من قبل الأمريكيين بأنّه نازيّ، ثمّ يموت في سجن يشرفون عليه. أمّا «إيوهان موريتز» الشخصيّة التي تتمثّل من خلالها الموضوعة الأساسيّة للرواية، فيشهد تجارب إذلال في رومانيا، وهنغاريا، وألمانيا، فيُرحّل أسيرا بين المعتقلات طوال حقبة الحرب، كأنّه طرد بريديّ ضائع، ومن خلاله تتجلّى العبودية الجديدة في التاريخ.

اعتاد السرد أن يقدّم مقترحات متماسكة لحبكاته، ومصير الشخصيّات الأساسيّة فيه، لكنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» تفاجيء القارئ بغير ما رسمه السرد له، فالمصائر لا يقرّرها الأفراد إنّما الأحداث العامة التي صُمّمت لتُخرّب هُويّة كلّ شخصيّة بإخضاعها

لاختبارات أخلاقيّة ووجدانيّة، فالكاتب يطرح رؤية مأسَويّة للعالم الغربيّ، ويرى أنّ وعود الخير ستنبثق في الشرق، ولعلّ أشدّ ما يؤلم القارئ هو ذلك الأذى المطّرد الذي تتعرّض له الشخصيّات، فلا يقف عند حدّ، ولا ينتهي إلاّ ليدشّن لأذى جديد يفتح أفقا لضروب أخرى من الأذى. وفيما تُفتتح مشاهد الرواية بأرياف ومراع، تنتهي بمعتقلات وسجون، وقد استسلمت شخصيّاتها لمصائر تقرّرها قوى لا ظهور لها في عالم الرواية المتخيّل، وقد أصبح المسؤولون عن تنفيذ الأحكام أدوات بيد أشخاص لا ظهور لهم فيها حيث تُعاقَب الشخصيّات ببرود، ويُحكَم عليها بالسجن أو الموت دونما تردّد، فالمجتمع الشموليّ لا يُعنى بهُويّة الفرد، إنّما ينظر إليه باعتباره كائنا مبهما في ولائه أو عدائه.

لعلّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السرديّة الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، فالبراءة تُكافَأ بعنف مفرط يشمل الجسد والنفس، وحُسن النيّة يقابل بسوء مبالغ فيه، وعالم الرواية الافتراضيّ متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السرديّة حيث يختلّ توزان الأحداث ثمّ يُعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا. لاحظوا معي، على سبيل المثال، ما يقوله المحقّق «جورج دميان» في القسم الأوّل من الرواية، حينما جاء للتحقيق مع «إيورغو إيوردان» بعد أن تسبّب في وفاة زوجته «إيولاندا» رفسا بأقدامه ما إن بلغه نبأ هروب ابنته «سوزانا» مع حبيبها «إيوهان موريتز». فقد وجّه غضبه الأعمى إلى زوجته، وتركها تكافح الموت طوال اللّيل وحيدة، ثمّ حملها صباحا بعربة تجرّها خيوله إلى المستشفى، ورماها بلامبالاة فيه لعلاج فات أوانه، وقد شُغل بخيوله أكثر بكثير ممّا شُغل بحال زوجته التي بلغت هاوية الموت.

ولكن بماذا كان يفكّر المحقّق «جورج دميان» وهو يرسل القاتل إلى السجن بعد وفاة ضحيته، ولم يكن قد عُرف بعد بميوله النازيّة حيث

انتهى ضابطا في الجيش الألماني؟ كان يفكّر بالآتي: «سيعاقب القانون إيورغو إيوردان لأنّه ضرب زوجته ضربا مميتا. إنّ ضربه زوجته وواقع حبّه العنيف لخيوله، ذلك الحبّ الذي لا يشعر بمثله نحو البشر، ليسا أكبر خطيئاته، بل إنّهما مجرّد تأثير مباشر لعقلية معيّنة. إنّها البربريّة! هذا هو خطأ إيورغو إيوردان الوحيد! فهو ككلّ بربريّ، يمقت الإنسان مقتا يبلغ به حدّ إفنائه. وأيّ قانون في العالم، لا يمكن أن يعاقب المرء على بربريته، رغم أنّ كلّ الجرائم الأخرى، تنتج عنها. فالبربريّة ليست نقيض القانون إلاّ في بعض الحالات المُحدّدة.»

والحال هذه، فكلّ ضروب الشرّ المذهلة التي تحيط بأحداث الرواية مبعثها كراهيات هوسيّة يصعب كبحها بالقانون، إنّما استُخدم القانون وسيلة لتنفيذها؛ فالقانون عرفٌ منظّم غايته معالجة ظواهر الأفعال، لكنّه أعجز عن الغوص في مرجعيّاتها ودوافعها، ولهذا لم يفلح في قطع دابر الأعمال المُشينة التي على العكس من ذلك، تكيّف القانون، لدواع دينيّة أو عرقيّة أو أيدلوجيّة، من أجل التنكيل بالآخرين، وقد شكّل ذلك الظاهرة الأكثر حضورا في «الساعة الخامسة والعشرون»، وسوف تترك للقارئ حريّة إيقاع اللوم على من يريد، فهل «إيوردان» كائن شرير بإطلاق؟ أم أن الأيدلوجيا النازية التي تغذّاها هي التي أحالته شريرا؟ ثمّ هل يجوز أن تكون زوجته، أو ابنته، موضوع انتقام لشخص تفوح منه روائح الشرّ؟ وهل ينبغي أن يعاقب «موريتز» لأنّه حلم بالرحيل إلى أميركا، والعودة منها بمال يمكّنه من شراء أرض يزرعها، والزواج من «سوزانا»؟ أم ينبغي أن يقبل الجميع بأذًى مُريع مصدره التعصّب والكراهية؟

تركت رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أثرا بالغا في نفسي، وبلغت قسوة كثير من فقراتها حدًّا أجبرني على التوقّف عن القراءة، ومواصلتها بعد أن أتغلّب على حال الانفعال التي كانت تغمرني، لم تنبع

القسوة من صرامة فعل عدوانيّ يمارسه عدوّ مهووس، إنّما من استسلام الأفراد لقواعد متوحشّة في التعامل أنشأتها نُظُمٌ شموليّة ثلمت السويّة الطبيعيّة عند الإنسان، فإيوهان موريتز، وتريان كوروغا، والأب كوروغا، وسوزانا، وغيرهم اقتلعوا من انتماءاتهم الطبيعيّة ورموا في أتون إذلال جماعيّ لا يقرّ بالتمايزات الفرديّة، ولا يراعيها. وهذا نسق مطّرد شمل معظم شخصيّات الرواية التي تشكّلت علاقاتها الأوليّة في ظروف السلم، وتعرّضت لمهانات كبيرة في ظروف الحرب.

لطالما واظبت على قراءة رواية «الساعة الخامسة والعشرون» بلا شعور بملل أو كلل. تزامنت قراءاتي لها مع ظروف عصيبة مرّ بها العراق. قرأتها في مقتبل عمري، حوالي منتصف سبعينيات القرن العشرين، ثم أعدت قراءتها في الخريف الذي اندلعت فيه الحرب بين العراق وإيران في عام 1980، وعاودت قراءتها في أصعب سنيّ الحرب، في صيف 1987، ثمّ وجدت في نفسي رغبة لا تُردّ لقراءتها في أثناء احتلال العراق للكويت في صيف1990، وقرأتها بُعيد الاحتلال الأميركيّ في عام 2003، وعلى خلفية من أعمال العنف التي تعصف بالعراق تفاقمت بي حاجة ماسّة لقراءتها، فأعدتُها في صيف عام 2012، وكأنّني أطّلع عليها للمرّة الأولى.

حينما انتهيت من قراءتي الأخيرة للرواية سيطر عليّ ذهول عجيب ما لبث أن أمسى حزنا مُبهَما لافكاك منه. فقد عشت تجربة القراءة وكأنّها وقائع حقيقيّة مررت بها أنا أو بعض معارفي، وأرجّح أنّ الظّرف التاريخيّ للعراق خلال حقب الاستبداد، والاحتلال، والفوضى الأهلية، أسهم في توجيه قراءتي، فقد كنت على معرفة بشخصيات مرّتْ بتجارب مماثلة أو شبه مماثلة لما عرضته الرواية. ففي النُظُم الشموليّة يُلقى الأفراد في متاهة غامضة، كما حدث في بلاد الرافدين، وتجربة الاحتلال الأميركي، والحرب الأهلية التي تأدّت عنها، وفّرت ظروفا مثالية لأن يمارس الضحايا أدوار القتلة، كما حدث في رواية «الساعة الخامسة

والعشرون». ومعروف مبلغ الأذى الذي تمارسه الضحيّة إن تأتّى لها أن تقوم بدور القاتل؛ فالتعطّش إلى النقمة يجتثّ في طريقه كلّ رحمة، والغالب أنّ ذلك استبطن صلتي بهذه الرواية طوال أكثر من ثلاثة عقود، فقد كنت شاهدا على تبادل الأدوار بين القتلة والضحايا في تكرار يكاد لا ينتهي.

الباب الأول
القسم الأوّل

فانتانا

قالت سوزانا تحدث إيوهان موريتز وهي تلتصق به:

- لا يمكنني أن أصدق أنك راحل!

ووضعت يديها على رأس الرجل وراحت تداعب شعره الأسود. فتراجع إيوهان خطوةً، وأجابها بصوت خشن:

- لمَ لا تصدقين؟ لن ينبثق فجر بعد غد، إلاّ وأكون قد ذهبت.

فتمتمت:

- أعرف ذلك!

لبثا واقفين قرب السياج. كان الجوّ رطبا واللّيل قد مضى أكثر من نصفه.. أخذ إيوهان يدي المرأة ثمّ أزاحهما جانبا وقال:

- والآن، الوداع!

فقالت متوسلة:

- الْبَثْ وقتا آخر!

- لِماذا تريدينني أن أبقى؟..

كان صوته ثابتا جازما.. وأردف

- إن الوقت متأخر، وعليّ أن أعمل غدا.

لم ترد عليه، بل ازدادت التصاقا به وكشفت طرفي القميص عن صدر الرجل ثم أراحت وجنتها على صدره ورفعت عينيها إليه..

قالت:

- إنّ النجوم جميلة!

كان ينتظر منها شيئا آخر. ظنّ أنّها استبقته لتقول له شيئا مهمّا وإذا بها تحدثه عن النجوم. فتخلّص منها وأراد أن يبتعد. لكنّه تذكر أنّه

سيسافر قريبا وأنه سيغيب ثلاث سنوات على الأقل وعندئذ نظر بدوره إلى النجوم يجاريها في أفكارها.

- أصحيح أنّ لكل شخص نجما في السماء، فإذا مات سقط نجمه؟

فأجابها:

- لست أدري!

ثم أضاف وقد صمّم على الذهاب:

- إلى اللقاء!

سألت:

- هل لنا -نحن أيضا- نجوم في السماء؟

أجاب موريتز:

- ككلّ الناس: في السماء أو في أنفسنا!

وأمسك برأس المرأة بين يديه فأزاحه عن صدره ثم مضى. فمشت ترافقه ويده في يدها حتّى بلغا الطريق، وهي تنظر مرّة إلى النجوم ومرّة إليه. ثمّ قالت:

- سأنتظرك غدا مساء!

- إذا لم تمطر السماء.

أرادت سوزانا أن تسير معه شوطا آخر وأن ترجو منه المجيء حتّى ولو أمطرت السماء، لكنّه ابتعد عنها بخطى واسعة، واختفى عند منعطف الطريق وراء البستان، فلبثت المرأة جامدة في مكانها برهة وهي تسوي ثوبها حول وركيها لتزيل عنه الأعشاب التي علقت به. وقبل أن تدخل إلى الباحة، ألقت نظرة أخيرة على الحشائش المتكسرة تحت شجرة الجوز، وهي مزيج من رائحة الأعشاب والتبغ وبذور الكرز، مازالت عالقة في خياشيمها..

قطع إيوهان موريتز الحقل واتجه نحو البيت وهو يصفّر أحد الألحان. كان يرتدي سروالا أسود عسكريّ المنشأ وقميصا أبيض يكشف عن عنقه.

وكان حافي القدمين. توقف مرات عن الصفير ليتثاءب وراح يفكّر في المرأة التي فارقها منذ حين.. راح يفكّر في سوزانا وأراد أن يبتسم وهو يهمس في سره: «تحدثني عن النجوم.. النساء كالأطفال، يطرحن على أنفسهنّ مجموعات من الأسئلة عديمة النفع» وانتقل بتفكيره إلى الرحلة التي سيقوم بها بعد يومين إلى أمريكا، ثم لم يعد يفكّر في شيء. عاد يصفّر وهو يشعر بالنعاس. كان يتمنى لو كان في تلك اللحظة نائما في غرفته إذ عليه أن ينهض مبكّرا جدّا.. سيكون الغد آخر أيام عمله. ها إنّ الفجر قد تنفّس أو كاد وستشرق الشمس بعد سويعات.. فراح إيوهان موريتز يحث الخطى..

-2-

توقف إيوهان موريتز عند الفجر أمام نبع القرية، وحسر قميصه عن عنقه، ثم أخذ الماء بين يديه، وراح يغسل وجهه وعنقه. بعد ذلك توسّط الطريق وراح يجفف يديه بتمريرهما على شعره؛ ثم سوّى ياقة قميصه دون أن يغلقها عند فتحة العنق من الأمام، وألقى نظرة على القرية. فوجد الضباب الأبيض الكثيف على وشك الانقشاع عن قرية فانتانا الرومانية. كان إيوهان موريتز قد ولد فيها منذ خمسة وعشرين عاما. وفيما هو يتأمّل تلك القرية ببيوتها الصغيرة وأبراج النواقيس الثلاثة الشامخة فوق كنائسها الثلاث: الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية، تذكّر سوزانا حينما سألته عما إذا كان سيذبل ويسقم إن ابتعد عن تلك القرية. وتذكر جوابه عن سؤالها: بأنه رجل! وأن النساء وحدهنّ يذبلن. فشعر بموجة من الأسف تنتابه في تلك اللحظة، وأشاح بوجهه عن المنظر ومضى وهو يصفّر من جديد دون أن يلتفت!

كان منزل القس ألكسندور كوروغا قائما على جانب الطريق، بالقرب من الكنيسة الأورثوذكسية. وكان بابه مغلقا. فانحنى إيوهان وأخذ المفتاح المخبأ أسفل الباب·والذي وضع خصيصا هناك لتسهيل دخوله

عند مجيئه للعمل باكرا. وعلى مهل، فتح الباب السندياني الثقيل ودخل الباحة، فهرعت إليه الكلاب تبصبص أذنابها وتقفز حوله بمرح.. لقد كانت تعرفه وتأنس به، لأنه كان يشتغل لدى القس ألكسندرو كوروغا منذ ستة أعوام، فكان كل يوم –خلال هذه الأعوام الستة–، يدخل إلى هذه الدار كما يدخل مسكنه.. لكنّ اليومَ آخرُ أيام عمله، ولسوف يقضي نهاره يجني ثمار التفاح، ثم يقبض أجره ويعلم برحيله القسَّ الذي لم يكن عارفا بعد بعزمه على السفر.

دخل موريتز المخزن، فحمل السلال ووضعها على العربة الصغيرة. وفي تلك اللحظة، خرج القس إلى الشرفة مرتديا قميصا من القماش الأبيض وسروال النوم الذي درج على ارتدائه قبل أن يأوي إلى الفراش. كان يحمل في يده دلو ماء. فحياه موريتز باسمًا ووضع السلال أرضا وهو يفرك يديه، ثم هرع إلى الشرفة يأخذ الدلو من يد العجوز ويقول:

– انتظر، سأصب الماء على يديك.

أخذ إيوهان يصبّ الماء على يدي القس. كان ينظر إلى أصابع يديه، تلك الأصابع الطويلة المعقدة التي يكسوها الجلد الأبيض، الشبيهة بأصابع النساء. كان ينظر بسرور إلى ذلك العجوز وهو يدلك بالصابون لحيته ووجهه وعنقه. فسها وهو في استغراقه عن يدي القس المدودتين المطالبتين بالماء لإزالة الصابون الذي يغمرهما. وحين انتبه موريتز إلى نفسه وشعر بخطئه، احمرّ وجهه.

كان القسّ كوروغا، راعي الكنيسة الشرقية. يناهز الخمسين من عمره، رغم لون شعر رأسه ولحيته الذي كان أبيض كالفضّة. كان طويل القامة، رقيق العود، هزيلا يشبه القديسين الذين تشاهد صورهم مرسومة على «أيقونات» الكنائس الأورثوذوكسية. لكن نظرته الملتمعة وصوته المرح يُشعرانك بأنه مازال شابا.

فرغ الكاهن من غسيل يديه ووجهه فجفف وجهه وعنقه بمنشفة من

الكتان الغليظ. وكان موريتز واقفا أمامه والإناء في يده. قال:

- أودّ أن أتحدّث إليك يا أبي.

فأجابه الكاهن:

- انتظر ريثما أرتدي ثيابي.

ثم استعاد آنية الماء من يد إيوهان موريتز ومضى نحو المنزل. فلما بلغ العتبة، التفت إليه وقال وهو يبتسم:

- وأنا كذلك سأتحدّث إليك. إنّ لديّ نبأ سيسرّك سماعه. أما الآن فخذ السلال في العربة وجهّزها.

أمضى إيوهان موريتز والقس كوروغا ذلك الصباح في جني التفاح وملء السلال به. كانا صامتين. ولما دنت ساعة الظهيرة، توقف الكاهن وأسدل ذراعيه من التعب.

- لنسترح قليلا.

فأجاب موريتز:

- لنسترح.

اتجها نحو الأكياس الملأى بالتفاح وجلسا فوقها ثمّ استغرقا في الصمت من جديد. بحث الكاهن في جيوبه عن علبة السجائر التي كان يأتي بها معه دائما، ليقدم منها إلى موريتز. فلما وجدها مدّ يده إليه وقال:

- كنت تريد أن تحدثني بشيء.

- فعلا، هو كذلك.

أشعل موريتز لفافة وألقى بعود الثقاب على الحشائش ولبث يراقبه حتّى انطفأ. كان من العسير عليه إبلاغ الكاهن برحيله. كان يود لو تريّث قليلا فأنقذه الكاهن من تردّده بقوله:

- أريد إطلاعك على الخبر الذي عندي أوّلا.

سرّ موريتز إذ أتيح له أن يحتفظ بما عنده ولو إلى حين. وأردف الكاهن يقول:

- لقد أصبحت الغرفة الصغيرة الكائنة قرب المطبخ فارغة. وقد فكرت في أنك قد تقبل السكن فيها. لقد طلت زوجتي جدرانها بالجير مرّة أخرى وعلقت على النوافذ ستائر صغيرة نظيفة. أعرف أنّه ليس لديكم في منزلكم المكان الكافي. فأنت وذووك تأوون إلى غرفة واحدة. فاحمل أمتعتك معك غدا عندما تحضر لأن الغرفة باتت لك.

- لن أحضر غدا يا أبي.

- ليكن إذن بعد غد. إن الغرفة ستبقى لك.

قال موريتز:

- لن أعود بعد اليوم يا أبي لأنني مسافر غدا إلى أمريكا.

حملق الكاهن في وجهه وقال:

- غدًا؟

- غدا عند الفجر!

كان صوت موريتز ثابتا، لكنّه كان مشوبا بلهجة أسف. أردف:

- لقد تلقيت رسالة، والباخرة راسية في «كوستانزا»، ولم يبق على موعد إقلاعها إلاّ ثلاثة أيام.

كان الكاهن يعرف أن موريتز راغب في السفر إلى أمريكا لأنّ عددا كبيرا من القرويين الشباب ارتحلوا إليها وعادوا بعد عامين أو ثلاثة وجيوبهم عامرة بالمال، فاشتروا أجمل مساكن القرية وقطع الأرض وعادوا يعملون فيها لأنفسهم. وكان الكاهن مسرورا لسفر موريتز، لأنه سيحصل بدوره بعد سنين قليلة على المسكن الجديد والأرض الحسنة أسوة بالآخرين. لكنّه دهش لسفره المفاجئ القريب الذي لم يكن موريتز قد حدثه عنه، رغم أنهما كانا يشتغلان كل يوم، جنبا إلى جنب، من الصباح حتّى المساء.

قال موريتز:

- لقد تلقيت الرسالة البارحة.

- أوَ تسافر وحيدا؟
- بل مع غيتزا ايون. وسنشتغل وقّادين على ظهر الباخرة، نُعنى بالمراجل، وبذلك لن ندفع من مجموع أجر الرحلة إلاّ خمسمائة «لي» عن الشخص الواحد. لغيتزا صديق في كونستانزا، يشتغل في المرفأ، وهو الذي أعدّ كل شيء.

تمنّى له الكاهن حظا سعيدا وهو يأسف لرحيله. فقد كان إيوهان موريتز شابا مخلصا في عمله، طيّب القلب، شريف النفس. لكنّه كان فقيرا لا يملك شبرا من الأرض. استمرّ الرجلان في عملهما بقية اليوم والكاهن يتحدث عن أمريكا وموريتز يصغي إليه. كان موريتز يزفر بين الحين والحين.. لقد شعر في تلك اللحظة بأسف حقيقي لفراق ذلك الرجل الطيب...

حان المساء وانتهى العمل. فوقف موريتز أمام الكاهن مطرق الرأس، ولبث كذلك طويلا، لا يجد في نفسه القوة على مغادرة المكان، بعد أن سلّمه الكاهن أجره.. فربّت الشيخ على كتفه وقال مشجّعا:

- اكتب إليّ حال وصولك وتعال غدا لأخذ الصُرّة التي وعدتك بها. لسوف أزوّدك بما تأكل طيلة الطريق.

ثم أعطاه خمس ورقات نقدية من فئة المائة «لي» وأضاف:

- تعال منذ الشفق واقرع زجاج النافذة بهدوء لأنني أفضل أن لا تسمع زوجتي شيئا. إن النساء كما تعلم، شديدات البخل. سوف أهيّئ لك كل شيء منذ هذا المساء فمتى تودّ الرحيل؟

- عند شروق الشمس. إذ عليّ أن أقابل غيتزا ايون عند طرف القرية.

- حسنا. إن الوقت يسمح لك إذن بالمجيء إلى هنا قبل الذهاب إلى صديقك. غير أنّك تستطيع المجيء هذا المساء بدلا من الغد.

- بل أفضل الغد يا أبي.

كان موريتز يفكّر في سوزانا التي كانت ولا شك تنتظره هذا المساء.

وضع الكاهن كوروغا كيس المؤونة تحت النافذة إلى جانب الجدار، ثمّ أطفأ المصباح وأوى إلى سريره. راح يفكّر قبل النوم في إيوهان موريتز ورحلته إلى أمريكا. لقد شعر وهو يهيّئ كيس المؤونة بشعور غريب، خيّل إليه، أنّه هو الذي سيسافر إلى أمريكا. عادت به الذاكرة إلى ثلاثين عاما خلت: كان قد حصل على شهادته في علم اللاهوت وتطوّع في عداد المبشّرين الذاهبين إلى المستعمرة الأرثوذوكسية في مشيغان، وكان قد هيّأ أمتعته كما فعل إيوهان موريتز اليوم. لكنّه قبل موعد الرحيل بأسبوع، أبرق يعتذر عن قبول منصبه، ففي تلك الفترة كان قد تعرّف إلى امرأته وتزوّجها. ومنذ ذلك الحين أصبح راعي القرية. والقرية صغيرة جدا والحياة فيها خشنة. لقد أسف مرارا لتخلّيه عن تلك الرحلة والمنصب الذي كان سيتولاه. لكن الأسف ما كان يجديه فتيلا. ظلت أمريكا في حلمه: فكلما عزم قروي على السفر إليها، كان يعطيه مؤونة كافية وسجائر ويطلب منه أن يكتب إليه حال وصوله، رسائل عن أمريكا. كان يقوم بذلك دون إطلاع زوجته. وما كانت الزوجة لتستنكر فعلة زوجها، غير أن الشيخ كان يعتقد أنّه كلّما فكر في أمريكا، كان تفكيره وجها من وجوه عدم الإخلاص لزوجته، لأنه رفض الذهاب إليها من أجلها. وظلّت تلك المعركة النفسيّة ناشبة في قلبه كامنة فيه. ولكنّ سفر موريتز لم يكن كسفر الآخرين: لقد كان إيوهان موريتز موضع ثقته، وبذهابه شعر أنّ جزءا حيا منه قد ذهب إلى العالم الجديد.

كان القمر هالة مكتملة في السماء والكاهن كوروغا لا يستطيع النوم فنهض من فراشه وأضاء النور ومضى إلى مكتبته التي احتلّت رفوفها جدران الغرفة الثلاثة، وأخذ كتابا. كانت الرفوف تنوء بالكتب، بين إنكليزية وألمانية وفرنسية وإيطالية ويونانية ولاتينية. وهم جميعا أصدقاء قدماء له. أحيانا كان يتساءل عن سبب عزوفه عن التدريس في الجامعة

رغم أن أصدقاء له من «ايازي» و«بخارست» أغروه بذلك. لقد رفض مرتين مقعد أستاذ في التاريخ الكنسي ولم يأسف قط لهذا الرفض. كان في فانتانا يقيم شعائر الصلاة أيام الأحد والأعياد. أما بقية الوقت، فكان يشتغل في أرضه ويُعنى بمناحله وبستانه وثماره. فإذا حل المساء، خلا إلى كتبه يقرأ، تاركا للقدر، طائعا مختارا، أن يرسم له خطوط مستقبله. لقد حاول مرّة واحدة أن يعاند القدر، وكان ذلك عندما قرر الذهاب إلى أمريكا. فأعدّ كل العدة لذلك. لكنّه رغم استعداداته الجمّة لم يرحل، لأنّ أمرا غير متوقع وقف في طريقه. وكان له في ذلك الدرس، ما جعله عازفا عن وضع الخطط، ومحاولة تنفيذها.

تساءل الكاهن: «هل أنا آسف حقّا لعدم ذهابي إلى أمريكا منذ ثلاثين عاما؟ وإذا كنت غير آسف، فلِمَ هذه الحمى الغريبة التي أشعر بها اليوم لذهاب موريتز؟» تدثّر واسترسل في تفكيره: «إنه ليس الأسف للبقاء بل إنّه الحنين إلى شيء نعتقد في صحته في خيالنا، شيء لن نمتلكه أبدا. وإذا بلغناه، فإننا سرعان ما نجد أنّه لم يكن هو موضوع أحلامنا. لعل أمريكا لم تكن هدفي المنشود. لعلها كانت حجة اكتئابي. إن أمريكا ليست إلاّ اختراعا لفقه حنيننا. وقد يكون عدم رؤيتها أقل خيبة لآمالنا مما لو شاهدناها حقيقة».

مع ذلك، فإن الكاهن كوروغا، لم يكن يستطيع النوم. كان شديد الاضطراب منفعلا، ينتظر بفارغ صبر بزوغ النهار وكأنه هو الذي ينتظره غيتزا ايون عند طرف القرية، ليذهب معه إلى كونستانزا، حيث تنتظرهما الباخرة التي لن تبقى في المرفأ أكثر من ثلاثة أيام.

وعندما استيقظ بعدئذ، وجد الظلام ما يزال مخيّما، غير أن صياح الديكة قد أعلن عن قرب شروق الشمس. كانت الطريق خالية والقرية يلفها ضباب أبيض كثيف. فتح الكاهن الكيس ودسّ فيه رزمة «السجائر» الموضوعة على المنضدة وهو يقول: «إذا كان إيوهان راحلا، فإنّني لن

أحتاج إلى هذه «السجائر» وأنا الذي اشتريتها من أجله» . شهد من النافذة انبثاق النهار فناجى نفسه بقوله: «ينبغي أن يسرع في الحضور إذا شاء أن لا يتأخر عن موعده» . سمع صوت خطى على الطريق، لكنّها تجاوزت المنزل وضاعت في البعيد فخرج إلى الشرفة وغسل وجهه بالماء البارد. غير أنّ إيوهان موريتز لم يكن هناك ليصبّ الماء على يديه.

أشرقت الشمس ولم يحضر إيوهان موريتز. ولبث الكاهن ينتظره حتّى ساعة الإفطار، وبما أنه لم يأت، فقد ظنّ الكاهن أنّه صحا متأخرا فلم يجد متسعا من الوقت ليمر به قبل لقاء صديقه حتّى يحمل الصُرّة، فغمغم: «يا للأسف! لقد جمعت له مؤونة ثلاثة أسابيع. ستكفيه حتّى في أيامه الأولى هناك» . نادته زوجته قائلة:

- هلاّ أتيت إلى الفطور يا ألكسندرو؟

وظهرت على عتبة الباب. فقال الكاهن:

- سأحضر حالا.

دفع الصُرّة تحت السرير وهو يشعر بالأسف يعتصر قلبه، ذلك الأسف الذي يحس به المرء، كلّما عدل عن أمر مّا عدولا نهائيا. لقد ضاع أمله الأخير في الوصول إلى أمريكا مُمَثّلا في شخص موريتز. فلوح بيده كما فعل منذ ثلاثين عاما ومضى إلى غرفة الطعام.

حدّث نفسه قائلا: «لو أن موريتز أخذ هذه الصرة التي أعددتها له لشعرت بأنني أنا المسافر. لكنني آسف لأنه لم يأت. وغمغم باللاتينية يقول: «مَن يعمل من أجلكَ الآخرين فكأنّما يعمل من أجل نفسه» .

-4-

عندما غادر إيوهان موريتز منزل الكاهن، توقف عند النبع الكائن على جانب الطريق، فسفح الماء على وجهه وصدره وتوجه نحو الجانب الآخر من القرية حيث يقطن نيكولاي بورفيري. وكانت لنيكولاي هذا أرض على تخوم الغابة يريد بيعها. فلمّا دخل باحة مسكنه قال له:

- سأذهب غدا إلى أمريكا. وعندما أعود، سيكون لديّ من المال ما أشتري به هذه القطعة من الأرض. لكنني أودّ قبل مغادرتي القرية أن أعطيك عربونا، كي لا تبيع الأرض إلى سواي.

سأل القروي:

- كم من الوقت تمضي هناك؟

- عامين أو ثلاثة، بينما أحصل على ما يكفيني.

- نعم إنّ ثلاث سنين كافية. ولم أر من قبل شابا مكث فيها أكثر من هذا الوقت، لأن المرء يكسب المال بسهولة في أمريكا.

سأل موريتز:

- كم تريد عربونا للأرض؟

- لست في حاجة إلى المال. إذا عدت خلال ثلاث سنين بمبلغ خمسين ألف «لي» ، فإنك ستحصل على حقلي الذي لن أبيعه لأحد. سوف أنتظر أوبتك.

غير أنّ موريتز. أخرج من جيب سرواله، رزمة من الأوراق النقدية راح يعدّها على عتبة المسكن، ثمّ قال:

- هاك ثلاثة آلاف «لي» فمن الأفضل أن أدفع لك عربونا.

تمّت الصفقة فضغط إيوهان موريتز على يد نيوكولاي بورفيري.لم يكن الظلام مهيمنا بعد، فأراد أن يلقي نظرة على قطعة الأرض. لقد رآها من قبل مئات المرات، وكان يعرفها تماما. غير أنّه في تلك اللحظة، لم يكن مجرّد عابر سبيل. كان الأمر مختلفا بالنسبة إليه لأنّ الحقل بات ملكه، ولم يكن عليه إلاّ أن يعود بالمال.

-5-

سار إيوهان موريتز مخترقا الحقول بخطوات حثيثة، حتى أنّ قميصه التصق بجلده من جرّاء العرق. لم يكن يطيق السير متئدا! ولمّا بلغ غابة البلوط، توقف فجأة: كانت أرضه تمتدّ من مكان وقوفه إلى

تخوم الغابة، مزروعة بالذرة التي تبلغ مستوى كتفيه. لم تكن الأرض كبيرة، لكن من الممكن أن تتسع لبيت وباحة وبستان غلال. راح يقدر أبعادها بنظره، ويقيسها طولا وعرضا. خيّل إليه أنّه يرى منذ الآن وراء ذلك النبات الأخضر الجميل، سقف المنزل ودولاب البئر وباب الإصطبل المصنوع من خشب البلّوط السميك. كان يرى غالبا مثل ذلك المشهد بعين خياله، لكنّه في تلك المرة، رآه بوضوح أشدّ. بدا له كلّ شيء حقيقيا مطابقا لرغباته فابتسم. كانت الريح تحني سيقان الذّرة الخضراء وهي تتموّج كالبحر الزاخر، محدثة هديرا يروق للسمع؛ فانحنى على الأرض وأخذ ملء قبضته من ترابها. كانت التربة حارة وكأنها مخلوق حيّ في يده... حرارتها تشبه حرارة الجسد، حرارة دوريّ مضموم بقوّة بين الأصابع. انحنى مرّة أخرى وملأ يده اليمنى بالتراب، ثم انتصب واقفا وضغط على أصابعه بشدة، ثم فتح يده وترك التراب يتسرّب عبر أصابعه بخطوط ناعمة دقيقة. واخترق الزرع متجها نحو الغابة، فلمّا بلغ منتصف الحقل، انحنى مرّة أخرى ليجمع تراب الأرض في يده. وناجى نفسه وهو يمرّغ خدّه بذلك التراب ويشمّ عبيره: «إنه ساخن أيضا. إنّ له رائحة التبغ، رائحة الأرض.» رفع إيوهان موريتز رأسه وتنفس ملء رئتيه مرات متلاحقة ليملأهما بشذى الأرض المعطر. اتجه به التفكير إلى سوزانا فغمغم: «إنها تنتظرني» ، ومضى في طريقه يصفّر.

-6-

كان منزل إيورغو إيوردان، والد سوزانا، قائما عند طرف القرية. وهو منزل كبير يغطّي سقفَه قرميدٌ أحمر. اتجه إليه موريتز، مخترقا البساتين، مُيمّما شطر فنائه. فلما بلغ السياج، توقف وراح ينظر عبر ثغرة فيه. كان إيورغو إيوردان في تلك اللحظة على شرفة منزله، يسير ببطء، فيغلق درفات النوافذ، بعضها بالرتاج، والبعض الآخر بالمفتاح. راح موريتز يراقب حركاته، فلما انتهى إيوردان من عمله، نظر حوله

نظرة مستريبة، وهبط درجات السلّم الخشبية وهي تئنّ تحت وطأة جسمه العملاق. كان يرتدي كعادته سترة خضراء، وحذاءين قصيرين، وسروالَ الفرسان. اخترق البستان الذي يحيط بمنزله واتجه نحو الباب، فسحب الرتاج وراءه بعنف، وأدار المفتاح في القفل مرتين، ثمّ عاد وهو يتأرجح في مشيته، فدار حول المنزل متفقدا جنباته، وكأنه يبحث عن شخص مختف في مكان مّا في الظلّ، وأخيرا دخل المنزل من بابه الخلفيّ، سمع موريتز صوت المفتاح يدار في القفل مرّتين ولم يلبث أن ران الصمت. دخل إيورغو إيوردان غرفة نومه التي كانت جدرانها مغطاة برؤوس محنّطة لأيائل وذئاب ودببة، وبين النسور المحنّطة وقرون الوعول، وسط الجدار تماما، ثمّتَ بنادق صيد ومسدّسات وكنانات. أمّا إلى جانب السرير الضخم، فقد بُسطت سجّادتان من فرو أسود. وطأهما إيورغو إيوردان بقدميه، وأخذ بندقية أسندها إلى السرير، ثم أخرج مسدّسا من درجه، وشمعة وعلبة ثقاب وضعها جميعها على المنضدة إلى جانبه، وجلس على السرير لاهث الأنفاس فخلع حذاءيه، ووضعهما الواحد حذو الآخر. كان من عادته أن يترك حذاءيه في مكانهما المعيّن ليجدهما في الظلام، كلّما احتاج إليهما بمجرّد أن يمدّ يده إليهما. ثم خلع ثيابه واستلقى على السرير غارقا في الوسائد البيضاء، وكأنّه دبّ مستلق على الثلج. شهد إيوهان موريتز النور ينطفئ: لقد تضاءل النور أولا ثم تلعثم، ثم اختفى، أصبحت النافذة سوداء وكأنها فَمُ ظلّ. أمّا غرفة إيولاندا، زوجة إيورغو، فقد كانت مضاءة. لكنّ نورها خافت، ضئيل، سرعان ما يضيع في طيات الستائر الحريريّة قبل أن يبلغ النافذة. وكان الناس يتهامسون بأنّ إيولاندا تعيسة، وأنها وصلت منذ خمسة وعشرين عاما مع إيورغو إيوردان إلى تلك القرية، ممتطييْن جوادا، فحطّا رحالهما في خان القرية. لم يكن أحد يعرف من أين أتيا، لكن الناس خمّنوا أنّهما قادمان من مكان قصيّ. كانت إيولاندا رومانية، أمّا هو فلا.

وقد اتّضح فيما بعد، أنهما نزحا عن هنغاريا. كان يرتديان آنذاك فراءً طويلا، وبعد أن التهما كفايتهما من الشواء وشربا كؤوسًا من الخمر، ناما في غرفة صاحب الخان. كان زوجها يأكل كالغول، أمّا هي فكانت كالعصفور، لا تكاد تمسّ طعامها. ولم يمض على وصولهما ثلاثة أيام حتّى أشيع في القرية أنّهما لن يغادراها. وصدقت الشائعة، إذ لم تمض أسابيع قليلة، حتّى اشتريا الخان. كان إيورغو إيوردان لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الرّومانية عندما وصل إلى فانتانا. أما الآن، فقد صار يتكلّمها بطلاقة، كأبنائها. غير أنّه لم يكتسب خلال ربع قرن أيّ صديق في القرية، وكذلك زوجته. وقد عمد الوالدان إلى عدم إرسال ابنتهما سوزانا إلى مدرسة القرية، درءًا لارتباطها بأية علاقة مع أبناء القرويّين الآخرين، فأرسلاها بدلا من ذلك إلى المدينة. كان القرويّون لا يرون إيولاندا إلاّ في الكنيسة الأرثوذوكسية أو عندما تقصد المدينة في عربتها، منطوية منكمشة، إلى جانب إيورغو إيوردان. كان العملاق أطول منها مرّتين، وكان لها شعر أشقر كالحرير المغزول وعينان زرقاوان. وكانت سوزانا، تشبهها شبها غريبا، حتّى أنّ المرء ليخلط بينهما. ذلك كان كل ما يُعرف في القرية عن إيورغو إيوردان. أضف إليه أنّه ذات شتاء، قتل رجلا وهو يحاول الدخول إلى منزله. لقد قتله ببندقيته، بطلقة أصابته بين عينيه وادّعى رجال الدرك أنّ إيورغو إيوردان لم يتجاوز حقه، وأنه يستطيع قتل أيّ رجل يتسلّل إلى بيته ليلا ليسرق نقوده. غير أنّ القرويّين، ما كانوا من رأي الدرك، لأنّ الجريمة هي دائما جريمة. لكن هذه القضيّة لم تلبث أن نسيت بعد أن مرّ عليها زمن طويل.

شاهد إيوهان موريتز النور من ثغرة السياج يخبو ويرتعد هنيهة، ثم ينطفئ. فأحاط فمه بكفيه وهتف: هووا هوووا هووووا

اخترقت صيحة موريتز الفضاء وردّدها الصدى، ثم عاد السكون. ولم تمض لحظة، حتّى فُتحت درفات نافذة وقفزت سوزانا منها، فاخترقت

البستان جريا على أطراف قدميها، ثم خرجت من الباحة، عن طريق الثغرة في السياج، حيث كان إيوهان موريتز ينتظرها.

-7-

سألت:

- لمَ انتقيت هذه الصيحة؟ لمَ هذا النعيب؟ لماذا؟

كانَت قد اجتازت السياج، وبَلغت موضع موريتز، فأراد أن يعانقها، غير أنّها تحاشته، وهي ترتعد مذعورة، وصدرها يعلو وينخفض، تبعا لوجيب قلبها.

- ألم أخبرك بعدم النداء هكذا؟

سأل أيوهان موريتز:

- وكيف كنت تريدينني أن أصيح؟

- اهتف كيفما شئت. غير أنّ صياح البومة، مجلبة للبؤس. إنّه إنذار بالموت!

- خرافات النساء العجائز! ليس هناك طير آخر يغرّد ليلا نهارا وفي الأوقات العاصفة، شتاء، وصيفا، غير البوم. هل تعرفين طيرا آخر؟ إنّ العندليب لا يغرّد إلاّ في الصيف. فإذا قلّدت صوت العندليب، أدرك أبوك، أنّ رجلا ينتظر وليس طائرا. أتريدين أن يعرف العملاق أنّني أناديك؟

- كلاّ لست أريد. لكن البوم يجلب الخراب!

- ليست خطيئتي إذن. لماذا لا يكون هناك طائر آخر، يغنّي في كلّ الفصول، وفي كلّ الساعات، دون أن ينذر بالموت؟ ثم لماذا نختصم؟ لقد جئت هذا المساء أدعوك للمرّة الأخيرة. ولن يكون هناك ما يدعونا إلى التستّر في المستقبل. سأذهب صباحا في طريقي إلى أمريكا. وستصبحين زوجتي عند عودتي، ولن أكون مضطرا إلى الاختباء وراء السياج، وتقليد صوت البوم.

ضمّها بعنف إلى صدره فأحاطت عنقه بذراعيها. كانا تحت شجرة الجوز، حيث التقيا اللّيلة الفائتة، وكلّ الليالي الأخرى، منذ الأشهر التي قضياها معا، بعد تعارفهما. أحسّ بثقل المرأة بين يديه، فأسندها ومدّدها على العشب، واستلقى بجانبها، وتداخل جسماهما، وتعاقدا كالحيّتين، أو كالنبات المتسلق. كانت الأيدي تبحث عن الأيدي في الظلام، والشفاه تلتصق بالشفاه،، برغبة وشوق، وقد أغمضا عيونهما. وفي مكان ما من بستان إيورغو إيوردان، كانت الصراصير تردّد غناءها الوثير. لبثا متعانقين صامتين. وبدا ثوب سوزانا، أشبه ببقعة زرقاء على الحشائش، بعد أن نزعته عنها خشية تراه أمّها ملطّخا أو مدعوكا. كانت الغيوم القاتمة قد نضت عنها صفحة القمر، وتبدّدت حوله، فالتمعت في الظل كتفا الفتاة العاريتان. نزع موريتز قميصه ووضعه تحت جسد سوزانا، فانكشف، إلى جانب الكتفين البيضاوين، صدره الأسمر الذي يشبه قلافة الشجر.

قالت المرأة:

- إياني، لا ترحل.

فأجابها مكتئبا:

- لِمَ تقولين ذلك؟ أنت تعلمين أنني إذا لم أذهب إلى أمريكا لن أستطيع شراء الحقل. وإذا كنت لا أمتلك أرضا، فلن نستطيع الزواج. إلى أين تريدين أن نمضي، إذا كنا لا نملك أرضا، ولا بيتا؟ ثلاث سنوات، وبعدها أعود بالمال، ونتزوّج. ألا تريدين أن نتزوج؟

- بل أريد. ولكنّني لا أريدك أن تذهب.

- وكيف أشتري الأرض وبأيّ شيء؟

ابتسم إيوهان موريتز وأردف:

- لقد أعطيت نيكولاي بورفيري عربونا لأجل الأرض. ولسوف أكمل له بقية المبلغ عند عودتي.

قصّ إيوهان موريتز قصة ذهابه إلى صاحب الأرض، ودفعه المال، ومروره بالحقل. ووصف لها البيت الذي سيبنيه، والإصطبل، وكلّ شيء.

قالت سوزانا دون أن تصغي إلى حديثه:

- إياني، إذا سافرت، فلن تراني حيّة عند عودتك.

انزعج موريتز ،فكلح وجهه وقال:

- ماذا دهاك؟

- لا شيء. إنّ هاتفا يقول لي ذلك. لك أن تصدّقني، لكنّني عند عودتك سأكون قد متّ.

- كلاّ. لن تموتي. ستكونين عند أبيك وأمّك، كما أنت اليوم. فأنت لست وحيدة. ولن أقلق من أجلك. لأنك لست عند غرباء، بل عند والديك.

راحت الفتاة تبكي بهدوء، فعانقها وسألها:

- ما بك؟ ماذا دهاك؟

كانت شفتاها باردتين، مخضلتين بالدمع المالح.

- لو حدثتك بشأني، لقلت إنّ لي آراء المجانين، آراء النساء. لذلك يستحسن أن لا أحدّثك بشيء.

- لن أقول إنها آراء النساء.

قالت:

- أعتقد أنّ أبي يريد قتلي!

فأجابها بصوت خشن:

- من الذي حشا هذه الفكرة في رأسك؟ كيف يقتلك أبوك؟

- كنت أعرف أنّك لن تصدقني، لكنني أرتعد من الخوف. إنّني أحسّ بأنه سيقتلني. لقد شعر أبي بشيء ما، ولست أدري كيف لاحظ ذلك. ولهذا السبب يريد قتلي.

- ما الذي لاحظه أبوك؟

- حُبَّنا.

عندئذ تنحى إيوهان موريتز عنها. كان جسد سوزانا جليًا كالرخام على العشب. سألها:

- هل حدّثك بذلك؟

- كلاّ.

- هل عنّفك؟

- كلاّ.

- إذن كيف عرفت أنّه تفطّن إلى علاقتنا؟

- إنّ قلبي يحدّثني بذلك.

وراحت تبكي وتنشج.

- إنّه ليس قلبي فحسب.. ظهر اليوم، عندما حملت الأطباق إلى المائدة، نظر إليّ أبي نظرة غريبة، كانت نظرة حقد، ثم هتف بي: «استديري نحو الجدار»، فاستدرت. شعرت بنظراته تتحسس وركيّ. ثم قال: «استديري نحو النافذة» ونظر إليّ أيضا نظرة طويلة، نظرة جانبيّة، ثم حدق في بطني وخصري. كان ينظر إليّ، كما ينظر إلى خيوله، ويفحصها، وفجأة صرخ غاضبا: «اغربي عنّي أيتها الحقيرة!» وامتنع عن الطعام. ولقد خرجت، وأنا واثقة من أنّه ألمّ بكلّ شيء وعرفه. لقد عنّفني من قبل حين كنت صغيرة، بل وضربني حتّى أدمى جسدي. لكنّه لم يقل لي مرّة «حقيرة». أمّا ظهر اليوم، فقد صرخ «اغربي عنّي أيتها الحقيرة!».

سأل موريتز:

- كيف استطاع معرفة كلّ شيء، وهو الذي لم يرنا أبدا معا؟

- لم يرنا معا، ولكنه على علم بكلّ شيء!

- ولكن كيف يستطيع معرفة ذلك؟

- بمجرّد النظر إليّ.

ضحك إيوهان موريتز، وقبّل المرأة على جبينها.

- لو أنّه نظر إليك عبر منظار، لما استطاع الكشف عن شيء. أتعتقدين

أنّ نتائج الحبّ ترى بهذا الشكل؟ هذا كلّه ليس سوى هراء!

- أعرف أنّ ذلك لا يتّضح عادة. لكنّ أبي يختلف عن سواه. إنّه يعرف ذلك بمجرّد النظر إلى أفراسه. بمجرّد النظر إليها، يستطيع أن يؤكد إذا كانت ستلد مهرا أم لا. وأصدقاؤه لا يخالفونه في هذه النقطة بتاتا.

- وهل أنت حبلى حتّى يبدو ذلك؟

- كلاّ لست حبلى.

- إذن ليس هناك أيّ خطر. بعد عامين أو ثلاثة، أعود ومعي المال. سوف نشتري الأرض، ونتزوّج في كنيسة الكاهن كوروغا. سوف نبني بيتا جميلا، وسنكون سعداء أليس كذلك يا سوزانا.

عندئذ اختبأت بين ذراعيه كما لو أنها خائفة، ثم قالت وهي ترتجف:

- لو أنّك بقيت هنا لما خفت. أمّا وأنت راحل، فإنّني سأموت هلعا، حتّى ولو أنّ أبي لم يقتلني ببندقيته، فإنك لن تجدني على قيد الحياة عند عودتك. لسوف أموت من الخوف في غيابك. إنّني أغلق الباب بالمزلاج والقفل كلّ ليلة. فإذا ما سمعت وقع خطى أبي، دفنت رأسي تحت الوسادة، من الرعب.

مرّر إيوهان موريتز يده على كتفيها، وجذبها إلى صدره، وأخذها بين يديه، دون أن ينطق أحدهما بكلمة. كانت تشعر بسعادة غامرة بقربه، وكان سعيدا إذ يراها تكفّ عن البكاء. ولمّا صاح الديك، نهضا. فارتدت سوزانا ثوبها الرطب البارد، الذي بلّله الندى، ولبس موريتز قميصه، وأمسك بيد سوزانا، وقادها قرب السياج. ثم شيّعها بنظره وهي تتسلّل من الثغرة. ولم تكد تختفي وراء السياج حتّى أطلقت صرخة قصيرة. فاشرأبّ إيوهان موريتز بعنقه ليرى ماذا حدث. غير أنّ سوزانا لم تكن موجودة في الباحة. كانت ملتصقة به وهو لا يدري كيف عادت إليه. كانت ترتعد كأوراق الخريف. وأنفاسها متهدّجة رغم أن جسدها كان ساخنا. نظر إيوهان موريتز عبر الثغرة، فرأى نافذة سوزانا مُضاءة مفتوحة على

مصراعيها، كان إيورغو إيوردان في قميص النوم، يجوب الغرفة طولا وعرضا، وبيده مصباح موقد، كأنه يبحث عن شيء ما. فراح موريتز يمسح بيده على شعر المرأة ويضمّها إلى صدره، ليمنعها من رؤية أبيها. لكنّها كانت قد رأت كلّ شيء. ولأنّها رأت كلّ شيء، فقد ازدادت التصاقا به. بل ولم يكن في وسعها البكاء لشدة رعبها وارتعادها. سمعا صوت إيورغو إيوردان يسبّ ويصخب، فحدّق موريتز متطلّعا إلى جسد العملاق، وقد ارتسم على ظله شبح إيولاندا الهزيل. لبث ذلك المشهد تحت أنظار موريتز لحظة واحدة، ولما أدار العملاق ظهره إلى النافذة، حجب بجسده الضخم زوجته عن أنظار موريتز، ثم سمعا صيحات إيولاندا، صيحات حادة تمزق القلب وتفطره، وتتغلغل في مسام الجلد متفجّرة. وفجأة انطفأ النور، ولبثت النافذة مفتوحة، بينما استمرّت صرخات إيولاندا تشق الظلام وتمزقه، صرخات تزداد يأسا وهلعا وألما، لم تلبث أن خبت ببطء، فلم تمض برهة، حتّى بلغت مسامعهما، أشبه بحشرجة مكتومة، توقفت بعد قليل. كانت التعيسة قد سقطت على الأرض، وإيورغو إيوردان يسحقها بضربات من قدميه في الغرفة المظلمة. ومن مكانهما، كان موريتز وسوزانا يرتعدان.

قالت المسكينة:

- أمّي! إنّه يقتل أمي.

انتزعت نفسها من بين ذراعي موريتز، وهمت بالاندفاع نحو الباحة، والذهاب إلى البيت، لكنّه قبض عليها بشدّة، وهو يلاطفها. وفجأة تخلى عنها، لأنه كان يريد أن يهرع إلى نجدة المرأة التي كانت على وشك الموت. كان يدرك أنّه إذا تأخر فترة أخرى، فإنه سيصل -إن وصل- بعد فوات الأوان. كانت عضلاته متقلصة، متوترة. غير أنّه لم يبادر إلى نجدة إيولاندا. فهو غير مسلّح، بينما في متناول يد العملاق بنادق وأسلحة. كان العملاق قويا، وكأنه قدّ من صخر، لذلك حرّمت غريزة مويرتز،

عليه القتال، لأنه كان عبثا.

حمل إيوهان موريتز سوزانا بين ذراعيه. وهي تتخبّط على صدره، وترتعد. لكنّه ضمّها إلى صدره بعنف، وراح يبتعد بخطى حثيثة مخترقا الحقول. كان يشعر بإحساس غريب، يحدّثه بأنّ العملاق، يبحث عن سوزانا، وبندقيته في يده، فأراد أن يخفيها. أراد أن يذهب بها بعيدا ما أمكن، عن ذلك البيت، ذي القرميد الأحمر. كان يجري بعينين مغمضتين وهو يعتقد أنّ خطى العملاق تلاحقه، وأنه يريد أن يقتل هذه الفتاة التي يحملها بين ذراعيه.

-8-

مضى إيوهان موريتز يخترق الحقول متجنّبا الطريق. تعثّر مرّات ومرّات بمكامن الخلد، فلم يحافظ على توازنه إلاّ بمعجزة. شعر بالتعب شعر بالتعب يتسلل إلى ذراعيه وساقيه وكأنه كان يسير منذ زمن طويل جدا. ومن ثمّ صار منهكا، خامل اليدين، ثقيل الخطى، والعرق ينثال على جبينه، فخيترق الحاجبين والأهداف، لينصبَّ في عينيه، فيغشاهما. توقف وسط حقل الذرة، وأنزل حمله إلى الأرض، إذ لم يبق له من الجهد مثقال ذرّة. مدّد سوزانا على الأرض الندية، وأسدل ثوبها على ركبتيها، ووضع يديها على صدرها، وراح ينزع من حوله أوراق الذرة، ليعمل منها وسادة، وضع عليها رأس سوزانا، ثم أخذ أوراقا أخرى، راح ينثرها فوق الجسد، حتّى غطاه بها، وسوزانا صامتة لا تريم. كان موريتز يلمس بتحنان صدغيها ووجنتيها وشعرها. وأخيرا، انتصب واقفا، والألم يمزق جسده. كما لو أن مسامير قد انغرزت في كل مكان منه: بين كتفيه، وفي ذراعيه، وسائر عضلاته.

حدث نفسه بقوله: «لقد جريت زمنا طويلا.. ورفع رأسه إلى السماء، فإذا هي صافية الأديم، زرقاء. استطاع من مكانه، أن يحدّد الخطوات القليلة، التي كانت تفصله عن غابة البلّوط. فلم يشأ أن يصدق عينيه.

لعلّه حلم. ولكنّه سرعان ما تحقّق، فراح يرتعد كالقصبة الجوفاء. كلاّ إنّه لم يكن يحلم. لقد بلغ مع سوزانا، حقل نيكولاي بورفيري، حيث قادهما إليه فرارهما الأعمى. كانت تلك الأوراق التي انتزعها، والتي ترقد سوزانا تحتها الآن، وتضع رأسها عليها، أوراق ذلك الحقل، الذي دفع عربونه أمس.

سالت دموع إيوهان موريتز على خديه، واختلطت بالعرق. بكى بهدوء، فوق تلك الأرض التي أدرك الآن أنّها لن تكون له، لأنه لن يذهب إلى أمريكا.

-9-

كان إيوهان موريتز، يستطيع رؤية القرية كلّها من الموضع الذي يقف فيه. راح يتأمّل البيوت البيضاء، وينظر إليها بيتا بيتا، من طرف القرية إلى طرفها الآخر. ثم عاد بنظره إلى المرأة الممدّدة تحت قدميه، تكسوها أوراق الذرة. كان يسائل بنظره البيوت، واحدا واحدًا، وكأنه يبحث عن المكان الذي يأويها. أمّا هو، فقد عدل عن السفر، عدل عن الأرض، لأن المرأة التي يحبها، في حاجة إليه، وهو لا يستطيع التخلي عنها. لكن ذلك لم يكن كافيا. كان يجب عليه إيجاد مأوى لها. ولا خيار أمامه إلاّ أن يطرق بابا من اثنين: بيته، وبيت الكاهن كوروغا. أما البيوت الأخرى، فمُغلقة في وجهه، لأنّ القرويين كانوا يخافون إيورغو إيوردان. أما والداه، فليس لديهما سوى غرفة واحدة لا مكان فيها لسوزانا. ولا يستطيع أن يحمل إلى بيت القس، امرأة لم يكن قد تزوجها بعد، إضافة إلى أنّه لا يريد أن يسبّب للكاهن أية متاعب. فلو أن الكاهن كوروغا، آوى سوزانا واستضافها، فإن إيورغو إيوردان، سيأتي ولا شك، والبندقية في يده، لتصفية الحساب. كان موريتز يعلم ذلك علم اليقين، ولا يريد أن يقع فيه. ولكنّ سوزانا، لا تستطيع البقاء حيث هي، في ذلك الحقل الشاسع. وبعد برهة تفكير، عاد إيوهان موريتز، يحملها بين ذراعيه، وراح يسير

في طريق القرية .كانت المرأة شاحبة الوجه، وكان يسمع خفقان قلبها البطيء المتثاقل، فحثّ خطاه، لأنه أراد بلوغ القرية بأسرع ما يمكن. وظلّ يحدّث نفسه قائلا: «لا بدّ وأنها مريضة من الخوف»

-10-

لم يصل موريتز إلى منزله، إلاّ بعد أن أشرقت الشمس. فأنزل سوزانا من بين ذراعيه وأوقفها قرب الجدار، وراح ينظر إلى المشرق. كان غيتزا يون ينتظره في تلك اللحظة، عند طرف القرية الآخر. صرف على أسنانه مستجمعا شجاعته، وأدار ظهره إلى الشمس ودخل المنزل. كان يريد أن يحمل والديه النائمين على استقبال سوزانا. وكانت أريستيتزا، أم إيوهان، امرأة سريعة الغضب. فحاول هذا تجنبها والتحدث مباشرة مع أبيه. لكنّه ما كاد يجتاز العتبة، حتّى رفعت أريستيتزا رأسها عن الوسادة.

سألت:

- أتريد أن تأخذ متاعك؟ إنّه قرب الباب؟

لم يجب موريتز. فكرّرت أمّه السؤال وأردفت:

- ما بالك واقفا هكذا كالجرّة؟ هيا عانق أمك وودع أباك وأسرع. لا تنفق كلّ نقودك هناك بل احرص على جلب المزيد منها.

أجاب إيوهان:

- لقد عدلت عن السفر إلى أمريكا.

- عدلت عن السفر؟

قفزت الأم مروّعة منتصبة!

- نعم.

- وهل عدل غيتزا كذلك؟

أجاب موريتز:

- بلى، غيتزا راحل.

شعرت أريستيتزا أنّ في الأمر شيئا غامضا، فنهضت وارتدت ثوبها وسألت:

- ما الخطب؟ هل اختلفت مع غيتزا؟

- كلاّ.

- إذن ما الّذي حصل؟

انتصبت أريستيتزا واقفة في وسط الغرفة وراحت تقترب من ابنها غاضبة، فقال:

- لم يحصل شيء على الإطلاق. كلّ ما في الأمر، أنّني أريد أن أتزوج. لذلك لن أسافر.

كان صوته مرتعدا، لا يدري كيف يبدأ، وأين ينتهي. فغرزت أريستيتزا أظفارها في منكبيْه وراحت تهزه. فقال:

- لن أتناقش معك. بل أريد التحدث إلى أبي.

فصاحت:

- بل ستناقشني أنا! ليس بطن أبيك الذي حملك، وإنّما هو بطني.

قال الأب وهو يرفع الغطاء عن رأسه:

- اهدئي يا امرأة.

كان يريد تخفيف غضبها، غير أنّ أريستيتزا لم تُصغ إلى قوله، بل استمرّت تصخب وهي تضرب بطنها بيديها:

- لقد انتزعت أحشائي أنا، ورضعت حليبي أنا، والآن ترفض التحدّث إليّ أيّها العاقّ!

قال موريتز:

- سأتحدّث إليك أيضا.

كانت أمّه تنتحب فأراد أن يسكتها:

- أقسم لك أنّي سأخبرك، ولكن اهدئي.

جلست العجوز على طرف السرير، وجعلت رأسها بين يديها. كانت

تشعر بجرح في أمومتها. ولكنّ الألم لم يقوَ على إسكاتها، لأنّها لا تستطيع السكوت أبدا. هتفت:

- بمن تريد أن تتزوج؟

- سأقول لك حالا، ولكن اهدئي أوّلا.

- أريد أن أعرف من ستتزوج. إنّني أمك، ولي حقّ معرفة المرأة التي ستتزوج بها.

وقال الكهل:

- أعلمها يا ايون. أعلمها حتّى تصمت.

كان الأب يرى أنّ أريستيتزا على وشك الصياح من جديد. وكان إيوهان موريتز، يعرف أنّ اسم سوزانا لن يخفف من ثائرتها، بل على العكس. قال:

- سأتزوج بابنة إيوردان، سوزانا.

قفزت أريستيتزا نحوه، لا لتمزقه إربا، بل لتعانقه.

هتفت وهي تعانقه، وتقبّل عينيه ووجنتيه:

- الآن فهمت لمَ عدلت عن السفر.

وعادت إلى القبل والعناق وأردفعت:

- لست غبيّا حتّى تذهب إلى أمريكا فتكدح كالبهائم، لتعود بعد سنوات، وقد خسرت قواك، وفتك بك المرض، لقاء بضعة ألوف في جيبك. لقد اتبعت نصحي بزواجك من فتاة غنية.

ومضت نظرتها ببريق السرور، وقالت مسترسلة:

- سأكون غنية، وستكون لي أثواب من المخمل، وعربة. سوف أقيم في منزل إيورغو إيوردان، لأنّ ذلك من حقي، حقي أنا، أريستيتزا. أريستيتزا التي جعلتك ذكيا جميلا، لتخلب لبّ أغنى فتاة في القرية، وتتزوّجها، فتاة لها بيت من الحجر، تحته «قبو» ولها أراض شاسعة، وعربة، وخيول.

قال العجوز:

- اهدئي يا امرأة!

غير أنّ صوته كان متهدّجا. لأنه كان منفعلا هو الآخر، تُهدهد خياله، تلك الثروات الطائلة التي ستهبط عليه من السماء. وراح يلف «سيجارة» دون أن يبرح سريره.

استرسلت أريستيتزا:

- سأقطن في مسكن إيورغو إيوردان، حميك. أما أنت، وخاطبت زوجها فستبقى هنا. ينبغي أن أكون أنا، بالقرب من ولدي، فمن ذا الذي يستطيع إسداء النصح لزوجته خيرا مني؟

قال موريتز:

- أمّاه، هذا ليس كل شيء.

- قل ما تشاء يا عزيزي، إنّ أمك تصغي إليك.

- عديني أن تصغي إليّ بهدوء.

- أعدك بكلّ ما تريد.

كانت أريستيتزا تداعب وجنة ابنها. فقال معقّبا:

- أمّاه سأتزوج سوزانا، دون موافقة إيورغو إيوردان.

فقال أريستيتزا:

- كل ما يهمّني من الأمر أن تتزوج بها. وسأكون أنا حماة ابنة إيورغو إيوردان الثري، ولا يهمّني سواء شاء أم أبى.

- ستكونين حماتها لكنك لن تكوني غنيّة.

سألت أريستيتزا:

- من الذي سيأخذ المال؟ ليس لإيورغو إيوردان إلاّ ابنة واحدة، ولا يمكن أن يزوّجها دون بائنة. إنّ كل شخص في القرية يعرف أنّه دفن في قبو منزله جرارا ملأى بالقطع الذهبية. لا تهتمّ بهذا الموضوع، لسوف أتدبّره بنفسي. فأنت لا تفقه مثل هذه الأمور.

قال إيوهان:

- أمّاه، إنّني أتزوّج سوزانا، وليس نقودها.
- لعلّك لا تزعم أنّك تُؤْثر الفتاة على المال؟
- بلى هو كذلك يا أمي.
- أيّها الأحمق! لكنّني أفهمك. دعني أفكّر. إنّهم لن يستطيعوا خداعي بهذه السهولة.

خيّل لأريستيتزا أنّها في تلك اللحظة، تناقش إيورغو إيوردان، مصمّمة على أن لا تدع له حق حرمان ابنته من أي قرش من بائنتها.

قصّ إيوهان موريتز الحكاية على العجوز، فانتفضت أريستيتزا وقالت:

- كيف؟ ألا تريد أن تعود إلى مسكن أبيها؟

فأجاب إيوهان موريتز:

- كلاّ. إنّ أباها سيقتلها إن عادت.

قال أبوه الكهل:

- لسوف يقتلها، إنّه لا يمزح. إنّ الفتاة على حق، لأنّ أباها وحش حقا. إنّه إذا غضب، انتزع بندقيته وأطلق النار على الفور. حتّى أنّ خيوله لم تسلم من سخطه مع أنه، والله يعلم، يحبّها أكثر من ضوء عينيه. إنّه قادر على قتل ابنته، إذا عادت، وخصوصا الآن، بعد فرارها من بيته.

قال موريتز:

- إنك تفهم الحقائق تماما.

فأجابه الأب:

- إنّ الأمور على شكلها الواقع، سهلة مفهومة. وأنا أعرف الأب جيدا.

فقالت أريستيتزا:

- لكنّنا بعد بضعة أيام نستطيع إرسالها إلى بيتها. سوف أذهب معها.

قال إيوهان موريتز:

- لن تعود سوزانا إلى منزلها، لأنني لا أريد أن تعود!

سألت العجوز:

- ولكن ما عساك تفعلإذا لم تكن تملك مالا؟ طبعا، لن ترضى بأن تموت جوعا معها؟ النساء كثيرات لمن يقبل الزواج بهنّ دون بائنة. ومع ذلك لا أحد يقبل الزواج دون بائنة. فهل سترتكب أنت مثل هذه الحماقة؟

- إنّني سأتزوجها دون بائنة!

- لقد غدوت مجنونا! أتضحّي بكلّ شيء في سبيل امرأة؟ أتعزف عن الذهاب إلى أمريكا من أجل امرأة؟ من أجلها! كلّ هذا من أجل أنثى حقيرة لا تساوي شيئا!

وقال الأب العجوز:

- إنّ أمّك على صواب، فلا تكن أحمق. اذهب إلى أمريكا. ومتى عدت، فستشتري قطعة من الأرض تبني عليها بيتك، وتستطيع بعد ذلك أن تتزوج. لن تنقرض النساء فامض!

قال موريتز بإصرار:

- لن أذهب إلى أمريكا.

فأجابه العجوز:

- لأنك تظن أنّك تأخّرت. إنّ غيترا ما يزال ينتظرك عند طرف القرية ولا شك، والشمس لم تشرق بعد بشكل جليّ. فإذا حثثت خطاك بلغته حيث ينتظر.

- أتطلب مني هجر الفتاة والسفر إلى أمريكا؟ هل تملك مثل هذا القلب يا أبي؟

سألت أريستيتزا:

- أين الفتاة؟

فأجابها مويتز:

- أمام الباب!

انتفض العجوزان وتغيّرت سحنتاهما. ونظرت أريستيتزا من النافذة،

بينما وقف موريتز أمام الباب، ليمنعها من الخروج.

- أمّاه، أريد سؤالك معروفا: استقبلي سوزانا واحتفظي بها بضعة أيام حتّى أجد مكانا أحملها إليه. إنها ابنتك الآن.

انفجر غضب الأم وصاحت:

- أتريد أن تبقيها هنا؟ أتريد أن يقتلنا إيورغو إيوردان: أباك وأنا؟

وقال العجوز:

- أنت أعلم بأننا لا نكاد نجد مكانا من أجلنا. فأين تستطيع أن تنام؟ كلا يا ايون. إن هذا مستحيل.

وصاحت أريستيتزا:

- لعلك تريد أيضا أن نطعمها؟ أن نقطع القوت عن أفواهنا لنعطيه لها؟

أطرق موريتز إلى الأرض. كان يعرف سلفا أنّه سيصطدم بأمّه وممانعتها، غير أنّه كان يأمل في موافقة أبيه، فقال:

- ستبقى سوزانا إذن حتّى المساء فقط، لأنني لا أدري أين أمضي بها. سنذهب مساء إلى المدينة حيث سأبحث لنفسي عن عمل. إنها مريضة، وينبغي أن تستريح قليلا، لتستطيع السير حتّى المدينة. إنّ الخوف الذي أصابها اللّيلة سبّب لها كثيرا من العناء.

فقالت العجوز غاضبة:

- ليس لدينا اليوم ما نأكله. فإذا أردت لها أن تنفق جوعا، جاز لك تركها هنا.

قال موريتز:

- سآتيها بالطعام. غير أنّها لا تقوى على الوقوف على قدميها، وينبغي لها أن تنام.

صرخت أريستيتزا:

- إنّ أباك مريض، وعليه أن يلازم سريره كلّ الوقت. فأين تجد لها

مكانا للنوم؟ أتنام مع أبيك في سرير واحد؟

- إذا لم يكن هناك مكان في البيت، فإنها ستنام في الخارج فوق القش، حيث أنام.

فقالت أريستيتزا:

- أوافق على ذلك. ولكنّي لن أطعمها كسرة خبز. ليس عندي شيء لها.

استدار إيوهان موريتز يهمّ بالخروج. لكنّه توقف على العتبة وخاطبهما قائلا:

- أرجو أن تكونا لطيفين معها خلال الوقت القصير الذي ستقضيه هنا! إن ما بها من تعاسة يكفيها!

صاحت أريستيتزا:

- أيها الأثيم، أتجرُؤ على إعطائنا درسا في آداب السلوك؟ هل تعلّم البيضةُ الدجاجة كيف ينبغي أن تبيض؟ بدلا من ذهابك إلى أمريكا، وجني المال، تلصق بنا هذه الفتاة وتحمّلنا عبئها، وتريد أن نطعمها فوق ذلك، ثم ينتهي بك الأمر إلى إسداء النصح!

وانحنت أريستيتزا لتأخذ قطعة من الخشب تضربه بها. كان موريتز قد ألف منها قارص الكلام والصفع والضرب. فقد أمضى طفولته في سلسلة طويلة من الضرب والشتائم.

قال وهو يبتسم:

- هل ستكونان ودُودين معها؟ سأعود على الفور. إنّني ماض لآتي لها ببعض الطعام.

ثم غادر الغرفة.

كانت سوزانا في مكانها جامدة، تنتظره أمام البيت. فداعب موريتز شعرها وقال:

إنّني ماض إلى القرية وسأعود بعد قليل، ألا تريدين النوم قليلا؟

عندما تستيقظين، ستأكلين ما آتيك به، وبعدئذ سنمضي إلى المدينة.

أجفلت سوزانا لمجرّد فكرة المشي التي عرضها وقالت:

- ألا نمكث هنا؟

- كلاّ، تعالي.

وحملها ممسكا بها من تحت إبطيها، وقادها إلى الناحية الخلفية من البيت حيث المكدس وأسجاها فوق القش وهو يقول:

- نامي الآن! وإلا فإنك لن تستطيعي السير إلى المدينة. إنّ المسافة لا تنقص عن عشرين كيلومترا.

ابتسمت له سوزانا بامتنان فقد كانت في حاجة إلى النوم والاسترخاء. ولم تكن تسمع كلامه بوضوح، لأنّ الحمّى تُحرق جسدها، والدويّ يطنّ في أذنيها بشكل مزعج.

قال إيوهان موريتز قبل أن يغادرها:

- إذا جاءت أمي تزعجك، فدعيها تقول ما تشاء، ولا تجيبيها بحرف لأنها غاضبة.

وغادرها على الفور. فلما بلغ الطريق، استدار برأسه ونظر نحوها مبتسما. لكنّها كانت قد أغمضت عينيها.

-11-

خرجت أريستيتزا من الغرفة إثر خروج ابنها، ووقفت تتأمل جسد المرأة الممتدة فوق القش، ويداها إلى خاصرتيها، فتحت سوزانا عينيها، فرأت أريستيتزا بأنفها المدبّب، الشبيه بمنقار النسر، ووجنتيها الذابلتين زيتونتي اللون. شعرت بالخوف منها، فحوّلت عينيها عنها. قالت العجوز:

- إنّني أم ايون.

فأشارت سوزانا برأسها محيّية ومجيبة، ثم جذبت ثوبها الأزرق فوق ركبتيها. نظرت العجوز إلى ركبتيها ووركيها، وكأنها تراها عارية، وقالت وهي تعجو وجهها:

- إنّك تريدين الزواج أليس كذلك؟
فأجابت سوزانا:
- نعم.
قالت أريستيتزا:
- أرى ذلك بوضوح. فأنت ضخمة كالفرس.
أخفت سوزانا وجهها في القش. فاقتربت أريستيتزا منها، وصاحت في أذنها:
- لن تجدي ذلك الأخرق الذي يقبل بك زوجة له يا جميلتي. فلا أحد سيأخذك دون بائنة، وإذا كنت قد ضاجعت ابني، فإن ذلك شأنك. لكنّه لن يتزوجك.
اتكأت سوزانا على مرفقيها متناهضة، وودّت لو ترحل، غيرأنّ أريستيتزا كانت منحنية فوقها.
سألت سوزانا بذعر:
- هل ذهب إياني؟
كانت تريد أن تتحدث عن شيء آخر، غير أنّ العجوز بهتت، وصاحت:
- أيّ إياني؟ لا أعرف أحدا هنا يُسمّى إياني.
نظرت سوزانا إلى وجه العجوز بذهول، وهي لا تعرف ما تقول. فعادت أريستيتزا تسألها:
- عن أيّ إياني تسألين؟ هل فقدت صوابك؟ ربّما تظنّين نفسك في غير هذا المكان.
غمغمت سوزانا بصوت منخفض متردّدة:
- إياني، ابنك!
فأجابت العجوز بصوت خشن:
- ابني اسمه إيون. هكذا عمّدته بنفسي، أنا أمّه، وليس لأحد الحق، في تبديل اسمه. هل تفهمين؟

شاهدت سوزانا العجوز تشهر قبضتها مهدّدة فقالت:

لقد فهمت!

تذكّرت أنّ إيوهان موريتز أوصاها، قبل مغادرته، بأن تكون مرنة، حليمة، فأضافت:

- ايون أو إياني إنّه الاسم ذاته، أو على الأقل، هذا ما كنت أعتقده.

غير أنّ اعتذارها أثار العجوز.

- أأنت التي تعلّمينني اسم ابني؟ سأشجّ رأسك. أتجرُئين أيتها المتبذلة القذرة!

قالت سوزانا:

- ما أردت أن أسيء إليك!

غير أنّ العجوز أنشبت يديها في كتفيها وراحت تهزّها...

صرخت سوزانا، فبرز أبو موريتز في تلك اللحظة، مرتديا جلباب النوم. لقد غادر سريره، استجابة للصيحات، وكانت لفافته بين شفتيه.

أفلتت أريستيتزا فريستها، واستدارت نحو زوجها، ممتقعة الوجه من الغضب وقالت:

- هل سمعت من قبل بإهانة كهذه؟ إنّ هذه القذارة، تدّعي أنّني لا أعرف اسم ابني. إنّها تخرجني عن طوري.

وانحنت إلى الأرض تلتقط حجرا وهي تقول:

- سوف أشجّ رأسها! لسوف أسحقها كما أسحق الأفعى.

فقبض العجوز على يدها، وقال وهو يدفعها نحو باب المخزن:

- اهدئي يا امرأة.

ثم اقترب من سوزانا، وأمسك بيدها، ونظر إليها بإشفاق وقال:

- لا تبكي! لا معنى لبكائك.

سألت سوزانا.

- أين إياني؟

- لسوف يعود فاطمئني.

شعرت سوزانا أنّها في حِمى العجوز. وأحسّت بيده الكبيرة الخشنة.

قال العجوز:

- يا بنيّتي، سأسدي إليك نصيحة يجدر بك اتّباعها: عودي إلى ذويك.

راحت سوزانا تبكي، بينما تابع العجوز:

- لن تستطيعي البقاء هنا. وإذا بقيت، فلسوف تخنقك أريستيتزا أو تشجّ رأسك. إنّ ذلك سيقع، وإنّي لعلى يقين. ومن التعاسة أن يسيل الدم، لأن ايون سيذبح أمّه إذا رأى ذلك، وستكون فعلته إثما كبيرا. فلا ينبغي أن تحدث تلك المصيبة. أتسمعينني؟

- أسمعك!

كانت شفتا سوزانا تتحرّكان بإعياء وجهد. فاسترسل الأب:

- أوصيك أن تنهضي، وأن تذهبي على الفور. اذهبي قبل أن يعود إيون. ما عليك إلاّ أن تجتازي حقل الذرة. عودي إلى أبيك وأمّك. وإذا عاد إيون، قلت له إنّك سرت على الطريق. وهكذا لن يجدك بعد ذلك. ولسوف ينسى كلاكما الآخر. إنكما شابان، والشباب ينسى الحب بسرعة. هيا انهضي واذهبي!

لبثت سوزانا مشيحة بوجهها. كانت قد وضعت يديها على أذنيها تسدّهما، فلم تسمع شيئا كثيرا ممّا قصّه الهرم.

عاد يسألها:

- ألا تودّين الذهاب؟

أراد أن يحملها بين ذراعيه، وأن يقودها إلى أهلها. لكنّه شعر بأن إيون لن يغفر له ذلك، فنهض واقفا وهو يقول:

- إذا وقعت مصيبة، فتلك خطيئتك! أمّا أنا، فقد قمت بواجبي. لقد أنذرتك.

عاد العجوز إلى المنزل، وبقيت سوزانا وحدها. ولم يلبث إيوهان موريتز أن عاد من القرية حاملا إناءً مملوءا بالحليب وضعه على النار ليغلي.

صرخت أريستيترا:

- إنّك لم تأت لنا من قبل بالحليب! أمّا من أجل هذه الساقطة، فإنّ الأمر يختلف! كان خيرا لي لو خنقتك عندما كنتَ طفلا، بدلا من أن أحملك بين ذراعيّ وأرضعك ثديي!

كان إيوهان موريتز راكعا أمام الموقد ينظر إلى النار وهي تتأجّج، متصامّا عن سماع أقوال أمّه. فاقتربت أريستيترا منه وصرخت:

- اخرج فورا من بيتي، واحمل معك تلك العاهرة. طهّر المكان منها فورا، وإلاّ قتلتها. إذا لم تخفها عن عيني في الحال، خنقتها. سوف أخنقها بأصابعي هذه. أتراها؟

أجاب موريتز بهدوء:

- سنمضي بعد أن تشرب هذا الحليب.

لم يلق نظرة واحدة على أصابعها، على تلك الأصابع التي ستخنق سوزانا، وأضاف:

- سنمضي إلى المدينة، ولن تري وَجْهيْنا بعد ذلك.

سألت أريستيتزا:

- ألا تستطيع الكونتيسة الذهاب قبل أن تشرب حليبها. إنّ أمّك ليست في حاجة إلى الحليب كلّ صباح، أمّا هي، فإنّها في حاجة إليه.

أخذ موريتز الإناء قبل أن يغلي الحليب، وخرج دون أن ينظر إلى العجوزين.

سمعت سوزانا وقع الخطوات، فانتفضت جزعة. فقال لها موريتز وهو يمدّ يده بالإناء:

- هذا أنا! لقد جئتك بحليب ساخن.

تمتمت سوزانا:

- لا أريد حليبا.

- اشربي قليلا على الأقل.

أخذت سوزانا وعاء الحليب من يده، فعاد إيوهان موريتز إلى البيت، ليأخذ كيس أمتعته. كان الكيس مُعَدّا من قبل، استعدادا لرحلته إلى أمريكا، لو أنّه ذهب.

سألت أريستيتزا:

- أتذهب معها؟

فأجابها:

- نعم.

صرفت أريستيتزا على أسنانها وقالت:

- حسنا!

وبينما كان موريتز يأخذ ألبسته من تحت السرير، خرجت أريستيتزا إلى الباحة، واتجهت نحو سوزاناالتي ذعرت ووجف قلبها حالما رأتها. كان وعاء الحليب لا يزال في يدها.

صرخت أريستيتزا:

- انهضي على قدر ما تستطيعين النهوض. لسوف أسحقك بالضرب، أيتها الساقطة القبيحة. انتظريني، سوف ترين!

وقبل أن تتمّ جملتها، قبضت على شعر سوزانا، وانهالت عليها تضربها، فاستغاثت المسكينة. وخُيّل لإيوهان موريتز، أنّه يسمع صرخات إيولاندا، فهرع على الفور وصاح بأمّه:

- أمّاه، ماذا تفعلين.

ألقت عليه العجوز نظرة قصيرة، فيها بريق من الحقد، وأهوت بيدها مرّة أخرى على وجه سوزانا، دون أن تنظر إليها. ثم هربت واختفت بين الذرة.

كان وجه سوزانا ممتلئا بالدم، وشفتاها متورمتين، وعيناها

منتفختين، وكان إناء اللبن قد تحطّم بين يديها، فترك آثارا عميقة على معصميها، واختلطت نقاط الدم بالحليب، وتلطّخ الثوب الأزرق به. فحملها إيوهان موريتز بين يديه. ولمّا وصل إلى الباب، أخذ كيس متاعه، ثم مضى والكيس على ظهره، والمرأة بين يديه. كان الحملان ثقيلين، بل شديدي الثقل، حتّى ليتعذّر على المرء أن يسير بهما مرفوع الجبين. وهكذا مشى إيوهان موريتز متثاقلا ورأسه غارق بين كتفيه.

-12-

عند بلوغ الفجر، نهض إيورغو إيوردان، وأورد خيوله الماء، وقدّم لها العلف، وراح يداعب رقابها بيده. كانت أربعة منها، تُستخدم في جرّ العربة. أمّا الأربعة الأخر، فكانت للركوب فقط. كانت جميلة جدّا، بلون أدهم، عربيّة المنشأ والدم، سريعة الجري، دقيقة القوائم. كانت هي كلّ أصدقائه، فراح يحدّثها عن سوزانا، ويقصّ عليها ما يثقل قلبه من هموم. كان لا يثق في البشر، أمّا خيوله، فكان إذا حدّثها، نظرت إليه بعيونها الكبيرة المضيئة، كالمرآة اللامعة. قال يحدّثها:

- والآن. زوجتي تغوص في دمها، محطّمة العظام، ملقاة على الأرض.

ولمّا لم تحرّك الخيول ساكنا، اعتبر سكوتها لونا من التأنيب فقال:

- إذا شئت حملتها إلى المستشفى!

ولم تمض نصف ساعة، حتّى اخترق القرية بعربته، متّجها نحو المدينة. كانت إيولاندا ملفوفة بمعطف كبير، ممدّدة بين الوسائد المحيطة بها، وعيناها شاخصتان إلى الأفق. بلغ المستشفى مبكّرا، واضطرّ إلى الانتظار أمام الباب، حتّى الساعة الثامنة، إذ لا وجود هناك لأيّ طبيب. ظلّ إيورغو إيوردان، خلال فترة الانتظار يتحدّث إلى خيوله، دون أن يلقي على زوجته نظرة، أو أن يوجّه إليها كلمة. فلمّا بلغت الساعة الثامنة، حمل زوجته مع الأغطية والوسائد، وكأنّه يحمل طردا صغيرا، وذهب بها إلى غرفة المعاينة فكان أوّل داخل إليها. وبينما كانت الممرضة تنزع

معطف المرأة، شاهد الطبيب رأسها المتورّم، وجسدها المغطّى بالدم. لبثت إيولاندا مسجّاة، وهي في جلباب النوم الملتصق بجلدها. كانت كتلة من الدم، صامتة لا تريم.

- من الذي ضربها؟

أجاب إيورغو إيوردان:

- ذلك لا يعنيك. اعتن بها، ولا تشغل فكرك بشيء آخر. إنك طبيب، وهذه مهنتك. ولهذا السبب، جئت إلى المستشفى.

رفض إيورغو إيوردان إعطاء تفسير آخر. فراح الطبيب يفحص إيولاندا، ثم نقلها إلى غرفة العمليات، لإجراء إسعاف مستعجل لها.

قال إيورغو إيوردان، وهو يحمل قبّعته، ويتّجه نحو الباب:

- سأترككم وأعود إلى مسكني لتقوموا بعملكم. سوف أدفع لكم النفقات، بل إنّني أستطيع أن أدفع لكم مقدّما، إذا كنتم تستطيعون تكوين فكرة عن مجمل النفقات، قبل إجراء العملية. وإلاّ فإنّني أستطيع أن أترك لكم دفعة على الحساب.

ومدّ يده إلى جيبه، ليخرج حافظة النقود. فقال الطبيب:

- لا تستطيع الذهاب الآن. انتظر قليلا.

- ولمَ الانتظار؟

كان يكره أن يؤخّره أحد. ويودّ ترك المستشفى بأسرع ما يمكن، لأنّ رائحة العقاقير بدأت تصعد إلى رأسه، عدا عن أنّه أحسّ بشيء من الشفقة. أخذ يشعر بشيء من الأسف، لأنه حطّم امرأة بالضرب، فراح يغمغم في نفسه: «وكأنه لا يكفي أنني وطأتها بقدمي، حتّى يجيء هؤلاء الأطباء، فيقطعونها بمباضعهم». كان يشعر بإشفاق، ولكنّه لا يريد إظهاره. كان يريد الخروج بكلّ بساطة، ليتنفّس ويملأ رئتيه بالهواء.

لم تمض ربع ساعة، حتّى وصل أحد المحقّقين ومعه دركيّ فاستدعى إيورغو إيوردان إلى ديوان المستشفى، حيث راح يستجوبه. ألقى عليه

كومة من الأسئلة، حول اسمه الحقيقي، والمكان الذي يقطن فيه، وعمّا إذا كان هو الذي ضرب زوجته أم لا. فكان إيورغو إيوردان يجيب مغمغما، وعيناه جامدتان. أعلن المحقق أنّه يوقفه بسبب ضربه لزوجته واعتدائه عليها، فلم يطرف. ولكن عندما وضع الدركيّ يده على كتفيه، ليسوقه إلى السجن؛ امتقع وجهه وسأل:

- أتقودني إلى السجن؟

- نعم إلى السجن.

- وخيولي المقطورة إلى العربة أمام الباب؟ ماذا تفعلون بها؟

ألقى المحقق نظرة على الدركيّ وسأل:

- أليس لديك من يُعنى بها؟

فأجاب إيورغو إيوردان:

- ليس لي أحد يعنى بها.

فقال الدركي:

- لنعهد بها إلى رجال المطافئ. إنّ لديهم غيرها، ولسوف يعنون بها أيضا. إذ لا مكان لها في السجن.

شكر المحقق الجنديّ بابتسامة لأنّه أنقذه من ورطة. لقد كان المحقّق واسمه جورج داميان، حديث العهد بالمنطقة، وكانت هذه أولى قضاياه. ولم تكن لديه فكرة عمّا يفعل بالخيول.

عاد المحقّق إلى مكتبه، فلبث هناك حتّى الظهر، ولمّا همّ بمغادرته لتناول طعامه، علم أن إيورغو إيوردان قد حاول الانتحار، بضرب رأسه على جدران الزنزانة، وقد جاء في تقرير السجن: «إنّ السجين أعلن في المستشفى، أنّه حاول وضع حدّ لحياته، لأنّه لا يستطيع أن يتصوّر، أنّ خيوله العربيّة الأصيلة الأربعة، ستنفق من الجوع والعطش. إن السجين على ما يبدو، شديد الشغف بالخيول، وإنّ حالته الصحيّة خطيرة.»

وقد ورد إلى قاضي التحقيق إشعار آخر ينبئ بموت إيولاندا، فشعر

المحقّق جورج داميان بمرارة في حلقه. ولمّا قصد المطعم، غسل يديه بالماء والصابون فترة طويلة قبل أن يجلس إلى المائدة وهو مستغرق في تفكيره: «سيعاقب القانون إيورغو إيوردان لأنّه ضرب زوجته ضربا مميتا. إنّ ضربه زوجته وواقع حبه العنيف لخيوله، ذلك الحب الذي لا يشعر بمثله نحو البشر، ليسا أكبر خطيئاته، بل إنّهما مجرّد تأثير مباشر لعقلية معيّنة. إنّها البربريّة! هذا هو خطأ إيورغو إيوردان الوحيد! فهو ككلّ بربريّ، يمقت الإنسان مقتا يبلغ به حدّ إفنائه. وأيّ قانون في العالم، لا يمكن أن يعاقب المرء على بربريته، رغم أنّ كلّ الجرائم الأخرى، تنتج عنها. فالبربريّة ليست نقيض القانون إلاّ في بعض الحالات المحددة.»

-13-

سارت سوزانا بضعة كيلومترات، ثم جلست على الأرض، إلى جانب الطريق. لقد كانت متعبة مرتفعة الحرارة. قالت يائسة:

– لن أستطيع السير أكثر من ذلك يا إياني.

استلقت على العشب منهوكة. كانا قد قطعا نصف المسافة بين فانتانا والمدينة، فتركها تنام في انتظار مرور عربة تحملهما. لكنّه لم ير على الطريق إلاّ عددا من المشاة والخيّالة. وما كادت الساعة تشرف على الخامسة بعد الظهر، حتّى بدأ المطر يهطل. رفع موريتز عينيه إلى السماء والمطر البارد يغسل وجهه، وفكّر في سرّه: «لو أنّ المطر هطل مساء أمس، لما ذهبتُ للقاء سوزانا، ولَبقيتُ الآن لدى ذويها، ولَكُنتُ الآن على الباخرة في كونستانتزا. لو أنّ المطر هطل مساء أمس.. ولكن، ليكن.»

بدأ الظلام يزحف وئيدا، دون أن يكف المطر عن الهطول. شعر موريتز أنّ عليه أن يتّخذ قرارا. قال وهو يلقي نظرة حانية على سوزانا:

– سأمضي إلى القرية لأحضر عربة.

كانت قابعة تحت بعض الأغصان، تحتمي من المطر، والبلل قد طال كامل ثوبها وشعرها، كانت ترتجف مقرورة، وأسنانها تصطكّ. قالت:

- كما تشاء يا إياني.

سألها:

- ألا تخافين إذا لبثت وحيدة؟

- لن أخاف إذا كنتَ ستعود!

عانقها ومضى. فلما بلغ فانتانا، كان الظلام شديد الحلكة، والقرويون قابعين في دورهم، فرارا من المطر. قرع كلّ الأبواب، لكنّه لم يجد أحدا يقبل مساعدته. كان القرويون يصرّون على معرفة اسم المرأة، حتّى إذا أطلعهم عليه، وعرفوا أنّ الأمر متعلّق بابنة إيورغو إيوردان، اعتذروا ورفضوا مدّ يد العون. كانوا جميعهم يرفضون إيواءها خشية أبيها إيورغو إيوردان. ولمّا انتصف اللّيل، تخطّى موريتز مدخل بيت الكاهن كوروغا. كان النّور يشعّ من المكتبة؛ وأمام الباب، سيارة سوداء تلتمع كالمرآة، صافية الأديم، تحت المطر. كانت الأصوات تتعالى من بيت القس، فاستنتج موريتز: «أنّ لدى الكاهن زوّارا». همّ بمغادرة الباحة، دون أن يطرق الباب، مقتنعا «أنّه لا ينبغي أن يزعجه في تلك الساعة». كان المطر ينهمر مدرارا، والماء ينصبّ كشلاّلات من أطراف سطح المنزل. فلبث موريتز يصغي إلى هذا الصوت الوتير برهة، وهو ساكن. وفجأة، تذكّر أنّ سوزانا تنتظره وحيدة على جانب الطريق. فقرع بهدوء على زجاج النافذة.

-14-

قال القسّ كوروغا لولده تريان:

- لقد وصلت في الوقت المناسب! كنت أريد رؤيتك.

كان الكاهن يساعد ابنه في نقل حقيبته من السيارة، وإدخالها إلى البيت. وكانت السيّارة واقفة أمام الشرفة، غارقة حتّى نصفها، في نبات اللبلاب المتسلّق، والورد البريّ. والمطر لا يزال يهطل بغزارة.

سأل الكاهن وهو يرى شابا آخر يهبط من السيارة:

- لا أراك وحيدا!

فقال تريان يقدم صديقه لأبيه:

- أقدّم لك جورج داميان، زميل في الجامعة، وصديق ممتاز. لقد قابلته بعد ظهر اليوم في المدينة. إنّه وكيل النيابة الجديد لدى محكمة الصلح في مقاطعتنا.

اعتذر الكاهن للزائر عن عدم عنايته بهندامه لأنّه لم يكن يتوقّع زيارة في مثل تلك الساعة، وقاد الشابّين إلى غرفة الاستقبال، ثمّ انسحب فترة. راح وكيل النيابة يتأمّل نوّاس الساعة الحائطية، وقِطَع السجّاد الشرقيّ التي كانت تغطّي الجدران، والرفوف المحمّلة بالكتب.

فقال تريان ضاحكا:

- أخمّن ما تفكّر فيه! إنّك في دهشة إذ ترى أشهر الروائيين المعاصرين، الذي لا يفتأ يتحدّث في مؤلّفاته عن السيّارة والطائرة والمشارب الحديثة والأنوار الكهربائيّة، قد نشأ وقضّى طفولته، في منزل يبدو الزمان فيه متوقفا، لأنّ كلّ ما فيه يتحدّث عن الماضي، دون أن تنال منه يد السنين الطويلة تبديلا ولا تغييرا. ألست تفكّر في ذلك؟

احمرّ وجه وكيل النيابة وقال:

- الحقيقة أنّني كنت أفكّر في ذلك!

دخل الكاهن في تلك اللّحظة، فأضاء بيديه المعروقتين الهزيلتين، مصباحا وضعه بوقار على المنضدة. وفتح تريان حقيبته الجلديّة وأخرج منها بعض الرزم الملفوفة بعناية، فوضعها إلى جانب المصباح، ثمّ فتح زجاجة خمر، ودعا أمّه إلى الغرفة. فلمّا حضرت، ملأ تريان الأقداح، وأخرج من غلاف مُذهّب كتابين مُجلّديْن تجليدا أنيقا، وقال:

- هذه هي روايتي الأخيرة، الثامنة. إنّ هاتين النسختين، هما أُولى النسخ المسحوبة من المطبعة. وهما -كالعادة- لكما. لسوف نشرب نخبهما من هذه الخمرة، التي اشتريتها من محلّ «كايسا». لقد شربنا

منها عندما احتفلنا من قبل، برواياتي السبع السابقة. ألا تذكران سروري عندما صدرت روايتي الأولى؟

أخذ الكاهن الكتاب بين يديه، بمثل الاحترام الذي يُوليه للكتب المقدّسة التي يقرؤها أمام الهيكل. أمّا الأمّ، فقد لمست نسختها بأطراف أناملها، وتركتها حيث هي على حافّة المنضدة وهي تقول:

- إنّ يديّ متسختان، ولا أريد تلويث كتاب تريان بهما.

ستكون النسخة الثالثة لك يا جورج!

قبّل الكاهن جبين ابنه، أمّا وكيل النيابة، فقد صافحه بحرارة وجاءت أمّ تريان تقبّل وجنتيه وهمست في أذنه بصوت تعمّدت أن يسمعه الآخرون:

- لم أقرأ مؤلّفاتك الأخرى بعد، فاغفر لي. إنّ أباك قصّ عليّ موضوعاتها. أمّا هذا، فإنّني أريد قراءته بنفسي. لا أريد أن أموت قبل أن أقرأ كتابا ألّفه ولدي.

اهتزّت عواطف تريان لحديث أمّه، فقرع كأسه بكأسها، وكرّر ذلك مع أبيه وصديقه، وشربوا جميعها النخب. ولم تلبث الأمّ أن اعتذرت لانشغالها بأعمال المطبخ، فقال تريان:

- امكثي لحظة أخرى يا أمّاه! لقد جئت أراكما لأمر آخر، لا يقلّ في أهميّته عن هذا.

وأخرج تريان كوروغا من جيبه مغلّفا، قدّمه إلى أبيه وهو يقول:

- هذه حصّتي من حقوق التأليف عن الطبعة الأولى. أريد أن أشتري بها أرضا في فانتانا وأن أبتني عليها مسكنا. وأفضّل أن يكون قريبا منك إذا أمكن يا أبي. سأبتني بيتا أقطن فيه كلّ حياتي.

أخذ الكاهن الغلاف ووضعه على المائدة وهو يبتسم، وراحت زوجته تمسح عينيها بطرف مئزرها وهي تقول:

- إنّني واثقة من أنّك تقول ذلك لإدخال السرور إلى قلوبنا. فأنت لم

تستطع مرّة أن تمكث هنا أكثر من أيام ثلاثة. وفي كلّ مرّة تَعِدُ بأن تقضي شهرا معنا، فلا يمضي اليوم الثاني أو الثالث، حتّى ترتحل، فلا نراك إلاّ بعد شهور طويلة.

فردّ عليها تريان:

- صحيح. لكنّني في هذه المرّة، سأبتني بيتا.

ألقى تريان نظرة على أبيه ثمّ على وكيل النيابة فلاحظ أنّهما يعتبران توكيداته لونا من المستحيل، فقال:

- أرى أنّ أيّا منكم لا يعتقد بصحة عزمي على تنفيذ ما أقول. لكنّني سأدعوكم بعد عامين بالضبط، إذا بقيت على قيد الحياة، لزيارة منزلي في فانتانا. لعلّكم تثقون الآن بوعدي، بعد كلّ هذا التأكيد.

-15-

بعد أن تناولوا طعام العشاء، سأل الكاهن ابنه عن مشاريعه الأدبيّة الجديدة، فبان التردّد على وجه تريان ثمّ قال:

- إنّ روايتي المقبلة، ستكون رواية واقعيّة لا تمتّ إلى الأدب، إلاّ من حيث الأسلوب فقط. أمّا الشخصيّات، فإنّني سأنتقيهم من الحياة الحقيقية، فيمكن لأيّ كان، أن يراهم وأن يُحيّيهم في الشارع؛ لأنه سيعرفهم بعد قراءة الكتاب. بل إنّني أفكّر أحيانا في إعطاء عناوينهم وأرقام هواتفهم.

سأل وكيل النيابة باسما:

- ومن هم هؤلاء الأشخاص الذين ستذيع شهرتهم على هذا النحو؟

-شخصياتي إنما هم من البشر الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضيّة قاطبة! ولمّا كان هومير[1] نفسه؛ يعجز عن كتابة قصّة، أبطالها

(1) هومير: اختصار لاسم هوميروس وهو شاعر يوناني عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، اعتُبر مؤلّف «الإلياذة والأوديسا» تتنافس سبع مدن شهيرة في شرف انتسابه إليها. وتمثّله الخرافة هَرِمًا أعمى متجوّلا من مدينة إلى أخرى مُنشدا أشعاره. وقد ثبت أخيرا أنّ «الإلياذة والأوديسا» لكاتبين مختلفين. (المترجم).

ملياران من الأشخاص، فإنّني بدوري، لن آخذ إلاّ عددا قليلا لا يتجاوز العشرة لأنني لن أحتاج إلى أكثر من هذا العدد. مع ذلك، فإنّ هؤلاء العشرة سَيعيشون الأحداث نفسها التي يحياها الآخرون.

سأل وكيل النيابة:

- ستنتقي شخصيّاتك إذن وفق معايير علميّة، لتجعلهم يمثّلون الإنسانيّة في جوهرها، أليس كذلك؟

- كلاّ. لسَوف تُختار شخصيّات روايتي بشكل عشوائيّ، وحدها الظروف ستحدد ذلك. فلا قيمة للمقاييس العلميّة في نظري. لأن ما سيقع لأشخاصي العشرة، يمكن أن يقع لأيّ كان سواهم، ولو بفارق بسيط. لسوف أعنى بإيراد أحداث لا يمكن للمخلوق البشريّ أن ينجو من الوقوع في مثلها. ولن أكون في حاجة إلى شخصيّات تقوم بدور البطولة، أو تكون ذات أهمية معيّنة. بل سأترك أمر إبرازهم للصُدف. وعلى ذلك، فإنّني سأنتقي من بين مليارين من البشر، عشَرةً أعرفُهم أكثر من سواهم؛ أسرة كاملة: أسرتي مثلا، أبي وأمي وأنا وأنت وخدم أبي، وبعض الأصدقاء والجيران.

ابتسم الكاهن كوروغا وهو يملأ الأقداح، بينما استرسل تريان:

- سوف أدوّن كلّ ما سيحدث لهؤلاء الأشخاص، خلال أعوام مقبلة. أعتقد أنّ أمورا خارقة ستقع، وأنّ المستقبل القريب يخفي لكلّ منّا أشياء غير معهودة، أشياء لم نر مثلها في التاريخ.

قال وكيل النيابة:

- إذا كان المستقبل ينبئ بنهايات مأسَاوية، فإنّني آمل ألاّ يكون إلاّ في روايتك.

فأجاب تريان:

- إنّ الأحداث المأساويّة ستقع أوّلا على مسرح الحياة، ثمّ أنقلها إلى روايتي.

سأل وكيل النيابة:

- أتعتقد بأنّني سأحيا فترات مفجعة؟ أنت تعرف أنّني أعيش حياة بورجوازية، لا يمكن أن يُعنى بها الجمهور. فأنا على نقيض المغامر.

- يا صاحبي العجوز، إنّ معظم الناس على هذه الأرض، ليسوا مغامرين. ومع ذلك، فإنّهم جميعا، يمرّون أحيانا مرغمين بمغامرات يعجز أكبر روائيي الإثارة عن تخيّل مثلها.

سأل وكيل النيابة باسما:

- وما هي تلك الأمور الخطيرة المثيرة التي ستحدث؟

- دع السخرية جانبا، يا جورج! أشعر أنّ حدثا خطيرا قد يقع حولنا. من أين انفجر؟ متى بدأ؟ كم سيدوم؟ ذلك ما لا أعلمه، لكني أشعر بوجوده. لقد حاصرتنا العاصفة، أجسادنا سيقطّعها الإعصار ويدكّ عظامنا، الواحد تلو الآخر. أحدس هذا تماما مثلما تستشعر الفئران دون سواها غرق المركب الوشيكَ فتتركه على عجل، ولكنّنا خلافَ الفئران لن نجد مكانا واحدا نهرب إليه، لن يكون لنا ملجأ في أيّ مكان من العالم.

- - إلى أيّ خطر تلمّح؟

- سمّه ثورة إن شئت، أجاب تريان، ثورة يستحيل تصوّر نتائجها. سيكون البشر كافة ضحايا لها.

- ومتى ستندلع؟ سأل الوكيل دون أن يلقي بالاً لكلام تريان.

- ولكنّ الثورة قائمة الآن، عزيزي. لقد انفجرت رغم تشكيكك وسخريتك. أبي، أمي، أنت، أنا والآخرون جميعا سندرك الخطر رويدا رويدا حتى لا يتبقّى لنا إلاّ الهروب والاختباء، ولن يتسنى ذلك. ثمّتَ من شرع في الاختباء من الآن مثل الوحوش حين تستشعر مجيء العاصفة. فأنا مثلا أرغب في الانسحاب إلى الريف، الشيوعيون يحمّلون الفاشيين المسؤولية. ولذلك لا مناص، حسب اعتقادهم، من ردّ الخطر إلا بتصفيتهم. النازيون يحاولون إنقاذ جنسهم باجتثاث اليهود. ولكنّ

هذه التصرّفات ليست سوى أعراض الخوف الذي ينتاب كلّ كائن بشري عند شعوره بتهديد. في حين أنّ الخطر هو نفسه في كلّ مكان ولا اختلاف سوى في ردود أفعال البشر تجاهه.

قاطعه وكيل النيابة سائلا:

- ألا تقول لنا ما هو هذا الخطر المروّع الذي يتربّص بنا جميعا؟

فتابع تريان كوروغا:

- إنّه العبد التقنيّ! وأنت تعرف ذلك بنفسك يا جورج. إن العبد التقنيّ، هو الخادم الذي يقدّم لنا يوميا، ألفَ خدمة، لم نعد نستطيع الاستغناء عنها. إنّه يدفع سيّارتنا، ويعطينا النور، ويصبّ لنا الماء لنغتسل، ويحمل لنا أخبارنا، ورسائلنا، ويروي لنا قصصا لنتسلى عندما ندير زرّ المذياع. إنّه يخطط لنا الطرق، ويزيل الجبال من أماكنها.

- كنت واثقا من أنّ هذا ليس إلاّ استعارة شعرية!

- كلاّ يا عزيزي جورج، إنّه ليس مَجازا! إنّ العبد التقنيّ حقيقة لا يمكن نكران وجودها.

فأجاب وكيل النيابة:

- أنا لا أنكر وجوده. ولكن لِمَ تُسمّيه «العبد التقنيّ»؟ فالأمر لا يعدو أن يكون قوّة آليّةً.

- لقد كان العبد البشريّ، زميلُ العبد التقنيّ في المجتمع العصريّ، في نظر اليونان والرومان هو الآخر كالقوّة العمياء، عديمة الإحساس. كانوا يبيعون العبد ويشترونه، ويقدّمونه هدايا ويقتلونه. فكانت قيمته تتناسب دائما مع قوّة عضلاته وإمكانيّاته العمَليّة. لقد كان الأمر في ذلك الحين، مشابها تماما للمقياس الذي نستعمله اليوم، في تقدير العبد التقنيّ.

أجاب جورج:

- إنّ الفوارق كبيرة جدّا بينهما. فنحن لا نستطيع إحلال العبد التقنيّ محلّ العبد البشريّ.

- بل على العكس، هذا ممكن جدا! لقد برهن العبد التقنيّ على أنّه أكثر طواعية، وأقلّ ثمنا من العبد البشريّ. فراح تدريجيا، يحلّ محلّ سلفه من بني الإنسان. لقد حلّت سفننا الحديثة محل المراكب العائمة، التي كانت تسيّرها المجاذيف. فالبواخر اليوم، لم تعد مدفوعةً بقوة عضلات العبيد الذين كانوا يسيّرون السفن القديمة، بل بقوّة العبد التقنيّ. وعندما يحلّ الظلام، فإنّ الرجل الثريّ، الذي يستطيع الإفادة من خدمات العبيد، ما عاد يضرب كفّيه آمرا عبيده بالمجيء حاملين المشاعل، كما كان يفعل سلفه في روما وأثينا. بل يدير زرّا، فيقوم العبد التقنيّ بإنارة غرفته. إنّ العبد التقنيّ، يشعل النار التي تُدفّئ المساكن، أو تُسخّن مياه الاغتسال، ويفتح النوافذ مُحدثا تيّارات هوائيّة. فهو يفوق زميله البشريّ، بأنّه أكثر دقّة، وأكثر خضوعا وتغاضيا. فالعبد التقنيّ، لا يظهر إلاّ عندما يُستدعى، فهو يحمل إليك الرسالة الغراميّة في لحظة، وينقل إليك صوت محبوبتك مهما بعدت المسافة. والعبيد التقنيّين، خدم ممتازون كاملون. إنّهم يفلحون الأرض، ويخوضون الحرب، ويخدمون رجال الشرطة والإدارة. لقد تعلّموا كلّ النشاط البشريّ، وراحوا ينفّذونه بدقّة. إنّهم يجرون الحسابات الدقيقة في المكاتب، ويساعدونك في زينتك، ويغنّون ويرقصون، ويطيرون في الفضاء، ويهبطون تحت الماء. لقد غدا العبد التقنيّ جلاّدا، يقضي على المحكومين بالإعدام، كما يعالج المرضى في المستشفيات بجانب الأطبّاء، ويشارك الكاهن عندما يقوم بالصلاة.

صمت تريان كوروغا لحظة، ريثما يرفع قدحه إلى شفتيه. كان المطر يهطل في الخارج غزيرا متلاحقا. وبعد برهة استرسل يقول:

- سأنتهي فورا من هذا الاستطراد فأقول: شخصيّا أعترف بأنّني أحسّ بنفسي دائما في المجتمع، حتّى ولو كنتُ وحيدا، إنّني أرى أولئك العبيد التقنيّين، يحومون حولي، مستعدّين لخدمتي ومساعدتي، فيشعلون

لفافتي، ويحدّثونني عمّا يقع في العالم، وينيرون سبيلي في الظلام. إنّ حياتي رهينة وجودهم، لأنّهم يشاركونني في الحياة أكثر من أيّ كائن حيّ لذلك أشعر بأنّني مدين لهم بتضحيات جِسام! ومن أجل ذلك لا أستطيع البقاء طويلا في فانتانا، كما بيّنَتْ أمّي منذ حين، لأنّ عبيدي التقنيّين، ينتظرونني في بوخارست. إنّنا الآن أوسع ثراء من أسلافنا الذين سبقونا بألفي عام. لأنّهم ما كانوا يمتلكون إلاّ عشرات من العبيد، بينما نمتلك نحن اليوم مئات، بل ألوفا. والآن سأطرح عليك سؤالا: كم تقدّر عدد العبيد التقنيّين العاملين اليوم، على سطح الأرض؟ إنّ عددهم لَيفوق عشرات المليارات. فما هو عدد البشر؟

أجاب وكيل النيابة:

- ملياران من الناس[1]!

- هذا صحيح. إنّ تفوّق العبيد التقنيّين، الذين يعمّرون الأرض اليوم، تفوّق عدديّ ساحق. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ العبيد التقنيّين، يسيطرون اليوم على النقاط الحيويّة في المجتمع العصريّ، أدركنا أنّ الخطر بيّن، وبعبارة عسكريّة فنيّة، نقول إنّ العبد التقنيّ، يقبض بين يديه، على النقاط الاستراتيجية في مجتمعنا، من جيش، وخطوط مواصلات، وتموين، وصناعة، وعدد آخر أكثر أهمية. إنّ العبيد التقنيّين، يشكّلون اليوم، لونا من «البروليتاريا» إذا كنّا نعني بهذه الكلمة جماعة ما في مجتمع خلال فترة تاريخيّة، جماعة لم تدخل بعد في صميم المجتمع. وعلى ذلك، فإنّ مصير هؤلاء العبيد التقنيّين منوط بأيدي البشر. لن أكتب رواية خياليّة، أو أصف الأسلوب الذي سوف يثور بموجبه أولئك العبيد التقنيّون يوما ما، فيسجنون الجنس البشريّ في معسكرات اعتقال، ويبيدونه على منصّات الإعدام، أو الكرسيّ الكهربائيّ. فمثل

(1) ينبغي التنبيه هنا إلى تنزيل هذه المعلومات ضمن السياق التاريخيّ الذي كُتبت فيه الرواية أثناء الحرب العالميّة الثانية وبعدها، وإلى أنّها صُودرت في أوروبا الغربية طوال سنوات، لتصدر بعد ذلك في فرنسا سنة 1949. (المُراجع)

هذه الثورات، لا يمكن أن يقوم بها، إلاّ العبد البشريّ. لن أصف إلاّ وقائع حقيقيّة. وفي الحقيقة فإنّ هذه «البروليتاريا» التقنيّة، ستثور يوما دون أن تستعمل الحواجز والسدود، كما كان يستعمل العبد البشريّ من قبل. إنّ العبيد التقنيّين يشكّلون اليوم أكثريّة عدديّة ساحقة في المجتمع الحاضر. تلك حقيقة ملموسة. وهم يتصرّفون في هذا المجتمع، وفق قوانين خاصّة، مختلفة عن قوانين البشر. ولن أذكر من هذه القوانين الخاصّة بالعبيد التقنيّين إلاّ: الآليّة، والمماثلة، وإغفال الذات.

إنّ مجتمعًا فيه عشرات المليارات من العبيد التقنيّين، وحوالي مليارين من البشر، حتّى ولو كان هؤلاء يسيّرونه، فسوف تسوده أكثرية برولياترية. لقد كان العبيد من بني البشر في عهد الرومان، يتكلّمون ويصلّون ويعيشون وفق التقاليد والعادات المستوردة من اليونان، من تراس[1] والمدن الأخرى المحتلّة. والعبيد التقنيّون في مجتمعنا الحاضر، يحتفظون أيضا بمزاياهم الخاصّة، ويعيشون حسب شرائع أمّتهم. وهذه الطبيعة، أو هذه الحقيقة إذا شئت، موجودة في حدود مجتمعنا. وتأثيرها يتزايد يوما بعد يوم. والإنسان مرغم على معرفة عاداتهم وقوانينهم، وتقليدها، ليستطيع استخدامهم، والإفادة منهم. وكلّ مستخدم، مرغم على معرفة لغة مستخدميه وعاداتهم، ليصدر إليهم أوامره، وليستخدمهم. وقد جرت العادة دائما، على أنّ المحتلّ، إذا كان أقلّ عددا من الأمّة التي يحتلّها، فإنّه يُرغم على اعتناق عادات تلك الأمة، وتعلّم لغتها، بسبب المنفعة والمصلحة، وسهولة التفاهم. إنّه يرغم على ذلك، رغم أنّه محتلّ، وسيّد شديد البأس.

مثل هذه النظريّة، تتابع تضخّمها وانتشارها، ضمن محيط مجتمعنا، رغم أنّنا نأبى الاعتراف بها. إنّنا نتعلّم القوانين وأساليب المخاطبة، التي تمكّننا من تسيير خدمنا، والإفادة منهم فائدة أكبر. وهكذا،

(1) تراس thrace: مقاطعة تقع شمال اليونان القديمة تشكّل اليوم جزءا من بلغاريا (المترجم).

فإنّنا سنتخلّى يوما عن صفاتنا الإنسانيّة وقوانيننا الخاصّة تدريجيّا. أي سنتخلّى عن إنسانيّتنا، ونعتنق أسلوب الحياة المطبّق على عبيدنا التقنيّين، وستكون دلالة هذا التخلّي عن الإنسانيّة، احتقارَ الكائن البشريّ. فالرجل العصريّ، يعرف أنّه هو وزملاؤه من بني الإنسان، ليسوا أكثر من عناصر يمكن استبدالها. والمجتمع الحديث الذي يتضمّن إنسانا واحدا مقابل كل ثلاثين عبدا تقنيّا، ينبغي أن يُنظّم وأن يعمل حسب النُظم التقنيّة، لأنّه مجتمع صُنع على احتياجات ميكانيكيّة، وليست إنسانيّة. وهنا تبدأ الفاجعة.

وبناء على ذلك فإنّ المخلوقات البشريّة مرغمة على الحياة والتصرّف، وفق قوانين تقنيّة غريبة عن القوانين الإنسانيّة. وأولئك الذين لا يحترمون قوانين الآلة التي تتساوى مع القوانين الاجتماعية، يعاقَبُون. والكائن البشري الذي يعيش في أقليّة، يصبح مع الوقت في حالة عجز «بروليتارية» فيُحذف اسمه من المجتمع الذي ينتمي إليه، والذي لا يمكن أن يعود إليه إلاّ بعد التخلّي عن طبيعته الإنسانيّة، فينجم عن ذلك، شعور بالدونية ورغبة في تقليد الآلة، والتخلّي عن صفاته الإنسانيّة المميّزة، التي تبقيه بعيدا عن أوساط النشاط الاجتماعيّ.

هذا التحوّل البطيء، سيقلب الكائن الحيّ، وسيجعله متخليّا عن أحاسيسه وعلاقاته الاجتماعية، ويجعلها محصورة في حدود ضيّقة، واضحة، آليّة تماما، كتلك العلاقات التي تجمع بين قطعة آلة وأخرى. وسوف يقلّد البشرُ في علاقاتِهم الاجتماعيّة، وفي الإدارة، وفنون النقش والرسم والأدب وفي الرقص، الأسلوبَ واللّغة الخاصّين بالعبد التقنيّ وستصبح المخلوقات البشريّة ببغاوات العبيد التقنيّين. غير أنّ كل هذا، ليس إلاّ بداية الفاجعة. ومن هذه البداية تبدأ كذلك روايتي، وأقصد حياة أبي وأمي، وحياتك يا جورج وحياتي، وحياة الآخرين.

سأل وكيل النيابة وهو محتفظ بلهجته المداعبة:

- معنى ذلك، أنّنا سنتحول إلى «مخلوقات آليّة»؟

- تماما، وهنا تنفجر المأساة. لأنّنا لن نستطيع أن نتحوّل إلى آلات. غير أنّ الاصطدام بين الحقيقتيْن، الحقيقة الآليّة والحقيقة البشريّة، قد وقع. ولسوف يربح العبد التقنيّ الحرب. سوف يستبدّ ويصبح مواطنا آليّا في مجتمعنا. أمّا نحن، الكائنات البشريّة، فسنصبح «بروليتاريا» مجتمع منظّم حسب حاجات الأكثرية الساحقة من المواطنين وعاداتها، وأقصد هنا المواطنين الآليّين.

سأل وكيل النيابة:

- ومن الناحية العلميّة، كيف سيحدث ذلك الاصطدام أو الاحتكاك؟

- شخصيا أتحرّق لرؤية ذلك. غير أنّني في الوقت نفسه، أشعر بالخوف. إنّني أفضّل أن أموت، بدلا من أن أشهد بنفسي قتلي وقتل أمثالي من البشر.

- هل تفكّر في وقائع معينة؟

- إنّ كلّ الأحداث التي تدور الآن على الكرة الأرضية والتي ستقع خلال السنوات المقبلة، ليست إلاّ تباشير بتلك الثورة ومراحلها، ثورة «العبيد الآليين». ولن يستطيع البشر بعد ذلك أن يحيوا في مجتمع يحتفظون فيه بطابعهم البشري. سوف يُعتَبرون متساوين ومتشابهين مع العبد الآليّ، وسيعاملون وفق القوانين المطبّقة عليه، دون مراعاة طبيعتهم الإنسانيّة. ستحدث توقيفات آليّة، وأحكام آليّة، وتسليات آليّة، وقتل آليّ. لن يكون للمرء حقّ في الحياة، بل سيعامل وكأنه مكبس، أو قطعة من آلة، حتّى إذا شاء أن يعيش حياةً إنسانيّة، تعرض لسخرية العالم أجمع. هل رأيت في حياتك مكبسا يعيش حياة شخصيّة؟ إنّ هذه الثورة، ستحدث على سطح الأرض كلّها، ولن نستطيع الاختباء، لا في الغابات، ولا في الجزر، ولا في أيّ مكان. لن تستطيع أمّة في العالم أن تحمينا. سوف تُشكّل جيوش العالم كلّه من مأجورين، يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع

الآليّ الذي لن تعيش فيه الفردية. لقد كان دأب الجيوش حتّى اليوم، العمل على اكتساح أراض جديدة، واكتساب ثروات جديدة، بدافع الإباء القوميّ، أو وفق مصالح الملوك والأباطرة الشخصيّة، الرامية إلى السلب والنهب أو العظمة والمجد. وكانت كلّ هذه الغايات بشريّة صميمة. أمّا الآن، فإنّ الجيوش تحارب لمصلحة مجتمع لا تكاد تجد على هامشه متّسعا لبقائها كأقليّة بروليتارية. ولعلّ هذا العصر هو الفترة الأكثر ظلمة في تاريخ البشريّة. إذ لم يحدث حتّى الآن أن احتُقر الإنسان إلى هذا الحد. لقد كان الإنسان في المجتمعات البربريّة مثلا، أقلّ قيمة من حصان. وهذا يحدث في عصرنا عند بعض الشعوب، أو بعض الأشخاص. لقد روَيْتَ لي منذ حين، قصّة ذلك القروي الذي قتل زوجته غير آسف عليها، ولكنّه حاول الانتحار عندما فكّر في أنّ خيوله لن تجد من يُعنى بسقايتها وإطعامها خلال فترة سجنه. كان هذا هو أسلوب انتقاص قيمة الفرد في المجتمعات الغابرة، لأنّ التضحية الإنسانيّة شيء مألوف. أمّا في المجتمع العصري، فإنّ التضحية الإنسانيّة لم تعد جديرة بالذكر أو بالتنويه بها، بل أصبحت مبتذلة. والحياة البشريّة، لم تعد لها قيمة، إلاّ بوصفها مصدر حركة، والقياسات أضحت علميّة محضة. وهذا هو قانون بربريتنا الآليّة المظلمة. ولسوف نصبح بعد النصر الكليّ عبيدا آليّين.

سأل وكيل النيابة:

- ومتى ستحدث الثورة التي تتنبّأ بها؟

فأجابه تريان:

- لقد بدأت بالفعل! ونحن نساهم في نشرها. ولن يعيش كثير منّا حتّى يبلغوا نهايتها. إنّني أشعر بخوف جارف من فقدان القدرة على إنهاء كتابي، لأنني سأختفي بالمثل.

فقال المحقّق:

- إنّ تشاؤمك عنيف جدّا.

- لا تنس أنّني شاعر يا جورج. وأمْلكُ حَدْسًا يسمح لي بالتنبّؤ بالمستقبل، لا يملك الآخرون مثله. أليس الشاعر نبيّا؟ أنا آسف إذ أتنبّأ بأشياء مفجعة كهذه. لكنّ مهمتي كشاعر، ترغمني على ذلك. ينبغي أن أصرخ، وأن أحمّل الأصداء قولي، حتّى ولو كان قولا ممجوجا.

- أتعتقد جديًّا بما تقول؟

- بل إنّني وللأسف مؤمن به!

- ظننت أنك تُنمّق جُملاً بأسلوب أدبيّ!

- كلاّ. ليس أدبًا. إنّني أتوقّع كلّ ليلة أن يحدث لي شيء..

- وماذا يمكن أن يحدث لك؟

- أيّ شيء. فطالما أنّ الإنسان قد تحوّل إلى مجرّد مقياس ذي قيمة آليّة-اجتماعيّة، فإنّه يتعرّض للإصابة بأيّ شيء. يمكن أن يُوقَف، وأن يُرسَل للقيام بالأعمال الشاقّة، أو أن يُستأصَل عِرقُه؛ أو أن يُرغم على مزاولة أعمال معيّنة، سواء لواحد من مشاريع السنين الخمس، أو لتحسين العِرق، أو لأهداف أخرى ضروريّة للمجتمع الآليّ، دون أيّ اعتبار لشخصه. المجتمع التقنيّ يعمل حصرا تبعا لنظريّة تقنيّة مستعملا المجرّدات، والخطط فقط، مستهدِفًا معيارا واحدا هو الإنتاج.

- وهل يعقل أن نُعتقل؟

زالت اللهجة المستهزئة من صوت وكيل النيابة، وحلّ محلّها لون من الخوف. فكان وهو يسأل تريان، كأنّه يطلب من عرّافة أن تتنبّأ له بالمستقبل دون أن يؤمن بأقوالها من حيث المبدأ.

- لن يبقى رجلٌ واحدٌ حُرًّا على سطح الكرة الأرضية.

قال وكيل النيابة:

- سنفنى إذن في السجون، دون أن نكون مُذنبين؟

فأجاب تريان:

- كلاّ. إنّ الإنسان سيصبح مغلولا خلال سنين طويلة في المجتمع

التقنيّ لكنّه لن يموت في الأغلال. فالمجتمع التقنيّ يستطيع ابتداع رفاهيّة. لكنّه لا يستطيع خلق الفكر. ومن دون الفكر، لا توجد العبقرية. ومجتمعٌ محروم من رجال عباقرة مجتمعٌ محكوم عليه بالفناء. إنّ المجتمع التقنيّ الذي يحلّ محلّ المجتمع الغربيّ، والذي سيكتسح سطح الأرض كلّه، سيفنى هو الآخر «يؤكّد ألبير أنشتاين الشهير، أنّه يكفي انقطاع جيلين متتابعين فقط، في خط العقول المتفوّقة الميّالة بصورة خاصّة إلى العلوم الطبيعية، لكي تنهار كل المشيّدات القائمة على هذا العِلْم»[1].

وسوف يعقب انهيار المجتمع التقنيّ هذا، اعتراف بالقيم الإنسانيّة والروحيّة، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شكّ، من آسيا. ولكن ليس من روسيا. فقد انحنى الروس بدورهم خاضعين أمام نور الغرب الكهربائيّ؛ لذلك لن يعيشوا ليروا الإشراق. سيكتسح الإنسان الشرقيّ المجتمع التقنيّ وسيستعمل النور الكهربائيّ لإنارة الشوارع والبيوت. لكنّه لن يصبح أبدا عبدا له ولن يقيم الهياكل كما هو الحال اليوم في بربريّة المجتمع التقنيّ الغربي. ولن يضيء بنور «النيون» خطوط الفكر والقلب. بل سيجعل إنسان الشرق من نفسه سيّدا للآلات وللمجتمع التقنيّ، مستعينا بعقله كما يستعين رئيس الفرقة الموسيقية بعبقريّته المستمَدَّة من الجرس الموسيقيّ. لكنك لن تصل إلى تلك المرحلة، لأنّنا سنحيا في الزمن الذي يخشع فيه الإنسان أمام الشمس الكهربائيّة، كالبربريّ المتوحّش.

قال وكيل النيابة:

- سنموت إذن مغلولين مكبّلين؟

- في رأيي أننا سنموت في أغلال العبيد التقنيّين. وستكون روايتي، كتاب هذه الخاتمة.

---

(1) من أقوال هرمان فون كيسرلنغ وهو فيلسوف وأديب ألمانيّ وُلد سنة 1880 وتوفي سنة 1946. وقد قارن في مؤلّفاته بين العقلانية الغربيّة والحكمة الشرقيّة. (المترجم).

- وما هو عنوانها؟

فقال تريان:

- "الساعة الخامسة والعشرون". اللّحظة التي تكون فيها كلّ محاولة للإنقاذ عديمة الجدوى، بل إنّ قيام المسيح نفسه لن يجدي فتيلا. إنّها ليست الساعة الأخيرة، بل هي ساعة ما بعد الساعة الأخيرة. ساعة المجتمع الغربي، إنّها الساعة الراهنة.. الساعة الثابتة المضبوطة.

-16-

كان الكاهن صامتا، ورأسه مدفونة بين يديه. فقال وكيل النيابة موجّها حديثه إليه:

- يا أبانا، إذا تحقّقت نبوءات تريان، وصارمحكوما على الإنسان أن يُعامل كالعبيد، فهل تستطيع الكنيسة عمل شيء في مصلحة المجتمع الحاضر؟ وإذا كانت الكنيسة تعجز عن إنقاذ المخلوق البشريّ في هذه الساعات الحرجة، فماذا ستكون مهمّتها عندئذ؟

فكر الكاهن ألكسندر كوروغا فترة ثم قال:

- الكنيسة لا تستطيع حماية المجتمعات، بل إنّها تضمن سلام الأشخاص الذين تتألّف منهم تلك المجتمعات.

- وهل تعتقد أنّ نبوءات تريان ستتحقّق؟

فأجاب الكاهن:

- إنّ من عادتي تصديق الشعراء. وأنا أؤمن بأنّ تريان شاعر كبير.

قال تريان وقد احمرّ وجهه فرحا، شأن الطفل الذي يطريه أبوه:

- أشكرك يا أبتي.

وساد السكون فترة. وفجأة قال تريان:

- يخيّل إليّ أن بعضهم قد مرّ تحت الشرفة.

فأصغى الرجال الثلاثة، غير أنّ نأمة الريح وصوت المطر كانا وحدهما يبلُغان مسامعهما. قال الكاهن:

- لو كان هناك أحد في الباحة، لنبحت الكلاب. فإيوهان موريتز -وهو موضع سرّي- هو الوحيد الذي يمكن أن يكون في البستان دون أن تثور الكلاب وتنبح. لكنّه في هذه الساعة ولا شكّ على سطح الباخرة التي تُقلّه إلى أمريكا.

قال تريان:

- أنا واثق رغم ذلك من أنني سمعت صوتَ أقدام ترتقي السُلّم. إنّ حواسّي مرهفة جدًا لذلك أستطيع أن أميّز الأصوات بسهولة.

قال وكيل النيابة باسما:

- لعلّه عبد تقنيّ أفلت من عربتك! لعلّ ثورة العبيد التقنيّين قد انفجرت بالفعل، فجاؤوا يأسروننا هذه اللّيلة بالذات. ترى كم من العبيد التقنيّين يؤمّنون خدمة سيّارتك يا تريان؟

- تستطيع إجراء الحساب بسهولة. إنّ قوّتها «55» حصانا بخاريا، والحصان الواحد يعادل سبعة رجال.

فقال وكيل النيابة مُعقّبا:

- أي أنّ عددهم يوازي موجودات عدّة فصائل من الجيش، بينما عددنا لا يتجاوز الثلاثة! لو أنهم هاجمونا، لاضطررنا إلى الاستسلام دون قيد ولا شرط!

- لا يستطيع العبيد التقنيّون مهاجمة مخلوق حيّ دون مساعدة إنسان. أمّا إذا كان شريكهم «مُواطنًا» من غير البشر، فإن العبيد التقنيّين يصبحون أشبه بوحوش رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي[1] .

قال وكيل النيابة مستوضحا:

- ماذا أردت بكلمة مواطن؟ فنحن جميعا مواطنون!

(1) أبوكاليبس Apocalypse: الجزء الأخير من العهد الجديد وهو رمزيّ وغامض جدًا وقد كتبه القدّيس يوحنّا الإنجيلي في جزيرة باتموس. ويتألّف من سبع رؤى عن مستقبل الدين المسيحيّ كما تصوّره القدّيس يوحنّا. ووحش الأبوكاليبس وحش رمزيّ في كتاب القدّيس يوحنّا. وقد أراد المؤلّف استعارة هذه الفكرة للدلالة على استحالة تصرّف العبيد التقنيّين تصرّفا يسيء إلى البشريّة إذا لم تسيّرهم يد الإنسان. (المترجم).

- إنّ المواطن، هو الكائن البشريّ الذي لا يعيش إلاّ في الحدود الاجتماعية من الحياة، كمكبس الآلة الذي لا يقوم إلاّ بحركة واحدة يكرّرها مدى الحياة. ولكنّ المواطن، خلافا لمكبس الآلة، يحاول تنصيب نشاطه على شكل رمز وتعميمه مثلا يُحتذى به في العالم ليقلّده العالم أجمع. إنّ المواطن هو أخطر وحش ظهر على سطح الكرة الأرضيّة منذ أن تلاقى الإنسان مع العبد التقنيّ. فهو يملك قسوة الإنسان والوحش، وبرودة الآلات ولا مبالاتها. ولقد خلق الروس المثال الأكمل من نوعه في هذا المضمار، وأعني المفوّض.

وهنا، سمع الثلاثة نقرتيْن خفيفتيْن على زجاج النافذة، فهتف تريان:

- ألم أقل لكم إنّني سمعت صوت خطى؟ حواس الشاعر لا تخونه أبدا.

-17-

خرج الكاهن إلى الشرفة مستطلعا، تاركا الباب مفتوحا. ولم يلبث أن عاد إلى الغرفة يصحبه شاب. كان القادم الجديد، مرتديا قميصا فقط، وسروالا خفيفا، عاريَ الرأس، غارقًا في مياه المطر.

قال الكاهن:

- هذا إيوهان موريتز!

ومدّ إليه قدحا من الخمر ودعاه إلى الجلوس.

رفض الفتى الجلوس، ولبث قرب الباب متحاشيا الوقوف فوق السجّادة، أو الجلوس على مقعد، خشية إفسادهما بالماء الذي ينثال عن ثيابه. كان الماء ينساب من شعره، وكأنه يجري عبر ميزاب، وكان من الواضح أنّه سار زمنا طويلا تحت المطر.

سأله الكاهن:

- أتريد التحدث إليّ على انفراد؟

فأجابه موريتز:

- بل أستطيع التحدث إليك هنا أيضا!

قال الكاهن:

- لقد أسفت لأنّك لم تمرّ بمنزلي هذا الصباح، لتحمل الصُرّة التي أعددتها لك.

فقال موريتز مُفسّرا:

- لقد عدلت عن السفر إلى أمريكا.

ثم نظر إلى الشابّيْن الجالسيْن في المكتبة وقال مُعقّبا:

- لقد سمحتَ لي البارحة بأن أنام في الغرفة القريبة من المطبخ.

أدرك الكاهن في تلك اللّحظة، السبب الذي حدا بموريتز، إلى قرع بابه في مثل تلك الساعة من اللّيل فقال:

- الغرفة لك، تستطيع أن تسكنها متى شئت.

سأل موريتز:

- هل يستطيع إنسان آخر أن ينام فيها هذه اللّيلة؟

فأجابه الكاهن مؤكّدا:

- طبعا، طبعا. إذا كان هناك من هو في حاجة وأردت مساعدته، فإن ذلك يعتبر فعلا خيّرا منك.

- إنّها سوزانا ابنة إيورغو إيوردان. لقد فرّت من منزلها لأنّ أباها كان يريد قتلها!

تذكّر موريتز أنّ كلّ القرويين الّذين طلب منهم مساعدته، رفضوا إيواءه لمّا أَطْلَعَهُم على اسم الفتاة. لذلك فقد راح يحدج الكاهن بثبات. فقال:

- إذا كانت الغرفة باردة، فإنّك تستطيع أن توقد النار في موقدها. وأنت تعرف مكان الحطب.

لبث إيوهان موريتز واقفا في مكانه بجانب الباب. ما كان يريد مبارحة المكان، قبل أن يقصّ على الكاهن اعترافا كاملا بكلّ ما وقع. فلمّا فرغ من حكايته، وذكر أنّ الفتاة كانت في تلك اللّحظة بين الحقول،

في منتصف الطريق بين فانتانا والمدينة، نهض تريان كوروغا واقفا وراح يرتدي معطفه. اصطحب إيوهان موريتز في سيّارته فلم تمض نصف ساعة، حتّى كان عائدا بالفتاة.

أوقف السيّارة في مكانها السابق أمام الشرفة، فحمل موريتز سوزانا بين ذراعيه، بينما كان وكيل النيابة يراقب هذا المشهد من الشرفة. كانت زوجة الكاهن، تسير بجانب موريتز إلى يساره، والكاهن إلى اليمين. أما سوزانا، فكانت مستسلمة بين ذراعيه، كالطفل النائم، فرأى وكيل النيابة ثوبها الأزرق المبتلّ الملتصق بوركيها. ودخل تريان إلى غرفة الاستقبال، فتبعه وكيل النيابة. وقال له:

- إنّك مبتل الثياب!

احمرّ وجه تريان، وراح ينظر إلى حذائه المُلطّخ بالوحل، وثيابه التي كان الماء يقطر منها على الأرض. لقد تعرّض للبلل دون جدوى، إذ أنّ موريتز، حمل الفتاة دون حاجة إلى مساعدته، ووضعها في السيارة. وعلى الرغم من أنّه لم يكن في حاجة إليه، فإنّ تريان، آثر أن يبقى طوال الوقت إلى جانبه تحت المطر. كان يحلّل تصرّفه في سرّه ويؤكّد أنّه سيتصرّف على هذا النحو في حالة مماثلة، إذا تعرّض إلى ذلك في المستقبل، «لأنه كان يتصرّف بوحي مشاركة آلام الرجل الواقف إلى جانبه، سواء أ كانت مساعدته ذات قيمة عمليّة له، أم دون أثر».

دخل الكاهن الغرفة، والماء يسيل على جبهته وخدّيه ولحيته ويقطر من ثيابه. لقد رافق إيوهان موريتز تحت المطر كما يرافق ابنه، دون أن يكون لذلك أيّ نفع ظاهر!

فكّر تريان في سرّه: «لقد صدرت عن الله نفسه تصرّفات عند بدء الخليقة ليس لها نفع كبير في الظاهر. فقد أوجد أشياء ليس لها نفع عمليّ لكنّها أجمل ما أوجد وخلق. إنّ وجود الإنسان وخلقه عديم الجدوى. فهو غريب غرابة تصرّفي وأبي في هذه اللحظة. غير أنّه -

رغم عقم فائدته- تصرّف لا يمكن أن يضاهى في روعته».

قال الكاهن لابنه:

- حاذر أن تصاب بالبرد يا تريان!

فأجاب هذا:

- لن أصاب به! كيف حال المريضة؟

- إنّها مصابة بالحمى. لقد هيّأتْ لها أمُّك قدحا من الشاي، وهي تعتني بها الآن. لسوف تنال ثوابا يا تريان لأنّك أتيت بها في سيارتك. فقد كان هذان الشابّان البائسان، في أمسّ الحاجة إلى المساعدة.

ودقّت الساعة الحائطيّة معلنة انتصاف اللّيل.

-18-

طرق إيوهان موريتز الباب، لأنّه لم يكن يستطيع الانتظار إلى الغد ليعرب للقسيس وابنه، عن امتنانه وشكره. لم يكن يرى بين كلّ المصائب التي انهالت عليه خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، أو يذكر منها، إلاّ جميل الكاهن كوروغا وفضله، فكان شديد الامتنان. لقد سَرّه أن تجد سوزانا مأوى لها، ولولا ذلك، لكان الأمر أسوأ ممّا كان. كان تريان كوروغا يُحدّث إيوهان موريتز بنظرة حانية، من عينيه الكبيرتين، فقاطعه فجأة وقال متوجّها إلى أبيه:

- أبتي، عندما أعود إلى فانتانا من جديد، سأنام عندك. أما المال الذي أودعته لديك، فأرجو أن تعطيه إلى موريتز، ليبني لنفسه منزلا في فانتانا. إنّه أكثر حاجة منّي إلى المسكن!

أخذ الكاهن المُغلّف وأعطاه إلى موريتز بحركة عاديّة، ككلّ الحركات الطبيعيّة. لقد مدّ يده بالمال، دون أن يوجّه إليه نصيحة ما، أو يخاطبه بكلمة. فأخذ إيوهان موريتز الغلاف وفتحه. بدا وكأنّه لم يفهم الغرض من هذه الحركة. فلمّا وقعت عيناه على رزمة الأوراق النقدية، جحظتا واتّسعتا اتّساعا كبيرا، كما يحدث لعيون الناس الذين يشاهدون

المعجزات. أراد أن ينطق بكلمة ما، وأن يقول شيئا. لكنّ قلبه ما كان يتّسع لهمسة أو كلمة فضغط على الغلاف بيده وصمت.

قال الكاهن بعد فترة صمت:

- اشكر تريان يا بني، واذهب إلى فراشك. أعط المال إلى سوزانا. فالنساء أقدر من الرجال على حفظه.

فقال وكيل النيابة:

- لعلّ موريتز يفضّل أن يشرب كأسا، بعد أن أصبح الآن في عداد الملاّكين في فانتانا.

دخلت زوجة الكاهن في تلك اللحظة، فوضع موريتز القدح على المائدة، ونظر إليها محدّقا. قالت: إنّ حال سوزانا غير خطيرة. ثم جذبت الكاهن إلى إحدى الزوايا، وهمست في أذنيه شيئا. فقطب الكاهن حاجبيه ثمّ ابتسم. كان موريتز يتابع حركاته بأنظاره، فقال الكاهن:

- اطمئن، إنّها ليست أخبارا مزعجة. لقد أنبأتني زوجتي بأنك ستصبح أبا. فينبغي أن تتزوجا قبل ذلك.

ضغط موريتز على يد تريان كوروغا ثم على يد وكيل النيابة، وحين خرج... وجد المطر ما يزال منهمرا باستمرار. فأخفى المال تحت قميصه قبل أن يهبط السلّم، مخافة أن يبتلّ. كان الغلاف دافئا لطيف الملمس، وكان موريتز، وهو يضمّه إلى صدره، يرى بعين الخيال، البيت وسياجه، والبئر والبستان، مثلما تصوّرها جميعا وحلم بها طويلا. وحين دخل الغرفة، وجد سوزانا مستغرقة في النوم. فوضع المال تحت وسادتها، ومضى لينام على القش.

وفي اللحظة التي كان يمرّ فيها تحت النافذة وهو يصفّر، كان الكاهن في المكتبة يحدّث تريان بقوله:

- ما كان ينبغي أن أتحدّث إليه عن الزواج، لأنّ أمّ سوزانا قد ماتت، وما زالت جثّتها في المشرحة. أما أبوها، فإنه رهين السجن! في الحقيقة،

لم يكن الوقت مناسبا.

قال تريان:

- لكنهما لا يعرفان عن الأمر شيئا. إنّهما يُخطّطان لمستقبلهما. لقد حصلا على المال الذي يحتاجانه، ولديهما حبّهما، إنّهما سعيدان!

- إنّهما سعيدان، ولكن لو عرفا الحقيقة، لوجب أن يبكيا.

فردّ وكيل النيابة مؤيّدا:

- صحيح! إنّ سرورهما بالنسبة إلينا نحن الّذين نعلم كلّ الحقيقة، يبدو لنا استهتارا.

- إنّ كل سعادة بشرية تتحوّل إلى فعل استهتار بمجرّد أن تُحلّل وتُسند إلى المطلق.

وقرعت الساعة الواحدة، بينما الجلاّس الثلاثة في مكتبة الكاهن كوروغا تلك اللّيلة، يصغون إلى صوت المطر، وقيقب الساعة.

-19-

بعد عامين من هذه الأحداث، أُطلق سراح إيورغو إيوردان، ليعود إلى البلد الذي نزح عنه منذ سبعة وعشرين عاما.

أراد قبل مغادرته المنطقة، أن يمرّ للمرة الأخيرة بفانتانا، ليبيع منزله. وبينما كان رئيس مخفر الدرك في القرية يعبر الطريق، لاحظ أنّ نوافذ المنزل ذي القرميد الأحمر، التي كانت حتّى ذلك اليوم مغلقة بإحكام، مفتوحة على مصراعيها. فدخل باحة المنزل مستطلعا. كان إيورغو إيوردان وراء المنزل يحزم بعض الطرود.

- كلّ العلامات تدلّ على أنّك ثريّ جدّا يا سيد إيوردان. ولا شكّ أنّ إخراجك من السجن بهذه السرعة، اقتضى منك ثمنا فاحشا.

رفع العملاق رأسه وألقى على المتكلّم نظرة وقال:

- لست أفهم.

كان صوته خشنا قاسيا. فقال الدركي:

- أسألك عمّا إذا كان ثمن خروجك من السجن قد كلّفك كثيرًا! وعلى ما أذكر فأنت محكوم بالسجن عشر سنوات.

ألقى إيورغو إيوردان من يده المطرقة التي كان ممسكا بها، وأخرج من جيب سترته الخضراء ورقة ألقى بها إلى الدركي، ثمّ عاد يستعمل المطرقة وهو يقول ضاغطا على كلّ كلمة، ليزيد في إبرازها:

- أعطيك هذا، لتعلم مع من تتحدث. لن تمضي أيام قليلة، حتّى أكون في زيّ ضابط صفّ في الاستخبارات العسكرية. فأنا مواطن ألماني، ولسوف أقوم بواجبي حيال وطني. لعلّك الآن، قد عرفت السبب الذي من أجله أخرجت من السجن. إنّه ليس كما ظننت.

- أخذ الدركي أمر التعبئة الخاص بإيورغو إيوردان، وراح يقرؤه. كان يعرف أنّ كلّ المواطنين الألمان، الذين كانوا مسجونين قد أخلي سراحهم، شريطة أن يعودوا إلى وطنهم، وينخرطوا في الجندية. فطوى الورقة، وأعادها للعملاق، وهو يبتسم. فقال له وهو يخرج ورقة أخرى من جيبه:

- اقرأ هذه أيضا.

كانت تلك الورقة، رسالة شكر. لأنّ العملاق قدّم كلّ ثروته، هديّة للجيش الألماني، ليستطيع الألمان، شراء مدرّعات. وقد أرسل سفير الرايخ الأكبر الألماني في بوخارست، رسالة شكر إليه في سجنه. فضّ الدركيّ الورقة، لكنّه لم يستطع قراءتها، لأنّها كانت مكتوبة بالألمانية. فاكتفى بالاستغراق في تأمّلها مُعجَبًا بالنسر والصليب المعقوف، والأختام التي تزينها. سأله:

- هل تبيع البيت أم ستحتفظ به؟

قال إيورغو إيوردان متجاهلا سؤال الدركي:

- إن المُصفّحة التي اشتُريت بمالي قد بوركت فعلا بالنّيران الحامية، ولسوف ألحق بها عمّا قريب. صحيح أنّني لم أعد شابا كما كنت من قبل، غير أنّ الرايخ الألمانيّ الكبير، يقبلني كما أنا!

طوى إيورغو إيوردان الأوراق، وأعادها إلى جيبه. ثم عاد إلى المطرقة، يُسمّر بها الصناديق التي كان يُعدّها للسفر، وقد أدار للدركي ظهره. فلما ودّعه، غمغم إيورغو إيوردان ببضع كلمات بلغته، ردّا على تحيّته، دون أن يرفع عينيه إليه.

-20-

اتّجه رئيس مخفر الدرك بعد خروجه من دار إيورغو إيوردان إلى الخان. كان ذلك في بدء شهر أيار. راح رئيس المخفر يمشي في منتصف الشارع متجنّبا غبار الطريق. فقد كان يحبّ أن يرى حذاءيه لامعين كالمرآة، كما كان يحب النساء والخمر. وكان اليهودي، صاحب الخان، يقدّم له الخمر مجانا. راح يفكّر في نفسه وهو يسير: «لولا أنّ الحكومة تصدر بين الحين والآخر قانونا جديدا، لهلكَ رجال الدرك من العطش». والحقيقة أنّ الدولة، كانت قد كفلت ذلك على خير وجه: ففي كانون الثاني من ذلك العام، تلقّى رئيس المخفر أمرا، يقضي بإرسال كلّ يهود القرية، إلى معسكرات العمل. ولم يكن في فانتانا كلّها، إلاّ يهوديّ واحد، هو غولد نبرغ، صاحب الخان. فأطلعه على الأمر. وكان ذلك الأمر سريّا جدّا، حتّى أنّه أسف بعد قليل، لإطلاعه اليهوديَّ عليه. لكنّه بعد فترة تفكير، قرّر أنّه تصرّف تصرّفا حميدا. وراح منذ ذلك الحين، يرسل كلّ ثلاثة أشهر، شهادة طبيّة، تثبت أنّ اليهودي غولدنبرغ، مريض لا يمكن إرساله للعمل. وكان يتلقى من اليهودي مقابل ذلك ثلاثة آلاف «لي» كلّ شهر، ما ضاعف راتبه، فأصبح بذلك المال قادرا على العيش بترف، بل إنه يعتبر نفسه قد قام بعمل خيّر. بينما لبث غولدنبرغ العجوز في خانه، يتعاطى التجارة، بدلا من أن يئنّ تحت وطأة العمل، في أحد المعسكرات.

بعد أن تناول الدركيّ قدحه الأول، أزاح الستائر عن النافذة المُطلّة على غرفة اليهودي، وألقى نظرة من خلال زجاجها. كان يريد رؤية «روزا» ابنة صاحب الخان، ليلقيَ عليها التحيّة كعادته. وكانت لروزا بشرة بيضاء

ناعمة، تُشعر الدركيّ، كلّما لمس ذراعها، بأنه يلمس قطعة من القطيفة، لأن بشرتها لم تكن كبشرة القرويات. وكان من عادتها أن تجلس قرب النافذة تقرأ القصص. أمّا ذلك اليوم، فقد رأى بجانبها شابا يحدّثها.

سأل الدركي بصوت خشن:

- من هو هذا الرجل؟

تردّد غولدنبرغ العجوز لأنّه ما كان يدري إذا كان يجدر به أن يَصْدُقه القول، وأخيرا قال مصمّما:

- إنّه ابني ماركو. لقد وصل من باريس أخيرا.

فقال الدركي:

- قدّمه إليّ!

لم يكن الدركيّ قد تعرّف قبل ذلك اليوم إلى شاب عائد من باريس. وكان يعتقد أنّ المرء يستطيع دائما أن يتعلّم شيئا مّا، من أولئك العائدين من باريس. غير أنّ ماركو غولدنبرغ، كان فظّا غليظا لا تخرج الكلمات من فمه إلاّ سَحْبًا. وكان الدركيّ يعتقد، أنّ الشباب الذين تلقّوا علومهم في باريس، ينبغي أن يكونوا خلاف ذلك، لذا فقد شعر بمرارة الخيبة. فقد كان ابن اليهودي فظّا بفطرته، ورفض أن يشرب كأس العرق التي قدمها له الدركي: ليس سوى شاب مكروه بغيض، ومع ذلك، فإنّ الدركي قال له قبل مغادرته:

- تعال هذا المساء إلى القسم، لسوف نتسلّى بلعب الورق!

ولمّا خرج من الخان، أكّد لنفسه، أنّ غولدنبرغ العجوز ألقى بدراهمه من النوافذ حين أرسل ابنه إلى باريس.

-21-

بلغ الدركي منزل إيوهان موريتز فتوقّف ينظر إلى سوزانا وهي تجبل طينا في باحة المنزل، لتصنع منه قرميدا. فقد بنى إيوهان موريتز منزله منذ عامين. واشتغل مع زوجته ليلَ نهارَ، فكان منزلا جميلا له شرفة.

سألها الدركي:

- لماذا تصنعين قرميدا؟ لقد اكتمل بناء المنزل.

كان يريد الدخول إلى الباحة، غير أنّ بابها كان مغلقا بالمفتاح.

قالت المرأة:

- إننا نبني زريبة للبقر.

واستمرّت تجبل الطين بأقدامها، بينما راح الدركي، يتأمل فخذيها العاريين الأبيضين. سألها:

- هل رجلك هنا؟

فأجابت ضاحكة:

- إنّ إياني في الطاحون.

كان في صدر الباحة، ولدا إيوهان موريتز الصغيران، يتحمّصان بحرارة الشمس، الأول في مهدِه، والثاني يلهو بالتراب. وكانت سوزانا تنظر إلى ولديها بين الحين والحين، وتصبّ الماء على الصلصال، مستمرّة في عملية الجبل، وثوبها الضيّق يبرز استدارة وركيها، راح الدركي يحاول من جديد فتح الباب، فلما أخفق سألها:

- ألا تفتحين لي؟

- إنّ مكانك مناسب.

- لا أراك وحيدةً أبدا، والآن يتغيب زوجك، فترفضين أن تفتحي لي الباب!

قالت:

- هذا ما ينبغي أن أقوم به! بل إنّني أنبّهك، إلى أنّ وقوفك بالباب قد طال. سر في طريقك، ودعني بأمان!

- افتحي قليلا! لا تكوني ماكرة!

- سوف يعود إياني بين حين وآخر. فإذا وجدك هنا، فإنه سيشج رأسك بفأسه.

سأل الدركي:

- وهل تأسفين إذا وقع ذلك؟

فقالت سوزانا:

- أليست لديك أسئلة أكثر ذكاء من هذه؟ من الخير لك أن تصمت، وأن تتابع طريقك! سوف يصل إياني بين حين وآخر.

- أريد أن أطرح عليك سؤالا آخر ثم أغادر!

- هيّا اسأل!

توقفت سوزانا عن عملها، ووضعت يديها على وركيها.

- هل كنت ستفتحين لي الباب، لو لم تكوني في انتظار زوجك؟

قالت سوزانا وهي تعود إلى مهمّتها:

- إنّك تكثر من الأسئلة!

لم تفكّر سوزانا مرّة حتّى تلك اللّحظة، ماذا ستفعل لو أن موريتز تغيّب يوما، أو ذهب إلى مكان ناء، وجاء الدركي يحاول زيارتها.

- أنت الآن امرأة متزوّجة، فما الذي يخيفك؟

هتفت غاضبة:

- دعني بأمان وارحل.

فقال الدركي:

- أجيبيني وسأذهب.

أجابته بجفاء:

- لست أدري.

- قولي: نعم أو لا. وإذا لم تجيبيني فسأبقى!

قالت تسأله:

- لماذا تسأل عن ذلك؟ إنّ إياني لن يترك البيت أبدا.

- لكن هبي أنّه تركه!

قالت:

- حاول وسترى! لكن إياني لن يرحل أبدا، إذ ينبغي أن نبني الحظيرة، وبعدئذ سنحفر البئر. فلماذا يرتحل، وعندنا كل هذا العمل؟

التمعت عينا الدركي، وابتعد عن الباب وهو يبتسم:

- كنت أعرف تماما أنك فتاة باسلة.

ابتعد رئيس المخفر، وسمعت سوزانا صفيره يتخافت. توقفت عن العمل، وأحسّت بذعر في نفسها، فانتزعت قدميها من الوحل، وهرعت نحو طفليها. حملت ولدها البكر بين ذراعيها، وضمّته إلى صدرها. شعرت بأنها ارتكبت خطيئة، أمرا سيجلب الشقاء لموريتز وأولاده. ولم تلبث أن تساءلت: «ولكن هل ارتكبت خطأ في الحقيقة؟ إنّني أذعر بلا سبب».

خففت الضغط على الطفل، وأنزلته إلى الأرض، ثم عادت إلى صلصالها تجبله، وهي حاسرة الثوب.

-22-

بعد أسبوع من هذه الحادثة، قرع دركيٌّ باب إيوهان موريتز. كان موريتز جالسا إلى مائدة الطعام، فنظر عبر النافذة، ولما رأى خوذة الجندي قال:

- سأذهب لأرى ماذا يريد.

وخرج إلى باحة المنزل.

ولمّا عاد، كان يحمل في يده ورقة. عاد إلى المائدة، يتناول طعامه. بينما سألته سوزانا:

- ماذا في هذه الورقة؟

ابتلع إيوهان موريتز اللّقمة التي كانت في فمه ثم أجاب:

- إنّه أمر مصادرة. سأرى بعد تناول الطعام، ماذا تطلُب منّا الدولة من جديد.

كان يبدو شديد الهدوء، لأنّه كان واثقا من أنّ كلّ القرويين، يتلقّون أوامر مصادرة مماثلة، تتعلّق بخيولهم، وعرباتهم، ومواشيهم. لكنّه لم

يكن يمتلك خيولا ولا عربة. شعر الآن أنّه لم يكن محقًا في أسفه، لعدم شرائه عربة، لأن الدولة كانت ستصادرها منه، فيعود إلى السير على قدميه. كان يفكر: «بأن الدولة قد تطلب منه قَدْرًا من الحنطة أو الذرة» لأنّه كان يعرف أن الحنطة باتت تدخل في عداد الأشياء المُصادَرة.

وبعد أن فرغ من طعامه، مسح يديه. كي لا تتسخ الورقة التي حملها إليه الدركي، ثم فضّها وراح يقرأ.

راحت سوزانا تتابع ببصرها، انطباعات وجهه الذي بدأ شديد الاحمرار، ثم شحب، ثم امتقع. فسألت:

- ماذا يقولون؟

كان الطفلان صامتين ينظران إلى أبيهما:

تمدّد موريتز على السرير، واضعا يديه تحت رأسه. فكرّرت سوزانا سؤالها.

- ألا تريد أن تقول لي ما هو كُتب فيها؟

كان سكوت موريتز لا ينبئ بخير. قال:

- إذا قلت لك ما فيها، فلن تفهمي شيئا. لأنني شخصيا لست أفهم.

- أهو خبر سيئ يا إياني؟

- لا شكّ أنّ مُحاسب المؤن قد أخطأ. إن هؤلاء المحاسبين في المقاطعات، يفكّرون دائما في أشياء أخرى، حين يكتبون!

ومدّ الورقة إلى سوزانا وهو يقول:

- ما قولك؟ إنّه أمر مصادرة. لقد تلقّينا اثنين من قبل. الأول كان يتعلّق بالقمح، والثاني عندما صادروا الأكياس التي اشتريتها من بورفيري. أمّا الآن فإنّ الأمر لا يتعلّق بالقمح ولا بالأكياس، بل يتعلّق بي. فكيف يمكنهم تسخير رجل ومصادرته؟ هل تفهمين أنت هذا؟

كانت سوزانا تتهجّى الرسالة، فنفد صبر موريتز، وأخذ الورقة من يديها، وراح يقرؤها بصوت مرتفع، ثم قال:

- كيف يستطيعون تسخيري أنا؟ فأنا رجل. يستطيعون مصادرة الخيول، والبيوت، والأبقار، والأكياس. ولكن ليس البشر. انظري هنا، إنّ اسمي مسجل فيه. لا شكّ أنّ وكيل المحاسبات مجنون تماما.

سألت سوزانا:

- وماذا سنفعل الآن؟

- ينبغي أن أكون في مخفر الدرك، في الساعة السابعة من صباح الغد.

قالت سوزانا:

- لا شكّ أنّك على صواب! إنّ مُحاسبي الإعاشة مخطئون.

فأجاب موريتز:

- لا شكّ أنهم مخطئون.

لكنّه كان يشعر بتسلل الشك إلى نفسه. فماذا يكون حاله، لو أنّ مُحاسبي الإعاشة ما كانوا مخطئين؟ راح يعدّ العدّة للسفر كما لو كان سيلتحق بالجيش، لأنّه، إذا لم يكن هناك خطأ، سيبقى على الأقلّ شهرا أو شهرين.

-23-

أمضى موريتز بعد ظهر ذلك اليوم وهو في أسوأ مزاج. لكنّ سوزانا لم تغضب منه، لأنّها كانت ترى بوضوح أنّ سبب غضبه، راجع إلى ذلك الأمر الذي تلقّاه.

ولمّا حلّ المساء، أخذ موريتز الورقة، ولفّها في قطعة من صحيفة قديمة كي لا تتسخ، ووضعها في جيبه وهو يقول:

- سأطلع القسّ على هذا الأمر.

وغادر المنزل.

كانت زوجة القس وحدها في باحة المنزل. أمّا الكاهن ألكسندرو كوروغا، فقد كان في المدينة متغيّبا منذ الصباح.

همّ موريتز بأن يقصّ على زوجة القسّ كلّ ما وقع له، لكنّه عدل عن ذلك في اللّحظة الأخيرة واكتفى بأن قبّل يدها وخرج.

وفي الشارع، كانت بعض الكلاب تنبح، واللّيل يرخي سدوله تدريجيّا. تعثّر موريتز بحجر، فسبّ وشتم، وراح يحثّ الخطى، عائدا إلى مسكنه.

-24-

كانت ليلة طافحة بالقلق والعذاب. لم يكد إيوهان موريتز يستلقي على فراشه، حتّى اجتاحت مخيّلته آراء قاتمة. اقتربت سوزانا منه، وطوّقت عنقه بذراعيها، في محاولة للتخفيف عنه. لكنّه فكّ ذراعيها وأبعدها عنه، ثم أدار لها ظهره. كيف يفكّر في ذلك ورأسه يعجّ بمئات الأمور. صحيح أنّ في كلّ بيت عملا كثيرا لا ينتهي ولو عكف عليه المرء ليلا نهارا. لكن إذا اضطرّ المرء فجأة إلى الرحيل دون أن يعرف مدّة غيابه، وأرغم على ترك كلّ شيء، فإنّه سيشعر بالخوف، فضلا عن أنّ موريتز كان يائسا، وكأنّه على وشك الموت. إنّ لديه كثيرا من الأمور التي يتوجّب عليه تسويتها قبل ذهابه. كانت هذه الأفكار تعذّب روحه. لقد اشترى مؤخّرا عشرة أحمال من الخشب، قطع أغصانها وشذّبها بعد أن دفع ثمنها، وسوّاها رزما صغيرة تركها في الغابة؛ وكان يأمل في نقلها إلى منزله. وها هو الآن مرغم على تركها. كانت تلك الأخشاب من شجر البلّوط وقد دفع فيها مبلغا طائلا، لأنّها تصلح وحدها للبناء. وقد كان ينتظر جمعها في باحة منزله بفارغ الصبر. بل إنّه فكّر كذلك في المكان الذي سيصفّفها فيه قرب السياج، لأن جذوعها كانت ضخمة. ولكن ها هو الآن مرغم على الرحيل. استدار إيوهان موريتز نحو سوزانا التي لم تكن على علم بصفقة الخشب ولا بمكانه، فإذا بها نائمة. ولم يكن موريتز يستحسن ترك الخشب في الغابة، لذلك فقد لمس كتفها وهو يحدّث نفسه قائلا:

«ينبغي أن أقول لها إنّ الخشب موضوع على بعد بضع مئات من الأمتار من الجدول، ولكن هناك أخشاب لبعض من القرويين كذلك.

فإذا لم أوضّح لها الأمر بدقّة، فإنّها لن تعثر عليه».

شعرت سوزانا بيد موريتز تلمس كتفها، فابتسمت وهي نائمة. كان القمر كاملا متلألئا يغمر بضيائه الغرفة فيُنيرها، وكأنّ الشمس لم تغب. وكان إيوهان موريتز يعرف جيّدا أن سوزانا لن تستطيع نقل الخشب وحدها، وأنّ هذا النوع من العمل، لم يكن في مقدور المرأة.

فكّر في نفسه: «لا، لَسوف يصحبها العجوز آرتيمي، وسوف يجد الخشب. ولكن ينبغي أن أعلمها بأنّني اشتريته، وأنّ عليها أن تذهب إلى هناك لتأتي به. نعم ينبغي أن أعلمها بذلك».

شدّد موريتز ضغطه على كتف زوجته، فعادت تبتسم وهي مستغرقة في النوم. كان يرى وجهها بوضوح تحت ضياء القمر. لقد كانت تبتسم، وتمرّر لسانها على شفتيها فأشفق عليها ولم يجرُؤ على إيقاظها لأنها كانت نائمة نوما عميقا، كالطفل البريء. قرّر أن يوقظها في الصباح الباكر، ليُطلعها على مكان الخشب، لذلك أبعد ذراعه عن كتفها، واستلقى على ظهره. لقد كان من عادته أن ينام بسرعة كلّما استلقى على ظهره. لكنّه في تلك اللّيلة لم يكن قادرا على الاهتداء إلى الراحة. تذكّر الأمر الذي تلقّاه، والذي جعله التفكير في الخشب ينساه، فشعر بغضب مفاجئ يتملّكه. لقد أمضى إيوهان موريتز من قبل خدمته العسكريّة في فرقة خفر الحدود؛ وقد تعلّم اللغة «الصربية» خلال خدمته، لكنّه كان إلى جانب ذلك قد ألمّ بالقواعد والقوانين العسكريّة. ولا يمكن أن تكون تلك القوانين قد تبدّلت بين عشيّة وضحاها. إنّ البشر لا يمكن أن يُصادروا كما تُصادر العربات والأبقار والمحاريث وسيّارات النقل.

راح إيوهان موريتز يدلك صدغيه مقرّرا الكفّ عن التفكير في هذه الأمور التي سيعرف دوافعها وأسبابها في الصباح. من الجائز أن يكون مُحاسبي التموين في الجيش قد أخطؤوا، فيكون قلقه وعذابه غير مجديين. بل يجوز أن يكون واحد من هؤلاء المحاسبين قد أراد أن يسخر منه، فأرسل إليه

أمرا بالمصادرة، بدلا من الأمر بالتعبئة، الذي يرسل في مثل هذه الحالات.

وما كاد يهدأ قليلا ويأمل في نيل قسط من النوم، حتّى تذكّر فجأة أن «آنتيم باليا» مدين له بمبلغ خمسمائة لي. وتذكّر كذلك أن سوزانا، يمكن أن تحتاج إلى بعض المال خلال غيبته. فاستدار نحوها من جديد. كانت سوزانا نائمة على جنبها الأيسر ضامّة وسادة بين ذراعيها.

تردّد موريتز من جديد: «من يدري بمَ تحلم؟!» سوف يحدّثها بأمر المال هو الآخر في الصباح. وهكذا لم يجرُؤ على إيقاظها أيضا...

لم يكفّ لحظة عن التفكير: لسوف يحلّ موسم الأمطار قريبا، فتنهار جدران البئر إذا لم يتمّ حفرها قبل ذلك. «لكنّني قد أعود قبل موسم الأمطار»، وعندئذ كفّ عن التكفير في مشكلة البئر. غير أنّ معضلة أخرى قفزت من زاويتها تعرض نفسها. تلك هي قضية الآجرّ الذي هيّأه لبناء الزريبة. لقد قطع ثمانمائة «لبنة» من الصلصال، صفّها الواحدة فوق الأخرى قرب المنزل، لتجفيفها، ومن ثم شيّها. وكان يعلم أنّه إذا تركها حتّى تجفّ دون أن يُدخلها الفرن، فإنّها ستتفتّت وتتلف، فتذهب مجهوداته هباء. لذلك فقد راح يتعذّب من جديد ويتقلّب على سريره دون أن يجد سبيلا إلى النوم. عاد ينظر إلى وجه سوزانا، وهو يشعر بحاجته إلى التشاور معها. كانت قد كشفت عن نفسها ووجهها مدفون في الوسادة. أدرك موريتز عقم محاولته لأنها لن تكون مفيدة في هذه الظروف بالذات. لذلك فإنه إذا أيقظها، أزعجها دون مبرّر، لأنّ تلك الأمور كانت من عمل الرجال. راح يبحث في ذاكرته عمّن يمكن أن ينوب عنه في شيّ قرميداته قبل أن تتفتّت، فلم يجد بين أصدقائه من يقوم بمثل هذه المهمّة، لأنّ كلّ واحد منهم مشغول عنه بشؤون بيته الخاصة. مع ذلك، فلو أن الوقت كان نهارا لتحدّث في هذا الشأن مع بعضهم. أمّا الآن، فإنّهم ولا شكّ نيام كلّهم، ولا يمكن أن يوقظهم ليتحدّث إليهم عن القرميد. قال في نفسه: «لسوف أغطّي اللّبنات بأوراق الذرة والقشّ

فتؤخّر جفافها، وبذلك تبقى صالحة لبضعة أسابيع أكون خلالها قد عدت إلى مسكني» نهض واقفا وخرج من باب الشرفة الذي كان مفتوحا. كان عاريا تماما، لكنّه لم يشأ العودة إلى الغرفة لارتداء سرواله وقميصه خشية إيقاظ المرأة أو الأطفال.

أخذ لبنة وراح يعاينها على ضوء القمر، فوجد أنّه يجب إدخالها إلى الفرن، في غضون يومين أو ثلاثة، على أبعد حد!

عاد نحو البئر ثم راح يفحص الباحة كلّها، مُنقّبا متأمّلا، وقد نسي تماما أنّه عار من الملابس. نسي موريتز كذلك أن عليه الذهاب في الصباح الباكر، فراح ينظّم في ذهنه تصاميم بناء الزريبة. راح ينظر إلى جدران البيت وسقفه. لقد كانت واضحة تحت ضوء القمر، وكأنّها تسبح في نور النهار.

خُيّل لموريتز أنّ ضياء القمر في تلك اللّيلة قد تجاوز كلّ حدّ سابق فراح يفكّر في العربة التي يريد شراءها، والخيل التي ستجرّها. وانتقل بتفكيره إلى البقرة التي سيشتريها كذلك. وكان قد بلغ في تجواله كومة التبن الموجودة في الفناء، فحمل غمرا منها، ونثره على اللبنات. لا شكّ أن سوزانا تستطيع عمل ذلك صباحا. لكنّه أراد أن يوفّر عليها العمل طالما أنّه قريب من التبن في تلك اللحظة.

وبعد أن نثر التبن، حمل أوراق الذرة للغرض نفسه، وغطّى بها اللبنات. كان يشتغل بسرعة كبيرة، تبعث الدفء في أطرافه. وفجأة صاح ديك قريب، فانتفض موريتز. لقد نسي كلّ شيء عن ذهابه القسري، فذكّره صياح الديك بذلك الأمر المكدّر. شعر بالخجل لوقوفه هكذا في الفناء عاريا من الملابس، فعاد إلى غرفة نومه ووقف في وسطها برهة. كانت زوجته –وهي الأخرى عارية تماما– مستغرقة في نومها، وقد شغلت السرير من أقصاه إلى أدناه، فتمدد بهدوء بجانبها دون أن يوقظها، فلم تشعر بدنوّه منها. لكنّها رفعت ساقها، ووضعتها على ساق موريتز، وسرعان ما نام هو الآخر، نوما عميقا. غير أنّه لم يستغرق في نومه طويلا

إذ لم تمض فترة، حتّى استفاق مذعورا، وراح ينظر حوله. كانت سوزانا لا تزال نائمة، والقمر يبدو معلّقا على طرف النافذة، كخوذة الدركي فحدّق فيه، ولم يغمض له جفن حتّى بزغت الشمس.

-25-

مضى إيوهان موريتز صباحا إلى مخفر الدرك. وكان يمرّ به في طريقه إليه، عدد من القرويين، بين ذاهب إلى الطاحون أو الغابة، أشاح بوجهه عنهم متحاشيا رؤيتهم. فقد كان هو الآخر، سيمضي إلى المطحنة أو إلى الغابة. لكنّه الآن مضطرّ إلى إغفال كلّ هذه الأشياء، والذهاب إلى حيث لا يدري.. لقد كان مُصادَرًا! راودته فكرة الفرار. وقدّر أنّه إذا اختفى في الغابة، فإنّ رجال الدرك لن يستطيعوا العثور عليه وتسخيره، لكنّه تصلّب في مكانه، ولبث دون حراك أمام باب مخفر الدرك. لقد كان متزوجا، وله أولاد، لذلك يتعذّر عليه الفرار. دخل موريتز فناء المخفر. كان رئيس المخفر يحلق لحيته في مكتبه، فانتظر حتّى يفرغ من زينته ليسأله عمّا إذا كان لا يوجد خطأ في الأمر الموجّه إليه. فبلغت أنفه رائحة حليب محترق كانت تفوح في الباحة. شعر بيد توضع على كتفه، فاستدار على عجل، وإذا به أمام أحد الجنود. وكان إلى يمين الجندي ماركو غولدنبرغ، ابن يهوديّ فانتانا. وعجب موريتز كيف لم يرهما عندما اقتربا منه. لقد رآهما في مكانهما، وكأن الأرض قد انشقّت عنهما فجأة. وكان في نظرتهما حقد ومقت. قبض الجندي على ياقة موريتز وأوقفه وكأنه يرفع زكيبة. فخضع موريتز لحركته. لكنّه شاهد فجأة، أنّ يدي ماركو غولدنبرغ، كانتا موثقتين. قال الجندي آمرا:

- قفا الواحد بجانب الآخر!

فكّر موريتز: «إذا كانت يدا ماركو مغلولتين، فالأمر ليس مجرّد دعابة إذن!» اقترب بمرفقه من مرفق اليهودي وهو مذعور. وكان يشعر بخوف كلّما شاهد رجالا موثوقي الأيدي والأذرع. أحسّ موريتز بالحارس وراءه

يُعبّئ سلاحه. أحس به دون أن يراه، لأنه كان جنديا هو الآخر، يعرف هذه المهمّات. وفي الحقيقة فإنّ الدركي كان قد وضع حربته على فوهة بندقيته، فأدرك إيوهان موريتز معنى هذه الحركة، وأغمض عينيه. ولمّا خرج من الفناء مخفورا، ألقى نظرة أخيرة على نافذة مكتب رئيس المخفر. كان هذا قد أسند مرآة إلى زجاج النافذة، وراح ينهي حلاقة لحيته. وأخذ القرويون يتوقّفون في الطريق لينظروا إلى هذا الموكب، وراحت النساء يَطّلعن من دُورهنّ لرؤيته.

ولما بلغ الموكب منزل نيكولاي بورفيري، وضع جمع النساء العائدات من النبع دلاءهنّ في منتصف الطريق ورحن يرسمن إشارة الصليب على صدورهن لدى رؤيتهنّ موريتز ورفيقه مشدودي الوثاق. فأغمض موريتز عينيه من جديد. شعر بشيء يتحطّم في صدره. كان يعرف أنّ من عادة النساء رسم إشارة الصليب على صدورهنّ، كلّما شاهدن رجالا موثوقي الأيدي يخفرهم حرس شاكي السلاح. وكان وقع خطى الجندي وراءه، يرتفع حدّة، بينما لزم كلّ شيء حوله الصمت. لقد تحوّل كلّ شيء إلى سكون يمزقه وقع الخطى الرتيب. كان موريتز يسير وفق خطوات ماركو غولدنبرغ. فشعر بأنّ ساقيه لا تمتّان إليه بصلة، بل تسيران لوحدهما، وأنّ جلد جسمه لم يعد ملكه، بل غريبا عنه، وكذلك الجسد. لم يقتصر الأمر على الجسد وأطرافه، بل تعدّاه إلى الأفكار، كلّ الأفكار، كلّ الأفكار. فانتابه الإحساس بأنّه لا يملك أيّ شيء خاصّ به!

-26-

أنهى رئيس مخفر الدرك حلاقة لحيته، فخرج إلى الفناء وهو يُصفّر. كان الصبح بديعا جميلا. هرع جندي يصبّ الماء على يديه ليغسل وجهه. كان ذلك الجندي يراقب رئيسه ذلك الصباح، فرآه يحلق لحيته بعناية، ويعود بالموس عليها مرتين. فسأله ضاحكا:

- أهي واحدة جديدة يا رئيسي؟

كان الجنديّ قد خمّن أنّ وكيل الضابط ماض إلى لقاء امرأة. وقد صدق تخمينه إذ أن رئيسه غمز له بعينيه دون أن يجيب. ولمّا جفّف وجهه ويديه، ارتدى بدلته الجديدة، وجلس وراء مكتبه. أخذ من أحد المصنّفات، النسخة الثانية من التقرير الذي أرسله ذلك الصباح إلى الثكنة مع الجنديّ الّذي رافق السجينيْن وراح يقرؤه:

«نتشرّفُ بإرسال الشّخصيْن ماركو غولدنبرغ، الدكتور في الحقوق، وله من العمر ثلاثون عاما، وموريتز ايون، مزارع وعمره خمسة وعشرون عاما، اللّذين يشملهما القانون، وفقا لأوامركم السابقة، المتعلقة بمصادرة كل اليهود، والأشخاص المشبوهين في منطقتنا، وإرسالهم مخفورين إلى معسكرات العمل.

التوقيع:

وكيل ضابط أول

نيكولاي دوبريسكو، رئيس مخفر درك فانتانا»

أعاد وكيل الضابط التقرير إلى الإضبارة وهو راض عن نفسه، ثمّ ألقى نظرة على مرآته الصغيرة التي يحتفظ بها في جيبه، وراح يفتل شاربيه وأخيرا نهض من مكانه وتنكّب بندقية، واتجه نحو منزل إيوهان موريتز. لقد أصبحت سوزانا الآن وحدها، وقد ظلّ ينتظر هذه اللحظة، طيلة عامين كاملين. وراح يُصفّر بسرور!

-27-

لم تمض ساعة حتّى عاد رئيس المخفر إلى مكتبه، رغم أنّه أعلن عند خروجه، أنّه سيغيب طيلة النهار. عاد إلى مكتبه رغم ذلك، وهو فريسة للغضب الشديد. كان يبحث عمّا يستطيع تحطيمه، ليفثأ غضبه، فوقع بصره على إضبارة التقارير فأخذها، وعاد يقرأ التقرير الذي أرسله إلى الثكنة، ذلك الصباح، رفقة السجينيْن. ازداد غضبه لدى قراءته،

ووِدّ لو مزّقه إربا، لأنه لم يؤدّ الغاية المرجوّة منه. لقد رفضت سوزانا أن تستقبله كما كان يأمل رغم أنّها أصبحت وحيدة. فلمّا حاول خلع الباب، حملت فأسا ورفعته فوق رأسه مهدّدة بتحطيمه، إن هو اجتاز العتبة. ولم يكن تهديدها من باب الدعابة. كان رئيس المخفر خبيرا بشؤون النساء، فلو أنّه تجاوز العتبة إلى الفناء لنفّذت تهديدها وشجّت رأسه. لذلك فقد تراجع مدحورا، وعاد من حيث أتى، والغضب ينهش أحشاءه. أدرك أخيرا أنّ المحاولة التي قام بها، والتي نجم عنها توقيف موريتز للحصول على زوجته، لم تبلغ غايتها المنشودة. لقد أمضى كلّ ليلته ساهرا، يَغْزِلُ التقرير، سعيا وراء هذه الغاية.

لذلك فقد هتف: «لقد استهلكت الحبر والورق دون جدوى!» وعاد يفكّر في موريتز، فراح يسبّ ويشتم، مستعملا كلّ الكلمات التي في قاموسه.

-28-

وقفت صفوف المساجين في ساحة الثكنة في انتظار الترحيل، فراح موريتز يتأمّل الرجال في ثيابهم الجميلة وهم يحملون حقائب من الجلد. كان يشعر بالتعب وبالألم في قدميه. لم يتفوّه زميله غولدنبرغ بكلمة طوال الطريق إلى الثكنة، لكنّه هو الآخر، غدا منهكا من المشي فأراد الجلوس فترة ليستريح. وكان الباب من ورائهم قد بقي مفتوحا بعد دخولهم. راحت الصفوف تنتظم وتتحرّك، مغادرة الساحة. وجاء ضابط يحمل رزمة من الأوراق في يده، فألقى نظرة على وجه غولدنبرغ الشاحب، ثمّ حدج موريتز بنظرة وقال للجندي:

- كلاهما يهوديّ أليس كذلك؟

وانتزع الغلاف الأصفر من يد الدركي دون أن ينتظر جوابه، وأشار بإصبعه إلى الصفّ الذي كان يخرج من باب الثكنة، وقال لموريتز:

- انتظم في الصفّ رباعا.

راح موريتز ينظر إلى الضابط دون أن يفهم قصده. فقبض على

كتفه، وأداره على عجل، ودفعه نحو الصفّ، بعد أن ركله بحذائه ركلة قويّة، فجرى موريتز، وخرج من الباب، مع بقيّة المساجين.

ولما أدار رأسه، رأى ماركو غولندبرغ يتبعه.

-29-

لبث يمشي حتّى المساء، فلما توقّفت الصفوف لنيل قسط من الراحة، كان المساجين قد بلغوا مشارف المدينة. اقترب ماركو غولدنبرغ من إيوهان موريتز وقال:

- حلّ وثاق يدي.

وأدار له ظهره. كانت يدا غولدنبرغ بيضاوين رقيقتين، وكان رسغاه يحملان علامة حمراء كالدم. فلما حلّ موريتز وثاقه، غمغم:

- شكرا.

لكنه لم ينظر إلى موريتز ولم يبتسم له، بل جلس على الحشائش يحدّق في الأفق بنظرة باردة كالزجاج. جلس إيوهان موريتز بجانبه. كان يريد استدراجه إلى الحديث، فمدّ له قطعة الحبل التي كانت معقودة حول رسغيه وقال:

- هل أنت في حاجة إلى هذا الحبل؟ هل تريد إعطاءه لي؟

فأجاب غولدنبرغ:

- تستطيع الاحتفاظ به!

كان صوته خافتا شديد القسوة. فكوّر موريتز قطعة الحبل، ووضعها بعناية في جيب سرواله وهو يقول:

- من المستحسن أن يحتفظ المرء بقطعة حبل معه، فلا يدري فِيمَ يمكن أن تنفعه!

ابتسم ماركو غولدنبرغ، وكانت تلك أوّل مرّة يراه موريتز فيها يبتسم!

-30-

بلغت فرقة المساجين اليهود نهر توبوليتزا في ذلك المساء بالذات.

وكان قاع ذلك النهر قد جفّ، و على جانبيه تنتصب أشجار الصفصاف وأدغال من الشجيرات التي لم يتمّ نموها.

كان على اليهود أن يحفروا قناة هناك! بينما كانت المنازل تُشاهَدُ في المدى، إذ لم تكن حول المكان قرى قريبة. هناك فقط زريبتان مهجورتان منتصبتان كحارسين على تلك الأرض الشاسعة القفراء. بُنيت الزريبتان أيّام كانت الأرض ملكا لأحد الأديرة، فكان الرهبان يضعون فيها خيول الجرّ والحراثة. وكانتا قريبتين من حدود الغابة. وبالقرب منهما، وقفت إحدى سيّارات النقل العسكريّة الضخمة محمّلة بالمجارف والمحافر والمعاول، وإلى جانبها مرجل كبير لطهي طعام المساجين الّذين اكتفوا بتأمّل السيارة الكبيرة، لأنهم لم يجدوا حولهم ما يلفت الأنظار.

نام المساجين تلك اللّيلة في الحظيرتين، أمّا موريتز، فقد تمدّد على العشب خارجهما. كانت الحشائش ليّنة، فنام لفوره. استيقظ مرّات خلال اللّيل، كان القمر منيرا يغمر السكون، فخُيّل لموريتز أنّه في داره لولا أن وقعت أبصاره على تلك الأجساد الملتفّة بالمعاطف، المنتظمة بترتيب عجيب على جانبيه، فأحسّ بأنه بعيد عن فانتانا، وعندئذ أغمض عينيه.

وفي صبيحة اليوم التالي، أُوقف اليهود في صفّين طويلين وأُحصي عددهم من جديد. وكان إيوهان موريتز وماركو غولدنبرغ معا في ذلك اليوم أيضا. فلمّا ألقى موريتز تحيّة الصباح على اليهوديّ، ردّ عليه أخيرا. بل خُيّل لموريتز أنّ اليهوديّ قد ابتسم.

جاء وكيل الضابط فوقف على رأس الفرقة، ووزّع على المساجين المعاول والرفوش، دون أن يستثني منهم أحدا. وأمر عشَرةً من الرجال بإنزال المرجل من السيّارة ووضعه تحت شجرة جوز أمام الحظائر ثم راح يلقي عليهم محاضرته الأولى. كان وكيل الضابط ذا أسنان فضية وشاربين أسودين. قال لهم: إنّ على اليهود أن يحفروا هذه القناة لمصلحة الدفاع عن الوطن، وأضاف: إنّه ربّ اليهود و إذا أكّد شيئا فإنّ موسى نفسه

في السماء لا يستطيع إلاّ أن يؤيّده في تأكيده ثمّ أطلعهم على أنّ اسمه: أيوستول كونستانتان، وأنّ له ولديّن، أحدهما محام والآخر ضابط.

راح اليهود يصغون إلى خطابه بانتباه. وابتسم بعضهم، لكنهم جميعها كانوا خائفين.

قال وكيل الضابط:

- لن يُقدّم لكم اليوم ما تأكلون، لأنّ المطبخ لم يُجهّز بعد. لكنّكم ستتناولون اعتبارا من الغد، شايا وحساء الفاصولياء مرتين كلّ يوم، إلى جانب نصف رغيف من الخبز.

وابتدأ العمل. كان على كلّ رجل أن يحفر مساحة محدودة من الأرض، فإذا انتهى منها، غدا حُرّا بقيّة النهار حتّى المساء. أمّا إذا لم ينه حصته من العمل، فإنّه يُتّهم بالتخريب، فيُكبّل بالأغلال، ويُحاكم أمام مجلس عسكري بوصفه عدوّا للوطن. لقد أفهمهم وكيل الضابط هذا الأمر تماما، وكان المساجين من جانبهم قد استوعبوه تماما وصدّقوه.

خرج إيوهان موريتز من الصفّ وقال لوكيل الضابط إنّه ليس يهوديا. فأجابه بأنّه لن يُعنى بأيّة شكاية قبل أن يُقيم مكتبه. فعاد إلى مكانه، بجانب ماركو غولدنبرغ وانتظر. كان يعرف أنّ على المرء في الجيش أن يتحلّى بالصبر.

وبعد عشرة أيام، نُصب مكتب الضابط. كان عبارة عن كوخ من الخشب حوى بعض الطاولات والمقاعد، إلى جانب عدد من الأسرّة للحرّاس.

ولما عاد إيوهان موريتز إلى المكتب يعاود الشكوى، استمهله الضابط أسبوعا آخر، لأنّه لم يكن على استعداد حتّى تلك اللّحظة لتقبّل الشكايات ودراستها.

-31-

بينما كان إيوهان موريتز يحفر القناة، ويستخرج التراب بالرفش، سأل زميله الذي إلى يمينه عن اسمه. كان يحبّ أن يتحدّث إلى من

حوله في ذلك المكان المقفر، لأنّ الذين لا يتحدّثون، يضمرون في نفوسهم الحقد ويغذّونه.

سأله زميله:

- هل تخجل من التحدّث بلغة اليديش[1]؟

فأجاب موريتز:

- إنّني لا أتقن اليديش!

- هذا مخجل!

بصق اليهودي على الأرض وأعرض عنه.

التفت موريتز نحو الزميل الذي إلى يساره يحاول تفسير موقفه، غير أنّ هذا أجابه:

- تحدّث معي بلغة اليديش!

فقال موريتز:

- وهذا هو ما أردت أن أشرحه لك. إنّني لا أعرف هذه الرطانة.

راح اليهود ينظرون إليه بحقد. فتوقّف عن عمله محاولا شرح موقفه لهم. غير أنّهم أعرضوا عنه ورفضوا الإصغاء إليه.

«لقد اتّفقوا فيما بينهم على التكلّم برطانتهم. إنّ هذا شأنهم وحدهم، فهم يهود ولهم الحق في التخاطب بلغتهم والتحدث بها. ولكن لماذا أتحدّث أنا برطانة الـ"بيديش؟"».

سأله أحدهم:

- لعلّك تتكلم العبرية إذا كنت قد نسيت رطانة اليديش؟

فرفع موريتز رأسه يحاول الردّ على المتكلّم، فوجدهم جميعا قد توقفوا عن العمل، وراحوا ينظرون إليه وفجأة انفجروا ضاحكين.

هذا ما أثار حفيظة إيوهان موريتز حتى احمرّ وجهه، إذ لم يعد قادرا على كظم غيضه، فقال يحدّث زميله الذي إلى اليمين:

---

(1) يديش: رطانة خاصّة يستعملها اليهود في أوروبا الشرقيّة. (المترجم).

- إذا كانت المسألة مسألة لغات أجنبية، فإنّني أعرف منها أربعا، أتكلّمها بكلّ سهولة، وهذا يُبيح لي أن أسخر منكم، قبل أن تسخروا منّي. كم لغة تعرف أنت؟

فأجاب جاره الأيمن على الفور:

- أعرف اليديش!

ضرب موريتز بمعوله الأرض. تأكّد لديه أنّ اليهود يريدون السخرية منه. كانوا كلّهم يعرفون اللّغة الرومانية، لكنّهم كانوا ممتنعين عن التحدث بها.

وعندما انتهى العمل، جاء إيزاك لانجييل، رئيس الفرقة العجوز، فانتحى بموريتز جانبا، وقال له:

- نمرّ اليوم نحن اليهود بفترة عصيبة. وما دمنا مجتمعين معا ولا غريب بيننا، فمن الواجب أن نتحدث بلغتنا: اليديش.

قال موريتز:

- لكنني لست يهوديا أنا...!

فأجابه إيزاك لانجييل:

- وما فائدة النُّكران بعد أن وصلت إلى هنا؟ كان يمكنك أن تختفي قبل أن تصل إلى هنا. ولو فعلت ذلك، لأحسنت صنعا. أمّا هنا، فإن إنكارك لا معنى له. فإذا لبثت مُصمّما على الإنكار أمامنا، فإنّك عندئذ تكون مرتدّا عاصيا.

- لكنّني يا سيد لانجييل لست يهوديا!

كان صوت موريتز مضطربا متهدجا، فأجابه اليهودي العجوز –ذلك شأنك! إذا كنت تفضّل أن نعتبرك مرتدّا عن الإيمان!..

لبث إيوهان موريتز وحيدا. لم يشأ أحد أن يصدّق أنّه ليس يهوديا، كانوا جميعهم يزعمون أنّه يكذب، وأنّه ليس رومانيّا، بل أنّه يعمد إلى هذه الأباطيل ليغادر المعسكر.

كان اسمه مُدوَّنا في سجلّ المعسكر الّذي كان يمسكه العجوز إيزاك لانجييل، بوصفه يهوديّا. وكان الاسم: موريتز جاكوب. قال لانجييل حينما سجّل الاسم.

- ليس هناك يهوديّ يُسمّى إيوهان. ! إن الاسم اليهودي هو جاكوب. كذلك هو اسمك. إن ايون ليس اسمك كذلك. إنّه ليس ترجمة جاكوب باللغة الرومانية.

كان زملاؤه في المعسكر يسمّونه يانكل، فلم يكن يعترض. لكنّه كان يجد صعوبة كبيرة في تقبّل هذه التسمية. وذات مرّة قال لهم:

- لكم أن تسموني «جاكوب» و«يانكل»، لكنّني شديد الأسف، لأنّكم لا تصدقونني.

-32-

علم إيوهان موريتز أنّ كلّ اليهود الذين يعملون معه في ذلك المعسكر، قد جيء بهم بناء على أوامر مُصادرة رسميّة. فاقتنع عندئذ بأنّ الدولة «تُصادر» اليهود كما تصادر الخيول والعربات وزكائب الحنطة. لكنّه لم يكن يهوديا. وهذا ما كان يريد قوله لوكيل الضابط. لم يكن هناك أحد غير هذا الوكيل، يستطيع موريتز أن يتحدّث معه حول هذه القضيّة، لكنّ وكيل الضابط، لم يكن متفرّغا أبدا ليستمع إلى شكواه. وذات يوم توصّل إلى مخاطبته. كان وكيل الضابط غاضبا محنقا.

- منذ أربعة أشهر وأنت لا تنفكّ تلاحقني وتزعجني! إنّني أرى أنّك عنصر من عناصر الفوضى هنا. كلّما فتحت الباب، أراك منتصبا على العتبة، وفي فمك دائما شكاية تود إبلاغها إليّ. ماذا بك؟ ألا تأكل كفايتك؟ ألا تستطيع العمل؟ ألا يمكنك العيش بغير زوجتك؟

كان إيوهان موريتز، قد أعد خطبته التي سيلقيها أمام وكيل الضابط. وكان يردّد تلك الخطبة كل يوم، خشية نسيانها. كان يريد أن يقصّ على وكيل الضابط قضيّته كلّها. قال وكيل الضابط:

- تحدّث واختصر.

قال موريتز:

- أريد الخروج من هنا لأنّني لست يهوديا

- ألست يهوديا؟

راح وكيل الضابط يحدج موريتز بنظرة. ثم أخذ سجّل المساجين الذي كان على طاولته ففتحه على حرف (م) وراح يقرأ:

- موريتز جاكوب، ثمانية وعشرون عاما، متزوج وله ولدان، قاطن في قرية فانتانا. اسم الزوجة سوزانا، أليست هذه خلاصة أحوالك المدنية؟

فأجاب موريتز:

بلى!

- إذن، كيف تدّعي بأنّك لست يهوديا؟

- ذلك لأنني لست يهوديا.

قال وكيل الضابط:

- إنّ ما تؤكّده هنا شديد الخطورة! فهل تُدرك ما أنت بصدد فعله؟ إنّ كذبة واحدة معناها السجن. وأنت تؤكّد أنّ كلّ ما جاء هنا - في هذه المستندات العسكريّة - خاطئ غير صحيح. إنّك تعرف تماما ما ينتظرك. ومع ذلك، فإنّك تدّعي بأنّك لست يهوديا؟

أجاب موريتز جازما:

- إنّني لست يهوديا!

- ماذا تفعل هنا إذن؟

- لست أدري من الأمر شيئا!

سأل وكيل الضابط:

- لمَ جئتَ تُحدّثني بذلك الآن فقط؟ لقد سجّلت في كلّ الأوراق الرسميَّة، أنّ المائتين والخمسين سجينا الذين يشتغلون هنا في حفر القناة، تحت أمرتي، هم كلّهم من اليهود. لقد كتبت هذا ووقّعت بتوقيعي

عليه، وأنت الآن تزعم بأنّك غير يهودي. ومعنى ذلك، أنّني وقّعت توقيعا خاطئا. إنّ السجن ينتظرني بسبب ذلك!

كان وكيل الضابط أحمر الوجه من الغضب. أردف بعد قليل:

- تستحقّ أن أصفعك مرتين، صفعات تجعل آذانك تدوّي طيلة خمسة أيام متتالية. ومع ذلك فإنّني سآخذ مذكّرة بأقوالك. لكن ما تقوله شديد الخطورة. لذلك سأجعلك تكتب شكواك هذه بخط يدك، وتوقّع عليها بنفسك. إنّ من أرسلك إلى هنا، سيودع في السجن، إذا ثبت أنّك لست يهوديا. ولكن إذا كنت يهوديا، فسوف تغادر المعسكر، إلى سجن الأشغال الشاقة. هل فهمت؟

لبث موريتز واقفا أمام الباب، بينما راح وكيل الضابط يحرّر إفادته. ولمّا انتهى، أخذ توقيعه في ذيلها. لقد جاء في شكواه أن موريتز ليس يهوديّا، وأنه بناء على ذلك، يطلب إخلاء سبيله. فلمّا وقع عليها قال الضابط:

- تستطيع الآن أن تذهب إلى عملك. سأرسل هذه الورقة التي وقّعت عليها، صباح غد إلى الجهات المختصة، ثم سننتظر الجواب.

ابتسم إيوهان موريتز، ولمّا غادر وكيل الضابط، أحسّ كأنه يعود إلى منزله. غير أنّ الحارس «سترول» راح يناديه وهو يجري وراءه. قال له إن وكيل الضابط يود سؤاله عن شيء آخر. فلما عاد، قال هذا:

- اسمع ياموريتز. إنّ لي خمسة وعشرين عاما في خدمة الجيش، وأنا أب لأسرة كبيرة، لا أريد التخلّي عن مركزي، وخسارة مستقبلي، بسبب شكواك. إن قضيتك ليست من السهولة كما تبدو لك. إن اسمك موريتز، فإذا لم تكن يهوديا، لماذا تدعى موريتز؟ ثم إنّك تتحدث لغة بيديش، فهل رأيت رومانيا واحدا يتكلم هذه اللغة؟ هل أتكلّم هذه اللغة أنا؟

أجابه موريتز:

- لقد تعلّمت هذه اللغة في المعسكر! عندما يعرف المرء اللغة الألمانية،

ويسمع من حوله يتحدّثون كلّ ساعات اليوم بلغة ييديش، فإنه سيتعلّمها أخيرا بسهولة. إنها ليست لغة صعبة.

فقال وكيل الضابط:

- اصغ إليّ، أولا إن اسمك من الأسماء اليهودية، ثانيا، إنك تتكلم الييديش، وثالثا: أنت مُسجّل في هذه الأوراق بوصفك يهوديا وبعد كل هذا، تحاول أن تقنعني بأنك روماني؟

كان وكيل الضابط ممسكا بيده الشكوى التي وقع عليها موريتز، فوضعها على الطاولة، وكأنه يلقي بها إلى سلة المهملات.

لم يبارح إيوهان موريتز الغرفة، كان الغضب يكتم صوته في حنجرته. قال بجهد:

- أقسم بكل القديسين على أنني لست يهوديا يا سيدي الضابط.

فأجابه وكيل الضابط:

- هذا ما سنتأكد منه فيما بعد. أمّا الآن، فقد أخذت علما بشكايتك ولسوف أرفع إلى الجهات المختصّة مشاهداتي الشخصيّة. إنّني رجل عادل، ولقد كنت كذلك طوال حياتي. لقد أخذت علما إلى جانب شكايتك الخطيّة بأنّ اسمك يهوديّ وأنّك لا تدري مصدره، وأنّك تتكلم لغة الييديش، لكن تفيد بأنّك تعلّمتها في المعسكر، وأنّ عددا من الشهود يؤيّدون أقوالك. إنّك لم تكن تعرف هذه اللغة حين مجيئك إلى هنا، أليس كذلك؟

أجاب موريتز:

- كلاّ.

- حسنا، لننتقل إلى نقطة أخرى. ما هو مذهبك؟

- أورثوذكسي.

نظر إليه وكيل الضابط بارتياب:

- ألا تعرف الطريقة التي يُعمّد بها اليهود؟

- بلى أعرفها.

- وهل تعلن بأنك لست مُعمّدا مثلهم؟

- إنّني لست معمدا مثلهم.

- هل أنت متأكد؟

- كلّ التأكّد، يا حضرة الضابط.

قال وكيل الضابط آمرا:

- حسنا، امض إلى النافذة، وقف بالقرب منها، وأثبت لي عمليّا أنّك لست مُعمّدا كاليهود!

اقترب إيوهان موريتز من النافذة، وفكّ أزرار سرواله، وتركه يسقط بين قدميه، ولبث عاريا وهو ينظر إلى وكيل الضابط. قال هذا:

- إن هذا لا يستوجب أن يحمرّ وجهك كالنساء، ليس في الأمر ما يُخجل. قف أمام النور ودعني أرى. أريد أن أرى بأمّ عيني، لأتأكد ممّا ينبغي أن أكتبه في تقريري.

خرج وكيل الضابط من وراء مكتبه، وركع أمام موريتز، وراح يفحص المكان المعيّن، بعناية ودقة. كان يقارن ما يراه بما يسمعه، لكنّه لم يكن يعرف الفرق الحقيقي، بين حالة المسيحيين وحالة اليهود من ناحية العماد. وكان عليه أن يتحرّى الدقّة في تقريره. وأخيرا نهض واقفا، وأشعل لفافته، ووجهه شديد الاحمرار. قال:

- إنّك تسبب لي كثيرا من المتاعب يا موريتز. أتظنّ بأن الوطن أرسلني إلى هنا لأتمتّع بالنظر إليـ.. ك؟ أنا عسكري يا فتى، وهذه المسألة لا تدخل ضمن اختصاصي. وإذا كنت قد قمت بذلك، فإنّما رغبة منّي في تحرّي العدل. يجوز أن لا تكون يهوديا، وعندئذ لا يجوز لي أن أستبقيك هنا.

فتح وكيل الضابط بابا مؤدّيا إلى غرفة جانبيّة، واستدعى الحارس «سترول» وقال له آمرا:

- افحص موريتز، وقل لي إذا كانوا قد «قطعوها» له مثلك تماما.

فركع سترول أمام موريتز. لقد كان موظّفا في أحد البنوك، فكان يقوم بكلّ شيء بدقّة حسابيّة، وبكثير من التمحيص، تماما كما يستدعي الحال مع الأرقام. أخذ يفحص المكان بعناية، من كل النواحي ثم وقف وقفة «الاستعداد» العسكريّة وقال:

- إذا كان مختونا، فإنه ولا شك ختان سطحي.

فقال وكيل الضابط:

- ما معنى «سطحي» هذه؟ أجبني بوضوح: هل ختن أم لم يختن؟

أجاب سترول:

- لا أستطيع الجزم، يخيل إليّ أن هناك قطعا جزئيا، لكنني لا أستطيع الجزم، إذا كان ذلك قد وقع من قبل أحد الربانيين، أم حدث لأسباب أخرى.

- هل رأيت يا موريتز كيف أن قضيّتك شديدة التعقيد؟ لكنّني مع ذلك سوف أرسل هذه الأوراق. والآن يمكنك الذهاب، أما أنت يا سترول، فابق هنا لتساعدني في كتابة التقرير!

خرج موريتز من المكتب وهو يزرّ سراويله ساهما.

-33-

بعد توقيف إيوهان موريتز، قصد الكاهن كوروغا مخفر الدرك إثر عودته من المدينة. كانت الساعة تشرف على التاسعة صباحا. كان رئيس المخفر قد وصل لتوّه عائدا من القرية، والغضب يعصف به. قال رئيس المخفر:

- إنّني شخصيا، تلقيت أمر التسخير فنفّذته. هذا كلّ ما في الأمر! لا أستطيع إعطاءك معلومات أخرى، لأنني لا أعرف عن هذا الموضوع أكثر مما تعرف، فالجأ إلى قيادة الدرك في المدينة، لتعطيك المعلومات اللازمة.

سأل القس:

- هل موريتز في قيادة درك المدينة؟

- لا أعرف هذا الأمر كذلك. حتّى ولو كنت أعرف، لما جاز لي أن أخبرك به، إنها أسرار عسكريّة. فالرجال المصادَرُون، يعملون في التحصينات. ولا يجوز إشاعة أسماء الأمكنة التي يعملون فيها.

نهض الكاهن، وشكر رئيس المخفر للمعلومات التي قدمها إليه، وقصد المدينة بعد ظهر ذلك اليوم، حيث قيادة الدرك، لكنّ إيوهان موريتز لم يكن هناك، لأن أحدا لم يسمع شيئا عنه.

سأله ضابط شاب:

- هل كان ذلك الفتى يهوديا؟

فأجابه القس!

- بل مسيحيا أورثوذوكسيا. لقد كان تابعا لكنيستي.

فقال الضابط:

- إنّه إذن لم يرسل إلينا! اذهب إلى مخفر درك القرية، واطلب منهم أن يزوّدوك بالرقم الذي أرسل بموجبه. فنحن لم نتلق البارحة واليوم، إلاّ قوافل اليهود. وما دام الرجل موضوع البحث، حسب إفادتك، غير يهوديّ، فإنّه لا يمكن أن يكون في عدادهم.

فقال الكاهن جازما:

- إنّه ليس يهوديا.

عاد الكاهن صباح اليوم التالي. ومعه رقم التقرير المرسل، فراح الضابط الشاب يبحث في سجّل هناك ثم قال:

- نعتذر عن عدم إمكاننا إعطاءك أي علم، لأنّ الإضبارة سرية. ينبغي لك من أجل ذلك، أن تحصل على ترخيص من وزارة الحربيّة.

قال الكاهن:

- أريد أن أعرف فقط، إذا كان موريتز، موقوفا في المكان الذي هو فيه الآن. إن المعلومات التي أطلبها، لا يمكن أن تكون ذات صبغة سرية.

فأجاب الضابط:

- إنّه موقوف حيث هو. لكننا لا نستطيع ذكر اسم المكان الذي هو فيه. بل إننا لا نعرف المكان إطلاقا، لقد أودع إلى الأركان. وأركان حرب الجيش، لا تطلعنا على الأمكنة التي يرسل إليها الرجال الذين تستلمهم من عندنا، ولا على ما تفعل بهم.

كان صوت الضابط قاسيا، لأنه وجد اسم إيوهان موريتز، في سجلّ اليهود. لذلك فقد راح ينظر إلى القسّ باحتقار.

فلمّا نهض الكاهن يغادر الغرفة، هتف الضابط بصوت مرتفع، متعمّدا إسماعه ما يقول:

- إنّه كاهن، ولكنه يكذب كخالعي الأسنان! إنّه يعلن بأن الشخص موضوع البحث، مسيحي أورثوذوكسي، بينما اسمه مسجل في سجل اليهود. إذا عاد مرّة أخرى إلى هنا، فاطردوه!

-34-

كتب الكاهن كوروغا، إلى ابنه تريان، يُطلعه على أمر توقيف إيوهان موريتز، ويرجوه أن يتوسط لمصلحته، لدى وزارة الحربيّة والأركان العامّة. فتلقّى من ابنه ردّا جاء فيه: إنّه تدخل في كل مكان أمكنه الوصول إليه، وحصل على وعد بإطلاق سراح موريتز.

مضى على وصول ردّ تريان إلى أبيه أسبوعان، ثم ثلاثة فأربعة أسابيع! ومضى بعد ذلك شهر آخر، وكان الصيف قد شارف على نهايته. وأقبل فصل الخريف، وإيوهان موريتز لم يعد بعد إلى منزله. فمضى الكاهن ألكسندرو كوروغا إلى محافظ المنطقة ليبسط له الأمر. وبينما هو في طريقه إلى المدينة، صادف العجوز غولدنبرغ، والد ماركو، فدعاه إلى الركوب في عربته. كان اليهودي العجوز قد أصبح هزيلا. قال شاكيا:

- منذ اليوم الذي أوقف فيه ماركو، وأنا لم أتلق خبرا عنه.

ثم تنهّد متحسرا وأردف:

- لقد صرفت ثروة طائلة، على تثقيفه في جامعتي بوخارست وباريس، فلمّا حصل على شهادة الدكتوراه عاد إلى البيت، فأوقفوه، وأرسلوه ليحفر الخنادق، وكأنه قد حصل على الدكتوراه في الحقوق ليحفر الخنادق!

أخرج الكاهن رغيفا حارًا من حافظته، شطره إلى قسمين، قدّم أحدهما إلى العجوز غولدنبرغ.

وراحا يأكلان بصمت. كان الطريق قد بدأ في الصعود، والحصان يجري الهوينى. فلمّا بلغا قمّة التلّ، قال اليهودي:

- لقد أخذوا بيتي، لقد صادروه! لسوف أضطر إلى إخلائه خلال أيام قليلة، وإلاّ، فإن رجال الدرك سينفونني. إنّه البيت الذي بنيته بعرق الجبين. لقد صودر ماركو أولا، والآن يُصادر البيت. فما هي جريمتي يا أبي؟

سكت اليهودي وتوقف الحصان. وبعد فترة صمت، أردف اليهودي:

- لسوف أشنق نفسي آخر الأمر. لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك!

عاد الحصان يسير، فلما بلغت العربة مشارف المدينة، ترجّل غولدنبرغ منها، ورآه الكاهن يختفي في أزقّة الغيتو الضيقة.

-35-

مضى الكاهن كوروغا إلى المحافظة، بعد أن افترق عن غولدنبرغ. لقد ترك للحصان حريّة المشي على هواه، وراح ينظر حوله إلى البيوت. مئات من البيوت المنضّدة طبقات بعضها فوق بعض، لا تني تتسامى وتتصاعد إلى أعلى، دائما إلى أعلى!

توقّف الحصان أمام دار المحافظة، من تلقاء نفسه، لأن الكاهن في الآونة الأخيرة، كان يتردّد على المكان مرّة كلّ أسبوع على الأقلّ ليتسقّط أخبار موريتز. وكان الحصان يعرف إلى أين يقصد الكاهن كلّما جاء إلى المدينة، لذلك فقد وقف أمام البناء بهدوء. وكان المحافظ دائم التغيّب عن مكتبه، أمّا في الحالات القليلة التي يكون فيها موجودا، فإنه جمّ الأعمال والمشاغل، لذلك فإنّ القس ألكسندرو كوروغا لم يتوصل أبدا

إلى التحدث معه. وكان أمناء السرّ والحُجّاب قد عرفوه، فكانوا يبتسمون له بإشفاق كلّما رأوه. لكنّ ابتسامة اليوم التي ارتسمت على وجه أمين السر لم تكن كالابتسامات التي درج الكاهن على رؤيتها منطبعة على وجهه. قال أمين السر:

- إنّ حضرة المحافظ مستعدّ لاستقبالك. سوف يحين دورك خلال نصف ساعة.

انتظر الكاهن ساعة، وبعدها أُدخل إلى مكتب المحافظ فقال له:

- إنّ شابا تابعا لبيعتي أوقف منذ ستة أشهر وأريد معرفة مكان وجوده، وأسباب توقيفه. لقد سمعت أنّه في واحد من معسكرات اليهود. لكنّه مسيحي وروماني. وأنا الذي عمّدته بنفسي، لذلك فقد أردت التوسط لإطلاق سراحه.

قال المحافظ:

- إنّني، من حيث المبدأ، أرفض كلّ وساطة!

- لكنّ الرجل الذي أحدثك عنه، ليس مدانا بأيّ جرم.

فأجاب المحافظ:

- لكن الرجل الذي جئت تحدثني عنه، موجود في معسكر اليهود كما ذكرت بنفسك!

- صحيح ولكنّه ليس يهوديا.

- إنّ الأمر سواء فهو باعتباره في واحد من معسكرات اليهود يقع تحت سلطة قوانين وأنظمة مرعية خاصة لا تدخل في نطاق سلطتي. هذا جواب المسألة الأولى. وهناك مسألة ثانية، وإنّني أعتبرها رئيسية وهامة ومن أجلها منحتك هذه المقابلة. إليك المسألة الثانية: إنّني لا أحب أن يتدخّل قساوسة محافظتي مع السلطات بشتّى وسائل التدخّل، بدلا من أن يصرفوا عنايتهم إلى كنائسهم. نحن الآن في حالة حرب، وينبغي أن يكون كلّ إنسان في مكانه المحدّد له. اعتبر إنذاري هذا رسميا. فأنا لا

أحبّ أن أرغم على اتّخاذ خطوات شديدة حيالك شخصيا، لكنني سأكره على ذلك إذا تكرر منك الأمر.

أجاب الكاهن بهدوء:

- إن العمل لخير الإنسان والعدالة الإنسانيّة هو بنفس الوقت العمل من أجل الكنيسة ومن أجل الله. فأنا إذ أتدخّل لصالح إيوهان موريتز، إنّما أتدخّل لصالح الكنيسة والله، وهذه هي مهمتي كقس. إن ما وقع لإيوهان موريتز غير عادل.

قال الحافظ بصوت جازم شديد اللهجة:

- لا وجود للعسف والظلم إلاّ في مخيّلتك. إنّنا في حالة حرب ونحن نحارب من أجل الوطن والكنيسة ضد الرجال. فهل تعتقد بأنّ إرسال شخص ما ليعمل في الحصون، ويخدم بذلك غايتنا المقدّسة عمل جائر؟

أجاب الكاهن:

- إنّ هذا الشخص إنسان. وهذا الكائن البشري قد أُوقف وأرسل إلى الأشغال الشاقة دون أن يكون مذنبا، أو أن يمثل أمام محكمة.

- هذه ترّهات يا أبي. لو أننا عنينا بأمر كلّ شخص على حده، لاكتسحتنا الموجة البلشفية، ولأصبحنا الآن معلّقين إلى الطرف الثاني من حبل متين. بل إنّك ستكون أوّل من يردّ هذا المصير. إننا متأكدّون من أننا نحارب من أجل الدين!

- إن من لا يهتمّ بشأن الإنسان كرجل، لا يمكنه الادعاء بأنّه يناضل من أجل الصليب. لا يمكن أن يكون إنسان مدافعا عن الدين، وفي الوقت ذاته عدوّا له.

- لعلّك تريد إذن أن نخلي سبيل «موريتزك» وأن نترك البلاشفة يدخلون بلادنا، فيحرقون كنائسنا، ويستبيحون نساءنا، ويغلّوننا في الحديد. أهكذا تفهم معنى النضال من أجل الكنيسة؟

- إن أنبل المثل القوميّة الاجتماعيّة أو الدينيّة، لا يمكن أن تعذر حيفا

يلحق برجل واحد. إنّ تحويل الرجال إلى رقيق باسم المسيح، ليس إلاّ جريمة ضد المسيح.

سأل المحافظ:

- هل أنت واثق بأن الشخص موضوع البحث ليس يهوديا؟

- كلّ الثقة.

- إذن، لقد ارتُكب عار مريع! ينبغي أن يعاقب المذنب. من الّذي أعطى أمر المصادرة؟

فأجاب الكاهن:

- لست أدري. فلا عمل لي منذ ستة أشهر إلاّ سؤال السلطات: الشرطة، الدرك، الجيش وفي كلّ مكان. ولكن ما من مجيب. وكلّما سألت، أجابوني بأنّ الأمر سرّ.

قال المحافظ:

- إنّ سلوكهم طبيعي لا غبار عليه. فهذه الأعمال شديدة السريّة. أنا الآخر، لا أستطيع أن أعلمك بشيء. ينبغي أن تمرّ شكواك بالأركان العامة قبل كل شيء. وعندما نتلقى تصريحا من هناك، فإنّنا عندئذ فقط نستطيع أن ننظر في الإضبارات، لنعلم من الّذي وقّع أمر المصادرة. وإذا كان في الأمر سوء تصرّف، فلك أن تتأكد من أن المتسبّب سيعاقب عقابا رادعا صارما يكون فيه عبرة لسواه. لكنّنا لا نستطيع إعطاءك المعلومات التي تريدها، دون أن تكون في يدك ورقة رسمية، تصرّح لك بمتابعة هذه المسألة.

نهض المحافظ إيذانا بانتهاء المقابلة. لكن الراهب كوروغا لم يتحرك من مكانه. قال:

- أيجوز يا سيّدي المحافظ، أن يكون الإنسان قد انحدر في عدم الإحساس، لدرجة صار معها كالآلة الصمّاء، فيصمّ أذنه عن نداء أترابه؟ إنّني لا أستطيع الاعتقاد بأنّك لم تفهم شكواي. إنّك إنسان.

والإنسان ذو شعور وأحاسيس وروح. إن الإنسان ليس آلة، فهلاّ حقّقت بنفسك في المظلمة التي لحقت بايون موريتز في واقع الحال؟

فقال المحافظ:

- لكي أكون شديد الإخلاص معك يا أبي، ينبغي أن أعترف لك، بأنني شديد الأسف، لأنني لا أستطيع خدمتك. إنّني أعتقد بأنك على صواب. إنّني أقول لك ذلك لأنني أنا الآخر ابن كاهن. لكنّني في واقع الحال لا أهتم باليهود، ولا بالماسونيين، أو بالحرس الحديدي. إن هذه الأمور شديدة الخطورة، يمكن أن تجلب النحس والضرّ على كل من يتعرّض لها. أنا موظّف، ولا أريد أن أقضي على مركزي ومستقبلي بالتدخّل في هذه الأمور. هذا كل شيء.

نهض الكاهن كوروغا، فضغط المحافظ على يده قبل خروجه وقال:

- إنّني آسف إذ لا أستطيع نفعا لرجلك.. ماذا كان اسمه؟ أظنّه موريتز! زرني في مناسبات أخرى، وستراني في خدمتك.

-36-

توقّف الكاهن أمام كنيسة قائمة عند مدخل المدينة. كان يفكّر في رئيس مخفر درك فانتانا، وفي المحافظ، وفي ذلك الضّابط الشابّ الذي قابله في مركز قيادة الدرك، وفي كلّ رجال الشرطة والموظّفين الّذين تركوه ينتظر على أبواب مكاتبهم، وهم يحتفظون بإيوهان موريتز سجينا بين أيديهم فرفع قبّعته وراح يبتهل بالصلاة التالية:

«لنصلّ الآن، من أجل أولئك الذين يمتلكون جزءا حقيرا من السلطة، لنصلّ من أجل كلّ أولئك الّذين يحقّقون ثم يعيدون التحقيق للتأكّد من صحّته، من أجل أولئك الذين يعطون الصلاحيات، ويشرّعون الممنوعات لنبتهل حتّى لا يؤمنوا بالحرف والرقم، فيعتبروهما أكثر حقيقة وأشدّ حياة من اللّحم والدم.. واعمل يا مولانا، اعمل على أن نحافظ نحن الآخرين، نحن المواطنين البسيطين على هذه الأرض، بين الرجل

والوظيفة التي يشغلها. اعمل على أن يمثل في ذهننا دائما، أنّ تلك الحالة التي نخضع لها، ونمرّ بها، لم تخلق إلاّ بسبب نفاد صبرنا، أو كسلنا أو سوء تصرّفنا، أو خوفنا من الحريّة، أو أخيرا بسبب طغياننا الشخصيّ، وأنّنا بذلك نتحلّل من خطايانا».

فرغ الكاهن من صلاته، فغطّى شعره الأبيض بقبّعته، ومضى في طريق الأوبة إلى فانتانا. التقى عند الساحة غولدنبرغ، الذي كان هو الآخر قد عاد من المدينة. فلمّا وصل الحصان أمام اليهودي، توقّف. كان الحصان يعرف التاجر اليهودي، ويعرف أن الكاهن، كان يحمله معه في عربته كلّما التقى به.

-37-

تلقّى رئيس مخفر فانتانا، أمرا بتنظيم جدول، يحوي على كلّ ممتلكات اليهود في قريته. فأحصى كل ما يمتلكه العجوز غولدنبرغ في جدول لكنّه لم يرسله. كان يعرف أن موريتز، يقيم هو الآخر في معسكر لليهود. صحيح أن رئيس المخفر، عندما أرسل موريتز مع أمر المصادرة إلى المدينة، لم يدع بأنّه يهودي، لأنه لو فعل ذلك، لارتكب خطأ فاحشا لأن موريتز كان رومانيا عريقا. لكنّه سخّره حينذاك، بوصفه شخصا غير مرغوب فيه، لأن التعليمات الصادرة بشأن مصادرة الأيدي العاملة، كانت تبيح ذلك بالنسبة لليهود وحدهم، والأشخاص غير المرغوب فيه. فكان ما عمله رئيس المخفر إذن، قانونيّا، لأنّ أي دركيّ كان يستطيع اعتبار أيّ كان شخصا غير مرغوب فيه لأنه لم تكن هناك أوامر دقيقة، تحدد الخطوط التي يجب أن يسير رجال الدرك على هديها. لكن موريتز، سُجّل في قيادة درك المدينة في سجلاّت اليهود. وكان ذلك خطأ قيادة الدرك، أو بالأحرى خطأ موريتز نفسه، لأنه كان يحمل اسما يهوديا. كان رئيس مخفر فانتانا، قد بدأ يشعر بأسف لما وقع منه. لقد ظنّ بادئ الأمر أن موريتز سيحتجز لبضعة أسابيع. ولكن ستة شهور قد

انقضت، دون أن يعود. وها هو الآن يتلقّى أمرا بإعداد جداول تحصي ممتلكات اليهود في قريته. فإذا تحرّى الحقيقة، فإن منزل موريتز لا ينبغي أن يصادر. لكن السجلات في قيادة الدرك، كانت تتضمن اسمين يهوديين في فانتانا: العجوز غولدنبرغ وموريتز!

فلو أنّه كتب إلى قيادة الدرك بأن موريتز ليس يهوديا لقام تحقيق فوريّ لمعرفة أسباب توقيف إيوهان موريتز، وما كان رئيس المخفر يرتضي بمثل هذه الخاتمة لأن سوزانا تستطيع أن تشهد ضده. كذلك كان لا يستطيع أن يدرج بيته وما يملك في قائمة ممتلكات اليهود. لذلك فقد راح يطلب مشورة اليهودي العجوز غولدنبرغ.

- إذا طلّقت سوزانا زوجها، يصبح من حقّها الاحتفاظ بالبيت، لأنها ليست يهودية. ولا يمكن إثبات انتسابها إلى هذه الطائفة. على كل حال. فإن كل اليهود في المدينة الذين تزوّجوا بمسيحيات، قد تصرّفوا على هذا النحو.

كان رئيس المخفر يحدّث نفسه، بأنّ سوزانا لن توافق أبدا على الطلاق. لأنها تعرف بأن موريتز ليس يهوديا، لذلك فإن القضية ستنتهي بفضيحة، خصوصا إذا خطر لها أن تستعين بأحد المحامين، فعندئذ سيفتح تحقيق سريع بهذا الصدد!

قال غولدنبرغ العجوز:

- إنّ الطلاق يسهل الحصول عليه. إذ يكفي أن تسجّل المرأة إقرارا خطيًا، تقول فيه: إنها تريد ترك زوجها «لأسباب تتعلّق بالنظام القوميّ». وعندئذ يمنح الطلاق، بمجرد إبراز الورقة. بل إن ذلك يتمّ دون محاكمة ولا مقابلة. إنّ كلّ شيء يُسوَّى بطريقة إدارية. إنها القوانين الجديدة!

-38-

كتب رئيس المخفر طلب الطلاق بنفسه، وكأنه سُجّل بناء على رغبة سوزانا، ومضى إليها ليحصل على توقيعها على الطلب. قال لها:

- إن زوجك في أحد معسكرات اليهود، ولقد تلقيت الآن أمرا بمصادرة

بيتكم. لأن زوجك مسجّل في الإضبارة بوصفه يهوديا. لكنني أعرف بأنه ليس يهوديا. بيد أن اسمه، يحمل له الشقاء. فلماذا بحق الشيطان سُمّي موريتز؟

كانت سوزانا تصغي إليه، وقد اعتمدت ذقنها على الباب. كانت تحدّق في وجهه. وفجأة طفرت الدموع من عينيها الكبيرتين الذاهلتين. قالت:

- لقد أخذت مني زوجي، والآن تريد أخذ داري. من الخير لي أن أقتلك ولو كنت دركيا! لن تحصل على بيتي!

انحنت سوزانا، فأخذت حجرا كبيرا، قذفته به من فوق الباب فارتمى رئيس المخفر جانبا ليتفادى الحجر وصاح:

- لست أريد أخذ بيتك. لقد أتيتك بهذه الورقة لتوقيعها، وعندئذ تستطيعين الاحتفاظ بالبيت.

ومدّ إليها يده بطلب الطلاق وبقلم الحبر. أخذت الطلب، لكنّها لم تستطع قراءته، لأنّ عينيها كانتا ممتلئتين بالدموع، سألت:

- ماذا في هذه الورقة؟

فأجابها رئيس المخفر:

- إنّه طلب طلاق. إنّه مجرد شكليّات، لتستطيعي المحافظة على البيت.

صرخت محنقة:

- أتريد أن تطلّقني من زوجي؟

كانت هائجة كالنمرة الثائرة تريد تمزيقه إربا. لكنّه قبض على إحدى يديها من فوق الباب، وراح يحاول تهدئتها:

- إنها مجرد شكليات، إنّه ليس طلاقا حقيقيا. إذا لم توقعي على هذا الطلب فسأضطر خلال أيام قليلة مقبلة أن أخرجك من البيت. فأين تذهبين مع ولديك ونحن على أبواب الشتاء؟

صمّت سوزانا أذنيها. ما كانت تريد سماع شيء ممّا يقول. وقالت بعناد:

- إنّ إيماني زوجي، وإنّني أفضّل الموت على الافتراق عنه.

لبث رئيس المخفر أمام الباب قرابة ساعة كاملة، فأحسّت سوزانا بالإنهاك. لقد بكت كثيرا خلال تلك الساعة. دخلت إلى المنزل لكنّها عادت من جديد إلى الباب تقذف رئيس المخفر بالحجارة. بل إنها أخذت فأسا وهدّدته بها. لكنّها فكّرت أخيرا، أنّ من الخير لها أن توقّع على ورقة تافهة، بدلا من أن تتشرّد مع ولديها في ذلك الشتاء. سوف يفهم موريتز عند عودته وسيصفح عنها، لأنها وقّعت على تلك الورقة. سوف يتأكد من أنّها لبثت مخلصة له وفية على عهده، وأنها اشتغلت بدأب ونشاط، فاحتفظت ببيتها، واهتمّت بأولادها، وأنها لبثت زوجته وحده، فقط. لذلك فقد وقّعت على الورقة. فوضع رئيس المخفر طلب طلاق سوزانا في جيب بزّته الداخليّ ومضى. كان مطمئنا، يستطيع النوم تلك اللّيلة دون وجل لأنه تأكد من أنّه بعد أن حصل على توقيعها، قد أبعد نهائيا إمكانيّة قيام تحقيق جديد!

ولو أن الرئيس جاء يحقق في الأمر، لأودع في السجن يومين أو ثلاثة أيام. أما الآن فقد زال الخطر، فابتسم وراح يصفّر.

-39-

كان السجناء في معسكر موريتز، يستطيعون الفرار بكلّ سهولة، لأنه لم يكن هناك أكثر من خمسة جنود لحراستهم،. لكنهم كانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا الإفلات، وأنّهم إذا قبض عليهم من جديد، ساءت عاقبتهم. لذلك فإنّهم لم يحاولوا الفرار.

وقد فرّ ماركو كولدنبرغ. لكنّه لم يكد يبتعد، حتّى صادف وكيل الضابط على الطريق، فأعيد من جديد إلى المعسكر.

جمع وكيل الضابط السجناء قبل ساعة العمل وقال لهم:

- ماذا ينبغي أن أصنع؟ هل أكبّل ماركو غولدنبرغ بالحديد وأرسله إلى المحكمة العسكريّة؟ أم أتركه هنا؟ هل ستتعهّدون بحراسته لمنعه من القيام بأية حماقة من هذا النوع؟

تعهّد المساجين بحراسته واحتمال تبعات فراره. كان ماركو غولدنبرغ حتّى ذلك اليوم، بعيدا عن أعمال الحفر. لقد كان مريضا كل الوقت، فاستخدم كناظر إعاشة في المكتب. لكنّه بعد تلك المحاولة أعيد لأعمال الحفر فجاء العجوز لانجييل، وحدّد له المساحة التي عليه إنجاز حفرها يوميا، وسلّمه رفشا ومحفارا.

رفض ماركو غولدنبرغ. كان يفضّل أن تقطع يديه على أن يحفر أخدودا واحدا في الأرض. قال محتجّا:

- إنّ هذا العمل يتنافى ومعتقداتي السياسيّة.

تحلّق المساجين حوله. لم يكن أحد منهم يحفر القناة، استنادا إلى معتقدات سياسيّة. لذلك فقد سرّهم جميعا إرضاء فضولهم بالإصغاء إلى ما يقول.

قال ماركو غولدنبرغ:

- إنّ هذه القناة تحفر لتعرقل زحف الجيش الأحمر. وأنا شيوعي، لذلك لا أريد بأيّ شكل من الأشكال أن أضع العراقيل في طريق رفاقي!

قدّر المساجين موقف ماركو وشجاعته، وكانوا كلّهم على اتفاق حول ذلك. لكنهم لمّا عرفوا أن حصّة ماركو من الحفر ستضاف إلى حصصهم في حالة رفضه العمل فيها، خفّت حماستهم بسرعة فائقة. أعطى العجوز لانجييل إشارة البدء بالعمل، ووعد بتسوية الأمر.

وما إن بدأ السجناء بالعمل حتّى قصد لانجييل موضع ماركو الّذي ظلّ واقفا على حافة القناة ويده في جيبه، فوقف إلى جانبه. وقال:

- إنّنا معشر اليهود، نمتاز بخاصيّة لا يجازينا فيها أيّ شعب من شعوب الغرب. إنّنا نعرف كيف نساوم ونعقد الصفقات. إنّ شعبنا حكيم، يقدّر التراضي ويحتقر المواقف المغيظة. إنها فضيلة احتفظنا بها من الشرق. أنت تفهمني ولا شك. إنّ من يستطيع توفير العنزة والملفوف معا، رجل عاقل. لكنّك احتقرت الحكمة وتجبّرت، متناسيا أنّ هذا الموقف الذي

اتّخذته، خاص بالشعوب البربريّة، الشعوب العسكريّة. إنّ الأمم الراقية المهذّبة تستطيع نيل مشتهاها باتخاذ مواقف متعدّدة معا، فتنتقي من بينها دائما، الموقف الذي ينطبق على الحالة الراهنة. إذا كنت لن تبالي بهذه الحكمة، فذلك شأنك، لقد فهمنا أنك لا تريد حفر القناة معنا.

أجاب ماركو:

- لن أحفر مهما كان الثمن!

- لكنّ حصّتك من الحفر، ينبغي أن تحفر كلّ يوم، طيلة مدّة بقائك هنا. ينبغي أن يقوم أحد بحفرها. لقد كنت حتّى اليوم في المستشفى، ولكن اعتبارا من اليوم...

أجاب غولدنبرغ:

- إنّني أعرف ما تقول، لكنّني لن أحفر!

فقال لانجييل:

- إذا لم تشتغل، وجب أن نشتغل بدلا منك. لقد قمنا بذلك اليوم. ولكن ليس من المعقول أن تظلّ هكذا، دون عمل، ويداك في جيوبك، بينما نشتغل نحن من أجلك!

قال ماركو غولدنبرغ باحتقار:

- إنّني لم أسألكم ذلك! إذا شئتم القيام بهذا العمل، فهو شأنكم. إذا كنتم تجدون فيه متعة...

- إنّنا لا نجد فيه أيّة متعة. وأنت تعرف ذلك. لكنّنا مع ذلك لا نستطيع إطلاع وكيل الضابط على موقفك ليرسلك إلى المحكمة العسكريّة والأغلال في يديك.

- قولوا له إنّني مخرّب! لمَ لا تذهبون إليه وتقولن له ذلك على الفور!

قال لانجييل:

- أصغ إليّ يا ماركو، إنّك دكتور في الحقوق، وينبغي أ ن تدرك حقيقة الموقف. إنّنا لا نستطيع أن نطلب توقيفك وأن نراك خارجا من

المعسكر تحت حراسة الحراب. لا نستطيع عمل ذلك. إنّ الفاشيّين اليوم، يطاردون اليهود في كل أوروبا، كالوحوش الضارية. لكن الفاشيين أعداؤنا يا غولدنبرغ. أما نحن اليهود، فإننا لا نستطيع أن نطلب سجن يهودي وسوقه إلى المحكمة العسكريّة. لكننا لا نستطيع أن نحفر ونشتغل بدلا عنك. إننا لا نكاد ننهي كل يوم، نصيبنا المقرّر من العمل.

سأل ماركو هازئا:

- ما فائدة هذه الموعظة؟ أتأمل أن تأخذني بالعواطف؟ إذا ظننت أنّك تستطيع إقناعي، فثق بأنك تضيع وقتك!

قال لانجييل:

- لن تبلغ بي السذاجة هذا الحدّ. أنت متعصب. وكلّ متعصب ليس إلاّ وحشا ثائرا يجدر الابتعاد عنه. غير أنّ لك أبا وأما. أو! إنّني أعرف أنّك لا تفكّر فيهما. لكننا نحن نفكر فيهما بدلا منك. إنّهما ينتظرانك في البيت. أنت يهوديّ، ولا يمكننا أن ننسى ذلك. إنّك أخونا، وفي عروقنا يجري دم واحد. إنّ الأمر كذلك ولو أنك نسيته، ولهذا السبب ترانا نبحث عن حلّ بالتراضي لتعصّبك، ولصالح طائفتنا وعواطفنا التي تهزأ منها.

كان السجناء الآخرون ملتفّين حولهما، يصغون إلى حديثهما.

قال لانجييل:

- إنك لا تريد أن تشتغل في القناة لأنها تمثل عائقا في طريق رفاقك في الجيش الأحمر. لا يمكننا أن نرغمك على العمل، لكن يجب أن تقوم بعمل ما، لا يحمل صبغة سياسيّة أو عسكريّة، فهل تفضّل مثلا أن تنظّف المراحيض؟ نحن نقوم بهذا العمل دوريا، فإذا كنت توافق على القيام به كلّ يوم، فإنّ الذي سيحلّ دوره في تنظيفها، سيحلّ محلّك في العمل في القناة. لكنني أخطرك بأنه عمل تتقزّز منه النفس، إلى جانب المشقّة التي فيه.

كان لانجييل العجوز واثقا من أن غولدنبرغ، عندما يجد نفسه مرغما على الانتقاء، لن يتردد في قبول العمل في القناة. كان يعرف أنّ أيّ سجين

لا يستطيع مقاومة اشمئزازه من العمل الآخر، والصمود فيه أكثر من يومين متعاقبين. فكيف الحال إذن بالنسبة إلى رجل فكر!

- فكّر في أمرك جيّدا. إنّني أمهلك حتّى مساء هذا اليوم.

فقال ماركو:

- لا جدوى من الانتظار. لقد اتخذت قراري.

- إذن؟ ماذا؟

فأجاب غولدنبرغ:

- سأنظف المراحيض. إنّه نشاط إنشائيّ على الأقل. إنّ العمل في القنال إجراميّ، فاشيّ، ومعارض. أفضّل أن أقوم بتنظيف المراحيض كلّ يوم، على أن أساهم في إقامة عارض في وجه رفاقي من الجيش الأحمر.

امتقع وجه لانجييل العجوز، بعد أن فشلت خطته. فقال آملا أن يبدّل ماركو رأيه:

- لعلّه من الأفضل لك أن تفكّر مرّة أخرى، قبل اتّخاذ مثل هذا القرار.

فأجابه غولدنبرغ:

- لا حاجة مطلقا إلى إعادة التفكير.

وأدار له ظهره.

لم يجرؤ أحد من المساجين على الدنوّ من غولدنبرغ والتحدّث إليه، غير أن إيوهان موريتز وحده، وجد تلك الجرأة. قال له:

- إنك مجنون يا ماركو! كيف تستطيع تفضيل تنظيف المراحيض كلّ يوم؟ إنّه أسوأ من الأشغال الشاقة!

فصرخ ماركو:

- اغرب عن وجهي! إنّني أعرف وحدي ماذا يجب أن أعمل!

فأجاب موريتز:

- لا يبدو عليك ذلك!.

شعر إيوهان موريتز بأنّ نظرات ماركو غولدنبرغ، كانت مشابهة كلّ الشبه لنظرات إيورغو إيوردان.

فابتعد عنه.

-40-

شعر العجوز لانجييل، غداة اليوم التالي، بتبكيت في ضميره. لقد تأكّد من أنّه أساء التصرّف حيال غولدنبرغ وكان العجوز شديد الحساسية، فمضى ذلك المساء إلى ماركو، يحاول حمله على تبديل قراره. كان يريد انتشاله من ورطته بأيّ ثمن. كان يشعر بأنّه حكم عليه بنفسه بذلك العمل.

لم يكن ماركو قد انتهى من عمله. كان ينقل طيلة يومه، الدلاء الملآى بالنفايات القذرة من الحفر، ليلقيها خارج حدود المعسكر، في الحقول.

وكان المطر قد هطل باستمرار، فصارت الحفرة تمتلئ دائما بالماء. وأصبحت مهمّته شديدة الصعوبة. كان ماركو منهوكا من التعب، هزيلا ضعيف الرئتين. قال له لانجييل:

- أظنّ أنك ستعدل الآن عن رأيك. إنّه ليس بالعمل الذي يلائمك.

انحدر ماركو إلى الحفرة فملأ الدلو، ثم جمع الأقذار بالمجرفة.

أردف لانجييل:

- لو كنت مكانك، لما استطعت البقاء طوال اليوم في كلّ هذه القذارة، وسط هذه الرائحة الكريهة.

لم يجب ماركو. كان لا يستطيع الانتصاب، ومع ذلك فقد استمرّ في عمله. حمل الدلوين، ومر أمام العجوز. فلما عاد قال له لانجييل:

- لسوف تمتلئ بشرتك وثيابك بهذه الرائحة. ولن تستطيع نيل قسط من الراحة اللّيليّة بسبب هذه الرائحة الكريهة.

كان العجوز يريد أن يقول له إنّه يستطيع أن يعود إلى العمل في المكتب، اعتبارا من صباح الغد. لكن ماركو لم يكن قادرا على الاستماع إلى كلامه. لقد كان على آخر رمق. وكان يحمل في يده مجرفة، فرفعها بين يديه، وأغمض

عينيه، وضرب بها بكلّ قواه. أصاب حدّ المجرفة لانجييل في جمجمته فترنح. غير أنّ ماركو ما كان يراه في تلك اللحظة. كانت يداه متقلصتين على مقبض المجرفة، فأهوى بها مرّة ثانية فثالثة. لكن الضربات كانت في تلك اللحظة، تصيب الفضاء، لأن العجوز كان قد سقط على الأرض، إثر الضربة الأولى. لبث ماركو في مكانه والمجرفة في يده. فلما فتح عينيه، شاهد العجوز لانجييل، ملقى على الأرض، تحت قدميه، مشطور الرأس. لم يكن يريد قتله؛ لقد عمل بوحي يأسه، لكنّه لم يأسف على ما عمل.

-41-

انقضت أربعة أشهر على هذه الحادثة. كان إيوهان موريتز يرى بعين الخيال، رأس العجوز وقد شطرته الأداة الجانبية إلى شطرين، وماركو وهو يخرج من المعسكر، بين حراب الجنود. لكن تلك الصورة كانت تبدو قديمة باهتة، لفّها الماضي في أردانه. أحيانا يتساءل، عمّا إذا لم يكن قد مضى على هذه الفاجعة دهر كامل. إنّ الأموات، سرعان ما يُنسَوْن. صحيح أنّ ماركو لم يكن قد مات، لكن أولئك المحكومين بالأشغال الشاقّة يُنسَوْن أيضا بسرعة، تماما كما يُنسى الأموات.

كان الثلج يتساقط ذلك اليوم، فأعلن وكيل الضابط، مجيء أحد الجنرالات في دورة تفتيشيّة. قال لهم:

- إنّنا ننتظر كذلك زيارة الملك. سيأتي الملك لمشاهدة القناة التي حفرناها. إن الملك هو الذي وضع مخطط هذه القناة بالذّات لذلك فإنه يودّ رؤيتها.

راح موريتز يفكّر في ماركو الذي يجب أن يكون في تلك اللحظة في أحد المناجم، يكدّ ويكدح، في ظروف شديدة الصعوبة. ثم فكّر في الملك الذي وضع بنفسه تصميم القناة. كان يراه جالسا إلى مكتبه، يرسم والقلم في يده، مثلما يرى المرء مثل ذلك في الصور. كانت القناة طويلة، يبلغ طولها مائة كيلومتر وتزيد. لكنّ كلّ واحد من السجناء لم يكن يعرف منها إلاّ

الجزء الذي حفره بنفسه، لأنه لم يكن يستطيع تصوّر مسافة أكبر من التي ينجزها. كان عمق القناة ثلاثة أمتار، وحافتاها مائلتين بانحدار شديد وكانت ستُملأ بالماء. أخذ موريتز يحاول تخيّل الماء وهو يجري في القناة، في ذلك المكان الذي كان يحفر فيه في تلك اللحظة. وخُيّلت إليه البواخر وهي تسير، بعد الحرب، في تلك القناة! أمّا الآن فإنّها تحفر لعرقلة الزحف الروسي. لذلك فإنّ العمل فيها سريّ، والملك وحده وعدد من جنرالاته هم الذين يعرفون مكان تلك القناة وسرّها. لقد أطلعهم وكيل الضابط على ذلك. كان موريتز يحلم غالبا بالملك وإلى جانبه بعض الجنرالات، يتهامسون وينحني بعضهم على آذان بعض يتحدثون.

كانوا يتناقشون بشأن القناة التي اشتغل في حفرها، هو، موريتز! لقد أدرك السبب الذي من أجله، كان السجناء ممنوعين من الكتابة إلى ذويهم، إلى زوجاتهم وأطفالهم. كان ينبغي أن يظلّ سرّ القناة مكتوما، يجهله الروس. لقد أنبأهم وكيل الضابط، بأنّ للروس جواسيسهم، وأنّ هؤلاء منتشرون في كلّ مكان، يحاولون أخذ رسوم القناة التي يشتغل فيها، هو، موريتز، لكن رجال الشرطة كانوا دائما يعتقلون أولئك الجواسيس. لذلك فإن الجواسيس، لا يمكن أن يخلى سبيلهم، لأنهم إذا عادوا إلى بيوتهم فإنّ سرّ القناة لا شكّ سينتشر ويذيع.

كان إيوهان موريتز، يودّ من صميم قلبه، أن يعود ذات يوم بعد الحرب، إلى هذه القناة، برفقة سوزانا زوجته، وولديه، ليريهم الأمكنة التي اشتغل فيها. ستكون القناة عندئذ مملوءة بالماء لكنّه هو، موريتز، كان يعرف المواضع التي حفرها. كان قد حدّدها في ذاكرته، ليرجع إليها بعد الحرب. سوف يذهل ولداه. لن يصدقا أنّه كان في ذلك المكان بالذات، قبل القناة، حقل شاسع تمرّ فيه الماشية. سوف يرويان الخبر لزملائهما في المدرسة، ويقصّان عليهم عمل أبيهما المجيد... سوف يفخران بأب مثله! لأن الأولاد الآخرين لن يكون لهم آباء أتمّوا مثل هذا المشروع

الجبّار. لقد كان موريتز في البيت: لعلَّ اللبنات قد جفت أكثر ممّا ينبغي فتلفت، لعلّ سوزانا لم تستطع نقل الأخشاب من الغابة، لعلّها لم تتمكن من قطف الذرة كلّها.. إلخ.. كانت تلك الأفكار تحرمه نوم اللّيالي. لكنّ ذلك العذاب، لم يدم إلاّ ريثما أمضى فترة في المعسكر. وبعدئذ، تبدلت آراؤه رويدا رويدًا، حتّى بات يقول في نفسه: لا شك أن سوزانا رتّبت الامور كما يجب، إنّ كل ما تعجز عن عمله بجهودها كامراة، سيعود هو لينجزه بعد قليل. كان منذ ذلك اليوم الذي خلع فيه سراويله متعرضا لفحص وكيل الضابط الذي اقتنع أخيرا بأن موريتز ليس يهوديا، لا ينفكّ يأمل في إطلاق سراحه. كان يعتقد بأنّ إخلاء سبيله قد وصل منذ زمن طويل إلى المعسكر. لكن إطلاق سراحه، كان متعذّرا قبل أن ينتهي من حفر القناة. وسيحضر الملك وجنرالاته لرؤية القناة التي ساهم في حفرها، وسيصدرون حكمهم، وبعدئذ، سيطلقون سراحه. لم يعد موريتز حاقدا على الدولة لأنها أرسلته إلى هنا. كان بادئ الأمر، حاقدا على الجنديّ الذي رافقه من فانتانا إلى المدينة، ناقما على رئيس مخفر فانتانا الذي كان يعتقد بأنه هو الذي «صادره». بل إنّ ذلك الاعتقاد ما يزال راسخا في نفسه حتّى اليوم، لكن نقمته قد خبت. وعندما سيعود إلى القرية، سيرفع قبّعته، محييا رئيس المخفر دوبريسكو إذا صادفه، تماما كما كان شأنه معه في الماضي. لكنهم لو أطلقوا سراحه قبل سبعة أشهر مثلا، وقابل رئيس المخفر، لأدار له ظهره بل لأهانه أيضا، لأنه تعرّض لسخريته اللاذعة لما أبلغه أمر المصادرة. غير أنّ غضبه قد تبخر الآن، بعد هذا الوقت الطويل. إنّ كلّ شيء يزول بفعل الزمن. كان يعرف أنّه سيعود إلى داره عمّا قليل. كان يذوي حنينا لزوجه، وأولاده، وقريته. لا شكّ أنّ الأولاد قد نموا خلال هذا الوقت. سيركض «بيترو» ولده الثاني، نيكولاي، إلى صدره! كان موريتز يهدهد هذه الأحلام في خياله، يرى نفسه واقفا أمام منزله، والصورة التي تمثلها عن ولديه، تخرج إلى حيز التنفيذ

والحقيقة. سوف يقصّ على سوزانا كيف اشتغل وأين كان يشتغل. لكنّه لن يحدّثها عن الضربات التي نالها واحتملها، وسوف يكتم عنها أنّه كاد أن ينفق من الجوع. إذ ما فائدة التحدث إليها في تلك الأمور؟ سوف يقول لها فقط: إنّه تعلّم اليديش، وما من أحد في المعسكر، حتّى من اليهود أنفسهم كان يُصدّق أنّه روماني. لم يصدّقوه، إلاّ بعد أن أمره وكيل الضابط بخلع سرواله، ليتأكّد بالنظر إلى.. لسوف تضحك سوزانا، بل سوف تغرق في الضحك، حين يعلمها بأن وكيل الضابط أمر سترول، المهتمّ بشؤون الإعاشة في المعسكر، بفحصه كذلك. سيحدثها بأنّ وكيل الضابط وسترول، وقفا ذاهلين وقالا له:

- ينبغي لنا أن نخرجك من هنا، لأنك لست يهوديا، ولأنّ الملك أمر أن يحفر اليهود وحدهم هذه القناة.

سوف تسعد سوزانا عندما ترى أن كل المضايقات والمصاعب قد انتهت، وأنه عاد إلى مسكنه. سوف تقترب منه مدلهة في حبه، وستقول له وهي تلتصق به:

- إنك زوجي، إنك أغلى عندي من الشمس التي تلتمع في كبد السماء!

تلك كانت أحلام موريتز، وهو ينتظر زيارة ذلك الجنرال. لكنّه أنبئ في ذلك اليوم بالذات، بأن الجنرال لن يحضر إلاّ في الغد. فتفرّق المساجين، بعد أن كانوا مُنظّمين في صفوف مرتبة، وبيد كل واحد منهم محفرته.

استدعى موريتز إلى المكتب. قال له سترول:

- إنّ وكيل الضابط يريد أن يحدّثك.

شعر موريتز بوجيب قلبه يشتدّ ويتعالى. حدّث نفسه بأنّ أمر الإفراج عنه قد وصل. لذلك فقد استدعاه وكيل الضابط إلى مكتبه. لكنّه لم يسأل سترول عن ذلك. كان يجهد في إخفاء سروره، لأنّ ظلاً من الريب كان يمتدّ على الحريّة المنتظرة. كان يعرف أنّه سيطلق سراحه بعد الانتهاء

من حفر القناة، لكن القناة لم تنته بعد. لذلك فإنّ هذا الخبر السارّ قد سقط عليه من السماء. كان وكيل الضابط يرتدي كسوة جديدة. وكانت أرض المكتب مفسولة بالماء، استعدادا لزيارة الجنرال، وطاولة المكتب مغطّاة بالورق الأزرق النظيف، والإضبارات مرتبة بعناية، في رزمة صغيرة. توقف موريتز أمام الباب وقام بالتحيّة. كان شديد اللهفة لمعرفة الخبر السار، لكنّه كان يتصنّع الجهل بكل شيء، لأنه ما كان يريد أن يبدو في فرحته كالأطفال الصغار. كان هناك إلى جانب وكيل الضابط، الطبيب ساموئيل أبراموفيسي. لقد كان هذا الطبيب في عداد المساجين. لكنّه توصل إلى توثيق عرى الصداقة مع وكيل الضابط، فكان لا يبرح مكتبه. جلس سترول في زاويته أمام منضدته الصغيرة المغطّاة -هي الأخرى- بالورق الأزرق. كانوا كلّهم يحدّقون في وجهه بعيون متسعة! كانوا عابسين. وأخيرا بدأ وكيل الضابط الحديث:

- موريتز، يا فتى، إنّ زوجتك قد طلقتك! إنها لم تعد زوجتك.

واستمر يفتل شاربيه بهدوء وأردف:

- لقد أرسلوا إلينا إعلام الطلاق الذي ينبغي أن توقّعه، لتثبت بأنك اطلعت عليه.

وضع وكيل الضابط الورقة على حافة المكتب ومدّ إلى موريتز يده بالقلم. لكن موريتز لم يتحرك من مكانه. استرسل الضابط:

- إنّ الطلاق قد طلب، بناء على أسباب قومية دينية. إنها لا تريد أن تكون زوجة يهودي!

واسترسل وكيل الضابط بلهجة عاتية:

- مع ذلك، فقد قصصت عليّ سلسلة من الأكاذيب تؤكّد أنك مسيحي وروماني! لقد كنت تريد خداعي، هم؟ إنك ما كنت تعتقد أنك تتعامل مع ثعلب عجوز أشدّ مكرا منك! إنّني لم أرسل شكواك، وأراني قد أحسنت صنعا! إنّ زوجتك تطلب الطلاق منك لأنك يهودي. إنها تعرف أكثر من

أي شخص آخر لون رجلها الديني، أليس كذلك؟

راح وكيل الضابط يبتسم. لكنّه لما نظر إلى وجه موريتز ورآه يشحب ويمتقع، اختفت ابتسامته. قال:

- إنّ كل النساء كذلك! لا شك أنّها منذ أن ذهبت، فتشت عن رجل آخر! إن النساء كلهن ساقطات! باه! لا يجب أن تحزن...

ودّ موريتز لو يمزق وكيل الضابط إربا. ما كان يستطيع تقبّل القول بأنّ زوجته ساقطة. راح يصرف على أسنانه والغضب يعصف في كيانه. حاول بما أوتي من جهد أن يتمالك نفسه، لكنّه شعر بجفاف في حلقه. كان على وشك الانفجار.

قبض أصابعه وبسطها ليمتنع عن ضرب وكيل الضابط. كان يريد أن يضرب كلّ من كان حوله. قال:

- إنّ زوجتي ليست ساقطة.

فأجابه وكيل الضابط:

- إنك صادق في قولك. إنّك رجل ذو زوجة غير ساقطة، لأنّك لم تعد زوجا لأحد. لقد كنت زوجا حتّى...

وأخذ وكيل الضابط الورقة التي كانت على حافة المكتب، وعاد يقرؤها، ثم استرسل مردفا:

- حتّى اليوم الثلاثين من كانون الثاني. إنّ هذا هو تاريخ منحها الطلاق. لقد أصبحت منذ هذا التاريخ أعزب.

عاد وكيل الضابط يبتسم، وكذلك الطبيب أبراموفيسي. لكن ابتسامة هذا الأخير كانت باهتة. قال موريتز:

- إنّ زوجتي لم تطلب الطلاق! إنّني أعرف سوزانا.

فقال وكيل الضابط:

- إذا كنت لا تريد التصديق، فذلك شأنك. لكن ينبغي أن توقّع على هذا العقد إشعارا باطّلاعك على الطلاق، وعودتك إلى حياة الشباب!

قال موريتز بعناد:

- إنّني لست أعزب.

- حسنا! إنك لست أعزب. لكن ينبغي أن توقّع على هذا العقد رغم ذلك!

حدّق موريتز في قلم الحبر الذي كان وكيل الضابط يقدّمه إليه وهتف:

- لن أوقّع على شيء!

غضب وكيل الضابط، واحمرّت وجنتاه. تذكر أنّه عسكريّ، وأنّ جواب موريتز كان لونا من العصيان. فصاح آمرا:

- وقّع! أنسيت مركزك؟ هل فقدت صوابك؟

أخذ موريتز القلم. كان في تلك اللحظة، قد تلقّى أمرا وجبت عليه طاعته.

كتب اسمه على الورقة، في المكان الذي وضع وكيل الضابط إصبعه عليه بأسفلها، ووضع القلم على المكتب، ثم استدار ليغادر الغرفة. كانت عيناه مملوءتين بالدموع، ورأسه يدور. فقال وكيل الضابط:

- اقرأ! ينبغي أن تعرف ما وقّعت عليه.

فأجاب موريتز:

- لا حاجة إلى القراءة! لكنّ يده كانت تتلمّس في الظلام، فلم يوفّق في العثور على أكرة الباب.

قال الطبيب أبراموفيسي، وهو يمدّ إليه يده بعلبة «السجائر»:

- ابق ريثما تدخّن «سيجارة».

عاد موريتز على أعقابه، وأخذ اللفافة وراح يدخّن. لم يذكر الزمن الذي قدم له الطبيب اليهودي النار ليشعل لفافته. كان يبذل جهدا كبيرا لتحديد الزمن. غير أنّه لم يكن يرى حتّى تلك اللحظة، إلاّ لهَبَ الزناد، اللهب الأصفر، وهو يتراقص أمام عينيه، ويتسع بإفراط.

سأل الطبيب:

- هل لديك أطفال؟

أفاق موريتز من استغراقه، وأجاب على السؤال. لكنّه شعر أنّ الجواب لم يصدر من فمه هو. أحسّ كأنّ شفاها أخرى هي التي كانت تتحرك فخرج من المكتب، دون أن يدرك كيف خرج، ولبث بقيّة النهار مستلقيا على الأرض المكسوّة بالثلوج، على حافة القناة. لم يكن يشعر بالبرد. كانت ألوف الأفكار تدوّي في رأسه وتموج. وكانت الورقة التي وقّع عليها، تثير غضبه كلّما عاد إليها بالتفكير.

في صباح اليوم التالي، مضى إلى وكيل الضابط، فطلب رؤية الورقة وقرأها. كان حتّى تلك اللحظة، لا يصدّق ما سمع. أمّا الآن، فقد رأى الأمر على حقيقته. لقد طلبت سوزانا الطلاق منه، لأنها اعتقدت هي الأخرى بأنه يهودي! ولا شكّ أنّها وجدت رجلا آخر.

لم يعاود الغضب لمّا كرّر وكيل الضابط قوله، إنّه أضحى أعزب. صحيح أنّ يدا خفيّة كانت تعتصر قلبه، لكنّه لم يغضب، لأنه أدرك صدق قول الضابط وتحقّق منه، لقد قرأ الحقيقة بأمّ عينيه!

-42-

بدا وكيل الضابط صباح اليوم التالي، مرتديا كسوته الجديدة أيضا، وانتظر السجناء حتّى الظهر، وهم في صفوفهم على طول القناة. غير أنّ الجنرال لم يحضر.

وفي اليوم الثالث، عاد وكيل الضابط إلى ثوبه القديم. أعلن أنّ الجنرال ساخط، لذلك، فإنه لن يحضر لرؤية القناة.

لبث المساجين أسبوعا كاملا لا يشتغلون. ثم انتقل المعسكر إلى الشمال.

كان السجناء حتّى ذلك اليوم، يحفرون في أرض رخوة صفراء، أمّا الآن، فقد وجب حفر القناة، في أرض صخريّة.

أخذ وكيل الضابط السيّارة الكبيرة، ومضى ليحضر أدوات جديدة، لأنّ الأدوات القديمة ما كانت تصلح للحفر في المناطق الصخرية. لبث

متغيّبا ثلاثة أيّام، عاد بعدها بحمولة سيّارتين كبيرتيْن من الأدوات الجديدة الصالحة لتحطيم الصخور والحفر في الأراضي الصعبة المتينة. أصبح العمل شاقّا، صعبا، والطقس شديد البرودة. ظل موريتز يكدح طوال ذلك الشتاء. كان الغذاء رديئا والرجال يتساقطون كالذباب، بين مريض وميت. لكن موريتز لم يمرض. لقد أصيب بألم في حلقه دام أسبوعا، ثم تماثل للشفاء. كان العمل يسير ببطء شديد. لقد كانوا في شهر نيسان في المكان الذي بدؤوا منه قبل أربعة أشهر. لم يحفروا أكثر من عشرات الأمتار. يقال إنّ خمسمائة ألف رجل قد حفروا القناة ذلك الشتاء. ومع ذلك، فإن العمل سيستمرّ كامل ذلك الصيف، ولن ينتهي إلى خريف العام التالي. وفي تشرين الأول، ستملأ «القناة» بالماء. لكن السجناء، تلقّوا أمرا بعد بضعة شهور بالكفّ عن العمل. أبلغهم وكيل الضابط، أن أركان حرب الجيش قد عدل عن حفر القناة، وأنّ الملك شارل الثاني قد خُلع عن العرش ولاذ بالفرار، وأن كل «الجنرالات» الذين ساعدوه في وضع مخطط القناة، قد عزلوا وفرّوا معه، وأنّ عددا من «الجنرالات» يؤكدون أن تصميم حفر القناة، غير نافع ولا مجد، فأصدروا الأمر بالتوقّف عن العمل. حُمل اليهود في قطارات، ونقلوا إلى الحدود الغربية من رومانيا، لإقامة حصون هناك ضد هنغاريا.

ولما غادر إيوهان موريتز المعسكر إلى الحدود، كان شديد الأسف، لأنّ الملك لم يحسن وضع مخطط القنال، ولأنّ العمل الذي قام به هو وزملاؤه أصبح عديم النفع والجدوى.

-43-

أُقيم المعسكر الجديد في غابة، على الحدود الرومانية الهنغارية. لبث السجناء ثلاثة أيام كاملة، في القطار. وقد حملوا معهم أدواتهم التي استعملوها في حفر القناة. أما وكيل الضابط، فقد حمل معه مكتبه الكامل، ذلك الكوخ الخشبي، ونقله بواسطة القطار، بينما نقل سترول

مصنّفاته وإضباراته. ولم ينقل المساجين غير القمل الذي وجَد في أجسادهم مرتعا خصبا، فكان كلّ واحد منهم يحتفظ بعدد كبير منه! غير أنّ الأدوات القديمة، لم تكن ذات فائدة في المعسكر الجديد. كان عملهم الجديد مقتصرا على قطع الأشجار لإقامة التّحصينات. لم يكن إيوهان موريتز قد رأى طيلة حياته تحصينات عسكريّة، بل إنّه لم يكن يعرف كيف تشاد وتقام. ومع ذلك فقد كان يقطع مع زملائه المساجين غابات كاملة، وينقلون جذوعها إلى الحدود.

ألوف مؤلّفة من الرجال كانت هناك، دأبهم قطع الأشجار ونقل الجذوع عبر الوادي وإليه.

وكان إيوهان موريتز يتوق إلى رؤية التحصينات، لكنّه لم يفلح قط في رؤيتها. كان يعتقد بأنهم سيقيمون من تلك الأخشاب سورا هائلا مرتفعا بين الهنغاريين والرومانيين. ولعلّ ذلك هو رأي أركان حرب الجيش، إنّه لا يدري من الأمر شيئا، لكنّه كان ينتظر بفارغ الصبر أن يرتفع السور الهائل الذي سيفصل بين البلدين. وحين ينتهي بناء السور، سيستطيع هو، موريتز، أن يراه من مكانه، في أعالي الغابة. لقد سمع بأن الهنغاريين يقيمون تحصينات مماثلة على حدودهم، فظلّ يتحرّق شوقا لمعرفة أيّ سور سيكون أعلى من الآخر وأكثر ارتفاعا. كان يسره سماع وكيل الضابط يقول: إن التحصينات الهنغارية لا تساوي شيئا، وإنّ الرومانيين يستطيعون تخطّيها في ليلة واحدة لو شاؤوا. بيد أن الرومانيين لا يريدون ذلك. كان إيوهان موريتز يتخيّل مرور الجنود الرومانيين إلى هنغاريا، بل إنّه كثيرا ما تاق إلى رؤية ذلك الخيال يتحقق. ولو أنّه كان هناك عند نشوب القتال، لأمكنه رؤيتهم وهو في مكانه من الغابة. كان وكيل الضابط يؤكد لهم أن التحصينات الرومانية ستبلغ مبلغا في الارتفاع، لن يستطيع معه أي عصفور أن يحلّق فوقها. وكان موريتز يتصوّر أن تلك التحصينات، ستكون مرتفعة «جدا جدّا» لأنه كان يعرف أنّ هناك

بعض الطيور تبلغ في تحليقها مبلغا تكاد العين تعجز عن رؤيتها، بسبب شدة ارتفاعها. فإذا كانت تلك الطيور، لن تستطيع تخطّي التحصينات الرومانية والتحليق فوقها، وقد أكد وكيل الضابط ذلك، فإنها –أي التحصينات– ستكون عجيبة، حتّى أنّ من يكون أسفل السور، لن يستطيع رؤية من يكون في أعلاه لأنه سيكون عندئذ مرتقيا قمم الغمام والسحب، متساميا إلى السماء. وكان إيوهان موريتز يتساءل عن المكان الذي ستحتلّه الجذوع التي يقطعها بنفسه. كان يود لو يؤشّر عليها بعلامة فارقة ليستطيع تمييزها في مكانها من السور. لعل تلك الجذوع ستكون في القمّة المرتفعة السامية. كان يفكّر كلّ يوم في مثل هذه الأمور وهو منهمك في قطع الأشجار. لذلك فقد مرّ الوقت بسرعة، وهو مستغرق في تلك الأحلام التي كان يمكن أن تكون حماقات سخيفة! والحقيقة أنّه لو أتيح لأحد اكتشاف أفكاره وتخيّلاته ومعرفة تفاصيلها، لضحك حتّى يستلقي على قفاه. ومع ذلك، فقد كان معجبا بآرائه. لم يكن يريد التفكير في بيته وقريته. فمجرّد التنويه بهذه الأشياء يدفع الدم إلى رأسه!

وذات يوم جميل، جاء سترول يبحث عنه في الغابة ويدعوه للمثول في المكتب. لم يكن موريتز، منذأن وقّع على تلك الورقة المشؤومة، قد استدعي إلى المكتب قطّ، ولم تطأ قدماه عتبته. كان لا يستطيع نسيان تلك الكارثة كلّما دخل المكان، ورأى المناضد والإضبارات ووكيل الضابط. فما زال الركن الذي وضع عليه وكيل الضابط الورقة ودعاه إلى التوقيع عليها، ماثلا أمام عينيه، مازال يذكر، كيف أسند مرفقه إلى المنضدة، وهو يكتب اسمه على قرار الإعلام بالطلاق. لذلك فإنّه لم يرغب في العودة إلى المكتب أبدا. لكنّه بعد أن استدعي رسميا، لا يسعه إلاّ أن يطيع. لم يكن وكيل الضابط في المكتب، بل كان هناك الطبيب أبراموفيسي، وسترول والطاهي، واسمه هورتيج. حيّاهم موريتز فردّوا له تحيّته بتودّد، وقدّموا إليه مقعدا.

قال الطبيب أبراموفيسي:

- إنّ وكيل الضابط ليس هنا، لذلك نستطيع أن نتحدّث بحرية وهدوء.

قدّم اليهودي «سيجارة» إلى موريتز. كان ذلك الطبيب يحصل دائما على لفافاته، وكانت دائما من النوع الثمين. استطرد الطبيب:

- يانكل، لقد هجرتك زوجتك.

فامتقع وجه موريتز وزمجر قائلا:

- هذا ليس من شأنك. إنّه أمر يخصّني وحدي، وليس لسواي أيّ علاقة به!

فقال الطبيب أبراموفيسي ملاطفا:

- أردت أن أقول لك فقط: لا أحد سينتظر أوبتك إلى البيت إذا غادرت المعسكر. وأنا أعتقد شخصيًا بأنّه لن يستطيع أحد أن يغادر المعسكر قبل انتهاء الحرب. والحرب قد تدوم عشر سنوات!

زفر إيوهان موريتز متوجّعا. إنّه إذا لبث في المعسكر عشر سنوات أخرى، فلن يخرج منه إلاّ وقد غدا شعره أبيض.

سأل الطبيب:

- هل تودّ الذهاب إلى بلد آخر؟

تذكّر موريتز، أنّه أراد مرّة الذهاب إلى أمريكا مع غيتزا ايون. وراح يحدّث نفسه بأنّ «السماءَ لو أمطرت ذلك اليوم، لو لم يقابل سوزانا تلك اللّيلة لكان الآن في أمريكا.». نعم لو أنّه لم يقابل سوزانا تلك اللّيلة، لكان اليوم في مكان بعيد، ولما كان يمكن أن يكون في معسكر اليهود.

قال بمرح:

- إنّني أود من كل نفسي أن أذهب! لقد اعتزمت الذهاب إلى أمريكا ذات يوم، لكن ذلك لم يتمّ...

فأجابه الطبيب أبراموفيسي:

- لكن ذلك سيتمّ هذه المرة. إذا كنت تريد الذهاب، فإنك خلال

بضعة أشهر ستكون في أمريكا.

نقل موريتز بصره بين أبراموفيسي وسترول وهورتيج. كانوا يحدّقون في وجهه بدورهم. وكان يرى بوضوح أنّهم لا يهزؤون منه. فلو كان الأمر دعابة أو مُزحة، لما استدعوه من الغابة. قال:

- إنّني أتلهّف إلى ذلك.

فقال الطبيب:

- لا توجد قوانين ضدّ اليهود في هنغاريا. ولي أخت متزوّجة في بوادبست، تقطن هناك، وهي تنتظرني. وللسيد هورتيج أيضا أقرباء في هنغاريا. لكنّنا في حاجة إلى من يساعدنا في نقل أمتعتنا. إن لديّ أمتعة كثيرة. ست حقائب.. لقد نقلت معي كل ما هو ثمين. فإذا بلغنا حدود هنغاريا، فلن تكون أمامنا إلاّ بضعة كيلومترات نجتازها مشيا على الأقدام، لذلك فإنّني لن أستطيع حمل حقائبي وحدي. وقد فكرنا فيك.

سأل موريتز:

- لكن كيف يمكننا الخروج من هنا؟

فأجابه الطبيب:

- سوف ينقلنا وكيل الضابط في السيارة حتّى الحدود. لولا ذلك، لما استطعنا مغادرة المعسكر، لأنّ الجنود يحرسون كلّ الطرق، لكنّنا سنكون في سيارة عسكريّة.

- هل يعرف وكيل الضابط أننا سنلوذ بالفرار؟

قال هورتيج:

- طبعا! إنّه ربّ عائلة عديدة الأفراد، وهو في حاجة إلى المال. فلو كنت مكانه أما كنت تقوم بما قام به؟

لم يجب موريتز على هذا السؤال، فقال الطبيب أبراموفيسي:

- خذ هذه «السيجارة» واذهب فهيّئ ما يلزمك! لكن انتبه. لا ينبغي أن يكون حملك ثقيلا، ولا يجب أن يعرف بأمرنا أحد من المساجين.

سأل موريتز:

- هل أذهب على الفور:

- بأسرع ما يمكن! إن وكيل الضابط ينتظرنا في تمام الساعة التاسعة أمام الباب في السيارة. فاحمل الخفيف من أمتعتك، لأنك ستحمل حقائبي.

مضى إيوهان موريتز، وعاد بعد قليل، وقد أودع قميصه وسراويله القديمة في رزمة صغيرة، إلى جانب نصف رغيف من الخبز.

خرج الهاربون من المعسكر في الساعة التاسعة، وكان وكيل الضابط في مكانه ينتظرهم، فنقلهم إلى الحدود في السيّارة العسكريّة.

ولم تبلغ الساعة الثالثة صباحا، حتّى كان إيوهان موريتز ينقل حقائب الطبيب أبراموفيسي إلى الأراضي الهنغارية. ولما بزغ الفجر، بلغوا إحدى المحطّات. فأعطى الطبيب بعض المال إلى موريتز، ليشتري أربع تذاكر إلى بودابست في الدرجة الثانية.

-44-

في إحدى الحفلات التي أقامتها مفوضيّة فنلندا في بوخارست، تعرّف تريان كوروغا إلى الجنرال توتو Toutou، وزير الحربيّة الروماني. وبعد أيّام، زاره تريان في وزارة الحربيّة وبسط أمامه مسألة إيوهان موريتز، فأصغى الجنرال إلى أقواله بانتباه، وأخذ مذكّرة باسم موريتز ومهنته، وتاريخ ولادته، وتاريخ توقيفه وقال:

- لن ينقضي أسبوع في أسوأ الحالات، حتّى يكون رجلك مطلق السراح، سأعطي الأوامر حالا لإعادة النظر في هذه القضية، ولإعداد أوراق إطلاق سراحه. إنّنا اليوم في ....

ونظر «الجنرال» إلى الأجندا التي على مكتبه وأردف:

- الواحد والشعرين من آب. حسنا، يمكنك أن تعود إليّ في الثامن والعشرين منه. وسأعطيك أمر إطلاق سراح الرجل.

وبعد فترة صمت سأل:

- هل هذا الـ«موريتز» خادم أبيك؟

فأجابه تريان:

- بل هو موضع سره. إنّه ليس خادما بمعنى هذه الكلمة.

قال الجنرال دون أن يصغي إلى تريان:

- إنّ في الريف أزمة في الأيدي العاملة. وأنا أتفهّم سبب اهتمامك الكبير بهذا الأخرق المسكين. إنّ زيادة رجل أمر هام في البيت، خصوصا وأننا الآن في موسم الحصاد.

واستمرت المحادثة على هذا النحو.

أراد تريان كوروغا أن يفسّر للجنرال أنّه إذا كان يتوسط في قضية موريتز، فإن سبب ذلك لا يرجع إلى كونه خادم أبيه أو إلى أنّه في حاجة إليه في الحقل، بل لأنه أوقف دون سبب ولا مبرر. قال:

- إنّ تدخلي في الموضوع، ليس إلاّ عملا إنسانيا، إنّه عمل مجاني!

فقال الوزير:

- إنّني أنا الآخر، مرغم على التصرف مثلك. فغالبا ما أتردد على الريف لأبارك أشخاصا أو أزوّجهم. واليوم نحن مرغمون على سلوك كل السبل الممكنة مع هؤلاء القرويين لنجعلهم يشتغلون بحماس. ينبغي أن نجعلهم أبدا يتخيّلون أنّنا أصدقاؤهم، حتّى ولو اقتضى هذا الأمر الجلوس معهم إلى مائدة طعام واحدة. إنّني أفهم تماما ما تريد قوله. إنّ أباك اليوم، في مثل هذا الموقف الذي أشرحه لك.

وفتح الجنرال درجا في مكتبه، أخرج منه نسخة من رواية تريان الأخيرة ووضعها على المكتب. كانت النسخة جديدة لم تُقطع أوراقها بعد. قال مشيرا إليها:

- لقد أرسلت تابعي إلى المكتبة لشرائها، فهل تتلطّف بكتابة إهداء إلى ابنتي؟ إن اسمها اليزابث، ولها من العمر ثمانية عشر عاما. وهي

تلتهم الروايات التهاما، وأنت أحد كتابها المفضّلين. سوف تطرح عليّ عددا من الأسئلة ظهر اليوم، حينما أقصّ عليها على المائدة نبأ زيارتك لي. سوف تسألني عن ثوبك، وربطة عنقك، ونوع اللفافات التي تدخنها. إن هذه هي عادات الشباب، فماذا نستطيع حيالهم؟

هبط تريان سلّم وزارة الحربية، متأكدا من أنّه في هذه المرة، سيحصّل تأكيدا على أمر إطلاق سراح موريتز. مضى في طريقه إلى بائع الزهور، فأخذ باقة الورد الأبيض التي أوصى بها ذلك اليوم بالذات، ثم قصد مكتب البريد، حيث طيّر البرقيّة التالية لأبيه: «سأكون في فانتانا 29 آب مع خطيبتي وأمر إطلاق سراح إيوهان موريتز».

-45-

سألت أليونورا وست:

- سنكون في التاسع والعشرين من آب في فانتانا، في منزل أبيك؟

كانت مسرورة منشرحة الصدر. ثمّ أردفت:

- خلال أسبوع أليس كذلك؟ وددت لو كنت هناك الآن!

أخذت باقة الورد الأبيض من يد تريان كوروغا ووضعتها في المزهرية. بينما راح تريان يتأمل صامتا خصلات شعرها الأحمر، الذي كان يصل إلى كتفيها، ويمتزج بلون ثوبها الحريري الأسود وينظر بإعجاب إلى قامتها وساقيها الدقيقتين.

- نورا، أتدرين أيّ سؤال يجول بخاطري كلّما نظرت إليك؟

أدارت وجهها نحوه وهي باسمة فأردف:

- إنّني أطرح على نفسي السؤال الذي طرحه على نفسه الشاعر تودور ارغيزي: «أ كانت أمّك جنية أم غزالة أم شجرة ورد؟ أي نبت أنضجت بين حناياها؟ أنت قطعة من الفكر أو الروح ولا شك، إذ لا يمكن أن تكوني من سلالة الأحياء الفانين...» إنّك باهرة الجمال، في سلالتك ونسبك شيء من الوعول، وفي عينيك، نظرات السنجاب الشرود. لقد

أخذتِ مرونتك منهما. ولعلّ بين أسلافك طحالب الماء، لأن جسدك، يحتفظ بنعومة هذه النباتات المائية وبنوعها. إنّك أنيقة ناعمة، كفروة قط أنجورا...

لبثت الينورا وست واقفة وظهرُها إلى ناحيته، وخدّاها مدفونان وسط ورود الباقة.

سأل تريان:

- هل أزعجتُكِ؟

فأجابت:

- كلاّ.

- لقد اكتأبتِ. إنّني وإن كنت لا أرى عينيكِ الآن، فإنّني أتخيّل سحابة القلق التي تعلوهما. هل أزعجَكِ ما قلته منذ حين؟

فقالت وقد أشرقت ابتسامة على ثغرها:

- كلاّ، لست حزينة! كنت أفكّر فقط في شجرة نسبي، حيث يصعب كثيرا وجود الغزلان والأمراء والجنيّات ونباتات الماء والسنجاب فيها...

جلسا إلى المائدة وكانا وحيدين في غرفة الطعام الفسيحة الكبيرة المؤثّثة بقطع جميلة مصنوعة من خشب البلّوط القديم.

كان منزل أليونورا وست أحد أشهر البيوت في بوخارست. لقد وضعت تصميمه بيدها. أمّا الأثاث وقطع السجاد وغيرها، فقد صنعت ونظمت حسَب تعليماتها.

كانت أليونورا في التاسعة والعشرين من عمرها، تشغل مركز مديرة أكبر جريدة في رومانيا: الغرب «أوكسيدان». و قد تلقّت علومها في أشهر جامعات أوروبا، كانت تكتب المقالات الرئيسية التوجيهية في صحيفتها، وتدير دارا للنشر، ومجلة أدبيّة وفنيّة، إلى جانب اشتراكها في الحياة السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. وكان تريان يعرفها منذ سنوات مضت، ومع ذلك فقد ظل غرامهما عنيفا كما بدأ. ولعلّه أصبح أشدّ

عنفا وضراوة من ذي قبل. لكنهما لم يتزوّجا. كان تريان كلّما طلب منها الزواج أجابته الينورا وست:

«لن أكون أبدا زوجة صالحة. إنّني أحب مهنتي حبّا جما، فلا أستطيع التخلّي عنها دون أن أشعر بأنني حطمت ركنا ثمينا من أركان حياتي، وأنّني أخفقت في كلّ شيء».

قال تريان كوروغا:

- أعتقد أنّ إيوهان موريتز سيُخلى سراحه! لقد وعدني وزير الحربية بإطلاق سراحه خلال مدّة أقصاها التاسع والعشرون من آب. لقد أبرقت إلى أبي بأنّي سأصل إلى فانتانا مع خطيبتي وأمْرِ إطلاقِ سراح موريتز. لسوف تكون سعادته مُضاعَفة.

سألت أليونورا:

- أتتمسّك بشدّة بتقديمي إلى والديك على اعتباري خطيبتك؟

- نعم، إنّني شديد التمسك بهذا. ولكن، إذا كنت لا تريدين فسأعدل عن خطّتي. صحيح أنّ أبي سيشعر بالانزعاج، لكنّه شديد الحدب علي، ويعرف كيف يغفر لي.

سألت أليونورا:

- لماذا تقدّم له خطيبتك وليس زوجتك؟ إذا تزوجنا بعد غد، فإننا سنصل إلى فانتانا كزوج وزوجته!

ظنّ تريان كوروغا أنّها تمزح. لقد أمضى عامين متتالين يحاول إقناعها عبثا. كانت تحبّه، لكنّها لم تكن تريد أن تصبح زوجة. ما كانت تريد أن تصبح زوجة أحد. وها هي الآن، تعرض عليه فجأة الزواج به!

سألها:

- هل أنت جادّة فيما تقولين؟

نهض وقبّل يدها، وقال:

- ماذا حدث؟ لم تخبريني بشيء صباح هذا اليوم حين اتّصلت بك

هاتفيا. كيف توصّلت إلى هذا القرار؟
أجابت:
- لم يحدث شيء أبدا! عندما نصل إلى فانتانا في -29- الجاري، سنكون زوجين. لقد طلبت منّي ذلك مرارا. فهل غيّرت رأيك خلال هذا الوقت؟ كان يجب أن تخبرني بأنك عدلت عن رأيك!
تأكّد تريان كوروغا من أنّ حدثا ما قد وقع، حدثا جعل أليونورا وست تصبح زوجته. لكن ما هو ذلك الحدث؟ فلم يكن يستطيع تخمينه.
استرسلت تقول:
- لنتزوّج الآن مدنيّا. ولسوف نقيم الزواج الديني في فانتانا مستقبلا. كنتَ تحلم دائما بزواج في كنيسة أبيك. وكنت تتخيلني مرتدية ثوبا أبيض تحيط بي فتيات القرية، يتقدّمني ببطء إلى المذبح... سوف أحصل على إذن الزواج المدنيّ. سأتصل بالنائب العام بنفسي.
سأل تريان:
- نورا، قولي ماذا حدث؟ لقد وقع لك أمر جلل!
فأجابت:
- مطلقا. لم يحدث أيّ شيء! كلّ ما في الأمر، أنني قررت أن أصبح زوجتك. لقد اتخذت هذا القرار فجأة وأودّ تحقيقه بأسرع ما يمكن كي لا يعترض سبيلي شيء، فيعرقل اتجاه الأمور. إنّ السعادة التي أمنحها لنفسي بهذا القرار شديدة الأهمية بالنسبة إليّ، حتّى أنني أود أن أبلغها بالسرعة القصوى، وأن أطبق عليها بيدي كلتيهما. إنّني أخاف أن أفقد سعادتي، إذا انتظرت أكثر من ذلك. هذا كل ما في الأمر. ألا تصدقني؟

-46-

بعد أن تناولا طعام الغداء، انتقل تريان كوروغا وأليونورا وست إلى المكتبة وراحا يتطلعان إلى الكتب واللوحات.
اقتنع تريان، أنّ أليونورا قالت له كل الحقيقة، لكنّهما لم يتحدّثا بعد

الطعام عن الزواج. كان كل منهما يريد الإفلات من الأفكار المشوّشة المزعجة التي لا شك ستتلاحق في رأسه. توقفا أمام لوحة بيكاسو.

راحت الينوروا وست تنظر إلى اللوحة، التي كانت تمثّل امرأة شوّهها الألم الشديد، إلى درجة أنّ وجهها لم يعد يحتفظ بشيء إنسانيّ على قسماته. إنّها تجسيد للحبّ الممزق. لوحة تُظهر الإنسان الذي سحقه الألم، وقطعه أشلاء كقطع آلة. لم يكن في اللوحة إلاّ العوامل الجوهرية: العينان والأنف، والفم والأذنان. كانت كل قطعة من هذه القطع، تعيش منفردة مستقلة لوحدها، فقد تنافرت فيما بينها جرّاء الألم. وبذلك تنصّل الجسد البشري عن وحدته المتينة!

التفت تريان كوروغا نحو نورا. خُيّل إليه خلال لحظة خاطفة، أنّها تشبه هذه الصورة. ما كان يمكن لأيّ آلة لاقطة أن تسجّل أمارات وجهها في تلك اللحظة. كان الألم العميق مرتسما عليها. كان وجه أليونورا وست، شديد الشبه بوجه اللوحة المدمّر، وجه امرأة بيكاسو. وكأنّ تيارات شديدة التوتر تخترقه، لكنّها لا يمكن أن تتفاعل، بسبب القوة الهائلة التي تحملها.

سأل:

- فيم تفكّرين يا نورا؟

أجابت:

- لا أفكّر في شيء! هيّا نحتسِ قدحا من القهوة. ألا تريد؟

ودون أن تنتظر جوابه، أدارت له ظهرها كما فعلت منذ حين، لما حدّثها عن نَسَبِها وصلتها بالغزال والأعشاب المائية.

-47-

تزوّج تريان كوروغا وأليونورا وست في دار البلدية زواجا مدنيّا. كانا في ثيابهما العادية. وقد شهد صديقان لتريان على ذلك الزواج. فلمّا

عادا من دار البلدية، قصدا مطعم «بينازا» حيث تناولا الطعام.

قال تريان:

- سنقيم حفلا كبيرا بمناسبة الزواج الديني.

وراح يصف لها عادات الزواج الرومانيّ في الريف. قال:

- سيتقدم الفلاحون على خيولهم موكبَ العروسين حتّى باب الكنيسة. وسيكون عددهم خمسين شابا في ثيابهم الوطنية، ممتطين صهوات جياد بيضاء. وستتبعهم عربة تجرّها أربعة ثيران، وقد جرت العادة على أن تُعرض بائنة العروس والهدايا المقدمة إليها على تلك العربة. أمّا عربتنا نحن، فستكون غارقة في الزهور، وسيكون لنا اثنا عشر «عرّابا» وعندما يمسك الزوجان بأيدي أشابينهم، ويرقصون معهم في الكنيسة أثناء الاحتفال الدينيّ، سيتساقط عليهم مطر من «الملبس»، فيتهافت الأطفال لالتقاطه، حتّى ولو حشروا أنفسهم بين أقدام العروسين. سوف نلقي أكياسا من السكاكر، حتّى يُتاح لكلّ أبناء فانتانا تناول حاجتهم منها. فعندما كنت صبيّا، كنت أجمع السكاكر من كل حفلات الزواج التي كانت تقام في البلدة، لكنني ما كنت أستطيع مرة واحدة، أن أحصل على أكثر من أربع قطع. أريد أن يملأ الأطفال كلّ جيوبهم في حفلة زفافنا. وسنستقدم اثنتي عشرة فرقة موسيقية بوهيمية، مع الأبواق والقيثارات وسيجري النبيذ في كلّ القرية ملء الأدنان والبراميل، ويشمل المرح كلّ السكان. سنقيم الاحتفالات في بقعة خالية، وسيكون المدعوّون بالآلاف، وتدوم الحفلات أسبوعا كاملا.

نظرت نورا إلى ساعتها، كانت على موعد مع المحامي ليوبولد ستين بعد ربع ساعة. فقالت له:

- هيا بنا، إن لديّ أعمالا هامّة تدعوني إلى مكتبي.

فتوقّف تريان قاطعا حديثه عن زفافهما في فانتانا، ونهض كلاهما وذهبا.

-48-

قاد تريان كوروغا، نورا، إلى مكتب التحرير. كان قصر جريدة «الغرب» بناءً حديثا جدًّا، ذا واجهة من الرخام الأبيض، شيّدته أليونورا وست على أنقاض مطبعة قديمة. فنظر إلى الطوابق الستة التي كانت تلتمع تحت أشعّة الشمس، وابتسم وهو يفكر: «إنه عمل نورا» قال لها:

- سأنتظرك في السيارة.

كان يعرف أنّ نورا، اعتادت على قيادة سيّارتها وحدها كلّما ذهبت إلى مكتبها. لكنّه ظنّها ستستثني ذلك اليوم من عادتها. لقد كان يوم زفافهما. غير أنّها قالت:

- سأعود وحدي بعد أن أنتهي من عملي هنا.

وانتظرت ذهابه وهي واقفة على الدرجات الأولى، ثم دخلت البناء مرتقية السلم الرخاميّ واختفت وراء الباب الحديديّ الضخم الذي فتحه لها بوّاب في ثيابه الرسميّة المزينّة بأشرطة ذهبيّة وهو يُحيّيها باحترام.

-49-

دخلت أليونورا وست إلى مكتبها بلا مبالاة وهي تتظاهر بأنّها لم تر ذلك العجوز الذي كان مرتديا ثوبا أسود، والذي نهض واقفا عند قدومها. وضعت حقيبتها وقفّازاتها على المكتب، ثمّ دعت العجوز إلى الجلوس بنظرة من عينيها، وجلست بدورها فأخذت لفافة وأشعلتها جاهدة أن تمتلك أعصابها، لتتغلّب على ارتعاد يديها. جلست في مقعدها الوثير وحدجت العجوز بنظرة وقالت:

- أنا أصغي إليك يا سيد ستين.

فتح المحامي العجوز المحفظة التي كانت على ركبتيه، وأخرج منها حزمة من الأوراق وضعها على حافة المكتب. ونورا تتابع حركاته باهتمام بالغ.

قال المحامي:

- يا آنسة وست، لقد سوّيت المسألة، وها هي الوثائق.

وأخرج من المصنّف ورقتين قدّمهما إليها.

سألت نورا:

- أهما كل ما تبقى في سجلاّت «بلوئستي» من مستندات؟

فأجاب العجوز:

- كلّ ما في تلك السجلاّت حتّى صباح اليوم. إنّ المستندات على مكتبك الآن. أمّا السجلاّت، فلم يعد فيها شيء.

ألقت أليونورا وست نظرة احتقار على المستنديْن، ثمّ طوتهما وأودعتْهُما درج مكتبها. فقال العجوز:

- من دواعي الحكمة أن تتلفيهما فورا.

نظرت نورا إلى العجوز تتأمّله. كانت نظّاراته مذهّبة الإطار، وياقته من النوع القاسي، أمّا ثيابه فكانت قديمة العهد. قالت تجيبه على ملاحظته:

- ليس هناك ما يُخشى منه طالما باتت الأوراق في مكتبي يا سيد ستين.

- أنا شخصيا لا أخشى شيئا. أمّا أنتِ، فمِنَ الخير لك أن تحرقيها الآن، على الفور.

سألت نورا:

- كم كلّفتك هذه العمليّة الصغيرة؟

كانت تريد تغيير موضوع الحديث، لأنّها شعرت أنّ العجوز خائف. كانت ستحرق تلك الوثائق، لكنّها كانت تودّ أن تطّلع عليها، قبل كلّ شيء.

أجابها العجوز:

- مائة ألف «لي» تماما.

- وأتعابك؟

- بما فيها أتعابي.

أخرجت أليونورا وست، من أحد أدراج مكتبها، رزمتين من الأوراق

النقدية، قدمتها للعجوز فوضعها هذا في حافظته بعد أن عدل عن الحركة التي بدرت منه بحكم العادة الطويلة، وهي عدّ الأوراق المالية للوثوق من مجموعها. قالت نورا:

- هذا كلّ ما أردته منك يا سيد ستين.

كانت تريد أن تخلو إلى نفسها لتقرأ الوثائق، لكنّ العجوز لم يتحرك. فسألته:

- هل هناك ما تريده؟

- كلاّ، لم يعد هناك شيء. لقد سوّيت المسألة على قدر المستطاع.

- أليس كلّ شيء على ما يرام؟

- طبعا. لكنّ القضيّة لا يمكن أن تنتهي بهذا الشكل، إلاّ بصورة مؤقتة، وذلك بإتلاف هذه الوثائق. هذا ما أردت أن أقوله لك. إنّني أسمح لنفسي بلفت انتباهك إلى ذلك، لأنّني كنت مساعدا لأبيك وصديقا له، ولأنني كنت أجلسك على ركبتي، حين كنت طفلة. وأصرّ على إعلامك بأنّ اختفاء هذه الوثائق من السجلاّت، لا يسوّي القضيّة إلاّ جزئيا.

قالت أليونورا وست:

- أرجو أن تشرح قولك.

- إنّه واضح تماما يا آنسة وست. لقد أردت امتلاك الوثائق التي تثبت أصل ذويك اليهودي. وها هي ذي أمامك، لقد انتزعتها من السجلاّت الرسميّة.

- انتهت القضيّة إذن!

فأجابها ليوبولد ستين:

- تستطيعين أن تُخفي المستندات وليس الوقائع نفسها. إنّك رغم كلّ شيء، تبقين يهوديّة. وإذا أراد بعضهم أن يثبت ذلك..

- إذا أراد بعضهم إثبات ذلك، فلن يستطيعه.

- بل إنّهم سيطلبون أوراقك.

- سأحصل على أوراق أخرى. إنّني أستطيع الحصول على ما أريد بواسطة المال.

فأجاب المحامي:

هذا صحيح. لكنك في هذه الحالة، ستواجهين قانون الجزاء. والتلاعب بقانون العقوبات يوازي في خطورته اللعب بالنار.

قالت أليونورا وست بلهجة هازئة:

- لكنك سرقت هذه الوثائق من سجلاّت «بلوئستي» صباح هذا اليوم بنفسك، فلماذا إذن هذا الدرس الأخلاقي الذي تلقيه عليّ؟

أجابها العجوز:

- إنها ليست دروسا في الأخلاق. إنّني أحذّرك فقط من أنّ اللعبة خطيرة، وأنه لا يمكن الاستمرار في اللّعب إلى ما لا نهاية له.

قالت نورا وهي تشعل لفافة ثانية:

- إنك متأكد من أنّ هذا هو الأسلوب الأوحد. وأنا لن أقوى على تبديل شيء. طالما أن المجتمع يحرّم عليّ أن أحيا حياتي، وأن أحتفظ ببيتي ومهنتي وزوجي، فإنّني على استعداد للنضال، نضالا مستميتا، مستعملة كلّ الأسلحة التي أجدها في حوزتي. أناضل كالحيوان الجريح. إنّ كلّ غرائز البقاء في كياني تدخل الميدان.

- ليس المهمّ يا آنستي وست أن يقاتل المرء، بل أن يربح المعركة.

- لسوف أربحها.

ثم سحقت لفافتها في المنفضة. فقال المحامي الكهل:

- هل تعتقدين حقّا بأنّك ستمكثين طويلا صاحبة هذه الصحيفة ومديرتها؟ لقد رفضت حتّى الآن التصريح عن منشئك اليهودي، وذلك ليس إلاّ عملا جريئا من أعمال الشباب. لكنّك كنت سعيدة الحظ، لأن أحدا لم يجرؤ على فتح تحقيق عن أصل منشئك. قد يكون ذلك بسبب الخوف أو بدواعي النذالة والخور. لقد وقعت بعض الوشايات والمطالبات

بمصادرة المطبعة والصحيفة طبقا للقوانين القومية الجديدة، قوانين المنشأ. فاستطعت شراء من كانوا مهتمّين بالتحقيق، وربحت مرّة أخرى. وها أنك الآن، تمتلكين الوثائق التي تثبت منبتك اليهودي ونسَبَك، وبذلك تكسبين بعض الوقت كذلك. لكن قوانين المنشأ تزداد شدّة في تطبيقها يوما بعد يوم، ولن يستطيع يهودي واحد أن ينجو منها. نحن في بداية المرحلة ليس إلاّ. ولهذا السبب يمكنك خلال وقت ما أن تستمري في إدارة صحيفة كبيرة وامتلاكها رغم أنك يهودية، ورغم أنّ القانون المختصّ يحرّم عليك نشر كلمة واحدة، ولكن ينبغي التفكير في المستقبل.

فأجابت نورا:

- سألبث في المستقبل مديرة جريدة الغرب وصاحبتها.

كان ليوبولد ستين، يعرف منطق هذه المرأة الواقفة أمامه، ويعرف أنّها قلّما تُخطئ في أقوالها. لكنّ جوابها اليوم فيه تعنّت وتعصّب. والمتعصّبون لا يحترمون قوانين المنطق، لذلك فإنه لم يجرؤ على مغالطتها لأن الكائن البشري، عندما يكون في حال من التشوّش والانفعال، لا يجب أن يُعارَض. وكلّ محاولة لإعادته إلى جادة الصواب تبوء سلفا بالفشل.

قالت أليونورا وست:

- لقد تزوّجت ظهر اليوم رجلا مسيحيا. سوف أنقل ملكية الجريدة إلى اسمه، وبذلك لن يستطيع أحد مصادرة الصحيفة، حتّى ولو أصبحت رومانيا أكثر عداء لليهود من ألمانيا بالذات.

سأل ليوبولدستين بفضول:

- هل تزوّجت حقّا؟

- لقد صرتُ أدعى بداية من اليوم، أليونورا وست كوروغا. وزوجي هو تريان كوروغا، الروائي المعروف، وسوف يصبح خلال أيام قليلة، مدير هذه الصحيفة. وهو الآخر ملك لي!

كانت نورا وست تضحك راضية مطمئنة... وراح ليوبولد ستين

يتشاغل بالبحث في جيوبه عن أيّ شيء اكتسابا لبعض الوقت وامتلاكا لأعصابه التي هزّتها هذه المفاجأة، متحاشيا النظر في عيني نورا، أو الاندفاع في حديث لا يريده. كان في حاجة إلى بضع دقائق ليقنع نفسه بصحّة هذه الحكاية.

قال وهو يسعل وراء منديله:

- بعبارة أصحّ، يمكن القول إنّك تنسحبين من إدارة الجريدة وتتنازلين عن الصحيفة.

- كلاّ، إنّني لا أحافظ على ملكية الصحيفة وإدارتها فحسب، بل إنّني أُدخل فيها كذلك، عناصر جديدة قويّة، فأعيد تنظيم شؤونها. لقد استخدمت مديرا جديدا.

قال المحامي العجوز:

- إن الفكرة رائعة: بل بديعة. وهل قبل كل هذه الشروط؟

فأجابته نورا بجفاء:

- لست أفهم قصدك.

- أقصد: هل قبل زوجك، السيد تريان كوروغا، هذا الحلّ؟ إن هذا الأمر يبدو مزعجا بالنسبة إلى رجل. لأن ذلك معناه: أنّه اشتُري من قِبَل امرأة تنفيذا لخطّة معينة.

قالت نورا وست بانفعال:

- لكنني لم أشتر أحدا! لقد تزوجته زواجا غراميا.

نهض ليوبولد ستين وهنّأها. فلم تمدّ له يدها. كانت تتصفّح وثائق منشأ ذويها، والدموع تملأ عينيها. قالت:

- إنّ الأحياء لا حقّ لهم في تقبّل التهاني إلاّ عند موتهم. إنك بقليل من الروية والتدقيق، ستوافقني على نظريتي هذه. لكنّ الأحياء عندما يموتون، لا يستطيعون، وللأسف، تقبل التهاني. إنّهم يخسرون للأسف، المناسبة الوحيدة، التي يستحقون فيها التهاني الحقيقيّة.

عاد العجوز يجلس في مقعده وقال:

- أظن أنك قلت: إنّكما تزوجتما زواجا عاطفيا!

سألته شاردة:

- ألا تصدّق أنّني عاشقة؟ ألا تستطيع فهم ذلك، رغم ذكائك؟

- لمَ تتألمين إذن إلى هذا الحد! إنّني أشعر بأنّك تبكين.

- أعتقد بأنك متعب جدا يا سيد ستين. لست أدري ما بك. إنّك تكاد لا تفقه شيئا، حتّى لَيخيّل لي أنّك لست يهوديا. إنّني أحبّه منذ سنوات، أحبّه حبّا عنيفا جارفا. لكنّني أعتقد بأنّ الحب، ليس سببا في الزواج. لقد تزوّجت بسبب قوانين المنشأ، لأنقذ الصحيفة، وأنقذ حياتي. فهل تفهمني الآن؟

لم يكن باديا على ليوبولدستين أنّه فهم، انحنى يقبّل يد نورا وست، ومضى نحو الباب. فاستدعته وقالت:

- سأذهب في نهاية الأسبوع إلى الريف لزيارة ذوي زوجي. إن والد تريان، كاهن أورثوذوكسي. سأمكث هناك بضعة أيام، وأريد أن تكون أوراق منح كل أملاكي ومقتنياتي لزوجي تريان كوروغا، جاهزة عند أوبتي، بما في ذلك الصحيفة. وإذا صادفتك عقبات ومصاعب، فحرّر عقودا بالبيع. المهمّ أن تجد خير الحلول وأكثرها براءة قانونية. ينبغي أن تتم العملية بالسرعة القصوى؟

قال العجوز:

- إنك ذكيّة جدا.

فأجابت:

- لست ذكية. بل امرأة تناضل بكل قواها وغرائها وكل إشراقات عقلها، لتدافع عن حقّها في الحياة. وداعا يا سيّد ستين.

-50-

بعد ذهاب المحامي العجوز جلست أليونورا وراء مكتبها، ووضعت

رأسها بين يديها، وراحت تبكي. بكت بكاءً لا يستطيع أحد أن يبكي مثله غير النساء. بكت ليس بعينيها فقط، بل بكلّ كيانها، ثم أخذت سمّاعة الهاتف واتصلت بتريان. فقالت:

- أرجو أن تتلطّف بالحضور لنقلي إلى البيت.

- هل حدث لك شيء ما!

- لم يحدث شيء على الإطلاق. لكن تعال اصطحبني. أقسم لك أنّه لم يقع شيء أبدا، لكن تعال بسرعة.

نهض تريان كوروغا ليلبّي رغبتها. ولمّا غادر المكتبة، وقعت أنظاره على «امرأة» بيكاسو. كانت تضحك بنصف عينها، وتبكي بالنصف الآخر. ومن أجل هذا، شطر الفنان عينها إلى شطرين، لتستطيع العين الواحدة أن تبكي وأن تضحك معا وبقوة متعادلة.

-51-

في انتظار وصول تريان كوروغا، اتصلت أليونورا وست بالمحامي ليوبولدستين. كان يقطن بالقرب من دار الصحيفة فهاتفته وقد وصل لتوه إلى مسكنه.

قالت نورا:

- يا سيد ستين، قل لي بكلّ إخلاص: هل تعتقد أنني تزوجت زواجا عاطفيا أم زواجا نفعيّا؟ أرجو أن لا تراعي عواطفي في جوابك. أعطني رأيك بكل إخلاص.

سألها ستين:

- ماذا تعتقدين أنت؟

أجابت:

- لست أدري. إنّهم لو أطاحوا برأسي، لما أمكنني أن أعطي الجواب الدقيق الحقيقي. هناك فترات يخيّل إليّ أنني تصرفت بوحي عواطفي، وحالات أخرى، أعتقد أنّني كنت مدفوعة بالسببين معا. غير أنّ هذين

التفسيرين، لا يمتازان بأية قيمة حقيقية. إنّني واثقة من أمر واحد: وهو أنني ما كنت أستطيع الانتظار، وأنّ ذلك كان يجب أن يتمّ. لكنني أريد أن أعرف السبب الحقيقي.

- لا هذا ولا ذاك.

- إذن لم أتزوج زواجا نفعيّا كامرأة...

- كلاّ يا سيدة وست. إنك شديدة الاعتداد حتّى تتزوجي إنسانا زواج مصلحة، حتّى ولو كنت بذلك تصونين ثروتك وصحيفتك من الخطر.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- كل الثقة!

- إذن، لقد تزوجت بدافع الحب؟

- لكي يحب الإنسان، ينبغي أن يستطيع الإيمان بالمستقبل. ينبغي الإيمان بالسعادة بل وأكثر من ذلك، ينبغي الإيمان بأنّ هذه السعادة أبدية، وأنها لا يمكن أن تمنح لنا، إلاّ من قبل من نحبه ويحبّنا. لكنك مشرقة الذهن ثاقبة التفكير لا يمكنك الإيمان بهذا. ولهذا السبب، اعذريني إذا قلت لك إنّك لم تتزوّجي بسبب أيّ دافع من هذين الدافعين.

- إذن؟

فأجابها ليوبولد ستين:

- أنت لم تتزوّجي بسبب الحب، ولا بدافع المصلحة. بل بدافع الخوف. إنّ سرعة تصرفك الخارقة تحمل طابع اليأس.

- أليس للحب مكان في حسباني؟

- لعلّ له قيمة مّا. لكنّ غرامك يشبه ذلك الذي كانت النسوة تشعرن به حين كُنّ في الغابات، عرضة في كل لحظة من لحظات اللّيل أو النهار لتهديد الوحوش الضارية، فكنّ لهذا السبب، يتعلّقن بيأس وتفان بركبتي الرجل، طالبات الحماية والحب والحياة، وهن يهدفن إلى هذه المنح الثلاث، بشغف ولهفة متعادلة. إنّ النساء لا يشعرن بمثل هذا الحب،

إلاّ في حالات الزلازل العنيفة، والطوفان والمصائب الفظيعة، أي أنهنّ يشعرن هذا الشعور، كلّما بدا العالم على وشك الانهيار!

- لمَ لم تحدثني بكل ذلك لمّا كنت أمامي في مكتبي؟

- لم أشأ أن أجعل الشكّ في قوّتك ونفوذك، يتسرّب إلى نفسك. كنت أراك ترتعدين من الخوف، كنت أرى أنّك تصرفت بدافع الذعر، فأشفقت عليك. لا تنسي أنني كنت أرفعك على ركبتي لما كنت طفلة صغيرة.

دخل تريان كوروغا المكتب في تلك اللّحظة، فأعادت نورا السمّاعة إلى مكانها، وخطت نحوه لتستقبله، وهي تلتصق به بعنف. كانت تضحك. فقبّلها تريان وقال:

- إنّني سعيد إذ أراك في حالة حسنة. لقد خُيّل إليّ أنّك كنت تبكين خلال مهاتفتي.

-52-

في الثامن والعشرين من آب، قبل ارتحال كوروغا إلى فانتانا بيوم واحد، كان يرتقي سلم وزارة الحربية، ليأخذ أمر إطلاق سراح موريتز: كان سعيدا، وكأن أمر حرية موريتز قد بات في جيبه.

صعد السلم جريا. وكان تابع «الجنرال» يعرفه ويعرف العلاقات الطيبة التي بينه وبين الوزير، لذلك، فقد أدخله إلى مكتب «الجنرال» على الفور. دخل تريان كوروغا مكتب الوزير. كان يحمل معه نسخة أنيقة مصورة، من روايته الأولى، وكان قد كتب على الصفحة الأولى منها إهداء شيقا. غير أن الجنرال لم يتقدم لاستقباله ولم ينهض من مكانه أسوة بالمرّة الأولى، بل ظلّ في مكانه يتشاغل بالقراءة.

قال تريان:

- هل أزعجك يا سيدي الوزير؟

فأجابه الجنرال ببرود:

- كلا، أنت لا تزعجني. اجلس إذا أردت.

لاحظ تريان، أن «الجنرال» لم يمدّ إليه يده. قال الوزير طارقا صميم الموضوع مباشرة:

- يؤسفني أن أنهي إليك خبرا سيئا. إن الشخص الذي تحدثت معي عنه في الأسبوع الفائت، والذي جئت من أجله، لا يمكن أن يطلق سراحه. أو على الأصح، إنّه لن يطلق سراحه في الوقت الحاضر. ينبغي قبل كل شيء، أن نقوم بتحقيق للتثبّت ممّا إذا كان تأكيدك حول منشئه صحيحا.

همّ تريان كوروغا بمغادرة مكتب الوزير لفوره. لكنّه تذكّر موريتز فتريث قليلا بينما أردف الوزير:

- حسنا يا سيد كوروغا، لم يبق لك إلاّ أن تنتظر النتيجة التي تسفر عنها تحقيقات اللجنة.

كانت تلك الجملة تنهي المقابلة، وكان الوزير يدعو تريان للخروج من مكتبه بكل صراحة لم يغب معناها عن تريان، لكنّه لم يتحرك من مقعده. كان عليه أن يذهب غداة اليوم التالي إلى فانتانا. وكان أبوه، ينتظر أمر إخلاء سبيل موريتز، لذلك قال:

- سيدي الوزير، إنك منذ أسبوع بالضبط، وعدتني بإعطائي أمر إخلاء سبيل موريتز. لقد قلت لي بالحرف الواحد: إن تأكيدي يعتبر لديك ضمانة كافية، وإنه لذلك لا حاجة إلى فتح تحقيق.

- كان ذلك قبل أسبوع. لقد تبدّل الموقف الآن.

- لست أرى تبديلا في الموقف. إن إيوهان موريتز سجين في معسكر لليهود، رغم أنّه روماني صميم.

- هذا ما ستتثبت منه لجنة التحقيق.

- لكن أعمال اللجنة قد تستغرق أشهرا طويلة، بينما الرجل المسكين قد أمضى حتّى الآن، قرابة عام ونصف.

فقال الجنرال:

- إنّني أعرف ذلك. إن أعمال اللجنة قد تستغرق عاما أو عامين. ليس لدينا اليوم وقتا نضيعه في التحقيقات كما كان الحال في أيام السلم. نحن الآن في حالة حرب.

- ولكن يا سيدي الجنرال، ألا يكفي تأكيدي لإطلاق سراح موريتز والقيام بالتحقيق بعد إخلاء سبيله؟

فأجاب الجنرال بحزم:

- كلا!

قال تريان وهو ينهض واقفا:

- يؤسفني أن أجدك قد غيّرت رأيك، خلال أسبوع واحد.

- إنّني آسف كذلك. ولكن لا يد لي في الموضوع!

- أهو تعريض يتعلق بي يا سيدي الجنرال؟

- إنّه ليس تعريضا، بل إنّني أستند إلى وقائع ثابتة.

فقال تريان كوروغا ممتقع الوجه:

- أعتقد أنّ من حقي هذه المرة، أن أسألك تفسيرا.

- تفسيرا يا سيد كوروغا؟ في الساعة التي يحارب كلّ يهود العالم في صفوف البلاشفة ضدّ وطننا لإذلالنا واستبعاد بلدنا، تتزوج أنت، الرومانيّ الأصيل، أشهر كتاب بلادنا، امرأة يهودية!

كان الجنرال يتكلّم بانفعال، وقد غدا وجهه شديد الاحمرار. أردف مُعقّبا:

- إنّني كعسكري، أعتبر عملك هذا خيانة. هل تسمعني؟ خيانة! فهل بعد هذا العمل، أستطيع الاعتماد على قولك؟ إنّ تدخلك يجعلني أعتقد الآن، بأن موريتز يهودي، ولن أكون شديد الدهشة، إذا تأيّد ظني وتأكّد. هل أستطيع بعد هذا أن آخذ كلمتك مأخذ الجد؟

فقال تريان:

- بالطبع كلاّ...

وانسحب من الغرفة. وبينما هو يهبط السلّم، أحسّ بالكتاب تحت ذراعه، ففتحه، ومزّق ورقة الإهداء، ثمّ صعد إلى سيّارته.

-53-

قال يحدث نفسه: «إنّ أليونورا يهودية! ومع ذلك لم تحدّثني بكلمة واحدة عن هذا الأمر».

شعر بأنّه تعرّض للإهانة وبأنّه خُدع في حبّه...

وعند نهاية المدينة، أوقف سيّارته، وفتح بابها، وراح يتأمّل الحقول. «إنّها لم تتحدّث إليّ مطلقا عن ذلك. لكنّني أنا الآخر لم أسألها عنه. فمن السخف طرح مثل هذا السؤال. إنّ أي رجل لا يمكن أن يسأل المرأة التي يحبها عن منشئها».

تذكر أنّه حدّثها مرات عديدة عن شجرة نسَبِها وصِلَة سُلالتها بالوعول والسناجب وأعشاب الماء والجان وأنها في كل مرة، كانت تكتئب وتعلو وجهها غمامة من الأسى. لقد أدرك تريان في تلك اللحظة، سبب ذلك الحزن، وشعر بأنه مذنب.

«لعلّها ظنّت أنّني أعرّض بمنشئها اليهودي. إنّها ولا شكّ قد تألّمت ألما فظيعا!».

أغلق باب سيّارته، وعاد في طريق المدينة. كان يفكّر في المرأة على لوحة بيكاسو. قال يحدث نفسه:

«إنّني شديد الأسف الآن، لأنّني لم أعرف هذا الأمر من قبل. لو أنني عرفته، لوفّرت عليها عناء آلام عنيفة. مسكينة نورا!».

أوقف تريان سيّارته أمام أوّل بائع زهور وابتاع باقة من الورد الأبيض، ليقدّمها إلى نورا. فحزمت البائعة الورد وهي تبتسم له.

-54-

قالت نورا:

- حدثني عمّا تكتب يا تريان!

كان تريان كوروغا، قد بدأ في تأليف روايته الجديدة. وكانت أليونورا تسمعه، وهو يغادر السرير في الساعة الرابعة صباحا، فيرتدي معطفه المنزلي، ويخرج من غرفة النوم، ليذهب إلى مكتبه، حيث كان يمكث فيه حتّى ساعة الإفطار، فيتناولانه معا. كان قد مضى على زواجهما شهران. وكان على مكتب تريان إناء من الزهور.

سألت نورا:

- ألا تريد أن تحدّثني؟

كانت متلهّفة، لأنّ تريان كان يتحاشى دائما التحدّث إليها عن روايته. وكان في كلّ مرّة يتجاشى الإجابة عن سؤالها. أمّا الآن، فإنه لم يستطع رفض طلبها. قال:

- لقد قمت مرّة بجولة بَحْريّة في جوف غواصة، ومكثت تحت الماء حوالي ألف ساعة. إنّ في الغوّاصات جهازا خاصا، ينبئ بالوقت المعيّن اللازم لتجديد الهواء. أما من قبل، فإن الغواصات لم تكن تعرف ذلك الجهاز بعد. لذلك فقد كان البحّارة، يصحبون معهم عددا من الأرانب البيضاء إلى جوف الغواصة. فإذا تسمّم الهواء ماتت الأرانب، ومن ذلك يعرف البحارة أنّ لديهم خمس ساعات يحيون خلالها قبل أن يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق. فكان على قائد الغواصة في تلك اللحظة، أن يتخذ القرار الحاسم، إما الصعود إلى سطح الماء ببذل جهد اليائسين، وإما البقاء في الأعماق والموت مع البحارة كلّهم. وقد جرت العادة، بمؤاثرة القرار الثاني، على أن يقتل البحارة بعضهم بعضا بطلقات المسدس.

«في الغوّاصة التي أبحرت فيها لم تكن هناك أرانب بيضاء، بل أجهزة تقوم مقامها. وقد لاحظ القبطان، أنني أتحسّس نقص مولّد الحموضة، فكان يسخر من حساسيّتي، لكنّه لم يعد يركن إلى أجهزة الغواصة، لأنني كنت دائما أدلّه على الوقت الذي ينقص فيه الهواء، يكفيه أن يلقي عليّ نظرة واحدة ثم يستشير آلته وأجهزته، فيجد أن دقّتي مدهشة.»

«إنها موهبة نمتلكها نحن: الأرانب البيضاء، وهي أنّنا نشعر بدنوّ الخطر قبل أن يشعر به البشر بست ساعات، ونحسّ أن الجو بات لا يصلح للتنفس. إنّني أشعر منذ زمن بمثل ذلك الشعور الذي كنت أعلن عنه عندما كنت على ظهر الغواصة. إنّ الجو قد بات خانقا.»

سألته نورا:

- أيّ جو تقصد؟

- الجوّ الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر. إنّ الكائن البشري لن يستطيع احتماله. إنّ «البيوروقراطية» والجيش والحكومة والتنظيم الحكوميّ والإدارة، كلّ هذه الأشياء، تساهم في تسميم الجوّ ليختنق الإنسان. يستخدم المجتمع الحاضر الآلات والرقيق العنصري. لقد خلق من أجلها. ولكن الإنسان محكوم عليه بالاختناق. والخطير أنّ بني الإنسان لا يشعرون بذلك. فهم يصرّون على أنّ كل شيء طبيعيّ، كما كان في السابق. إنّ رجال الغواصة التي كنت بينهم كانوا هم أيضا، يناضلون ويقاومون الجو المسموم. كانوا يعيشون ست ساعات بعد موت الأرانب البيضاء. لكنني أنا، أعرف أنّ كلّ شيء قد انتهى.

- أهذا هو موضوع روايتك؟

- لقد وضعت في روايتي، الطريقة التي يموت بها رجال هذه الأرض الذين يحيون في عذاب مريع وقلق قاتل، تخنقهم الأجواء غير الصالحة للحياة. ولمّا كنت لا أستطيع أخذ كل الكائنات الحية أبطالا لقصّتي، فقد انتخبت عشرة أشخاص، أعرفهم أكثر من أي شخص سواهم.

- وهل سيموت هؤلاء الأشخاص العشرة؟

- بعد موت الأرانب البيضاء. لن يستطيع بنو الإنسان الحياة أكثر من ست ساعات على الأكثر. إن روايتي تصف هذه الساعات الست، في حياة أفضل أصدقائي.

- وماذا كتبت حتّى الآن؟

- الفصل الأول فحسب. لقد انترع من بيننا أحد الأشخاص العشرة و...

- ماذا حدث له؟

- لقد سلبوا منه حريته وزوجته وأولاده وبيته في الوقت الحاضر... لقد أهين وضرب وعذب. لقد بدأوا يخلعون أسنانه وأضراسه. سوف يفقأون عيونه قريبا، ويسلخون الجلد الذي التصق بعظامه. ولسوف تتحطم تلك العظام: إنّ الآلام والأوجاع الأخيرة ستحلّ به بطريقة آلية أو كهربائية.

سألت نورا بذعر:

- هل وقع كل هذا؟

فأجاب تريان:

- كلّه صحيح. لقد سجّلت في روايتي، اسم الشارع والمدينة والبلد الذي يقطن فيه أشخاصي. لقد أعلنت أرقام هواتفهم. إنك أنت كذلك، تعرفين الشخص الأوّل في روايتي. بل تستطيعين التحقّق من الحوادث التي سردتها لك للتو، ومقارنتها مع الحقائق لتتأكّدي من صحّتها.

- من هو هذا الشخص الذي تتحدث عنه؟

- إنّه إيوهان موريتز!

اكتأب وجه نورا لدى سماعها هذا الاسم. فكلّ ما رواه تريان كوروغا حول إيوهان موريتز كان مطابقا للحقيقة تماما. قالت:

- إنّني أشفق على هذا الفتى إشفاقا عميقا. إنّه هو إذن، بطل الفصل الأول من قصتك. من ترى سيكون البطل الثاني؟

أجابها تريان:

- لست أدري بعد. لعله أبي أو أمي. أنا، أو أنت نفسك. على كل حال، سيكون أحدنا البطل الثاني.

سألت نورا بقلق:

- وهل ستتشابه كلّ الفصول وتتفق في نهايتها مع الفصل الأول؟ مع مصير إيوهان موريتز؟ أليس في كلّ قصّتك موقف مفرح واحد؟ نهاية سعيدة؟

أجاب تريان مُعقّبا:

- كلاّ، ليس فيها نهايات سعيدة. بعد موت الأرانب البيضاء، لا يمكن أن تكون النهايات السعيدة ممكنة. إنّ موتها يدل على أنّ ما بقي في رصيد الآخرين من عمر، لا يتجاوز الساعات المعدودة!

الباب الثاني

القسم الثاني

وجد إيوهان موريتز نفسه منذ ساعتين في هنغاريا. انتظر اليهود الثلاثة وهو إلى جانبهم أمام المحطة لأنّهم لم يجرؤوا على الدخول إلى غرفة الانتظار. وأخيرا وصل القطار الذي سيستقلونه.

صعد الطبيب أبراموفيسي وسترول ثم هورتيج إلى إحدى عربات الدرجة الثانية، بينما ظلّ إيوهان موريتز على رصيف المحطة ينقل إليهم الحقائب فيتناولونها منه عبر نافذة العربة. لذلك فإنه لم يستطع الركوب إلاّ في الدقيقة الأخيرة، فقفز إلى مرقاة العربة، وتشبّث بالحواجز الخارجية فأمسك هورتيج بذراعه يساعده على الصعود، ثم أغلق الباب وراءه. كان موريتز شاحبا. لقد تصوّر أنّه سيبقى على رصيف المحطة وحيدا بعد ذهاب القطار، و ذلك سبب الذعر الّذي بدا جليّا على وجهه. ترى ماذا سيحصل له لو أنّه لبث هناك وحيدا، كيف كان سيتصرف لو تخلى عنه الطبيب أبراموفيسي والآخرون؟ شكر الله على أنّه وُفّق في الصعود في آخر لحظة.

وجد الطبيب أبراموفيسي وهورتيج أمكنة لجلوسهما. أما سترول وإيوهان موريتز فقد ظلاّ واقفين في الممشى جالسين على الحقائب. لقد فتشا في كل العربات فلم يجدا أمكنة لجلوسهما. كانت الأنوار كلها مطفأةً، والمسافرون نيامًا. وبعد فترة غير طويلة، غادرت إحدى النساء مكانها فأخذ سترول مكانها في العربة ولبث موريتز وحيدا في الممشى.

أوصاه الطبيب أبراموفيسي بأن لا ينام:

– لا تنم، لأنهم قد يسرقون منك الحقائب.

فأجابه موريتز:

- لن أنام.

لكنه منذ أن اختفى رأس الطبيب وراء باب المقصورة، نام ملء جفنيه. كان يشعر بحاجة فظيعة إلى النوم وهو واقف على قدميه! فأغمض عينيه ولم يفتحهما إلاّ في بودابست.

ولمّا بارح القطار، كان الصبح قد طلع. كان موريتز شديد العطش، غير أن هورتيج لم يسمح له بتناول كأس من الليمون في أحد المطاعم، خشية أن يجده أحد رجال الشرطة في المطعم فيكتشف أنّه فرّ من رومانيا، فيوقفه والجماعة معه.

قال له الطبيب أبراموفيسي:

ستعطيك أختي قدحا كبيرا من الماء!

ومضوا مبتعدين. توقفوا قليلا أمام رتل العربات والسيّارات الواقعة أمام المحطة. غير أن هورتيج قال:

- إن من الحكمة قطع المسافة سيرا على الأقدام. إن سائق العربة يصبح دليلا علينا. فمن الحماقة أن نتسبّب في توقيفنا في بودابست بعد أن قطعنا كل هذه المشقات للوصول إليها!

وراحوا يقطعون المسافة سيرا على أقدامهم وموريتز ينوء تحت ثقل الحقائب وهي مكدّسة على كتفيه وفي يديه. كانت الحقائب ثقيلة جدّا، لكنّه شعر بصعوبة أقلّ في حملها هنا من الصعوبة التي وجدها حين كان ينقلها عبر الحدود، في اللّيلة الفائتة.

فكّر وهو يطبع قدمه العارية على الإسفلت البارد: «لعلّي ظننت أنّ هذه الحقائب أقلّ ثقلا الآن منها عن ذي قبل لأنّني أسير بها الآن على طريق معبّدة، على الإسفلت». لم تكن القاطرات الكهربائية قد بدأت سيرها في تلك الساعة المبكّرة. رأى موريتز الأنوار الكهربائية، تنطفئ من تلقاء نفسها في الشوارع، فسأل هورتيج عمّن يطفئها. ولكنّه صاح غاضبا:

- لا تتكلّم باللّغة الرومانية أيّها الحمار! إذا سمعنا أحدهم نتحدّث

بالرومانية، تعرّضنا جميعا للذهاب إلى السجن!

- هل التحدّث باللّغة الرومانية ممنوع؟

فأجابه هورتيج:

- إنّه ليس ممنوعا. غير أنّ الرومانيين هنا، يرسلون إلى معسكرات الاعتقال. إن هنغاريا عدوّة رومانيا. هل فهمت الآن؟

- وكيف نتفاهم إذن؟

فأجاب الطبيب أبراموفيسي:

- تحدّث باليديش. إنّ اليهود في هنغاريا ليسوا ملاحقين كما هو الحال في رومانيا. ليس هناك -حتى الآن على الأقل- أي قانون ضدّ اليهودية في هنغاريا.

امتنع إيوهان عن النطق بكلمة واحدة باللغة الرومانية. غير أنّه لم يتكلّم كذلك بلغة اليديش. لقد كان شديد التعب. فلمّا وصل الأربعة إلى منزل أخت الطبيب في شارع بيتوفي، كان موريتز يترنّح تحت ثقل الحقائب. وضعها أمام الباب، فجاءت الخادمة تساعده على نقلها إلى الداخل، فرافقها موريتز إلى المطبخ. كانت الخادمة ترتدي ثوبا أزرق خيّل لموريتز أنّه رآه من قبل، في مكان ما لم يعد يذكره. وفجأة تذكّر أنّ سوزانا كانت ترتدي ثوبا مماثلا في تلك اللّيلة.

-56-

كانت أخت الطبيب أبراموفيسي على شيء من البدانة. ترتدي معطفا منزليا مزينا بورود حمراء كبيرة وتتحدث بسرعة فائقة. استدعت إيوهان موريتز إلى الحجرة التي كان فيها الطبيب ورفيقاه الآخران، وإيزاك ناجي، زوجها، وقدمت لهم جميعا أقداحا من العرق. لبث موريتز واقفا لأنه لم يكن في الغرفة عدد كاف من المقاعد. وجاءت أخت الطبيب بآنية الشاي فوضعتها على المائدة ونظرت إلى موريتز ثم قالت:

- ليس لك مكان هنا. امض إلى المطبخ وتناول الشاي هناك.

وأعقب زوجها «ناجي» بالهنغارية:

- لا شك أنّ ذلك أفضل لأنّ لدينا من الأمور الجدّية ما يجب أن نبحث فيه بيننا فقط.

فهِمَ موريتز أنّ أولئك السادة ما كانوا يميلون إلى الجلوس معه حول مائدة واحدة. لكنّه لم يتألّم ولم ينزعج. كانت إيوليسكا، خادمة البيت شديدة الاغتباط عندما وجدته عائدا إلى المطبخ. صبّت له ثلاثة أقداح من الشاي بالسكر وعصير الليمون. ثم قدّمت إليه ثلاث قطع كبيرة من الخبز، دفنت في كلّ منها جانبا من الزبد ولحم الخنزير. أكل موريتز بسرعة، لأنه كان جائعا كالذئب ولما فرغ من طعامه، أراد أن يغسل يديه وعنقه، غير أن إيوليسكا قالت له:

- رافقني أوّلا إلى السوق! سوف نغتسل عندما نعود.

حمل إيوهان موريتز السلّة، ورافق إيوليسكا إلى السّوق لشراء ما تريد، وهكذا كان كلّ صباح يرافقها إلى السوق ويحمل لها السلة.

ولمّا عاد من السوق، قطع بعض الأخشاب وحملها إلى المطبخ، وبعد الإفطار غسل الأطباق مع إيوليسكا. لقد كانت هذه وديعة، تحبّ الثرثرة والمزاح. لذلك فقد شعر إيوهان موريتز في ذلك البيت بالمتعة.

-57-

انهمك موريتز في المطبخ وفي الإصغاء إلى مزاح إيوليسكا فلم ينتبه إلى أنّ النهار قد انقضى دون أن يظهر الطبيب أبراموفيسي والآخرون. فسأل عن أخبارهم حوالي الظهر فأجابته أخت الطبيب بأنهم نيام. وعاد إلى أعماله وكفّ عن التفكير فيهم. ولما حلّ المساء وأوى موريتز إلى فراشه، تذكّر أنّه لم يوجّه إلى أحد من رفاقه الثلاثة أية كلمة خلال النهار كله مع أنهم قد تناولوا الطعام جميعهم في البيت. كان موريتز واثقا من هذه الناحية، لأنه غسل الصحاف بنفسه بعد طعام الغداء. ولقد كانوا في المنزل كذلك في الساعة الخامسة لأنه تذكّر أنّه غسل

خمسة فناجين. لكنّه لم يتذكّر عدد الصحاف التي غسلها بعد طعام العشاء. لقد جاءت إيوليسكا بمجموعة كبيرة منها فلم يحص موريتز عددها وهو ينظفها. كانت هذه الأفكار توجعه وتؤلمه، لذلك لم يستطع النوم رغم حاجته الملحة إليه. خيّل إليه أنّ الصحون كانت أقل عددا بعد العشاء منها بعد الغداء.

فكّر في نفسه «لعلّ هورتيج مضى لرؤية أقربائه». كان آسفا إذ خرج هورتيج دون أن يراه. ولكن، ألا يجوز أن يكون قد تناول طعام العشاء في المنزل وأن يكون هو -موريتز- قد خدع نفسه فتخيّل النقص الموهوم في عدد الصحاف؟ ولكنّه استطاع أن يتأكّد من صدق تخمينه صباح اليوم التالي. فقد مضى هورتيج مساء أمس ولم يتناول طعام العشاء في منزل ايزاك ناجي. غير أنّ الطبيب وسترول، ظَلاّ في المنزل. جاءت إيوليسكا بأحذيتهما حوالي الساعة العاشرة لينظفها موريتز. فقام بعمله بعناية فائقة وأراد أن يحمل الأحذية إلى داخل البيت ولكنّ إيوليسكا استوقفته على العتبة وأخذت الأحذية من يده فأدخلتها بنفسها إلى الدار. ولما عادت قالت لموريتز:

- إنّ السيدة قد منعتني من السماح لك بدخول البيت. ماذا تريد؟ إنها دائما هكذا، إنها تخاف دائما أن تسرق.

-58-

استدعى الطبيب أبراموفيسي، إيوهان موريتز بعد الغداء لغرفة الطعام وقال له بلهجة آمرة:

- احمل حقائبي وتعال معي:

ابتهج موريتز كثيرا، فقد كان متأكدا من أنّ الطبيب سيناديه، وأنه لم ينسه.

وحين خرجا إلى الشارع، سأله الطبيب غاضبا:

- لماذا تسير حافيَ القدمين؟

خجل موريتز من نفسه لكنّه لم يكن يملك أحذية. نظر حوله في الشارع فلم يجد مخلوقا واحدا يسير حافيَ القدمين، فتابع طريقه مُنحنيَ الرأس. كان ينظر بعناية خلال الطريق إلى أقدام الناس الذين يسيرون حوله. كانوا جميعا منتعلين أحذية قصيرة أو عالية الساق، نظيفة ملمّعة. فخجل موريتز من نفسه وودّ لو انشقت الأرض وابتلعته. حاول أن يطلب الصفح من الطبيب، لكن هذا كان يسير أمامه ويداه في جيوبه وكأنه لا يعرفه.

-59-

توقف أمام باب منزل قديم حوله حديقة صغيرة. أخذ الطبيب الحقائب ودخل وحده فبقي موريتز ينتظره على العتبة. قرأ اللوحة المعلقة على الجدار. كان عليها كلمة «قنصلية». فعاد إلى المارة الذين كانوا يخترقون الشارع.

لم يتأخر الطبيب أبراموفيسي في المنزل. لكنّه لما خرج منه، لم يكن يحمل حقائبه. كان يهبط السلم ضاحكا. وحين رأى موريتز ينتظره مستندا إلى الجدار جمدت ضحكته على شفتيه. وقف برهة في مكانه، ووضع يديه في جيوبه، وكأنه كان يفكر. لقد رآه موريتز يقطب حاجبه، فلما عادا معا، كان الطبيب مطبقا فكّه، ولم ينطق بكلمة. كان إيوهان موريتز يسير وراءه على مسافة كبيرة، حتّى لا يعرف الناس أنّ «السيّد» الطبيب، يمشي مصطحبا شخصا حافيَ القدمين. فلم يكن يريد أبدا أن يسبّب للطبيب أبراموفيسي ذلك الخجل، مهما كلفه ذلك من جهد.

توقف الطبيب أمام باب منزل ايزاك ناجي وانتظر أن يلحق به موريتز ثم قال له:

- يا نكل، إن مسألتك شديدة التعقيد. إنّ الجمعية اليهودية في بودابست، التي تهيّئ لنا أوراق السفر إلى أمريكا، لا تريد الاهتمام بقضيّتك. لقد قلتُ إنك جئت معنا، وتوسّلت إليهم أن يساعدوك، ولكن

عبثا. لقد أجابوني بأنهم لا يستطيعون مدَّ يد المساعدة للمسيحيين. إنّ المجلس اليهودي يجب أن يهتمّ باليهود وحدهم، لذلك فإنّهم يطلقون عليه اسم: «المجتمع الإسرائيلي». وأنت لست يهوديا، أليس كذلك؟

- أنا لست يهوديا يا سيدي الطبيب.

فأردف الطبيب أبراموفيسي:

- إنّهم على حق. لكنني آسف إذا بلغت النتيجة هذا الحد. كنت أريد أن أصطحبك معي إلى أمريكا. غير أنّني رغم ذلك، لن أهملك أو أسقطك من حسابي.

فتح الطبيب أبراموفيسي حافظة نقوده، وراح يعدّ بعض الأوراق المالية، بينما راح إيوهان موريتز يحدّق في تلك الأوراق الهنغارية مذهولا من صِغَرِ حجمها .

قال الطبيب أبراموفيسي:

- هاك عشرين «بانجوس» أجرا لأتعابك. إنّه مبلغ كبير. ينبغي أن يشتغل المرء هنا في هنغاريا أسبوعا كاملا قبل أن يحصل على هذا المبلغ بينما ربحته أنت، لمجرد نقل حقائبي خلال بضع ساعات.

ما كان إيوهان موريتز يفكّر قط في المطالبة بنقود أجرا على نقله الحقائب. فهو لم ينقلها من أجل المال. لكن الطبيب أبراموفيسي لبث مادا يده إليه بالمال، فأخذ موريتز المبلغ ودسّه في جيبه.

أردف الطبيب أبراموفيسي:

- كان المهم في الموضوع خروجك من المعسكر. ولقد أخرجتك منه، وجئت بك إلى هنا. لو أننا لم نساعدك على الفرار، للبثت دهرا تتحلل هناك. لكنني لا أسألك شيئا لقاء هذا العمل. فأنا لست من طراز الرجال الذين يطالبون بالبديل عن الخدمات التي يقدمونها لكائن من كان.

-60-

منذ أسبوع، وإيوهان موريتز في هنغاريا، يقوم بعمله الذي بدأ فيه،

حينما وطئت قدماه أرض بيت ايزاك ناجي: يرافق إيوليسكا إلى السوق، ويقطع الخشب، وينقل دلاء النفايات إلى الشارع، ويغسل الأطباق. فإذا حلّ المساء، نظّف المطبخ، وغسل الأرض والسلم.

وفي صباح يوم الأحد، صادف ايزاك ناجي إيوهان موريتز في الممشى، فقال له بصوت قاس:

- ألم تجد لنفسك عملا بعد؟ منذ أسبوع وأنت هنا. فهل تظن بأنني سأستمر في التصدّق عليك طيلة عمري؟

تركه ايزاك ناجي ومضى دون أن يعقّب بكلمة. فأسف ايوان موريتز على الوقت الذي أضاعه، دون أن يبحث لنفسه عن عمل. إنّه لم يفكّر في إيجاد عمل لنفسه، لأنه ظنّ أن ايزاك ناجي، قد أدخله في خدمته.

مضى يحدّث نفسه: «كيف بلغ بي السخف أن امتنعت عن البحث عن عمل؟ إنّ هؤلاء الناس على حق. فهُمْ لا يستطيعون إطعامي مدى حياتهم».

تحدّث موريتز مساء ذلك اليوم إلى إيوليسكا، فوعدته هذه بإيجاد عمل له. كانت تعرف بعضهم في معمل من معامل «الشوكولاطة». قالت له مداعبة:

- لعلك تأتيني بقطع من «الشوكولاطة». أم تراك تعطيها إلى أخرى!

فقال موريتز، وقد أزعجه تفكير إيوليسكا في مثل هذا الاتجاه:

- كيف أعطيها لسواك؟ لسوف آتيك بكل ما يعطونه لي. ولن أقضم منه قطعة واحدة.

حلم إيوهان موريتز ذلك المساء، بأنه يشتغل في معمل «الشوكولاطة».

في صباح اليوم التالي، ودّع الطبيب أبراموفيسي أخته وصهره وذهب. حمل له موريتز حقائبه حتّى المحطة، وهناك نقلها إلى عربة النوم. سأله:

- أتذهب بعيدا؟

فأجابه الطبيب:

- إلى سويسرا. سأستريح هناك بضعة أسابيع قبل رحيلي إلى الولايات المتحدة.

ولما أزفت ساعة الرحيل، مدّ الطبيب أبراموفيسي يده إلى موريتز مصافحا.

شعر إيوهان موريتز بالدم يتصاعد إلى وجنتيه. كان كلّ «الأسياد» على الرصيف، ينظرون إلى حركة الطبيب الذي يصافح يد رجل لا ينتعل أحذية في قدميه، يده هو، إيوهان موريتز.

لّما تحرك القطار هتف الطبيب من النافذة:

- إلى اللقاء يا عزيزي يانكل، لن أنساك. سأحاول عمل شيء ما، لإخراجك من هنا.

فأجابه موريتز محيّيا:

- إلى اللقاء.

غاب القطار عن عينيّ إيوهان موريتز، فانخرط في البكاء. شعر بأنه أصبح وحيدا في هذا العالم. لقد ذهب سترول وهورتيج، دون أن يوجّها إليه كلمة واحدة. وها أنّ الطيب أبراموفيسي قد ارتحل الآن... لبث موريتز زمنا على الرصيف القاحل. لم يشعر في حياته بمثل هذا الإحساس بالاغتراب. وفجأة تذكّر معمل الشوكولاطة، فخفّت أحزانه، وعاد على أعقابه. فكر وهو يصعد شارع بيتوفي:

«حين أبدأ العمل، سأشتري لإيوليسكا قلادة من اللؤلؤ المزيف.»

-61-

مضى إيوهان موريتز وإيوليسكا إلى السوق في وقت مبكّر، خلافا للعادة. اشتريا اللحم والخضار، وكلّ ما يلزم البيت من حاجات بسرعة عجيبة، ثم مضيا بخطى حثيثة، في شارع ذي بيوت منخفضة.

كان موريتز يحمل السلة بيده اليمنى، ويمسك بذراع إيوليسكا بيسراه. وهما يمشيان بخطى مسرعة.

قالت إيوليسكا:

- إنّ المعمل في الجانب الآخر من المدينة، لذلك ينبغي أن نسرع في مشيتنا.

كانا قلقين. لأنّهما إذا تأخّرا عن الوقت المعتاد، فلن تجد إيوليسكا الوقت الكافي لإعداد طعام الصباح. لقد تحدّثت إلى فتى من قريتها، يعمل في ذلك المعمل، فطلب إليها أن تصطحب موريتز ذات صباح، ليقابل رئيس العمال وقال:

- إذا جاء، فلسوف يُقبل فورا، لأنّ المعمل يشكو قلّة الأيدي العاملة.

قال موريتز وهو يشق لنفسه طريقا وسط ازدحام عدد من الناس في إحدى الساحات:

- علّهم يقبلونني على الفور! إذا استخدموني، فلسوف أقبض أجري يوم الاثنين المقبل، ولعلّهم يعطونني كذلك بعض قطع الشوكولاطة لك.

ضغط على ذراعيها بعنف. فنظر كل منهما إلى الآخر وراحا يضحكان.

أردف موريتز:

- سأجد لنفسي غرفة آوي إليها، لأنني لا يمكن أن أبقى عالة على مخدوميك. سوف أبحث عن غرفة قريبة من المعمل.

سألته إيوليسكا:

- هل تسمح لي بالمجيء إلى غرفتك؟

غير أنّه لم يسمع كلماتها. لقد اجتذب الازدحام الشديد انتباهه. كان يتساءل عن سبب وجود كلّ هذا الحشد من الناس، في تلك الساعة. كان مئات من الناس يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب. توقفت إيوليسكا وحاولت هي الأخرى أن تستطلع سرّ هذا الازدحام. لكنّها تذكّرت أن عليها أن تسرع ما استطاعت. قالت:

- لِنَسلُكْ شارعا آخر، وإلاّ فإنّني لن أستطيع العودة في الوقت المناسب.

عادا على أعقابهما وهما يسيران بسرعة أكثر، محاولين تلافي الوقت الذي أضاعاه. لكن منفذ الشارع كان مغلقا برجال البوليس.

نظرت إيوليسكا إلى رجال الشرطة من زاوية عينها، وحثّت خطاها تُضاعف من سرعتها. قالت:

- إن رجال الشرطة والدرك أسوأ الرجال في العالم. لذلك لن أتزوج دركيا أبدا.

التفتت إيوليسكا لتتأكد من أنّ موريتز قد سمع قولها. لكن موريتز لم يكن يسير وراءها. راحت إيوليسكا تبحث عنه بأبصارها، فشاهدته قرب بعض الدركيين، يشير إليها بيده.

اتجهت إيوليسكا نحوه. فهمت في تلك اللحظة سرّ ذلك الازدحام. لقد أطبق عليهما كمين أعدّه رجال الشرطة للتحري عن المشبوهين. وقف رجال الدرك، بعد أن أقاموا شبه حاجز على الطريق، وراحوا يتصفحون أوراق المارة، قبل أن يسمحوا لهم بالمرور. أما النساء فما كانوا ليسألوهنّ أوراقا، ولهذا السبب، استطاعت إيوليسكا المرور من دون موريتز.

تذكّرت إيوليسكا أنّ موريتز ما كان يحمل معه أيّة أوراق تثبت شخصيته. فذعرت واعتراها الخوف، عادت تمرّ خلال حاجز رجال الدرك، فأراد أحدهم أن يضغط على ساعدها، لكنّها تحاشته، وهرعت إلى حيث وقف موريتز. شاهدت موريتز في تلك الأثناء واقفا مع نفر من الناس، يخفرهم دركي شاكي السلاح، ويسوقهم إلى سيارة عسكريّة قريبة. كان موريتز قد رفع السلة فوق رأسه ليتيح لإيوليسكا أن تهتدي بها إلى مكانه، فتصل إليه، وتستعيد السلة. ورأت إيوليسكا السلة، لكنّها لم تستطع التقدم إلى حيث كان حاملها. فقد منعها رجال الدرك عن التقدم أكثر من الحد الذي بَلَغته. شرحت لهم بأنها تريد أخذ سلة الخضار من يد الشاب الموقوف، لكنهم لم يصغوا إليها، أو لعلّهم لم يفهموا قولها. صخبت وصاحت وشتمت، ولكن عبثا.

كان إيوهان موريتز قد صعد إلى السيارة العسكريّة، وترك السلة تتدلى إلى جانبها، على أمل أن تصل إيوليسكا، فتتلقفها من يده.

وتحركت السيّارة، فوضع السلّة على ركبتيه. فكّر أنّ «السيدة ناجي ستضرب المسكينة، إذا عادت إلى المنزل دون سلّة» كان يهم بالقفز من السيارة، ليعيد إلى الخادمة المسكينة سلّتها. لكنّه أفلت تلك الفرصة كذلك إذ أنّ جنديين شاكيي السلاح، وقفا إلى جانبي السيارة، لمنع كلّ محاولة من هذا النوع. ولمّا وقعت عينا إيوهان موريتز عليهما نسي سلة الخضار. فقد تجلّت له الحقيقة المرعبة: لقد كان سجينا.

-62-

مضت أربعة أسابيع على توقيف إيوهان موريتز. غير أنّه خلال هذه المدّة، لم يطّلع على أيّ شيء خارج حدود زنزانته. لقد حرم حتّى من رؤية الشمس. كانت نافذة زنزانته تطلّ على باحة داخليّة، تحيط بها أسوار عالية تحجب الأفق عن ناظريه، وجزءا كبيرا من السماء. منذ أربعة أسابيع لم يستنشق نفحة واحدة من الهواء المنعش. كان هناك موقوفون آخرون. لكنهم كانوا يخرجون إلى الباحة ساعة كل يوم. فيسمع صوت خطواتهم وهم يغادرون زنزاناتهم ويعادون إليها. كان موريتز يعرف أنهم أخرجوا للنزهة اليومية، من صوت الخطى.

كان المشي في تلك اللحظة ساكنا هادئا، والصبح لم يشرق بعد. فتح موريتز عينيه. كان جفناه يُفتحان بألم وجهد. عيناه تؤلمانه، وجفناه متورّمان مقرّحان وقد تجمّد فيهما الدم. ترى متى أعادوه إلى زنزانته؟ لم يكن يذكر شيئا من ذلك. قال في نفسه «لقد أكثروا من ضربي في المرة الأخيرة، حتّى فقدت وعيي». كان يتحدّث عن نفسه حديثه عن إنسان غريب، عن شخص ثالث. رفع يده إلى وجهه، فوجد لحيته كثيفة قاسية والدم قد تجمّد خلال شاربيه وشعره وأهدابه. مرّر لسانه على شفتيه المنتفختين، فإذا هما كالدملة المتفسخة، لا تلبث أن تنفقئ. وكانت أسنانه

تؤلمه كذلك. لقد فقد أربعة منها حتّى الآن. بصقها ذات يوم مع الدم، إثر لكمات عنيفة تلقاها على فكّيه. واليوم يذكّره الألم في حدّته بآلام ذلك اليوم. تساءل: «إذا حطّموا لي أسنانا جديدة هذه المرّة، فسوف أفقد القدرة على مضغ خبزي بعد الآن». لم يعن بلمس مواضع الألم، أو بتحسّس فكّيه من الداخل بطرف لسانه ليتأكد من عدد الأسنان المفقودة، لأنّ أيّة حركة كانت تؤلمه، فأغمض عينيه واستسلم لمصيره. مرَّ الوقت، فسمع صوت خطى تقترب من الرواق. لكنّه لم يرهف السمع كعادته ليخمّن نوع تلك الخطى ويحدس من أين هي آتية وإلى أين تمضي. كان جسده مثخنا وأفكاره متلبّدة، فلمّا جاءوا يسوقونه إلى الاستنطاق، غادر فراشه وهو يئنّ متوجّعا. كان باطن قدميه متورّما أشبه بالرغيف الساخن. وقد أدهشه أن لا يذكر أنّه تلقّى شيئا على قدميه. دفعه الحارس بقسوة، فاجتاز موريتز عتبة زنزانته. شعر بألم هائل في ظهره، في المكان الذي ركله الحارس فيه وهو يسوقه، ثم زال الألم ونزل إلى قدميه. وكلّما خطا خطوة انتابه الإحساس بأنّ بعضهم ينتزع قطعة من لحمه.

كان على بعد مائة خطوة من مكتب المفتش «فارجا» الذي يتولّى التحقيق معه. وعليه أن يقطع هذه الخطوات المائة، ولكنّ مجرّد التفكير فيما سيلقاه، كان كافيا لكي تخونه قواه ويتهاوى على الأرض. هرع الدركي ورفعه من تحت إبطيه. فقد غدا خفيفا كالطفل. ولم يبق منه سوى العظام المكسوّة بالجلد، أمّا اللحم والشحم، فلم يعودا موضوع بحث.

-63-

عندما أوقف إيوهان موريتز أوّل الأمر، أدلى بمعلوماته، فقصّ بكلّ أمانة، كيفيّة وصوله إلى هنغاريا. غير أنّ رجال الدرك لم يصدّقوه. ضربوه لينتزعوا منه الحقيقة وأخضعوه لتعذيب مريع. ولمّا أعادوا سؤاله وكرّر عليهم أقواله الأولى بكل دقّة، عادوا فضربوه من جديد.

كان في تلك اللحظة في سجن دائرة الجاسوسيّة الهنغارية وكان كلّ

يوم يتعرّض لاستجواب وضرب. والمفتّش يسأله:

- لماذا أرسلوك إلى هنغاريا؟

فيجيب موريتز:

- لم يرسلني أحد إلى هنغاريا.

- لقد أفدتنا بأنّك بلغت الحدود في سيّارة عسكريّة يقودها وكيل ضابط!

- صحيح. وقد كان اسم وكيل الضابط «آبوستول كونستانتان»، وهو قائد المعسكر وصديق الطبيب «آبراموفيسي». رافقنا ليحول دون توقيفنا من قبل العسس على الطريق.

قال المفتش:

- إنّه القائد «تنازايون» من مكتب الاستخبارات الروماني. ونحن نعرف أنّه ينشط الآن في هذه المنطقة. إنّه يرسل إلينا جواسيسه كل شهر. وهو الذي أرسلك. لكننا نريد أن نعرف لمَ أرسلَك وما هي مهمتك؟

أطرق موريتز برأسه إلى الأرض وأجاب:

- لقد ذكرت لكم كلّ الحقيقة.

كان يعرف أنّه سيقاد بعد لحظات إلى غرفة التعذيب في القبو، فشعر بوخز في أطراف جسده، واعترته رعدة عندما تمثل له هذا الخاطر.

قال المفتش:

- ألا ترى أن كل هذه المهزلة التي تتذرّع بها لا تفيدك في شيء؟ إنّ من السخف الاستمرار في المقاومة. لقد أعلنت لنا أنك سجنت في معسكر لليهود في رومانيا عاما ونصفا.

فأجاب موريتز:

- نعم لقد سجنت كذلك.

- كاذب. إنك لم تطأ بقدمك أرض المعسكر. فأنت رومانيّ.

أجاب موريتز:

- إنّني روماني.

استرسل المفتش قائلا:

- وفي هنغاريا أردت الظهور بمظهر اليهودي وادّعيت أنّك أرسلت في رومانيا إلى معسكر من معسكرات اليهود لترغمنا على تصديق أقوالك، ثم أعلنت أنك اجتزت الحدود برفقة ثلاثة من اليهود.

- إنّ هذا صحيح أيضا.

- إنّه ليس صحيحا. لقد جئت وحدك. وأنت لم تقطن لدى ايزاك ناجي. فأسرة ناجي لم تتلق ضيوفا منذ ستة أشهر. هل ظننت أننا سنصدّق أقوالك دون أن نحقق فيها؟ لقد أخذنا إفادات السيد ناجي وزوجته وهي مسجّلة ومحفوظة في هذه الإضبارة. إنّهما لم يسمعا باسمك من قبل والسيدة روزا ناجي ليس لها أخ طبيب.

سأل إيوهان موريتز:

- هل قالوا إنّهم لا يعرفونني؟ إن السيدة لا يمكن أن تقول ذلك. لقد اشتغلت في منزلها ورافقت الخادمة «إيوليسكا» إلى السوق وغسلت الصحاف والأطباق...

راح إيوهان موريتز يبكي، بينما صاح المفتش:

- وهذه أيضا كذبة وقحة. فالسيدة روزا ناجي لم تستخدم خادمة باسم إيوليسكا. كان يجدر بك قبل أن تعمد إلى الكذب، أن تتأكد من اسم الخادمة!

أغمض إيوهان موريتز عينيه. كان ينتظر أن يدعو المفتش الحارس ليقوده إلى الغرفة السفلى. وكان يتعذب كلّما تصوّر أنّ السيدة ناجي أنكرت معرفتها له. إنّه لا يستطيع تصديق هذا القول.

سمع إيوهان موريتز صوت الباب يفتح وصوت خطى تقترب منه. لكنّها لم تكن خطوات الحارس الذي اعتاد أخذه إلى غرفة التعذيب. فتح عينيه فرأى ايزاك ناجي واقفا أمامه. كان يرتدي ثوبا جديدا كستنائي

اللون، لكنّه ما كان ينظر إليه أبدا.

سأله المفتش:

- هل تعرف هذا الشخص؟

حدج ايزاك ناجي موريتز بنظرة ملتهبة وقال:

- إنّني أراه اليوم للمرة الأولى.

سأله المفتش:

- هل التجأ ثلاثة من اليهود الفارين من رومانيا إلى منزلك؟

- لم ينزل عندي أحد منذ سنوات طويلة باستثناء زوجتي والخادمة.

قال المفتش:

- إنّني أشكرك!

غادر ايزاك ناجي المكتب، فدخلت زوجته بعد خروجه مباشرة وأعلنت أنّها لا تعرف موريتز وأنها لم تر وجهه قبل اليوم.

سألها المفتش:

- هل لك أخ طبيب في رومانيا؟

- إنّني وحيدة أبوي.

ألقى المفتّش نظرة قاسية على إيوهان موريتز ثم سأل روزا ناجي:

- هل استخدمتم في منزلكم خادمة باسم إيوليسكا؟

فأجابت:

- أبدا! إنّني في بودابست منذ ثمانية أعوام ولم تدخل في خدمتي إلاّ خادمة واحدة واسمها جوزيفينا.

خرجت مدام ناجي من المكتب باسمة وبعد ذلك، دخلت امرأة عجوز أعلنت أن اسمها جوزيفينا وأنها أمضت في خدمة آل ناجي ثمانية أعوام دون انقطاع وأخيرا خرجت وبقي المفتّش وحيدا مع إيوهان موريتز؛ فقال:

- هل تعترف الآن على الأقل بأنّك كنت تكذب؟ قل الحقيقة! لماذا أرسلوك إلى هنغاريا؟

فكان جواب موريتز أن انخرط في بكاء مرير...

-64-

وكالمادة، اقتيد إيوهان موريتز من مكتب المفتّش «فارجا» إلى غرفة التعذيب مباشرة، لكنّه لم يشعر قطّ من قبل بمثل الخوف الذي انتابه في ذلك اليوم. فلمّا دخل غرفة التعذيب، وجدها مضاءة بنور أبيض عنيف، وكانت المصابيح كبيرة شديدة الضوء.

أغمض إيوهان موريتز عينيه، غير أنّ الضوء العنيف كان يُحرق صدغيه كالنار المشبوبة.

صرخ به أحد الحارسين ضاحكا:

- اخلع ملابسك.

كان المتكلم أحدَ الرجلين، ضخم الجثة كزميله، ذا شاربين كثيفين، وكان موريتز يراه كلّما أدخل الغرفة، متلهيا بلعب الورق مع زميله. أخذ موريتز يحلّ ياقته. فهو يعرف أنّه إذا أبطأ في خلع ملابسه فإن واحدا من الحارسين سيهرع إليه، فيضربه بالسوط بعنف على وجهه. يعرف هذه الحقيقة تماما.

لكنّ أصابعه كانت متورّمة، لذلك وجد مشقة كبيرة في تخليص أزرار القميص الدقيقة من عراها. كان موريتز يشعر برعب هائل من ذينك الرجلين. فلم يخش كل حياته وقع السياط كما بات يخشاها اليوم. ألقى نظره إلى حيث كان الحارسان جالسين يلعبان. كانا منهمكين، حتّى أنهما لم يلاحظا تباطؤ موريتز. وأخيرا، استطاع أن يخلع قميصه وترك سرواله، فلم يخلعه لأنهم ما كانوا يطلبون منه ذلك. لبث واقفا ينتظر. وأمامه رف مدرج، صُفّت عليه قضبان من الحديد، كالتي يستعملها الجنود في ثكناتهم لتنظيف بنادقهم. وكانت تلك القضبان مرتبة بحسب أحجامها، إلى يسار الرف عدد منها بقطر إبهام اليد، و أحجامها تتقلّص بالتدريج. وكان هناك قضيبان من كل حجم، فأخذ

موريتز يعدها للمرة الأولى. كانت القضبان الدقيقة مصفوفة إلى يمين الرف، تشبه في حجمها عيدان القش. وكان موريتز يعرف الألم العنيف المضني، الذي تخلّفه هذه العيدان في الجسد.

هتف أحد الحارسين وهو ينتصب واقفا:

- إلى العمل يا بني!

ظلت أوراق اللعب مبعثرة على المائدة. أردف الحارس يقول:

- من لا يشتغل لا يأكل.

رآه موريتز يتمطّى. كان يرتدي قميصا أزرق تظهر من خلاله تقاطيع جسمه الضخم. وكان يبدو عليه النعاس.

أطفأ الحارس الآخر لفافته وألقى نظرة على موريتز وقال:

- إذن؟ هل ستقول لنا اليوم لماذا أرسلوك إلى هنا؟

كان صوت الحارس رقيقا وكأنّه يدعوه إلى إشعال لفافته مثلا.

تثاءب الحارس وتمطّى كما فعل زميله منذ قليل، فأجابه موريتز:

- لقد قلت لكم: إن أحدا لم يرسلني إلى هنا!

استدار الحارسان بعنف نحوه وانتفضا كأنهما لمسا حديدا محمّى. التمعت أعينهما بالغضب، فأخذ إيوهان موريتز يرتعد. اقترب أحد الحارسين منه ولكمه لكمة على وجهه أعقبها بثانية ثم بثالثة. ففقد موريتز الشعور بالألم من منطقة وجهه على الأقل.

قبض عليه الآخر، ومدّده على صدره فوق المقعد الخشبي الذي كان قرب الرف، ثم اعتلى ظهره كما يمتطي الفارس حصانه. كان موريتز يشعر كلّما جلس الحارس على ظهره بأنه سيموت خنقا. لكنّه اليوم كان يتمنّى لو يموت. كان يشعر بعظام صدره تتحطم على المقعد ورئتيه يضغطهما ثقل الحارس كما لو كان يرزح تحت حجر الرّحى، فلم يستطع استنشاق الهواء. سأله الحارس الذي لكمه على وجهه:

- ماذا قلت؟

شعر موريتز بالضربة الأولى على قدميه، فتشنّجت عضلات ساقيه وراح يحاول تفادي الضربات غير أنّ الحارس الجاثم فوقه ضمّ ساقيه بيديه ومنعهما من الحركة وهبطت الضربة الثانية. كانا ولا شك يستعملان القضيب الضخم في تلك اللحظة لذلك فإن موريتز بعد الضربة الثانية فقد الإحساس بالألم. دماغه وحده ظلّ يتألم. ولما انهالت الضربات تباعا على قدميه صار يشعر بوقعها في دماغه وصدره ثم في كتفيه، وبعد ذلك أغمي عليه. تصلّب جسمه فغدا كقطعة من الخشب غير أنّ ذلك لم يطل. شعر في تلك اللّحظة بأنّه يتلقى ضربات سكّين تمزّق باطن قدميه وبالنار تشويهما وخمّن أنّهما يضربانه بالعصي الرفيعة الدقيقة. انهالت الضربات وراحت ترتفع حتّى بلغت ركبتيه ثم فخذيه ففقد السلطة على مثانته وبطنه بينما تتابعت الضربات بوحشية وعنف. أحسّ موريتز بضوء أصفر يتراقص أمام عينه وبدأت الأطعمة التي ابتلعها قبل مجيئه تهجر معدته وتخرج من فمه. تبلّل سرواله والتصق بجلده، بينما كان الماء و الخبز يرفضان معا البقاء في معدته.

شعر إيوهان موريتز بأنه غارق في ذلك الضوء الأصفر الذي يحيط به، وفمه مملوءٌ بسائل أخضر مُرّ. فقد كانت السوائل تغادر جسمه عن طريق الأنف والفم وكل المنافذ الأخرى، ممتزجةً بزبد أخضر أشبه بلعاب الضفدع السامّ. شعر بأن حياته تنسلّ من كلّ مكان، بينما ظل عقله وحده متيقظا. وخمّن أنّ الحارس يضربه بالقضبان الدقيقة لكنّه ما كان يحس بوقعها على جسمه، حتّى الدمُ لم يستطع هو الآخر أن يتحمّل الضربات فحاول بدوره الإفلات من ذلك الغلاف الجلدي الممزّق المثخن بالجراح فتفجّر من كلّ المسامات التي كان يستطيع الاندفاع منها. كان الدم يغادر جسم إيوهان موريتز من أنفه وأذنيه ويختلط مع البول ويتفجّر من كل مكان، وكأنّه عازف عن ذلك الجسد الممزق فيفرّ ما استطاع إلى الفرار سبيلا.

-65-

استيقظ إيوهان موريتز فتذكّر مقابلة البارحة التي جرت بينه وبين ايزاك وروزا ناجي. قدر: «أنّهما لو ذكرا الحقيقة لأخلى المفتش سراحي ولما تعرّضت لكلّ ذلك الضرب والعذاب.» فمنذ توقيفه لم يضرب ولم يعذب مثلما عُذّب أمس. كان جسمه كلّه عبارة عن جرح عميق واحد، جرح كبير دام يمتدّ من قدميه حتّى قمّة رأسه.

«لقد قال ايزاك ناجي إنّه لا يعرفني وكذلك قالت زوجته» مع ذلك فقد كان موريتز يرى نفسه بعين الخيال وهو يلمّع أحذية ايزاك ناجي ويقطع الأخشاب ويغسل الأرض وينظّف المطبخ بناءً على أمر روزا ناجي. «كيف استطاعا إنكار معرفتهما بي؟ لقد ادّعيا بأنّهما لم يريا إيوليسكا وأنهما لم يستخدما قط خادمة بهذا الاسم».

كان إيوهان موريتز خائر القوى. وهو على يقين من أنّ جسمه وعقله قد دبّ فيهما الهزال والضعف وأنه أعيد إلى زنزانته أمس وأمس الأول دون أن يذكر كيف؟ و لا في أيّة لحظة أعيد إليها. كان يعتقد أنّ ذلك الضعف الشامل سببه الضرب والتعذيب. لكنّه كان واثقا من أنّه أوى إلى بيت ايزاك ناجي، كان واثقا أن خادمة البيت اسمها إيوليسكا. مع ذلك فإن ايزاك ناجي قال كلا وقالت زوجته كذلك كلاّ. لقد سمعهما بأذنيه يقولان كلاّ. وما لبث أن أغمض عينيه مستسلمًا.

-66-

بعد فترة قصيرة من الزمن استدعى موريتز من جديد. فراح يرتعد ويضطرب. عزم للمرة الأولى في حياته على قتل نفسه. لم يعد يستطيع احتمال المزيد من الألم. ترك الحارس الباب مفتوحا ووقف على عتبته. فرآه موريتز من خلال أهدابه يضحك.

قال الحارس:

- هيا انهض!

تذكّر موريتز المفتش «فارجا» وخُيِّل إليه أنّه يسمع صوته وأنه أعيد إلى غرفة التعذيب حيث القضبان الحديدية من مختلف الأحجام والمقاييس. وشعر بثقل الحارس يهبط على ظهره فغمغم متوسلا:

- كلاّ ليس اليوم: غدا وبعد غد وكلّ ما تبقى لي من أيام. خذني كلّ يوم إلى التحقيق والتعذيب ولكن ليس اليوم...

قال الدركي:

- إننا اليوم نطلق سراحك!

لم يصدقه إيوهان موريتز بل إنّه ما كان يستطيع أن يُصدّق. ومع ذلك فقد أطلق سراحه ذلك اليوم.

لكنّهم لم يعيدوا إليه حريته. لقد كان من الرعايا الرومانيين لذلك وجب سوقه إلى معسكر من معسكرات العمل.

-67-

قبل أن يغادر السجن تلقى إيوهان موريتز رسالة من إيوليسكا جاءه بها حارس مكتب المفتش «فارجا» في اللحظة التي كان موريتز يهمّ فيها بمغادرة زنزانته. أخذ الرسالة فطالعته كتابة إيوليسكا:

«عزيزي ايانوس: لقد طُردت منذ أربعة أيام من خدمة السيد ناجي. وقد كتبت لك هذه الرسالة لأحيطك علما بالأمر، حتّى لا تبحث عني في شارع «بيوتي» حين يطلقون سراحك. فأنا عائدة إلى الريف حيث تقطن أمي في إقليم «بالاتون» التابع لناحية «تيزا» وهناك سأنتظرك بشوق. يمكنك أن تحضر إلينا حال مغادرتك السجن. «إيوليسكا»

وجاء في الزاوية اليمنى من الرسالة ما يلي:

«لقد كنت البارحة لدى آل ناجي لأستعيد أشيائي. إن السيد ناجي وزوجته يطلبان منك أن لا تغضب لأنهما أنكرا معرفتهما بك أمام رجال الشرطة. فقد أصبح اليهود اليوم يوقفون ويسجنون في المدينة لذلك فقد كانا يرهبان الاعتراف بأنهما آويا غرباء في بيتهما. إنّهما يرسلان إليك

تحياتهما. لقد أعطاني السيد ايزاك ثوبا جديدا تقريبا هدية منه إليك. ستجد الثوب عندي عند عودتك. إنّ الأوقات عصيبة والخوف يجعل المرء يقتل أمه وأباه. أقبلك – إيوليسكا».

-68-

كان أعضاء الحكومة الهنغارية مجتمعين اجتماعا سريا في قصر الوصاية منذ ثلاث ساعات. وحين شارف الاجتماع على الانتهاء وقف وزير الخارجية يقول:

– إنّ مشكلة الخمسين ألف عامل لم تحل. وهي مشكلة شديدة الأهمية.

فقال رئيس الحكومة بصوت قاس:

– لقد حلّت القضية. إن القرار اتخذ وقُبِل بالإجماع.

كان الوزراء على وشك مغادرة قاعة الاجتماع وكل منهم يتأبّط محفظته غير أنّ وزير الخارجية لم يلق بالا إلى حركتهم بل أردف:

– ينبغي أن نجد شيئا نعطيه. ينبغي أن نحافظ على توازن علاقاتنا مع الرايخ الثالث. إنها ليست علاقات الند بالند. ينبغي أن نعترف بذلك مهما كلّفنا الأمر. إن موقف هنغاريا من ألمانيا ليس موقف الحليف من حليفه بل المرؤوس من رئيسه. لكن هذا الموقف لا يمكن أن يتبدّل إلاّ إذا حلّ محلّه احتلال عسكري. وهو أسوأ مما نحن عليه. لقد طلبوا منا بادئ الأمر أن نقدّم ثلاثمائة ألف عامل «300 ألف» ثم عُدّل هذا الرقم إلى خمسين ألفا. ولا خيار لنا غير تقديم هذا العدد.

قال رئيس الوزراء وقد غدا وجهه أحمر من الغضب:

– إنّ حكومتي لن تُسلّم مواطنا هنغاريا واحدا كالعبد إلى ألمانيا. إن المسألة إذن منتهية.

فأجاب وزير الخارجية:

– إنّ ألمانيا تتمسك كثيرا بهذا الطلب. لقد وُجّه إلينا على شكل إنذار نهائي. صناعتهم في حاجة إلى الأيدي العاملة. فإذا لم نستجب لهم فإن

رفضنا سيقضي علينا. لقد أُبلغت أنّه في حال رفضنا هذا الطلب فإن أمر احتلال هنغاريا عسكريا، سيعتبر ضرورة ملحة. وواجبي أن أبلغكم ذلك. وستتحمّلون المسؤولية التي ستنجم عن هذا الرفض.

سأل أحد الوزراء:

- ألا يمكن أن نجد حلا وسطا؟

فأعقب رئيس الوزراء:

- إذا أرسلنا هنغاريا واحدا إلى ألمانيا فإن الموقف لا يكون أقل سوءا. إن التاريخ لن يصفح عن مثل هذا التصرّف. لذلك فإنّ جوابنا لا يمكن أن يكون إلاّ بالرفض الحازم. ليس في هذه المسألة أيّ حلّ وسط.

قال وزير الداخلية:

- ماذا لو أرسلنا إلى ألمانيا خمسين ألف عامل من غير الهنغاريين؟ إن لدينا في معسكرات الاعتقال أكثر من ثلاثمائة ألف أجنبي. فلماذا لا نقدمهم إلى ألمانيا؟

قال وزير الخارجية:

- إنّني أعترض على هذا الحلّ لأنه سيعقّد الأمور. إنّه مناف للقوانين الدولية المتعلّقة بالسجناء والمعتقلين السياسيين. ونحن في حاجة إلى عطف الدول الأجنبية فإذا اتخذنا هذا الحلّ سبيلا فإنّ شرف تاج «سان ايتين» سيكون معرضا للامتهان. والنتيجة الوحيدة لمثل هذا التصرّف هي خلق أعداء لبلادنا.

دام النقاش نصف ساعة حتّى وجد الوزراء الحل المناسب. قرّروا إرسال خمسين ألفا من العمال الهنغاريين شريطة أن ينتخبوا من بين الموقوفين الذين تكون جنسياتهم غير واضحة. وتعهّد وزير الداخلية أن يتصرّف بشكل يجعل العمّال المرسلين عاجزين عن إثبات جنسياتهم الأخرى وأعقب وزير الداخلية يقول:

- وبذلك ننقذ الدم الهنغاري. ولن يستطيع التاريخ أن يتهمنا بإرسال

هنغاريين إلى العبودية. إن هدفنا نبيل حتّى أنّ التاريخ سيعذر الأساليب التي استعملناها.

-69-

دخل الكونت «بارثولي» رئيس الصحافة الهنغارية مكتبه واستدعى أمينة سره. كان يريد أن يملي عليها البلاغ الرسمي المتضمّن القرارات التي اتخذتها الحكومة في جلستها السرية.

كان الكونت يحدّث نفسه قائلا: «إنّ الرجل الذي لا يحترم شرفه وكرامته ليس إلاّ عبدا رقيقا. ومن يريد أن يحيا اليوم موفور الكرامة عليه أن يحكم على نفسه بالانتحار. فمجتمعنا ينكر الكرامة والشرف الشخصيّين أي أنّه ينكر كل حياة الرجل الحر. ولا يسمح إلاّ بحياة العبودية. لكن هذا لا يمكن أن يدوم. إنّ مجتمعا يتكوّن أفراده –بدءا من الوزير إلى أكثر الخدم انحطاطا- من عبيد أرقاء لا يمكن إلاّ أن ينهار. وكلما انهار بسرعة كان أجدى».

سألت أمينة السر وهي تدخل مكتب الكونت:

- هل قلت شيئا يا سيدي الوزير؟

فأجابها:

- كلاّ. اكتبي من فضلك: بلاغ رسمي: «إنّ مجلس الوزراء في جلسته السريّة الأخيرة قد اتخذ قرارا بتسهيل شروط السفر للعمّال الهنغاريين الراغبين في الذهاب إلى ألمانيا للتخصص في مختلف فروع الصناعة الفنية الآلية. وقد حُدّد عدد العمّال الذين تمنحهم الدولة هذه التسهيلات في الوقت الحاضر بخمسين ألفا». هذا كل شيء. أرجو أن تبلغي الصحف ذلك وأن تطلبي إلى إدارتها نشره على صفحاتها الأولى.

-70-

تناول الكونت بارثولي عشاءه مساء ذلك اليوم في مطعم مع ابنه الذي كان في الوقت نفسه رئيس ديوانه.

وبينما كانا يحتسيان القهوة سأل الكونت ابنه:

- ما رأيك في قضية إرسال العمال إلى ألمانيا؟

فأجاب لوسيان:

- الحقيقة إنّها ضربة قاضية على المسرح السياسي! إن المشروع جبّار وفني. نحن نرسل إلى الألمان أجانب من السجون ومعسكرات الاعتقال بدلا من أن نقدّم إليهم هنغاريين. إن التجبّر الألماني يستحق مثل هذا الدرس. إنها فكرة عبقرية.

سأل الكونت:

- أتدري أننا سنحصل لقاء ذلك على امتيازات من ألمانيا أو بعبارة أوضح أتدري أننا قد قبضنا ثمن إرسال الخمسين ألف عامل إليهم؟

فأجاب لوسيان:

- إنّ هذا واضح. فنحن لن نعطي الألمان أيد عاملة دون أن نأخذ منهم لقاء ذلك شيئا.

- ألا تشعر يا ولدي بامتهان عندما تعرف أنّ أباك قد ساهم اليوم في عقد صفقة بيع أحياء آدميين؟ إن هذا النوع من التجارة هو آخر مرحلة على سلّم الانحطاط الأخلاقي.

قال لوسيان:

إنّك تدهشني. أهذا هو السبب إذن في اكتئابك هذا المساء؟...

قال الكونت بإصرار:

- لا تحاول المخاتلة! هل تعترف بأنني ساهمت في تجارة الرقيق أم لا؟

فأجابه لوسيان باسما:

- إذا كنت تصرّ على طرح السؤال على هذا الشكل فإنّني أقول: إنك ساهمت حقيقة في تجارة رقيق. ولكن من السخف أن أفكّر في ذلك. لم أفكّر مطلقا بأن سبب انزعاجك هذا المساء مبعثه هذا الأمر. فلا يجب أن تكون هذه القضية موضوع قلق ولو عابر. لقد أرغمنا على إرسال

عمّال إلى ألمانيا ولو أننا لم نتوصل إلى هذا الحلّ لاضطررنا إلى إرسال مواطنين هنغاريين ولأصبح الأمر شديد الخطورة!

قال الكونت:

- شديد الخطورة من وجهة النظر الهنغارية صحيح. لكن من وجهة النظر الإنسانيّة فإنّ الأمر لا يختلف في شيء. لقد بعنا مخلوقات بشرية إلى الألمان.

- لكنّها ضرورات تمليها الظروف الحاضرة لا نستطيع تحاشيها والفكاك منها.

- لقد تحرّرت أوروبا منذ مئات الأعوام من تجارة الرقيق وكان آخر ما بيع من البشر، الزنوج في أمريكا. والآن فإن تجارة الرقيق قد حُرّمت في الدنيا بأسرها. وشجب الرقيق ومنعه من أهم التنظيمات والترتيبات في حضارتنا. غير أنّنا الآن نعود القهقرى وننكص على أعقابنا إلى الزمن الغابر فنبعث تجارة الرقيق من لحدها. لقد عدنا من القرن العشرين إلى ما بعد نشوء المسيحية قافزين قفزة هائلة فوق عصر النهضة والقرون الوسطى.

قال لوسيان:

- لا ينبغي أن تنظر إلى الأمور من هذه الزاوية المؤسية. إن العمال الموفدين إلى ألمانيا لن يكونوا مغلولي الأيدي. إنّهم يذهبون إلى هناك كعمّال.

- لن يغلّوا في الحديد لأنهم لن يستطيعوا فرارا. فالمجتمع المعاصر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق ما لم يملكه اليونان من قبل. إنّني لا أفكر فقط في الرشاشات وحواجز الأسلاك الشائكة التي يمرّ فيها تيار كهربائي صاعق، بل أفكر كذلك في الأساليب التعسفية التي سوف يعمد إليها النظام «البيروقراطي» للرقابة على الكائن الحي. وأقصد: بطاقات الإعاشة وأذون رجال الشرطة للحصول على سرير في الفندق أو ركوب

الحافلة أو التنزه في الشارع أو إبدال المسكن. إنّ اليونانيّين والمصريين ما كانوا ليكبّلوا أيدي عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التي لمجتمعنا المتمدّن. غير أنّ الرقيق لم يتبدّل.

- يجب أن لا نفكر في كلّ هذا يا أبي. إنّنا لا نستطيع تبديل شيء وليس لنا أن نختار. لسنا البلد الأول الذي باع رقيقا إلى ألمانيا. هناك رومانيا والكروات وفرانسا وإيطاليا والنرويج. بل وكلّ بلدان أوروبا تقريبا. ماذا نستطيع أن نعمل إلاّ التخلّي عن الحُكم ومقاومة ألمانيا لأنها تشتري رقيقا ولأن الدول الأخرى تبيعه لها. لو فعلنا ذلك لجاءت حكومة أخرى إلى الحكم، حكومة تبيع العمّال وترسلهم إلى ألمانيا. بل لو توصّلنا إلى سحق الرايخ الألماني فإن المسألة لن تكون قد بلغت الحال المناسب لأن الرُّوس سيحلّون محلّ الألمان. فالرّوس أكبر تجّار الرقيق في العالم. وكلّ رجل في روسيا ملك للدولة...

- أوَلاَ يرعبك مجمل هذه الأمور؟

- كلاّ.

فقال الكونت:

- إنّ هذا أشدّ خطورة لأن معناه أنك لا تملك ذرة من الاحترام للكائن البشري. وبما أنّك إنسان فذلك يعني أنك فقدت كل احترام لنفسك.

قال لوسيان:

- أحترم كلّ إنسان حسب قيمته. وأعتقد أنّك لن تآخذني على ذلك.

- إنك تحترم الرجل كما تحترم سيارتك لأنها تشكّل بالنسبة إليك قيمة معينة.

- وماذا في ذلك؟

- ولكن هل تحترم الرجل لقيمته الجوهرية، قيمته الإنسانيّة؟

- طبعا فأنا لا أستطيع إيلام أحد دون أن أشفق عليه أو أشعر بتبكيت الضمير.

- ولكنك لا يمكن أن تسيء إلى كلب دون أن تشفق عليه لأنك تعرف أنّه تألم حين ضربته بسوطك. أنت تشفق على الإنسان كما يمكن أن تشفق على أي كائن حي. غير أنني أردت أن أعرف ما إذا كنت تحترم الإنسان عديم القيمة الاجتماعية، أم تراه في هذه الحالة لا يوحي إليك بالشفقة أو الحنان كالحيوان؟

قال لوسيان:

- لم أطرح على نفسي مثل هذا السؤال. وكلّ ما أعرفه هو أنني أحترم الرجل على ضوء قيمته الاجتماعية وعلى اعتباره حيوانا حيا. والناس كلّهم يفكّرون ويشعرون مثلي...

سأل الكونت:

- هل أنت واثق يا لوسيان من أن كل الناس يفكرون ويشعرون مثلك اليوم؟

- كل الثقة. إن أدق تمحيص منطقي يفرض علينا مثل هذا الرأي. فالرجل ليس إلاّ قيمة اجتماعية وما تبقى فهو افتراضات واعتبارات.

- إنّ هذا شديد الخطورة.

- ماذا ترى من خطورته؟

- لقد اختفت حضارتنا يا لوسيان. لقد كانت تحوي على ثلاث ميزات: كانت تحبّ وتحترم الجمال وهي عادة أخذت عن اليونان. وتحب وتحترم الحق وهي عادة أخذت عن الرومان. وتحب وتحترم الإنسان وهي عادة اتخذت بعد صعوبات جمّة عن الدّين. إن حضارتنا الغربية لم تبلغ الشأو الذي بلغته إلاّ باحترامها هذه الرموز الثلاثة، هذه الأقانيم: الإنسان الجمال والحق. والآن فإن حضارتنا تخسر أثمن جزء في ميراثها وأعني حب الإنسان واحترامه. إن الحضارة الغربية لا وجود لها إذا ذهب منها ذلك الحب وذلك الاحترام للإنسان. إنها تموت.

قال لوسيان:

- لقد اجتاز الإنسان خلال حقبات التاريخ مراحل أشدّ ظلمة وحلكة من التي نجتازها اليوم. كان الإنسان يُحرق في الساحات العامة، يُحرق على المذابح ويسحق على دواليب التعذيب. وكان يباع ويعامل كالمتاع. لذلك فإنّني أعتقد أن التفوّه بمثل هذه الأحكام القاسية على عهدنا هذا فيه شيء من الظلم.

فأجاب الكونت:

- هذا صحيح تماما. في تلك اللحظات الحالكة كان الإنسان مجهول القدر وكانت التضحية بالإنسان تُنفّذ لأسباب بربرية. لكننا كنا قد انتصرنا على البربريّة وبدأنا نحترم المخلوق البشري ونقدّره. لقد كنا في بداية المرحلة وكان يجب علينا أن نتكلم أكثر فأكثر. غير أنّ ظهور العصر التقني قد حطّم كل ما ربحناه وأقمناه خلال قرون من الحضارة. لقد أدخل المجتمع التقني من جديد احتقار الكائن الإنساني. لقد تحوّل الإنسان اليوم إلى مقياسه الاجتماعي فحسب... يجب علينا أن نذهب الآن. ألسنا متأخرين؟

نظر لوسيان إلى ساعة يده وقال:

- ساعتي مُعطّلة. كم الساعة الآن يا أبي؟

- إنّها الساعة الخامسة والعشرون!

قال لوسيان:

- لم أفهم ماذا تعني.

- أصدّقك. فلا أحد يريد أن يفهم أنّها الساعة الخامسة والعشرون، ساعة الحضارة الأوروبية.

-71-

قال رئيس الفريق موجّها حديثه إلى إيوهان موريتز:

- لقد باعوك للألمان يا عزيزي موريتز. إنّني أتساءل كم يمكن أن يدفع الألمان للهنغاريين ثمنا لرأسك. فأنت لا تساوي شيئا كثيرا برغم

ذلك، صندوق من الرصاص على أبعد حدّ، لأنّني سمعت أنّ الألمان لا يستطيعون دفع أموال مّا، بل يقايضون الرجال بالأسلحة والعتاد. ولا أعتقد أنّ الألمان قد يدفعون أكثر من صندوق من الذخيرة ثمنا لك. صندوق واحد ثمن جلدك وعظامك!

كان رئيس الفرقة يضحك مسرورا وهو يربّت على كتف موريتز. ثمّ استرسل يقول:

- إنّ الثمن كبير مع ذلك! ما كان الروس ليدفعوا مثله. فالرجال عند هؤلاء أقلّ ثمنا.

لم ترق الدعابة لإيوهان موريتز لكنّه لزم الصمت. كان رئيس فرقته طالبا من بوخارست سجنه الهنغاريّون. وكان قد مضى على موريتز ثمانية أشهر في معسكرات العمل في هنغاريا ظلّ يشتغل خلالها مع هذا الطالب في إقامة الحصون. وكان يعرف أنّ رئيس فرقته مولع بالدعابة ولكنّه طيب القلب.

سأل الطالب:

- ألا تصدّق أنهم باعوك؟

أجاب إيوهان موريتز:

- كلاّ إنّني لا أصدق. إنّهم يستطيعون سجن الناس في المعسكرات وفي السجون ويقدرون على تسخيرهم وتعذيبهم أو قتلهم لكنهم لا يستطيعون بيعهم!

قال الطالب:

- مع ذلك لقد باعوك يا عزيزي موريتز. أقسم لك بآبائي ومعتقداتي على أنهم فعلوا ذلك. لقد باعونا أنت وأنا وكلّ الرومانيين والصربيين والروتانيين الموجودين في هذا المعسكر إلى الألمان. بل إنّهم وقّعوا صكوكا في ما بينهم تقضي ببيع خمسين ألف رأس منا.

ابتعد الطالب عن إيوهان موريتز فراح هذا يفكّر في ما سمعه. قال

يحدّث نفسه: «لقد أراد أن يسخر مني! فذلك لا يمكن أن يكون صحيحا.» لكنّ كلمات الطالب لم تفارق ذاكرته طيلة ذلك النهار. كان موريتز يفكّر دائما بأولئك الألمان الذين اشتروه لقاء صندوق من العتاد وانتهى به التفكير إلى أنّه من الحماقة تصديق مثل هذا القول.

كان معسكرهم يقع على الحدود الرومانية الهنغارية. وكانوا يحفرون الخنادق وقد انتهوا من شطر كبير من العمل. كان الطالب «آنتيم» يدّعي أنّ الهنغاريين لن ينتهوا من حفر خنادقهم قبل عشرة أشهر أخرى وفي كلّ يوم يرسلون أفواجا جديدة من العمّال المساجين إلى ذلك المعسكر. لاحظ موريتز أنّ بين الوافدين بعض المحكومين بالأشغال الشاقة المؤبّدة الموسومين بالنار، فاستدلّ على أنّ الرّجال لم يكونوا موفوري العدد. ومع ذلك فقد صدر إليهم الأمر ذات يوم بالرحيل. نقل كلّ الرومانيين والصربيين الذين كانوا في معسكر موريتز بواسطة القطار. ترامى إلى موريتز أنّ الهنغاريين كانوا غير راضين عن عمل الرومانيين والصربيين لذلك فإنّهم أخرجوهم من هناك ليأتوا بعمّال آخرين يحلّون محلّهم.

أكّد آنتيم أنّهم ينقلون إلى ألمانيا لأنهم بيعوا كما يباع المتاع.

وكان هناك عدد آخر من الرومانيين يؤكدون صحة قول آنتيم. لكنّ السواد الأعظم من الموجودين ما كانوا يصدّقون. وكان موريتز في عداد هؤلاء.

نزل موريتز ذات صباح من مقصورة القطار إلى الأرض لقضاء حاجة له لأنّ العربات لم تكن تحوي على دورات للمياه فكان المساجين ينتظرون نهاية الرحلة لقضاء حاجاتهم دوريّا تحت حراسة الجنود.

توقف القطار ذلك الصباح وسط حقول مترامية. كانت السماء غائمة ممطرة. قضى موريتز وقتا طويلا على الأرض ولما عاد إلى العربة رأى على كل مقصورة من الخارج كتابة بالحكك الأبيض. فلما اقترب وأمعن النظر وجد أنّ الكتابة تحمل العبارة التالية: «إنّ العمّال الهنغاريين

يحيّون زملاءهم عمّال الرايخ الألماني الأكبر!» وقرأ على جدار المقصورة الثانية العبارة التالية: «إنّ العمّال الهنغاريين يشتغلون لنصرة المحور». فاستدعى الطالب آنتيم وأطلعه على تلك العبارات. فقال له:

- هل صدقت الآن أنّ الهنغاريين قد باعونا إلى الألمانيين؟

فأجابه موريتز:

- لا أصدّق. لأنّ مثل هذا الشيء لا يمكن تصديقه!

- انتظر ولسوف تقتنع!

وانتظر موريتز.

لبث القطار في الحقول حتّى المساء. وعند مغيب الشمس انتشر الحرّاس في الحقول وراحوا يقطفون زهورا. لم ير موريتز من قبل جنودا شاكي السلاح يقطفون زهورا تحت إمرة ضابط، والضابط نفسه يشاركهم في مهمّتهم. فلمّا فرغوا عادوا وفي يد كلّ منهم باقة جميلة. ثمّ زيّنوا العربات بالأوراق الخضراء والحشائش وأكاليل الزهور والأغصان وكأنّهم يقيمون حفلة زفاف. ولمّا انتشر الظلام تحرّك القطار. عزم موريتز على البقاء ساهرا ليراقب الأحداث. لكنّه أغفى. ولما استفاق كان النهار قد طلع. كانت أبواب العربة مغلقة، غير أنّ ضجيجا تناهى إلى آذان المساجين. كان القطار واقفا في محطّة مع أنّه لم يسبق خلال الرحلة كلها أن وقف إلاّ في الحقول أو على مشارف المدن. تناهت إلى أسماع المساجين أصوات مختلفة بين وقع خطى وضجيج قاطرات وصيحات الجنود. فأصاخ مورتيز السمع. وفي تلك اللحظة مرّ رجل قرب النافذة وهو يتحدّث بصوت مرتفع.

قال موريتز لرفاقه:

- إنّه يتكلم الألمانية. إنّ آنتيم لم يكذب في دعواه لقد باعونا إلى الألمان.

فكّر في نفسه: «لعلّ الألمان دفعوا حقّا صندوق عتاد ثمنا لعظامي

ولحمي وجلدي. وبكلمة موجزة ثمنا لي».

قال الطالب آنتيم:

- لقد باعونا كالرقيق مدى حياتنا.

عرف آنتيم في تلك اللّحظة أنّهم قد بلغوا الأراضي الألمانية فراح يتحدّث إلى زملائه وهم ينصتون إليه بانتباه شديد. أما إيوهان موريتز فلم يكن يصغي. كان تفكيره عالقا في عبارة «رفيق مدى الحياة». وتصوّر نفسه وهو يمضي حياته في معسكرات الاعتقال يحفر الأقنية والخنادق ويهان ويُضرب ويرتع القمل في ثيابه ورأسه.

خيّل إليه أنّه سيموت في واحد من هذه المعتقلات. فلمّا بلغ به التفكير هذه المرحلة اغرورقت عيناه بالدّموع. كان قد رأى بأمّ عينه عديدا من المساجين يموتون. بل إنّه حفر بنفسه قبورا لبعضهم. وكان يعرف أنهم بعد موتهم تنزع عنهم ثيابهم ويدفنون عراة كالكلاب، لأنّ الكلاب تسلخ جلودها بعد موتها لتصنع منها قفازات. أما المساجين فكانت تنزع عنهم ثيابهم. فكّر موريتز: «لعلهم حين أموت يكونون قد بدؤوا بسلخ جلود الرجال قبل دفنهم.» وفجأة وقف وقال يخاطب نفسه: «لهم أن يحتفظوا بي مدى الحياة في المعسكرات ولكن ينبغي أن يطلق سراحي قبل موتي بساعة واحدة. ساعة واحدة قبل موتي على الأقل حتّى أموت حرّا. إنّ الموت في السجن خطيئة كبرى. لكنّهم إذا باعوني للألمان فلن يخلوا سبيلي حتّى ولا قبل موتي بساعة».

-72-

قالت ايوليونورا وست:

- ينبغي أن أكون بعيدة عن هنا خلال عشرة أيام على أقصى حد. فإذا لم أغادر البلاد خلالها، فإنّ أمر التوقيف سيجدني هنا. إن عشرة أيام هي أقصى مهلة أستطيع منحها لنفسي ولعلها أطول مما ينبغي.

كانت «أليونورا وست» تنظر إلى ليوبولد ستين الذي كان جالسا أمامها

في مقعده المعتاد. كانت تريد إقناع نفسها والتدليل على أنّها لم تبالغ في قولها، فراحت تستعرض الموقف.

إنّ المهلة التي أعطيت للمواطنين اليهود لتسجيل أسمائهم في وزارة الداخلية قد انتهت. وكان كلّ من يتخلّف عن التقيّد بهذا الأمر، يتعرّض بموجب مرسوم تشريعي للحكم بالسجن عشر سنوات. وكانت أليونورا في عداد الذين لم يسجّلوا أسماءهم وكان في إضبارات النيابة مستندات ما كانت تعرف عنها شيئا. لكنّها كانت مستندات تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أصلها اليهودي. وما كان يمكن إخفاء هذه الإضبارة أو الحصول عليها. وقد أخفقت كل المحاولات التي بذلت لشراء المحققين المهتمّين بهذا الأمر.

استرسلت أليونورا وست قائلة:

- لقد هُزمنا هذه المرّة يا سيد «ستين» فينبغي أن أتخلى عن المعركة وأن أفرّ. إنّ هذا هو كل ما أستطيع صنعه في الوقت الحاضر. لقد لبثت عامين ونصف العام أقاوم وأجابه كلّ الهجمات. لقد كان ذلك شديد الصعوبة مع ذلك فإنّني ناضلت وقاومت. إنّ القدر لا يساعد المخاطرين حتّى الأبد.

قال ليوبولد ستين:

- إنّ المعركة لم تخسر نهائيا. لكن هذا التعبير مفتقر إلى إيضاح. إننا نستطيع أن نبيع المطبعة والصحيفة والبيت وأن نحصل على أثمان جيدة. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأثاث واللوحات الفنية والمكتبة. إنها أمور يمكن تسويتها ويمكن إيداع المبلغ الحاصل في مصرف سويسري. غير أنّنا لن نستطيع خلال عشرة أيام أن نحصل على تولية السيد «كوروغا» وعلى جوازات السفر.

قالت نورا:

- لا يمكن لأحد أن يخرج الآن من رومانيا إلاّ إذا كان موفدا بمهمة رسمية. لذلك يجب أن يُعيّن زوجي مهما كلف الأمر مديرا للمؤسسة الثقافية الرومانية في «راغوز». إنّني استنادا إلى هذه التسمية سأحصل

بصفتي زوجته على جواز السفر والسمات الضرورية. لكن ذلك ينبغي أن يحدث بأسرع ما يمكن. لقد أكّد لي النائب العام أنّ كل ما يستطيع عمله من أجلي هو إرجاء التحقيق مدة عشرة أيام. وأنه بعد ذلك لا يتحمّل أية مسؤولية لأنه سيضطر إلى إصدار مذكرة قبض.

تصوّر ليوبولد ستين لحظة أنّ أليونورا وست قد أصبحت في السجن لكنّه أبعد تلك الفكرة عن رأسه بجزع وسأل:

- ألم تحدّثي زوجك بشيء بعد؟ إنّه تصرّف خاطئ لأنه لن يلبث حتّى يطّلع على الأمر. أعتقد بأنّه لو أعلمته بالأمر بسرعة لاستطاع مساعدتنا على الخروج من هذه الورطة. ترى ماذا سيقول عندما يرى تعيينه لذلك المنصب وجوازات السفر دون أن يكون على علم بشيء؟

قالت أليونورا وست:

- لا أستطيع إطلاعه على هذا الأمر. إنّني لا أجد مبررا لإخفاء هذه المسألة عنه خصوصا وأنها ستصبح بعد أسبوعين حديث العامة والخاصة في هذا البلد. سوف يعرف أنني يهودية. لكنني لا أريد التصريح له بذلك. إنّني متعبة منهكة لا أجد قوة في نفسي ولا جرأة ولا أستطيع أن أطلعه على السرّ الوحيد الذي احتفظت به طيلة عامين إلاّ إذا استجمعت قدرا كبيرا من الشجاعة. وأنا الآن على آخر رمق. لقد ظلّت إرادتي متوفرة زمنا طويلا غير أنني الآن متعبة منهوكة خائرة القوى.

أخذت أليونورا وست رأسها بين يديها وهي متكئة على مكتبها بمرفقيها فراح ليوبولدستين يصعدها ببصره.

كانت تبدو مرهقة حقّا. شعر بإشفاق نحوها. غير أنّه كان عاجزا عن مدّ يد العون إليها. فتح حافظته ليتشاغل عن النظر إليها في وضعها اليائس المتهدّم المحطم. وفي تلك الحافظة بين عقود بيع البيت والأرض والمطبعة والصحيفة واللوحات إلى أليونورا وست كانت هناك كذلك، حافظة نقود صغيرة، تحمل شعار «تريان كوروغا» مصنوعا من الذهب.

أخذ ليوبولدستن الحافظة ووضعها على المكتب أمام أليونورا. فنظرت هذه إليها ثم أخذتها بينما قال العجوز:

- غدا عيد زواجكما الثاني. أعرف أنك شديدة الانشغال مما جعلك تنسين شراء شيء تقدّمينه لزوجك فجئتك بهذه الحافظة الصغيرة لتقدميها له هدية. إنها جميلة وستدخل السرور على قلبه.

قالت أليونورا:

- هل عيد زواجنا الثاني يصادف يوم غد؟ لقد نسيت ذلك كليا. أشكرك يا سيد ستين على حسن تدبيرك. لسوف يسرّ تريان أن أقدّم له هذه المحفظة.

راحت تحدق في حافظة النقود الصغيرة وتلمسها بيدها برفق كأنها تلاطف صاحبها وأردفت:

- لست أدري لماذا أصرّ على الاحتفاظ بهذا السرّ. لعلّ ذلك راجع إلى شدّة تعلّقي به. إنّني واثقة من أنّه لو اطلع على الأمر لبذل كلّ ما في وسعه في سبيل مساعدتي لكنّني لن أقول له. أخاف أن أفقده. أعرف أن هذا الخوف غير منطقي لكنني كنت كلّما قررت إطلاعه على ما في نفسي انتابني ذعر مفاجئ فألزم الصمت وأدفن داخلي السرّ الرهيب. إن تريان هو الوحيد الذي يجعلني أتمسك بالحياة فإذا أضعته أضعت نفسي.

وفجأة وضعت أليونورا وست المحفظة على المكتب وقالت:

- أتدري ماذا قال لي النائب العام؟ لقد ادّعى أنني لست متزوجة.

كان صوت أليونورا متهدّجا. استرسلت:

- وهو على حق. لقد تزوجت بعد أن صدر قانون تحريم زواج الرومانيين باليهود وأصبح نافذ المفعول. لقد صدر ذلك القانون وأعلن رسميًا في نيسان بينما لم أتزوج تريان إلاّ بعد شهرين من صدوره. فزواجي إذن لاغ من الوجهة القانونية. وكلّ عقود الزواج التي وقعت

بعد صدور ذلك القانون تعتبر لاغية بصورة آلية حتّى ولو كان صاحب العلاقة يجهل وجود ذلك القانون.

صمتت أليونورا وست. كان صوت النائب العام ما يزال يدوي في أذنيها قائلا: «إن السيد تريان كوروغا ليس زوجك. إنّه بحكم القانون غير متزوج لأن زواجكما يعتبر لاغيا ويستطيع السيد تريان كوروغا أن يتزوج بامرأة أخرى متى شاء دون أن يعتبر مع ذلك متعدّد الزوجات. وإذا كان لديكما ولد فإنه سيكون ولدا طبيعيا فيسجل تحت اسم وست وليس اسم كوروغا. إنك أنت نفسك يا سيدتي ترتكبين مخالفة الأداء بمعلومات خاطئة كلّما وقعت باسم أليونورا كوروغا.» لذلك قالت:

- يا سيد ستن ادفع أي مبلغ كان ولكن ينبغي أن نحصل بأيّ ثمن على جوازات السفر والسمات. ينبغي أن تكون الجوازات باسم السيد والسيدة كوروغا.

-73-

بعد خمسة أيام عاد ليوبولدستن ومعه أمر تولية تريان كوروغا مديرا للمؤسسة الثقافية الرومانية في راغوز وجوازات السفر السياسيّة المجلدة بجلد أزرق. قال وهو شديد الانشراح:

- لقد ربحنا يا سيدة كوروغا! لقد احتجزت لكما أمكنة في عربات النوم إلى فيينا. ستسافران يوم الاثنين، إنّني شديد السرور لذهابكما، راح ليوبولد ستن ينظّف زجاج نظارته. بينما استغرقت أليونورا وست في فحص جوازات السفر والتحديق في وجه العجوز. رأت أنّ الهزال قد نال منه كل منال فأرادت أن تطلب إليه السفر معهما غير أنّه قال:

- لست أدري إذا كنا سنلتقي بعد اليوم. إن عددا كبيرا من اليهود سينقل اليوم إلى «ترانس دنيستري». ولكنّني سعيد لذهابكما. وإذا عدتما يوما، فلن تجدا يهوديا واحدا في بوخارست، ولا حتّى أنا، لأن رجلا كهلا مثلي يجد كذلك مكانا في معسكرات الاعتقال وراء الأسلاك.

-74-

كان تريان كوروغا في مكتبه عندما دخلت عليه نورا خلافا لعادتها. فقد كانت تتحاشى إزعاجه أثناء العمل لكنّها اليوم دخلت وجواز السفر في يدها. كان جالسا وراء مكتبه ورأسه بين يديه.

- لديّ هدية لك بمناسبة عيد زواجنا الثاني. لقد سعيت لتسميتك مديرا للمؤسسة الثقافية الرومانية في راغوز.

ومدت إليه يدها بمرسوم التعيين وأضافت:

- إنّ دلماسيا تملك أجمل شاطئ في العالم وهناك تستطيع أن تنهي روايتك بهدوء.

قال تريان كوروغا وهو يعانقها:

- كيف نجحت في ذلك وحدك؟ بل كيف استطعت إخفاء هذا السر الرهيب حتّى الآن؟

تأمّلها برهة ثم أردف قائلا:

- إنّك عبقريّة يا نورا! ليتك تعرفين مبلغ سروري. إنّني شديد الحاجة إلى تبديل المناخ. إن ذلك سيساعدني على إنهاء روايتي. كنت لا أستطيع الاستمرار في كتابة الفصل الثاني منها، لأنني شعرت بإلهام يحدثني بأنني يجب أن أكتب ذلك الفصل في مكان آخر. كنت أشعر بذلك شعورا مسبقا. لعلّ هذا الفصل سيكون أقوى فصول الكتاب...

اقتربت أليونورا وست منه فقبّلت شفتيه كي تمنعه من إطلاعها على الفصل الثاني. فقد كانت تشعر بخوف رهيب.

الباب الثالث

القسم الثالث

-75-

قال الموظف المشرف في العمل وهو ينظر إلى إيوهان موريتز بحقد:

- لقد أوصونا أن نعطيك عملا سهلا لأنك ما تزال مريضا. إنّهم لا يرسلون إلينا إلاّ المرضى.

ثم ألقى نظرة على الورقة التي يحملها في يده وعاد ينظر إلى موريتز نظرة ملؤها الريبة. كان موريتز خلال العامين اللّذين قضّاهما في ألمانيا يتعرّض دائما لمثل تلك النظرة. كانوا أبدا يشتبهون في أمره ويعتبرونه مرتكبا بعض الجرائم التي لم يكن قد ارتكبها أو عرف عنها شيئا. لكنّه كان واثقا من أنّه سيرتكبها يوما.

سأله الموظف:

- هنغاري؟ لقد أُرسل إليّ من قبل عدد من الهنغاريين لكنني لم أكن مسرورا. فلعلّ الأمر يختلف بالنسبة إليك!

ضحك الموظف ضحكة صغيرة وراح يقرأ بصوت مرتفع:

- موريتز ايانوس، هنغاري اثنان وثلاثون عاما، عامل غير مختصّ، وصل إلى ألمانيا في الواحد والعشرين من حزيران 1941.

كان إيوهان موريتز الذي اتُّخذ مواطنًا هنغاريًا نظرا إلى ما جاء في سجلّه منذ عامين يراقب بنظره الموظّفَ وهو يقرأ قائمة المعامل والمصانع ومعسكرات العمل في الرايخ الأكبر التي اشتغل فيها خلال مدة وجوده في ألمانيا. كانت القائمة طويلة جدا وقد جاء فيها كل أنواع الصناعات. شعر موريتز بشيء من الاعتداد عندما تلى عليه ما قام به من عمل خلال فترة اغترابه. كان خلال بعض الفترات يتخيّل رؤية عشرات المعسكرات المحاطة بالأسلاك الشائكة، عشرات المعسكرات التي اشتغل فيها

والمصانع والمدن التي انتقل إليها والآلام والمصائب التي حلّت به خلال تلك المدة. وكان يعتقد أنّ الموظف المختص سيذهل للشجاعة التي قابل فيها موريتز كلّ هذه المحن حتّى وصل أخيرا إليه. غير أنّ الموظف ألقى نظرة احتقار على كلّ أسماء الأمكنة التي احتمل موريتز كثيرا من العناء والمرارة أثناء عمله فيها وتوقف عند المقطع الأخيرة: «خرج من مستشفى العمال الغرباء رقم 707 في 1943/3/8».

استغرب موريتز حين رأى الرجل يمرّ بعينيه على قائمة مصائبه وآلامه دون أن يشفق عليه أو أن يبدو الحنان في نبرات صوته. لكنّ الحقيقة لم تكن مكتومة. أخذ الموظف المختص القلم وكتب في أسفل الورقة في الزاوية التي وجدها لا تزال خالية من الكتابة «تقدم للعمل في مصنع الأزرار "كنويف اوند سن" في 1943/3/10» ثم وضع البطاقة في قمطر مع عدد من مثيلاتها وعاد ينظر إلى موريتز.

- «تهذيب، طاعة، عمل، نظام»! تلك هي الرموز التي ينبغي أن يتقيّد بها العمّال الأجانب. إنّ في هذا المصنع عاملات ألمانيات لذلك ألفت انتباهك إلى أمر عظيم الأهمية: كلّ اتصال مع امرأة ألمانية يعاقب عليه بالسجن لمدة أدناها خمسة أعوام. إنّ مدير المصنع لا يغفر خطيئة من هذا النوع. وكلّ امرأة ألمانية تمتلك في حد ذاتها، حق إرسالك إلى السجن لمدة خمسة أعوام. فإذا وضعت يدك حيث لا ينبغي أن توضع فإنك بذلك تعرف مصيرك. فلا تتصوّر أنّك تستطيع نيل شيء آخر منها. إن الهنغاري الذي أرسل إلينا قبلك نزيل السجن الآن. لقد أنذرته عند وصوله كما أنذرك الآن لكنّه لم يعبأ بإنذاراتي. لقد ظنّ ولا شكّ أنّ أحدا لن يستطيع اكتشاف أمره طالما أنّ الظلام كثيف وأنه يغطي نفسه بالدثار مع المرأة. ولكن لا أحد في رايخنا الألماني الكبير يستطيع القيام بأيّ عمل مهما كان تافها دون أن يُعرف بعد قليل حتّى ولو كان ذلك العمل تحت الأغطية. لن تستطيع الإتيان بأية حركة دون أن نعرف ذلك على

الفور. إنّنا نخمّن كلّ ما يمرّ في رأسك من خطرات وأفكار. ونلتقط صور آرائك وأفكارك عشر مرات في اليوم! والآن لننتقل إلى النقطة الثانية: إن مصنعنا يشتغل من أجل الحرب لذلك فإنّ كلّ ما تراه وكلّ ما تسمعه هو سرّ عسكري. والعامل الأجنبي لا ينبغي له أن يعرف ما ينتجه المعمل وكيف ينتج وكم ينتج، فإذا حاولت معرفة ذلك عرّضت حياتك للخطر. لقد أعدم في كانون الثاني الماضي إيطاليّ. والآن يُقدّم أحد التشيكيين للمحاكمة لأنه حاول استطلاع سر مصنع «كنويف اوندسن».

نهض الموظّف واقفا واتجه نحو الباب يتبعه إيوهان موريتز. ثمّ قال الموظف متمما:

- لم أكن مسرورا من الهنغاريين الذين مرّوا بهذا المصنع حتّى اليوم وجميعهم في السجن الآن. بل إنّ أحدهم قد حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشرين عاما بتهمة التخريب. فآمل أن تشذّ أنت عن القاعدة ولو أنّني لا أؤمن بالمستثنيات!

توقف الموظّف أمام آلة كانت تأتي بصناديق تسير على القضبان الحديدية. وعلى طرف القضيب الحديدي وقف عامل ليلتقط الصناديق واحدا تلو الآخر ويضعها على عربة قريبة منه. فلمّا بلغ الموظف موضع العامل، كانت العربة قد امتلأت بالصناديق ومضت من تلقاء نفسها، لتترك محلا لعربة أخرى فارغة، جاءت بشكل آليّ، وتوقفت قرب العامل. بدا على العامل أنّه لم يلاحظ التبديل الذي وقع في العربات، إذ أنّه مازال يرفع الصناديق ويضعها على العربة الفارغة، كما كان يعمل منذ حين. وكان يبدو عليه الإعياء بسبب ثقل الصناديق.

قال الموظف:

- سيكون هذا عملك اعتبارا من الغد. إنّه عمل سهل. ليس عليك إلاّ أن تنقل الصناديق الممتلئة التي تخرج من المصنع فتضعها على العربة الفارغة التي ستنقلها بدورها إلى المستودع. ينبغي أن يكون النظام شديد

الاحترام والمراعاة. هذا هو المبدأ الأهمّ. هل اشتغلت من قبل في مصنع؟

راح إيوهان موريتز ينظر إلى العامل الذي كان ينحني آليا ويصلب عضلاته آليا فيتناول صندوق الأزرار ويضعه في العربة دون أن يفكّر في ما يعمل أو أن يفكّر في أي شيء آخر. إنّه لم يكن يلقي بالا إلى من هم بجانبه بل ولعله لم يكن يراهم.

استرسل الموظف قائلا:

- إنّ الآلات لا تتقبل الفوضى والإهمال. إنّها لا تحتمل الكسل الإنساني والتواني!

ألقى إيوهان موريتز نظرة على الموظّف بينما تابع هذا قوله.

- لا يسمح لك بالتفكير في أيّ شيء آخر وإلاّ فإنّ الآلات تعاقبك على الفور. كلّ انتباهك ينبغي أن يكون موجّها نحو زميلك الآلي. ذلك العامل المُجدّ الذي يأتيك بالصندوق ويمده إليك. وعليك أنت أن تنحني وتأخذ الصندوق من يديه ثم تضعه على العربة!

راح الموظف يبتسم بينما حاول إيوهان موريتز رؤية ذراعي زميله الآلي ولكنّه أخفق في محاولته. فعاد ينظر إلى الموظف الذي كان لا يزال يبتسم.

قال هذا الأخير:

- إنّ الإنسان الآليّ لا يمكنه أن ينطبع برغبة الإنسان. فعليك إذن أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته. وهذا طبيعي جدّا! لأنّه هو العامل الكامل. أما أنت فإنك لست كاملا. لا يستطيع الإنسان، أيّ إنسان، أن يكون عاملا كاملا. أمّا الآلات فإنّها وحدها تستطيع أن تكون كذلك. ينبغي أن تمعن النظر فيها لتتعلّم كيفيّة العمل، هل فهمت؟ إن الآلات تعلّمك الترتيب والنظام والكمال، فإذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى. لكنّك لن تستطيع أن تكون عاملا من الدرجة الأولى لأنك هنغاري، والهنغاريون في المعامل ينظرون إلى النساء وليس إلى الآلات.

ودّ إيوهان موريتز لو قال له إنّه روماني وليس هنغاريّا. كان يريد أن يعيد تلاوة قصّته وأن يتحدّث عن السجون التي دخلها والضرب والتعذيب اللّذين تعرّض لهما في بودابست غير أنّ الموظف كان ينظر بإعجاب إلى الآلات وهي تحمل الصناديق البيضاء بسكون خلال فترات منظّمة ثمّ ينقل أبصاره منها إلى إيوهان موريتز. بدت في عينه نظرة احتقار، فشعر موريتز أنّ ذلك الاشمئزاز قد شمله كلّه فعدل عن سرد قصّته والتحدّث عن سجون بودابست والمفتش «فارجا».

قال الموظف:

- إنّ الإنسان ليس إلاّ عاملا أدنى وخصوصا الإنسان الشرقي. فأنتم معشر الشرقيين أدنى مستوى من الآلات. وكأنه لم يكفك أن تكون إنسانا بل كنت كذلك شرقيا وهنغاريا وعلاوة على كلّ ذلك فقد خرجت من المستشفى. أي أنّك مريض. هذا هو «أنت»!

شعر إيوهان موريتز بأن الموظّف كان يتألم فرغب في أن يؤكد له أنّه سيبذل كلّ ما في العالم من مجهود ليتقن العمل.

استرسل الموظف:

- كيف يمكن أن تضاهى بالآلة؟ ينبغي أن تلقي نظرة على نفسك! وراح يصعده بنظره من قدميه إلى قمّة رأسه واسترسل:

- إنّها إهانة نوجّهها للآلة إذا قارنّاك بها. بل إنّه كفر. فالآلات كاملة أمّا أنت... فثق أنّه لا يجوز أن نقدّم للآلات خدما مثلك. والآن اتبعني سأعطيك ثياب العمل. فلن تستطيع الدخول إلى المصنع إلاّ إذا كنت مرتديا زيّ العمل. وزي العمّال يشبه تماما كسوة الراهب. لكنك لن تستطيع فهم ذلك. فأنتم معشر الهنغاريين لا تنظرون إلاّ إلى النساء. إنّكم برابرة.

-76-

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي دخل إيوهان موريتز وحده القاعة الكبرى المشيدة بالإسمنت واقترب من العربة التي عيّنت له

أمس. كان قد تبقى لبدء العمل خمس دقائق. شعر باضطراب غريب. كان مرتديا ثوب عمل أزرق يغطي كل جسمه ومنتعلا أحذية من الخشب يدوي صدى وقعها على الأرض في ذلك الفراغ الهائل أشبه بقرع المطارق. حاول بادئ الأمر أن يسير على رؤوس أصابعه ليتحاشى إصدار تلك الجلبة الفظيعة، لكنّ الأحذية الخشبية لم تشأ أن تُخفّف من وقعها. ولمّا بلغ وسط القاعة أحسَّ كأنّ بعضهم يناديه. لم يسمع اسمه لكنّه ظلّ يشعر مع ذلك بأنّ هناك من يناديه. كان واثقا من ذلك فأدار رأسه. وفي تلك اللحظة سمع الصوت بوضوح يقول للمرة الثانية:

- «سالف سكلاف»

شاهد كتلة من الشعر الأسود ووجهًا ذا عينين كبيرتين وشارب وأسنان بيضاء كالبورسلان تطلّ عليه عبر نافذة صغيرة مشبكة بقضبان من الحديد. كان الرجل فتيا هزيلا كهيكل عظمي. ظلّ يحدج موريتز بعينيه السوداوين الكبيرتين بنظرات ملتهبة. غير أنّ جسمه لم يكن ظاهرا. فلما تقابلت نظراتهما عاد الرجل المجهول يقول وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد:

- مرحبا أيها العبد.

قال إيوهان موريتز وهو يعتقد أنّ الشاب قد خلط بينه وبين آخر اسمه سالف سكلاف:

- إنّ اسمي «ايانوس موريتز».

دوّت صفارة المعمل وبدأت الآلات تتحرك. بينما ظلّ مورتيز في مكانه المحدّد على الحاجز، والشّاب ذو الشعر الأسود واقف وراء النافذة يبتسم له ابتسامة ودية. كان قد سمع جواب موريتز غير أنّه قبل أن يختفي من وراء النافذة هتف مرّة أخرى وهو يحدجه بعينيه السوداوين:

- سالف سكلاف!

أمسك إيوهان موريتز بالصناديق الأولى التي ظهرت على الخط الحديدي ووضعها في العربة الفارغة. لو أنّ تلك الصناديق لم تكن بذلك

الوزن لأمكن لطفل في السابعة من عمره أن يقوم بهذا العمل. كان موريتز يعرف أن تلك الصناديق تحوي على أزرار. ورغم ذلك ودّ لو يلقي نظرة عليها، لكن تلك الصناديق كانت مغلقة. وحتّى لو كانت مفتوحة فإنّه لن يجد في نفسه الشجاعة على رفع غطائها وإلقاء نظرة على ما فيها. «لقد أعدم إيطاليّ في كانون الثاني الماضي واليوم سيقدم تشيكي للمحاكمة.»

تذكر موريتز أن التشيكي أراد الاطّلاع على أسرار معمل «كنويف أوندسن». كان يفكّر في ذلك التشيكي في تلك اللحظة وهو أمام قضاته ولا شك يطلب إليهم الصفح عنه لاطّلاعه على أسرار مصنع الأزرار. ثم انتقل تفكيره إلى الإيطالي الذي ضُربت عنقه. لقد رأى كثيرا من الإيطاليين ووجدهم جميعا وديعين. لذلك فقد راح يتصور ذلك الذي حكم عليه بالإعدام وأعدم، مخلوقا وديعا ككلّ مواطنيه. كان يرى بعين خياله رأس الإيطالي ذي الشارب الأسود الدقيق يتدحرج مبتسما تحت أقدام الجلاد.

عاهد إيوهان موريتز نفسه على أن لا ينظر أبدا إلى الأزرار حتّى ولو عثر صدفة على صندوق فُتح من تلقاء نفسه أمام عينيه. فذلك لا يساوي عناء فقدان الحياة لمجرّد النظر إلى أزرار مهما كان نوعها. وأخيرا أقنع نفسه بأنّ تلك الأزرار كانت ترسل إلى الجيش. تساءل وهو يحمل الصندوق بين ذراعيه ويضعه في العربة الفارغة التي توقفت أمامه بعد ذهاب العربة المحمّلة، تساءل عن نوع تلك الأزرار وشكلها. لقد كانت هناك أزرار خاصّة بأثواب رجال البحرية والمدفعية والطيران. كان هناك الأسود والمذهّب والأصفر. وموريتز يفضّل أن يكون الصندوق الذي يحمله بين ذراعيه مملوءا بالأزرار المذهّبة. إنّها أكثر جمالا حتّى ليُقال إنّها قطع صغيرة من الذهب. وقد كان البحّارة يزيّنون ثيابهم بأزرار مذهّبة. «لعلّ هذا الصندوق يحوي أزرارًا لثياب البحّارة...»

تذكّر إيوهان موريتز فجأة أقوال الموظف: «إننا نعلم كل ما يجول في

رأسك ونلتقط صور أفكارك.»

راح يبذل جهدا ليكفّ عن التفكير في أزرار الصندوق. كان ذلك سرّا ولم يكن موريتز ليريد معرفة أسرار المصنع.

وجد نفسه بعد فترة من الزمن يتساءل عمّا يمكن أن يصنع الجيش الألماني بكلّ تلك الكمية من الأزرار. فكلّ الجنود والضبّاط الألمان الذين شاهدهم، يلبسون كسواتهم العسكريّة كاملة الأزرار ولم تكن هذه تنقص معاطفهم. وإذن فإنّ الأزرار التي تصنع حاليا مخصّصة لتزيين أثواب جديدة.

راح إيوهان موريتز ينظر إلى مجموعة الصناديق الهائلة التي كانت تتعاقب بعضها إثر بعض كالنهر المتدفق الهادئ فتساءل «ينبغي أن تكون محتوية على ملايين من الأزرار. إن فيها ما يكفي لكل ألبسة الجيوش الألمانية. لعلّ الألمان قد أصدروا الأمر بأن يكون لكلّ جندي ثوب جديد. ولهذا السبب يصنعون الآن كل هذا الأزرار».

تساءل عمّا إذا كانت تلك الألبسة الجديدة مخصّصة لأولئك الذين سيشتركون في الاستعراضات العسكريّة التي ستجري عند نهاية الحرب فيخترقون شارع المدينة الكبير والأعلام ترفرف فوق طلائعهم والموسيقى العسكريّة تصدح مدوية. إنّ كل الجنود سيزينون ثيابهم عندئذ بأزرار مذهّبة لّماعة كالشمس.

أخذ إيوهان موريتز يبتسم. تصوّر نفسه واقفا بين الحشد المجتمع ليتمتع بالنظر إلى الجنود وهو شديد الفخر لأنّ أزرار الضبّاط كلهم والجنود كلّهم بل وأزرار «الجنرالات» أيضا قد مرّت بين يديه. «إنّ التي أحملها الآن بين يدي ستثبّت على ثوب «جنرال» سوف تزيّن معاطف «الجنرال» وأثوابه كلها بأزرار سيستخرجونها عامدين من هذا الصندوق. لعلهم سيحتاجون إلى كل ما في الصندوق لثياب الجنرال وحده.»

استرسل إيوهان موريتز مع أفكاره فنسي أخذ الصندوق الذي كان

أمامه. فاندفع الصندوق خارجا عن الخط الحديدي وسقط على الأرض فارتطم بها محدثا دويًا كبيرا. هرع موريتز ليلتقطه وفي تلك اللحظة وصلت صناديق أخرى إلى مكانها المحدود ولمّا لم يرفعها سقطت هي الأخرى خارج القضبان وأحدثت ضجيجا أشدّ من الأوّل. كان الصندوق الثاني قد سقط على الإسمنت فحاول رفعه. استطاع حمل الصندوق الأول تحت ذراعه لكنّه فوجئ بصندوق ثالث في ظهره فترك الصندوقين الأخيرين يسقطان وقد انتابه ذعر قاتل، ذعر لم يشعر به طيلة حياته. وسقط الصندوق الرابع ثم أعقبه الخامس.

عاد موريتز إلى مكانه فوق البسطة وترك الصناديق في مكانها وراح يرفع عن الخط الحديدي الصناديق التي كانت تصل تباعا، ويضعها في العربة. كان ينظر إلى الآلة وكأنه يتوسل إليها أو يحاول إقناعها بتحطيم السلسلة والتوقف برهة حتّى يجمع الصناديق الساقطة على الأرض. غير أنّ الصناديق كانت تصل تباعا والآلة لا تتوقف. ألقى موريتز نظرة وجلة حوله. كان خائفا من العقاب لكنّه لم يجد أحدا يوجّه إليه كلمة.

توقفت الآلة ظهر ذلك اليوم، وموريتز مايزال يرتعد من الخوف خشية أن يُضبط خطؤُه. نزل من مكانه وأخذ الصناديق عن الأرض فوضعها في العربة وعندئذ شعر بسرور عميق لأن أحدا لن يعرف الخطأ الذي ارتكبه.

غير أنّ العربة التي كانت تسير آليا توقفت هي الأخرى مع بقية الآلات على الخط الحديدي وليس عليها إلاّ خمسة صناديق.

فكّر إيوهان موريتز أن يدفع العربة بيده غير أنّها لبثت في مكانها ترفض المسير إلاّ بشكل آلي.

أراد أن يحمل الصناديق بين ذراعيه وأن ينقلها إلى المخزن غير أنّه ما كان يستطيع أن ينفذ عبر فتحة الجدار المشيدة بحجم العربة.

لبث واقفا والصندوقان تحت ذراعيه وهو حائر في أمره. وفجأة دوّى

صوت وراءه. فوضع الصندوقين بوجل في العربة واستدار.

رأى ذلك الوجه الهزيل ذا العينين السوداوين يبدو من جديد وراء النافذة ذات القضبان الحديدية. كان هو نفسه ذلك الذي ناداه صباح ذلك اليوم ونظر إليه بتودد وهتف مرتين:

- سالف سكلاف!

نسي موريتز على الفور الصناديق والخطأ الذي ارتكبه وابتسم للشاب بدوره وقال:

- إنّني لا أدعى هكذا. إن اسمي ايانوس موريتز. لعلّك تظنّني شخصا آخر.

افترّ ثغر الشاب عن ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء الناصعة. كان يبتسم ابتسامة رفيقة مخلصة. ثم اختفى من وراء النافذة وهو يهتف للمرة الثالثة:

- سالف سكلاف!

مضى موريتز لتناول الطعام وهو يفكّر في أن الشبه بينه وبين المدعوّ سالف سكلاف ينبغي أن يكون شديدا كاملا حتّى أن ذلك الشاب ذا العينين السوداوين ظل يناديه بذلك الاسم رغم توضيحه له بأنّه لم يكن يدعى كذلك.

وبمضيّ الزمن عرف موريتز أن ذلك الشاب كان ينادي كل الغرباء الذين يشتغلون في ذلك المصنع بهذا النداء وأنه كان فرنسيا وعرف موريتز فيما بعد أن اسمه كان جوزيف رغم ادعائه بأنه هو الآخر كان يدعى سالف سكلاف.

-77-

أمضى إيوهان موريتز خمسة أشهر في معمل الأزرار لم يترك خلالها صندوقا واحدا يسقط بعد حادثة يومه الأول. كان ينقلها حال وصولها أمامه إلى العربة الواقفة. يأخذها دون أن ينظر إليها أو أن يفكّر في نوع

الأزرار التي يمكن أن تحويها أو في «الجنرالات» الذين سيُحَلّون أثوابهم بها ولا في الجنود الذين سيسيرون في صفوف الاستعراض المنتظر بعد انتهاء الحرب وهم يرفلون في أثوابهم الجديدة وأزرارهم اللامعة التي يحملها الآن بين يديه في تلك الصناديق.

كفّ إيوهان موريتز عن التفكير وانقطع عن الأحلام. لم يعد يفكّر في شيء حتّى ولا في رأس الإيطالي الذي تدحرج تحت أقدام الجلاد.

أحيانا كان يتوق إلى معرفة مصير التشيكي بعد مثوله أمام قضاته غداة دخوله المصنع، وهل حكم بالإعدام أم غفرت المحكمة له.

كانت هذه الأشياء قد وقعت له في بداية عهده. أمّا الآن فقد فقدَ موريتز حب الاستطلاع والتطفّل. فكان كلّما دخل قاعة الآلات ظهر رأس الفرنسيّ وراء النافذة، نافذة المصهر، وصاح به:

- سالف سكلاف!

وكان موريتز يجيب على ندائه بنداء مماثل دون أن يفكّر في ما يقول. كان يبتسم له دون أن يلاحظ أنّه يبتسم. ثمّ يقف جامدا على البسطة منتظرا وصول الصناديق. فكّر مرّة واحدة في تسهيل عمله بحمل صندوقين معًا ليضعهما في العربة لكن الخط الحديدي لم يسمح له بذلك إذ أن السلسلة لامست طرف الصندوق الأوّل وهي تصرّ صريرا عاليا وكأنها تتأهّب للافتراس. فاضطربت كل ألياف جسم موريتز وكأنّ أحدهم قد انتزع له سنا. ومنذ ذلك الحين، لم يحاول قط حمل صندوقين معا. كانت الآلة ترفض ذلك وكان عليه أن يمتثل لأمر الآلة. حتّى أنّه لو كان يستطيع حمل خمسة صناديق دفعة واحدة لما فعل. لقد سيطر عليه إيقاعها فلم يعد يستطيع التحرّر منه. لم يكن العمل صعبا ولا سهلا. كان في الأيام السالفة، عندما يشتغل شغلا مضنيا، يتفصد العرق من جسمه ويشعر بالتعب فيسبّ ويشتم. أمّا الآن فإنه لم يكن يسبح في عرقه كما كان في السابق. لذلك فقد كف عن السباب. لم يكن يحسّ بأنه يعمل ولا

كان يشعر كذلك بأنه لا يعمل. كان إيوهان موريتز أثناء عمله السابق يفكّر في شتّى الأمور فيمرّ الوقت دون أن يشعر بمروره. أما الآن فقد عدل عن التفكير. كان يستطيع التفكير بألوف الأشياء خلال رفعه الصندوق وإيداعه جوف العربة. لكنّه لم يكن يجد في رأسه خيالا خصبا يحلّق به إلى مرتبة التفكير. صارت رأسه فارغة خالية من أي نوع من الصور. لقد فارقته الأحلام والأفكار. فلم يعد يفكّر حتّى في عمله. كان يعرف أنّه يقوم بعمله ذاك ليس بقوة ذراعيه فحسب بل بمجهود من عقله كذلك. ولولا ذلك المجهود الفكري، لصار عقله ودماغه في مكان آخر. لكنهما كانا هنا قرب الصناديق، لصق الآلة!

كان إيوهان موريتز يشعر بأنّ كيانه يذوي كالغصن المحروم من الريّ. وإذا ما أوى إلى فراشه مساء يشعر بإحساس غريب، فيخيّل إليه أنّه ينحني ويلتقط صندوقا. وإذا نهض من سريره صباحا، شعر كأنه انتصب في تلك اللحظة بعد أن أودع الصندوق في العربة وباتت يداه فارغتين فترة في انتظار وصول الصندوق التالي. كان نومه خلوا من الأحلام. أما جبينه وعيناه فقد غشيهما الاكتئاب والقلق. لقد اتخذ لون الآلة وليس لون الأرض.

لقد بلغ إيوهان موريتز في الأيام الأخيرة حدّا جعله ينسى أنّ الصناديق التي كان ينقلها تحوي أزرارا. فإذا ما تذكّر ذلك صدفة -ونادرا ما يقع ذلك- كان يبتسم. وكانت ابتسامته جافة كالأرض بعد القحط.

زعم الأطبّاء أنّه مريض، لذلك فقد نُقل إلى مستشفى المعسكر.

-78-

كان إيوهان موريتز في تلك اللحظة في الأبنية الخشبية التي أقيمت لتكون مستشفى المعسكر. وكانت النوافذ مشبكة بالأسلاك الشائكة. لبث في المستشفى أكثر من أربعة أسابيع جرّاء الإصابة في رئتيه. كان كل جسمه يحترق وكأنه معرض لنار حامية تذيب جسده. لم يكن يحلم

إلاّ بمصنع الأزرار ويتحرق شوقا للعودة إليه. ويلبث مغلق العينين طيلة النهار لا يتحرك. شعر ذلك اليوم أن حوله ضجة غير مألوفة. قال في سره: «لعلهم الأطبّاء وهم يقومون الآن بجولتهم التفتيشية». أحسّ فجأة برائحة بشرة مغسولة نظيفة، رائحة لم تبلغ أنفه مثلها منذ زمن طويل. لكنّه ما كان يستطيع نسيانها. فتح عينيه وهو يبتسم. فوجد بالقرب منه امرأة ترتدي ثوبا عسكريا، امرأة شقراء في أوج الشباب تفوح من جسمها رائحة الصابون والهواء الطلق النقي. راحت تنظر إليه بخشونة لكنّه استمرّ يبتسم لها. وكان يحيط بها جنديان وعدد من الأطبّاء. سألها أحد الأطبّاء بينما كانت تنظر إليه:

- أهذا هو؟

ظلّت المرأة تقرأ اللائحة الطبية المعلّقة على سريره وهي تلقي عليه نظرات مستريبة. وكان كل من لقيهم في ألمانيا يحتفظ بذلك الشك في نظراته. سألته:

- هنغاري؟ إن الهنغاريين والإيطاليين أشد الناس خطورة!

أمسكت المرأة بالغطاء فأزاحته عن جسمه وكشفت عن صدره ثم أردفت:

- إنّه ليس هو! إن الآخر كان غزير شعر الصدر.

ابتعدت وراحت تتوقّف أمام الأسرّة الأخرى، فتتأمّل الوجوه وتكشف عن صدور بعض المرضى. والجنديان يتبعانها دائما فلم تجد الشخص الذي تبحث عنه.

لبثت تلك الرائحة زمنا طويلا في القاعة بعد أن غادرتها المرأة. لم تكن رائحة الماء والصابون والعطر فحسب. كانت رائحة المرأة. تذكّر موريتز أن رائحة جسم سوزانا وإيوليسكا مشابهة لهذه.

قال الطبيب:

- إنّ واحدا من زملائكم قد ضاجع اللّيلة الفائتة امرأة ألمانية. لقد

فاجأتهما المرأة التي خرجت منذ حين فأوقفت الفتاة. أما الرجل فقد تمكّن من الفرار. إنّه أسمر غزير شعر الصدر رفضت الفتاة الإفصاح عن اسمه. لكنّه لن يستطيع الإفلات. لسوف ينال خمس سنوات يقضيها في السجن. يا للمسكين!

كان الطبيب هولنديا. قال وهو ينظر إلى النافذة:

- لقد قبضوا عليه!

تناهض موريتز واشرأبّ بعنقه. شاهد عبر النافذة شابا صربيا مغلول اليدين يقوده الجنديان بخشونة. كان رجلا ذا شعر أسود يعرفه موريتز. كان يشتغل في معمل الحبال وهو فتى دمث وديع. وكانت الفتاة ذات الثوب العسكري تتبعه وهي تقول:

- لقد قلت لكم إنّني سأعثر عليه أخيرا!

-79-

كان جوزيف «الشخص» الوحيد الذي يشعر معه موريتز بالاطمئنان. لم يشعر بخوف مطلقا من صحبته رغم أن كلّ شيء من حوله صار مخيفا. يخاف في المصنع أن يفلت أحد الصناديق وأن يتأخّر في حمله فيسقط عن الخط. يخاف النظر في وجه إحدى الألمانيات كما يخاف أن يطّلع، ولو عفوا، على أسرار الأزرار. يخاف من كل الألمان، ليس فقط من الرجال والنساء بل من الأرض الألمانية والكلمات الألمانية والهواء الذي يستنشقه لأنه هو الآخر ألماني. لقد سجن إيوهان موريتز في رومانيا وضرب وأهين. لكنّه لم يشعر بالخوف. حتّى في هنغاريا حين قطعوا جسده قطعة فقطعة، لم يشعر بكل هذا الخوف. فالرومانيون والهنغاريون كائنات بشرية. وإيورغو إيوردان إنسان هو الآخر لذلك لم يشعر بالخوف منه.

لم يرتعد موريتز مرّة أمام الإنسان لأنه يعرف أن بني الإنسان يتمتعون بطيب النفس وخبثها معا فكان بعضهم ميالا للطيبة والبعض

الآخر للخبث. لكنهم كانوا جميعا يجمعون بين الاثنين.

ففي رومانيا قدم إليه وكيل الضابط سيجارة بعد أن لكمه لكمة أطاحت بسنّين من أسنانه. وفي هنغاريا قدّم له رجال الدرك ماء وتبغا بعد أن أحرقوا باطن قدميه بالحديد الأحمر.

أمّا في ألمانيا فإنّه لم يضرب قطّ. كان يتناول كلّ يوم ربع رغيف كبير من الخبز وقدحا من القهوة الساخنة وحساءً. وكان العمل أكثر سهولة ويسرا من حفر القناة في رومانيا وإقامة التحصينات في هنغاريا. لكنّه لم يكن يستطيع العيش في ألمانيا. كان واثقا من أن الألمان سيطيحون برأسه آخر الأمر، ولو أنّ في هذه الثقة العمياء لونا من السخف المطلق. ولكنّه كان يشعر رغم ذلك بإحساس غامض ينذره بأنه سيؤخذ ذات يوم والقيود في يديه حتّى ولو لم يكن مذنبا. سوف يرسلونه إلى السجن حتّى ولو لم يكن قد حاول الاطّلاع على أسرار معمل الأزرار. فقد كان بنو الإنسان هناك يعادلون الآلات في الخبث. لذلك كان يذوي عوده ويشعر بخوف عميم، خوفٍ من كلّ الآلات ومن كلّ الرجال على شاكلته. كان يشعر بوحدة مريعةٍ وهو بين الآلات، ويتلهّف إلى الصياح لشدة ما كان يرزح تحت وطأتها. ولذلك فقد انتابه الإحساس بميل طبيعي إلى ذلك الفرنسي.

جاء جوزيف يقابله وقال:

- سالف سكلاف!

فأجابه موريتز باسما:

- سالف سكلاف.

كان جوزيف يحب أن يجاب على تحيته بعبارة مماثلة. ويقول:

- إننا جميعا عبيد. ومن الخير أن نظلّ نذكّر أنفسنا بذلك ألف مرّة كل يوم حتّى لا تنسى هذه الحقيقة لحظة واحدة. فإذا تناسينا أننا عبيد هنا فقدنا كل شيء. لذا ينبغي أن يظلّ وجداننا متيقّظا.

كان ذلك بعد ظهر يوم أحد وكان إيوهان موريتز وجوزيف مستلقيين على الأعشاب في ظل واحد من أبنية المعسكر الخشبية. كان جوزيف يروي لموريتز أنّه يحب امرأة وكان موريتز يعرف أن تلك المرأة اسمها بياتريس وأنها تقطن باريس وأنّ لها عيونا سوداء كبيرة وأنها تبكي كل ليلة لأن جوزيف سجين. فقد قصّ عليه الفرنسيّ أشياء وأشياء عن بياتريس حبيبته حتّى خيّل لموريتز أخيرا أنّه سيتعرّف عليها ولو كانت بين ألف امرأة من شبيهاتها. بل ويُخيّل إليه أحيانا أنّه يصغي إلى حديثها وأنّ صوتها يشبه التغريد. كان موريتز يشعر بوجود بياتريس معه ومع جوزيف كلّما التقيا. ويشعر كلّما جلس إليه بأنّ المجلس يضمّ ثلاثة. بل إنّه كان يدهش أحيانا لأن بياتريس لا تشترك في الحديث ولا تجيب على الأسئلة...

-80-

وفجأة سمع صوت قائد المعسكر يصدر أمرا عبر مكبّرات الصوت:

- ليدخل الجميع إلى الأكواخ!

قال موريتز وهو ينهض واقفا:

- أهو تفتيش جديد؟

وتبعه جوزيف وهو يقول:

- ماذا يريد منّا أيضا!

كان الفرنسي متذمّرا لأنه لا يحب قضاء بعد ظهر أيام الآحاد في الأكواخ!

أخذ العمّال يغادرون الباحة جماعات جماعات. وكان النهار جميلا دافئا والشمس مشرقة.

وقف موريتز وجوزيف قرب نافذة مهجعهما يُطلاّن على الباحة مستطلعين عبر الأسلاك الشائكة.

هتف موريتز:

- إنّ الأمر صحيح إذن!

ذلك أن ثلاث سيارات عسكريّة كبيرة دخلت إلى الباحة الكبرى في تلك اللحظة وتوقفت قرب النافذة التي كانا وراءها.

راجت في الأيام الأخيرة شائعة مفادها أنّه سيؤتى بالنساء إلى المعسكر. لقد وقع مثل هذا الأمر في المعسكرات الأخرى. لكنّ السجناء لم يصدقوا هذه الشائعة. وها أنّ النساء الآن أمامهم، نساء لهم هم!

قال إيوهان موريتز:

- ألا ترى أن الأمر حقيقي!

لم يقوَ إيوهان موريتز على تصديق هذا الأمر رغم أنّه ماثل أمام عينيه. فالنساء هنا وهو يتطلع إليهنّ. كنّ جميعا متبرّجات متزينات يرتدين ثيابا خفيفة. ألقين نظرة حولهنّ حيث كان السجناء محشورين حشرا وهن يتضاحكن. وأخيرا شرعن يبهبطن من السيارات بخفة فكانت الريح ترفع أطراف أثوابهنّ. كان موريتز يرى ألبستهنّ الداخلية وسراويلهنّ الصغيرة الشفافة وكأنّها صنعت من أوراق السجائر وصبغت بألوان مختلفة. وكان يرى أفخاذهنّ إلى أقصى الوسط. كان السجناء الواقفون وراء موريتز يضحكون أما هو فإنه ما كان يصدق عينيه لذلك لم يجد الضحك سبيلا إلى شفتيه.

ارتفع صوت آمر المعسكر خلال المكبّرات:

- لا ينبغي للنساء أن يبارحن السيارات! فأمر المغادرة لم يعط بعد!

كان الصوت قاسيا آمرا. لم يكن أحد من السجناء قد رأى من قبل آمر المعسكر لأنه كان يتكلم من مكتبه. عادت النسوة إلى السيارات فتسلقنها بسرعة كما هبطن وتكدسن فوق بعضهنّ وجِلات. كنّ يخشين العقاب لأنّهنّ بارحن أماكنهنّ دون أن تلقي الأمر بذلك.

ولمّا تسلقن صاعدات، استطاع السجناء رؤية ركبهنّ وسراويلهنّ وألبستهنّ الداخلية العديدة الألوان. كنّ يضحكن ولكن ضحكهن في تلك المرّة كان مخنوقا مذعورا.

أمر الصوت بحزم:

- عشر نساء لكل مهجع! سيمكثن فيه حتّى التاسعة مساء. إن رؤساء المهاجع قد تلقوا التعليمات الخاصة المتعلّقة بسير البرنامج خلال هذه الفترة. إنّهم مسؤولون عن النظام والطاعة في المهاجع!

وصمت مكبّر الصوت...

لبثت النسوة هادئات في السيارات، منتظرات صدور الأمر إليهنّ.

صرف الفرنسي على أسنانه وهتف:

- خ... !

ظنّ موريتز أنّ الفرنسي يوجّه إليه الكلام فاستدار برأسه نحوه غير أنّ جوزيف كان شديد السخط والحنق فلم يكن يلتفت إليه.

جلجل الصوت الآمر عبر مكبّرات الصوت:

- لتنزل النسوة من السيارات بنظام حسب عدد الجماعات!

وكان هذا ما تنتظره النسوة. فرحن يقفزن من السيارات هابطات وانقسمن إلى خمس فرق فتقدّم لكلّ منها رجل هو رئيس المهجع وأشار إلى الفريق النسائي أن يتبعه.

لم يكن موريتز يفهم كيف «سيتم الأمر حسب النظام المقرر». وكان يتحرّق من الفضول. كان يعرف أن النساء قد جئن ليضاجعن المساجين، لأنّ الألمان ادعوا أن إنتاجهم لم يكن كافيا وأنه سيزداد نقصا إذا لبث المساجين محرومين من المضاجعة الجنسية. والألمان يرغبون في إنتاج أوفر، لذلك فقد استقدموا النساء ليتيحوا للمساجين تحسين العمل في مصانع الحبال ومعمل الأزرار وأفران الصهر. لم يكن يفهم كيف يستطيع الرجال زيادة إنتاجهم إذا زاولوا العمل الجنسي. وما كان يفهم كيف سيستطيع العمّال مضاجعة أولئك النساء اللواتي انتُقين انتقاء ووُزّعن على المهاجع بذلك الشكل الآلي. كانت المهاجع كبيرة تحتوي على أسرّة كثيرة وكان عدد الرجال كبيرا وعدد النسوة ضئيلا، وهو ما يحول

دون انفراد سجين واحد بامرأة في سريره: «لعلهنّ سيطفن من سرير إلى آخر!» لكنّه فكّر في أنّ النسوة سيخجلن من التنقل من سرير إلى آخر. لم يكن يتوقع أبدا رؤية نساء في أكواخ تحيط بها الأسلاك الشائكة. ومع ذلك فها أنّ النسوة على وشك الدخول إلى المهاجع.

كان رئيس المهجع يتحدث إليهنّ. فكان ولا شك ينهي إليهنّ التعليمات التي يجب عليهنّ اتباعها فكن يستقبلن أقواله بضحكات مرتفعة.

سأل جوزيف:

- لنخرج هل توافق؟ لنذهب حيث كنا منذ قليل.

خرج موريتز من المهجع مع الفرنسي وتبعهما عدد من العمّال.

ولمّا وصلا إلى عتبة المدخل مرّا بالقرب من النسوة. كانت رائحة العطور والأصباغ تنبعث منهنّ. رحن ينظرن إلى موريتز وجوزيف وهما في طريقهما إلى خارج المهجع ويتضاحكن بصوت مرتفع هازئات منهما لأنهما غادرا المكان.

شعر إيوهان موريتز بيد إحداهنّ، وكانت يدا معطّرة رطيبة، تلامس وجهه وتداعبه فغضّ الطرف، وانطفأ بريقُه.

هتف جوزيف لما وصل إلى حيث كن مجتمعات.

- سالفيتي سكلافي!

فأجبنه بضحكات مدوية.

لم يضحك جوزيف كما فعلن بل اكتأب واكفهرّ وجهه.

وحين وصل إلى الفناء استلقى على العشب وراح يتطلع إلى السماء فتمدّد موريتز بجواره وراح يفكّر في النساء. كان جوزيف ولا شك يفكّر فيهنّ كذلك غير أن موريتز ما كان يستطيع تحديد أفكاره.

قال الفرنسي:

- يمكنك أن تذهب إذا شئت.

فأجاب موريتز:

- كلاّ لن أذهب.

لم يتبادلا كلمة واحدة. وكانت تلك هي أوّل مرّة يجد موريتز نفسه بجانب جوزيف دون أن يحدثه هذا عن بياتريس.

قال جوزيف:

- إنهنّ بولونيات من معسكرات الاعتقال. إن الموقوفات في ذلك المعسكر يستعدن حريتهنّ إذا زاولن هذا العمل مدة ستة أشهر... غير أنّهنّ خلال هذه الفترة سيتهدمن تهديما. ولا يغادرن معسكرات الاعتقال إلاّ ليمضين مباشرة إلى المستشفى أو الملجأ أو إلى المشرحة.

قال إيوهان موريتز:

- ظننت أنهنّ محترفات.

شعر بإشفاق نحوهنّ بدلا من الازدراء لأنه عرف أنهنّ سجينات مثله.

قال الفرنسيّ:

- إنهنّ لسن محترفات يا جان (كان دأب الفرنسي مناداة موريتز باسم جان). هؤلاء النسوة هن رقيق مثلنا يبذلن مجهودا يائسا لنيل حريتهنّ. إنهنّ رقيق يحاول تحطيم أغلاله بيديه وحدهما دون الاستعانة بأية أداة أخرى. يمزّقن أجسادهنّ وهنّ يحاولن تحطيم سلاسلهنّ وأغلالهنّ. إنّه عمل ينطوي على بطولة. ولكن للأسف فإنّ أغلال العبودية أقوى من الجسد البشري.

في الساعة التاسعة مساء غادرت النسوة المعسكر.

ما كن يضحكن لما صعدن إلى السيارات بل كن يدخنّ.

هتف جوزيف عند رحيلهنّ بصوته الصريح والودود:

- سالفيتي سكلافي!

وفي تلك اللّيلة فرّ الفرنسي من المعسكر..

-81-

قال موظف المعمل لإيوهان موريتز وهو يقوده إلى المكتب:

- إنّ الضابط بحاجة إلى مترجم للغات البلقانية. فكن مُهذّبا وقورا! إنّهم ضباط من هيئة الأركان العامة والمؤسّسة القومية للدراسات العنصرية.

انتظر إيوهان موريتز أمام الباب ما يناهز الساعة وأخيرا أُدخل إلى المكتب فاستقبله دخان اللفافات ورائحة الخمر ورأى على المائدة أقداحا وزجاجات فارغة.

لما دخل إيوهان موريتز لم يحوّل أحد رأسه لينظر إليه. فلبث واقفا قرب الباب يكاد دخان اللفائف أن يخنقه. كان يود أن يقول لهم إنّه ليس مترجما ضليعا لتتاح له العودة إلى صناديق الأزرار. فهناك يخيّم الصمت والسكون والجوّ نظيف خال من دخان السجائر الخانق. راح يتأمّل الشريط الأحمر المثبّت على طرفيْ سراويل الضباط. وكانوا جميعا في أعمار فتية أحصى موريتز عددهم فإذا هم سبعة. تقدم أحدهم من موريتز ووضع يده على رأسه ثم راح يديره ويتأمله كما يتأمل اللاعب الكرة التي سيلعب بها. نظر إليه من جانبه الأيمن ثم أداره وتأمّل جانبه الأيسر وقال:

- استدرْ!

راح ينظر إلى مؤخرة رأسه ثم أخذ يلمس كتفيه وأخيرا أمسك بذقنه وطلب منه أن يفتح فمه لينظر إلى أسنانه. فلما فعل استتلى الضابط آمرا:

- اخلع ملابسك!

نزع إيوهان موريتز ثوب العمل الذي يرتديه ووضعه على الأرض قرب الجدار. وكان الضابط يتابع حركاته بنظره.

وبينما كان موريتز ينزع ثيابه، والضابط يزن كل حركاته ويراقبها لبث الآخرون يتحدثون غير مبالين به.

قال الضابط -وكان برتبة زعيم في جهاز المخابرات- عندما فرغ

موريتز من تنفيذ أمره:

- أيها السادة اصغوا إليّ. سأعرض على حضراتكم بعض البيانات والبراهين!

أقبل الضبّاط الستة فالتفوا حولهما بينما لبث إيوهان موريتز عابسا مرتبكا بينهم. لقد استدعي ليكون مترجما لذلك لم يفهم شيئا ممّا كان يقوله ذلك الزعيم. عادت به ذاكرته إلى الألعاب التي كان يشاهدها في «السيرك». تذكّر أنّ أحد الحواة كان يستدعي رجلا من المتفرجين ويطلب إليه الصعود إلى المسرح وهنا يستخرج من جيبه على مرأى من المشاهدين قططا حيّة وعددا من الأرانب والعصافير. كان هذا هو مدلول كلمة البراهين والبيانات في نظره. ولم يكن يعرف لتيْنكَ الكلمتين معنى آخر. وها أن الزعيم الآن يدعو رفاقه ليقدم لهم البيانات مستخدما شخصه. لعله سيرى بعد حين مشهدا من تلك المشاهد الخلابة التي كان يراها في «السيرك» . شعر إيوهان موريتز بقلق عظيم فابتسم لأنه لم يكن يخاف مثل تلك التجارب. كان يعرف أنّ الرجال الذين ينتقيهم الحواة لإجراء التجارب عليهم أمام الجمهور لا يشعرون بشيء مؤذ من جرّاء ألاعيبهم. بل إنّهم يذهلون فقط. ولسوف يذهل هو الآخر في اللّحظة التي يستخرج فيها الزعيم الأرانب والقطط والعصافير من تحت إبطيه أو من بين يديه لذلك فقد مضى يبتسم بتودّد للزعيم لأنه كان يحبّ الحواة. وفكّر في نفسه: «أنه لو لبث يتمرّن ألف عام لما توصّل إلى عمل ألاعيبهم وإتقانها!». ثمّ راح يتأمّل الزعيم الذي يستطيع القيام بتلك الألاعيب وتذكّر في تلك اللحظة كلمات أمّه التي كانت لا تنفك تقول: إنّ الحواة والمشعوذين هم خدم الشيطان. فشعر عندئذ بموجة من الغمّ وكفّ عن الابتسام لأنه كان يخاف دائما من الشيطان ويرهبه.

قال الزعيم:

- أيها السادة إنّ هذا الشخص أُدخل إلى المكتب منذ عشر دقائق.

إنّني لم أره من قبل ولا أعرف سبب مجيئه إلى هنا!

فقال موظف المصنع:

- إنّه المترجم الذي طلبته للّغات البلقانية.

قال الزعيم:

- لقد نسيت تماما أنني طلبت منك مترجما. غير أنّ وجهه جذب انتباهي منذ دخوله.

وضع الزعيم يده على رأس إيوهان موريتز وهو يبتسم، بينما راح موريتز ينتظر بفارغ صبر أن يبدأ الزعيم بإخراج الأرانب من تحت إبطه. صحيح أنّ وجهه كان صارما، غير أن موريتز كان يعرف، أن هذا هو شأن الحواة في «السرك» أيضا. إن المشعوذين يلبثون دائما متجهمي الأسارير، حتّى ولو كاد الجمهور ينفجر من الضحك.

كان موريتز ينتظر القهقهات التي ستنبعث عندما تموء القطة الأولى، وكان يهيّئ نفسه لمشاركتهم الضحك. فقد كفّ عن الضحك منذ زمن طويل.

قال الزعيم:

- لقد وقع بصري على هذا الشخص لأول مرة، منذ عشر دقائق. في ذات الوقت الذي نظرتم أنتم إليه فيه. ولعلّكم تذكرون، أنّني لم أتبادل معه كلمة واحدة. ومع ذلك، فإنّني سأقصّ عليكم، بتفاصيل دقيقة، تاريخ حياة هذا الرجل، وتاريخ ثلاثمائة عام، معتمدا فقط على المشاهدات العلمية.

تذكّر إيوهان موريتز، أنّه شاهد من قبل، فصلا مماثلا لهذا، في أحد مسارح «السيرك» . كان المشعوذ يستدعي واحدا من الجمهور، فيخبره باسمه وسنه، ويبين له إذا كان متزوجا أم أعزب، ويسرد عليه سلسلة من الأقوال المشابهة، والمشاهدون ذاهلون لقدرة المشعوذ على اكتشاف كل هذه الأسرار. غير أنّه لم يحبّ يوما هذا النوع من الأدوار، بل كان يفضّل

عليها مسألة القطط والأرانب. لذلك فقد شعر بأسف في أعماق نفسه، لأن الزعيم لا يتقن ألاعيب الأرانب. تتمنّى لو أخرج من جيبه فجأة، قطا يموء. لقد عرض نفسه مرات عديدة في السيرك، أمام أنظار المشعوذ، لكنّه كان ينتقي دائما رجلا آخر بدلا منه، فيأسف موريتز لحرمانه من هذه المتعة.

قال الزعيم وكان اسمه «موللر»:

- إنّ دراسة الأصول والأجناس تقدّمت تقدّما ملحوظا في عهد القومية الاشتراكية حتّى أنّها سبقت مثيلاتها في البلدان الأخرى بما لا يقلّ عن مائة عام. وأستطيع بمجرّد النظر إلى هذا الشخص الماري أن أبيّن لكم نوع أسلافه والتزواج الذي وقع بينهم وعادات أسرته ويمكنكم بعد ذلك التحقق من بياناتي بطرح الأسئلة المباشرة عليه والإصغاء إلى أجوبته.

هتف الضابط:

- إن هذا لا يصدق! إنّه خارق!

وراحت دائرتهم تضيق حول إيوهان موريتز.

استرسل الزعيم قائلا:

- إذا نظرنا إلى تكوين الجمجمة وطريقة التئام العظم الجبهي والأنفي والوجهي، وإذا نظرنا إلى تركيب الهيكل العظمي وبصورة خاصة إلى القفص الصدري ووضعية الترقوة، فإن هذا الشخص الماثل أمامكم ينتمي إلى عرق جرماني يعيش اليوم بأعداد قليلة في وادي الرين واللوكسمبورغ وترانسلفانيا وفي أوستراليا. وهناك ثماني عشرة أسرة في الصين وفي الولايات المتحدة لكنّها لم تسجل في الإحصاء الرسمي لأنها لم تكتشف إلاّ قبل نشوب الحرب بأشهر معدودات. إننا سنقدم في إحصاءاتنا الرسمية التي سننشرها في عدد خاص نظريات دقيقة كاملة للمرة الأولى عن هذا الفريق الجرماني الذي نطلق عليه اسم «الفصيلة البطوليّة». وتضمّ هذه الفصيلة ثمانمائة عضو على أقصى تقدير،

نزح أسلافهم جماعات من جنوب غربي ألمانيا في الحقبة التي تقع بين أعوام 1500-1600 للميلاد. إنّهم ألمان من أكثر الأجناس صفاء. ولقد استطاعوا الحفاظ على دمهم حتّى اليوم متحاشين أي اختلاط فيه رغم الضغط العنيف والإرهاق الشديد اللّذين تعرّضوا لهما خلال التاريخ. إنّ «الأصل» أيها السادة يحتوي على غريزة بقاء تفوق أحيانا شعور الشخص نفسه. فقد برهنت «الفصيلة البطوليّة» التي ينتسب إليها هذا الشاب، بما فيه الكفاية على صلابة الإحساس بالمحافظة على العنصر، إذ كيف نفسّر بغير ذلك تزواج أسلاف هذا الشاب الماثل أمامكم من عنصرهم خلال ثلاثة قرون أو أربعة بينما تنتشر حولهم نساء أخريات يتمتعن بجاذبية أقوى! إنها غريزة المحافظة على العنصر، إنّه صوت الدم الذي جعل أفراد هذه الأسرة يتحاشون الخطيئة القاتلة الكامنة وراء اختلاط العنصر. إن تاريخ هذه الأسرة لم يقدم أيّ حالة حتّى اليوم من حالات الزواج بامرأة من عنصر آخر وهذا هو التفسير الوحيد الذي جعل هذا الشاب الماثل أمامكم يبدو اليوم شبيها بأسلافه الذين سبقوه بأربعة قرون. تأملوا شعره القاسي ولكن الناعم، إنّه نسخة مشابهة تماما لشَعر «الفصيلة البطوليّة». لم يختلف أبدا عمّا كان عليه منذ أربعة قرون بدلالة البقايا الجسدية التي جمعناها من أفراد هذه الفصيلة. إن هذا النوع من الشعر لا يمكن أن يختلط أمره على أحد من العارفين الذين يستطيعون تشخيصه وتمييزه على الفور. إنّه شعر أكثر نعومة من شعر معظم الفصائل الجرمانية. غير أن المنشأ واحد لم يختلف. ثمّ إن الأنف والجبهة والعينين والذقن عند هذا الشاب لا تختلف في شيء عن الرسوم التي في مجموعاتنا عن أسلافه الذين سبقوه بأربعة قرون. فلم يُحدث الزمن أي تبديل عليها!

راح الضباط يمسّون رأس موريتز ويعاينون شعره وينظرون إليه بإعجاب.

شعر موريتز بأنّ العيون كلّها تحدّق في وجهه. لم يقع له أبدا في مجرى حياته أن عُوين بمثل هذا الاهتمام. لقد كان بطلا لكنّه كان يخاف أن يخيّب أمل الضباط ويأسف لأنّه لم يعمل شيئا ليستحق مديحهم، ذلك المديح الذي ما كان يُغدق مثله إلاّ على أولئك الذين استطاعوا نيل الصليب الحديدي المرصّع مع أوراق السنديان.

عادت أصابع الكولونيل موللر تلمس كتفي إيوهان موريتز من جديد بإعجاب وفخر بل وبورع وكأنّه يلمس رفاف القديسة باراشيفا العجائبية في كنيسة «الملائكة الثلاثة».

أطرق إيوهان موريتز وهو شديد الخجل لأنه لم يساهم في معارك الجبهة الشرقية ولم يقم بأيّ عمل يدل على الشجاعة والإقدام. بينما أردف الزعيم قائلا:

- إن هذه الفصيلة التي نسميها «الفصيلة البطوليّة» تعطي المثل الأعلى للبطولة العنصرية. وأنا أعتبر هذا اليوم عيدا حقيقيا لأنني اهتديتُ إلى اكتشاف هذه النسخة الفريدة. ولا يسعني إلاّ أن أقول لكم في هذه المناسبة إنّ واحدا من أسلافي كان قد تزوّج من فتاة من هذه الأسرة لكنهما وللأسف لم ينجبا أبناء لأن قريبي قتل في الحرب بعد زواجه بثلاثة أشهر. غير أن هذا ليس إلاّ أمرا ثانويا. إنّني أريد الآن أن أبرز صورة هذا الشاب في الكتاب الذي أضعه مصحوبةً بنظريّات عن فن قياس الجسم البشري ولمحة عن التسلسل التاريخي لأنني الآن في صدد إعداد هذا الكتاب الذي اشتغلت فيه منذ عشر سنين بإرشادات الرايخ فوهور الطبيب رونبرغ. وذلك سيساهم في تتويج مجهودي.

هتف الضباط فرحين وهم في وضعية الاستعداد:

- تفضل بقبول تهانينا.

كان الزعيم قد غدا أحمر الوجه من الانفعال فرفع ذراعه اليمنى بالتحيّة ثم صافح زملاءه الضباط فردا فردًا.

لبث موريتز جامدا ينظر إليه فسأله الزعيم:

- هل أنت من رينالد (أراضي الرين) أم من اللوكسمبورغ أم من ترانسلفانيا؟

فأجاب موريتز:

- إنّني من ترانسلفانيا.

أطلق الضباط صرخة إعجاب بينما أشرق وجه الزعيم موللر بالسعادة. قال لزملائه:

- سأحدّد لكم بالضبط محلّ إقامة هذا الشاب.

ثم التفت إلى موريتز وسأل:

- هل ولدت في تيميزوآرا، في برازوف أم في بلاد الزيكليرين؟

فأجاب موريتز:

- في بلاد الزيكليرين.

هتف الزعيم:

- مدهش!

وراح يفرك راحتيه بسرور ثم أردف:

- كان من المستحيل عليّ أن أخطئ. منذ أن فتح الباب شعرت كأنني أرى شخصا من لوحات جناح «الفصيلة البطوليّة» يهبط بيننا. إنّني أعرف تلك اللوحات عن ظهر قلب ولسوف يمكنكم أنتم أيضا أن تتأملوا تلك اللوحات في كتابي المقبل. سيكون حافلا بالصور الملونة. إنّني أؤكد لكم أيها السادة أنّ هذا الشاب نسخة كاملة من «الفصيلة البطوليّة». إنّه يؤيّد نظريّتي بكاملها.

طلب الزعيم إلى موظف المصنع أن يأتيه ببطاقة موريتز. فلما قرأها هتف:

- يا للحقيرين! لم يحمل أحد من أفراد «الفصيلة البطوليّة» اسم ايانوس! إن هذا الاسم عار شنيع!

كان الزعيم في منتهى الغضب لهذه الفضيحة. فالتفت إلى موريتز وقد تجهّم وجهه وقال له:

- هل أطلق أبوك عليك هذا الاسم، ايانوس؟

قال إيوهان موريتز:

- كلاّ يا سيدي الزعيم، إنّني لا أدعى ايانوس!

كان يريد أن يطلعه على أن اسمه هو ايون. غير أن الزعيم قال:

- ما كان ممكنا أن يعمّد أحد أفراد «الفصيلة البطوليّة» ابنه باسم خارج عن التقويم الألماني. إن عكس هذا الأمر لم يقع منذ أربعمائة عام. إنّه من المستحيل أن يكون اسم هذا الشاب ايانوس!

التفت الزعيم نحو موريتز مشرق الأسارير، كان شديد السرور لأن موريتز لم يكن يدعى ايانوس. سأله:

- من أعطاك اسم ايانوس؟

- لست أدري، عندما وصلت إلى ألمانيا منذ عامين وجدته مسطورا في أوراقي!

قال الزعيم:

- إن اسمه ليس ايانوس! لقد احتملت «الفصيلة البطوليّة» كثيرا من الاضطهاد والظلم خلال تاريخها. فغيّرت الشعوب التي عاشوا بينها أسماءهم دون أن تستطيع تغيير دمهم، ولبث دم «الفصيلة البطوليّة» نقيًّا كقطعة من الزجاج!

اتجه الزعيم نحو موظّف المصنع وقال له:

- إنّ هذا الشاب قد وضع منذ اليوم رهن تصرّف المؤسّسة القوميّة للدراسات العنصرية. إنّه مثال نحن في حاجة إليه.

سأل الموظف:

- ألن يشتغل بعد اليوم في المصنع؟

فأجابه الزعيم بجفاء:

- كلاّ! سأرسل لكم فيما بعد التعليمات الخاصّة المتعلّقة به.

نظر الزعيم إلى موريتز وراح يفكر: «إنّ العلم قد تقدّم تقدّما خارقا غير أنّنا ما نزال بعيدين عن الكمال. فهذا المثال المصطفى، هذا المثل لفئة عنصريّة شديدة الأهمية، ينبغي أن يحفظ في حديقة معروضات الأصول البشريّة التي ستؤوي نماذج ثمينة عن العنصر الإنساني. غير أن هذه الحديقة لم تنشأ بعد وللأسف. لدينا في أوروبا حدائق تضم نماذج شتى من أنواع الطيور والحيوانات لصيانتها. غير أن الآراء الفاسدة جعلتنا نمتنع عن إقامة حدائق لصيانة أنواع الإنسان وعرض مختلف أصوله. وإنها لخسارة كبرى للعلم. لقد سبقنا الأمريكيون في هذا المضمار إذ أقاموا مثل هذه الأمكنة الخاصة حيث يحتفظون فيها «بعيّنات» هامة من الهنود. غير أننا سننشئ بعد النصر مثل هذه الحدائق في أوروبا. ينبغي أولا أن ننتصر. وسوف أقترح في محاضرة لي قريبة إنشاء هذا النوع من الحدائق التي ستتيح للعلم أن يحصل على الأمثلة الفريدة النادرة لدراستها ومعاينتها. وستكون هذه العيّنة من «الفصيلة البطوليّة» من الأمثلة الأولى في حديقتنا. سوف أقدّمه للحديقة هديّة منّي.

نظر الزعيم موللر إلى موريتز وابتسم. كان يتصوّره في حديقة صيانة أنواع الإنسان في جناح العناصر الألمانية، يقطن فيه مع زوجته وأولاده! ثمّ أردف:

- سوف يتحقق هذا الحلم ذات يوم... أمّا في الوقت الحاضر، فيجب أن نجد لهذا الشاب، العمل الجدير بمنبته. إن ما سيسرّه ويرضيه، هو أن يكون جنديا. إنّني أعرف «الفصيلة البطوليّة»، إنها جماعة من أشد المحاربين من العنصر الجرماني بأسا. فلنمطه إذن، إمكانية الانخراط في الجيش، لنجعله جنديا.

راح الضبّاط يهنئون الزعيم موللر، على سداد فكرته ورأيه. فماد وجه الزعيم يصطبغ باللون الأحمر لشدة اغتباطه، وطلب إلى تابعه أن

يعطيه حافظة أوراقه ليخرج منها ورقة مطبوعة باسم المؤسسة القومية للدراسات العنصرية كتب عليها توصية لإيوهان موريتز إلى المختصين ليدخلوه في عداد الجيش جنديًا في فرق الحرس. ثم سلّم تلك التوصية إلى موظف المصنع وقال آمرا:

- قم بكل المعاملات اللازمة ودون تأخّر!

والتفت الزعيم موللر إلى موريتز باسما وقال:

- أريد الحصول على صورة لك باللباس العسكري خلال الشهر المقبل. ستكون تلك الصورة ثمينة جدا في دراستي حول «الفصيلة البطوليّة» التي تنتسب إليها. سوف أرسل واحدة منها إلى الدكتور غوبيلز. ولسوف تتأمل صورتك على صفحات المجلات والصحف.

-82-

قال الرئيس الطبيب في لجنة معاينة المجندين الطبية إثر فحص إيوهان موريتز:

- إن هذا الرجل غير صالح للخدمة العسكريّة. إن على رئته اليمنى أطيافا مشبوهة. ينبغي أن تكون رئتا الجندي متينتين.

كان قد مضى على مقابلة موريتز مع الزعيم موللر ثلاثة أسابيع.

فكّر إيوهان موريتز قبل كل شيء، في أنّ الجندي يحصل على الأقل على نصف رغيف من الخبز في اليوم، وينتعل أحذية ضخمة لا ينفذ الماء عبرها ويرتدى ألبسة دافئة مناسبة، وأنه يستطيع أن يأكل طعاما مناسبا، وأن يدخن اللفافات ويستمتع بها. وكان يعرف أن حياة الجندي خير ولا شك من حياة المساجين، ومع ذلك فقد شعر بشيء من السرور، عندما بلغه أن اللجنة الطبية لا توافق على انخراطه في الجندية.

قال الطبيب وهو يتصفّح ملف موريتز:

- يحمل هذا الشاب توصية من الزعيم موللر من هيئة الأركان العامة، ورئيس المؤسسة القومية للدراسات العنصرية. لذا لا يمكننا أن نرفضه.

نظر الأطبّاء الثلاثة إلى موريتز. سأله الرئيس:

- هل تستطيع القيام بعمل كتابي؟ ماذا كانت مهنتك في حياتك المدنية؟

فأجاب موريتز:

- حرّاث.

تشاور الأطبّاء الثلاثة، وطلبوا إلى موريتز انتظار النتيجة في غرفة الانتظار، وعندما استدعوه، أفهموه أنهم وجدوه صالحا للخدمة وأعطوه الأمر الذي يجب عليه أن يتقدم به إلى وحدته.

قال الرئيس مفسّرا:

- لقد ألحقت بالخدمة الإضافية. وبما أنّك لا تستطيع القيام بأي عمل كتابي، فإنّك ستلتحق بفصيل الحراسة.

-83-

صفر قائد المعسكر التأديبي معلنا حلول وقت الإفطار، فانتفض الجندي إيوهان موريتز لدى سماعه الإشارة. لقد نسي تماما أنّه كان في مرصد للحراسة، وراح يبحث بحركات محمومة عن الإناء الذي تعوّد تناول الطعام فيه حين كان سجينا، واحمرّ وجهه من الحنق عندما لم يجده. وفجأة هتف يحدّث نفسه:

«كم أنا سخيف!». ثم ضمّ بندقيته بين يديه واسترسل: «لقد نسيت من جديد أنني حارس ولست سجينا».

كان في مركزه ذاك منذ ثلاثة أيام. غير أنّه كان ينتفض دائما كلّما سمع الإشارة. لم يكن يستطيع إقناع نفسه بأنه أصبح حارسا ولم يعد سجينا. فكان كلّما شاهد الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر وصفوف المساجين الواقفين بانتظام، ينسى تماما أين هو، ويعتقد أنّه سجين مثلهم. كانت السنوات الطويلة التي قضاها في السجن قد أحدثت في نفسه تأثيرا كبيرا تغلغل في دمه، فكان لا يستطيع التخلص من الفكرة

المسيطرة عليه بأنه سجين مدى العمر! فإذا جاء زميله لينوب عنه في الحراسة بعد انتهاء مدته، ارتعد ظنّا منه أنّ ذلك الجندي إنّما جاء يوقفه! كان في تلك اللحظة بالذات، يرى المساجين ينتظمون صفوفا طويلة أمامِ المطبخ لتناول نصيبهم من الطعام فينسى أنّه في المرصد، ويتساءل لمَ تأخّر دوره في تناول طعامه كلّ هذا التأخير. ويرى نفسه واقفا بين صَفوف المساجين منتظرا.

راح موريتز منذ يومه الأول في عمله الجديد يتفحّص وجود المساجين عله يرى بينهم وجها يعرفه، فلم يعثر على أيّ وجه معروف، وهو ما أدهشه. لقد انتقل في ألمانيا بين عشرات المعسكرات وقد استخلص لنفسه دون شكّ صديقا بين كل هذا الحشد الهائل. كان يتوق إلى رؤية وجه يعرفه بين هذه الوجوه العديدة. لم يكن مسموحا له أن يحادث المساجين ومع ذلك فقد كان يتلهّف إلى رؤية وجه معروف ولو عن بعد!

نسي إيوهان موريتز أنّه جندي وحارس في الوقت نفسه، وراح يصرخ:

- جوزيف، جوزيف!

راح المساجين المجتمعون في الفناء ينظرون إليه. ونظر إليه جوزيف بدوره غير أنّه استمرّ يأكل. لم يتعرّف الفرنسي عليه في ملابسه تلك.

عاد موريتز يناديه مرّة أخرى فلبث جوزيف فترة وصحفة طعامه في يده يحدّق في وجهه ثم أوغل مبتعدا.

صرخ موريتز:

- ألا تعرفني؟ أنا موريتز ايانوس!

هتف الفرنسي ضاحكا:

- سالف سكلاف!

لقد عرفه في تلك اللحظة. فوضع طبق الطعام على الأرض واقترب من الحاجز الشائك. سأل جوزيف:

- كيف وصلت إلى هنا؟

قصّ عليه موريتز بعبارات مختصرة كيف وصل إلى ما هو عليه. كان جوزيف يفهم الألمانية أكثر من ذي قبل غير أن مسافة بعيدة كانت تفصل بينه وبين موريتز. سأل موريتز:

- وأنت، كيف وصلت إلى هنا؟

أجاب جوزيف:

- لقد قبضوا عليّ بعد خمسة أيّام من فراري. هل تريد أن ترسل كلمة مني إلى بياتريس؟ إن الكتابة محرّمة علينا ولم أتلق أخبارا عنها منذ أربعة أشهر.

سأل إيوهان موريتز عن عنوان بياتريس. فراح الفرنسي يكتبه على ورقة. وبينما كان هذا مستغرقا في الكتابة، أخرج موريتز رزمة علب السجائر من جيبه وكان قد تلقاها أمس من السرية وألقاها عبر الحاجز الشائك إلى جوزيف فسقطت عند أقدام الفرنسي. قال موريتز:

- سآتيك غدا بسجائر وبمزيد من الخبز. وسأرسل كتابك اللّيلة بالذات إلى بياتريس.

انحنى جوزيف وأخذ الرزمة. ثم لف العنوان على حجر صغير وألقاه بدوره عبر الحاجز الشائك إلى موريتز. غير أن الحجر وحده بلغ الجانب الآخر أما الورقة فقد سقطت بين الأسلاك الشائكة. همّ جوزيف بكتابة العنوان من جديد. فهتف موريتز:

- دعها. سآخذها بنفسي. إنّهم لن يعدموني رميا بالرصاص إذا تسللت خلال الأسلاك أو اقتربت من الحاجز.

وبينما كان موريتز يهبط درجات سلم برج الحراسة، رأى عن بعد عريف الحرس متجها نحوه لتبديله. فعاد يصعد السلم متهافتا وصرخ يحذر جوزيف:

- لقد أقبل العريف. ولن أستطيع أخذ العنوان. سأكون غدا في الساعة التاسعة في مركزي وسآخذ الورقة. فانتظرني غدا. والآن إلى اللقاء!

فأجاب جوزيف:

- سالف سكلاف!

وابتعد وهو يشعل «سيجارة». كان يرتدي ذلك الثوب الرمادي القديم لكنّه صار أكثر تمزيقا من ذي قبل، وازداد صاحبه نحولا. لقد كان الطعام في ذلك المعسكر رديئا.

وبينما كان العريف يبدله بحارس آخر، كان إيوهان موريتز ينظر بزاوية عينه إلى حيث كان جوزيف ويقول لنفسه:

- «سآتيه غدا برغيف كامل!».

-84-

أصيب إيوهان موريتز تلك اللّيلة بالذات بحمى شديدة فنقل صباح اليوم التالي في سيارة الإسعاف إلى المستشفى. كان يعرف أن جوزيف سينتظر قرب الحاجز ليلتقط الخبز والسجائر التي وعد بتقديمها إليه. والأدهى من ذلك أن تلك الورقة –العنوان- كانت في مكانها وكان عليه أن يلتقطها كما وعد. أسف كل الأسف لأن الفرنسي سينتظره عبثا وسوف يعتريه اليأس أخيرا. غمغم إيوهان موريتز: «مسكين جوزيف! لعله كان ينتظر بفارغ صبر بزوغ النهار ممنيا نفسه بتلقي الرغيف الموعود!».

وراح يعزي نفسه بأنه خلال أيام قليلة سيستردّ عافيته وسيستطيع عندئذ تزويد صديقه بالخبز كل يوم وسيحمل رسالته إلى بياتريس.

غير أنّ موريتز كان مصابا بذات الرئة وكانت الإصابة قد سرت إلى رئتيه معا، فلبث شهرين كاملين في المستشفى.

وفي اليوم الأول من شباط قال له الطبيب:

- ستخرج هذا الأسبوع من المستشفى وستمنح شهرا كاملا راحة مرضية.

فكّر إيوهان موريتز في أنّه لو تقبّل الراحة المرضية لازداد إبطاؤه على جوزيف. ولعلّ الفرنسي كان خلال هذا الوقت الطويل ينتظر كلّ يوم أن

يأتي موريتز ليلتقط عنوان بياتريس ويكتب إليها. كان ينتظر اللفافات والخبز الموعودين.

قرر إيوهان موريتز أن يرفض الراحة وأن يلتحق بفرقته. غير أن الطبيب قال:

- ينبغي أن تستعيد قواك يا فتى! إنك في حاجة إلى غذاء وراحة كاملة وإلا فإنك هالك. أين تريد قضاء عطلتك؟

لم يجد إيوهان موريتز الشجاعة على رفض الراحة المرضية لكنّه شعر بالدماء تتصاعد إلى رأسه. فقال الطبيب:

- إنّني أفهم.. إنك لا تدري أين تذهب. أستطيع أن أرسلك إلى مصحة للنقاهة لكنني أعتقد أن هذا ليس ما ينبغي لك. إنك في حاجة إلى جو دافئ... عائلي!...

شعر إيوهان موريتز بعواطفه كلها تتحفّز. لقد أدرك الطبيب ما كان يجول في خاطره. إنّه لم يكن يريد مالا ولا مصحات ولا غذاء جيد. بل كان يتوق إلى مكان هادئ يستطيع أن يرى نفسه فيه وكأنه في داره. قال:

- إنك بحاجة إلى امرأة تعنى بك وتساعدك. ينبغي أن تستعيد ثقتك في نفسك وإلا فإنك لن تشفى. إنك ستجد في مصحات النقاهة نساء كثيرات عديدات غير أنهنّ هناك لمجرّد الضرورات الجنسية فقط. أما بالنسبة إلى مريض في مثل حالتك الصحية والنفسانية، فإن هذا النوع لا يدخل في نطاق تفكيرك. إنك يا فتاي في حاجة إلى الحنان وليس إلى الإثارة الغريزية!

ألقى الطبيب نظرة حوله. كان واثقا من دقة تشخيصه للمرض. كان متأكدا ممّا يتفق ومزاج مريضه. كان ضميره المهني وقناعته توحيان إليه بأن يشير على مريضه بالحنان والجو العائلي والثقة وإخلاص المرأة كعلاج ناجع! غير أنّه ما كان يستطيع تقديم هذه الأدوية إلى مريضه لافتقاره إليها. ومع ذلك فإن المريض ما كان يمكن شفاؤه دونها. توقفت

أنظاره على الممرضة التي كانت واقفة بقربه وبيدها بطاقة موريتز.

هتف الطبيب وكأنه وجد الحل:

- شفايتزر هيلدا! إنك تقطنين مع أمك في المدينة أليس كذلك؟

أجابت:

- مع أمي نعم. وعلى بعد خطوتين من المستشفى.

كانت هيلدا تنظر إلى الطبيب وفي عينيها بوادر ثقة الجندي الذي ينتظر بكل طاعة أوامر رئيسه.

ابتسم الطبيب. لقد تأكد في تلك اللحظة من أن الحل المطلوب قد بات في متناول يده. قال:

- إنّني أوكل إليك أمر إيوهان موريتز الذي يجب أن تعامليه كما تعاملين زوجك تماما. يجب أن تُعيديه خلال شهر من اليوم مستردًا كامل قواه. أريد أن أراه قبل أن يلتحق بوحدته. وإنّه في حاجة إلى امرأة تكون حبيبته في الوقت نفسه الذي تكون فيه أمّه وأخته!

- لقد فهمت يا سيدي الطبيب.

كانت هيلدا فتاة ذات وجنتين ورديتين ممتلئتين لا تتجاوز العشرين من عمرها قصيرة القامة ميالة إلى البدانة.

راح الطبيب يفحصها ببصره. لقد آمن بأنّه واجد فيها كلّ الحنان اللازم لإيوهان موريتز. ولما نظر إلى شعرها قال الطبيب في نفسه: «إن الشقراء مفضلة في مثل هذه الحالة لأن السمراء تثير فلا تصلح لهذه الحالة. أما الشقراوات فإن حضورهنّ وحده يكفي لتهدئة انفعال المريض».

قال الطبيب موجّها حديثه إلى الفتاة:

- ستحصلين على راحة أربعة عشر يوما. لن يكون لديك خلالها إلاّ العناية المتواصلة بموريتز. يمكنك أن تأخذي الطعام كل يوم من مطبخ المستشفى ولكن يجب أن تطهي شيئا في الدار لأنه في حاجة إلى ألوان من الأطعمة

يهيّئها الرفيق في عش الزوجية لا الطعام المأخوذ من قدر عام فحسب.

قالت هيلدا:

- فهمت يا سيدي الطبيب!

كانت تشعر بالفخر والكبرياء لهذه المهمة وتعرف أن كل زميلاتها سيحسدنها على هذه الخدمة. سأل الطبيب:

- هل لك غرفة مستقلة في البيت؟

فاحمرّ وجه هيلدا وأجابت:

- بالطبع.

فقال الطبيب.

أعتقد أنّ هذا الفتى يعجبك أليس كذلك؟

ودون أن ينتظر ا لجواب أصدر الأمر التالي:

- أعدّي إذنا بخروجه، وإجازتين لكليكما وقسيمة طعام مع مكمّلاته، ما يكفي شخصين مدّة ثلاثين يوما. وليكن الطعام من الدرجة الأولى.

- ليَكُن.

هتفت هيلدا وفتحت الباب.

همّ الطبيب بالخروج بيد أنه توقف على العتبة وألقى نظرة خاطفة على إيوهان موريتز وقال له:

- إلى اللقاء يا بنيّ. عد إليّ سريعا معافى!

-85-

وجّه إيوهان موريتز نظرَهُ إلى باحة المستشفى. المستشفى. كان الثلج يتساقط. فلبث فترة طويلة أمام النافذة يتأمّل حاجز الأسلاك الشائكة. وفجأة أحسّ بيدين باردتين تحجبان عينيه. فالتفت وإذا به أمام هيلدا. كان قد نسيها تماما بل ونسي كذلك كلمات الطبيب ووصاياه.

قالت هيلدا:

- ارتد بزّتك العسكريّة وتعال معي إلى الصندوق لتحصل على راتبك.

فإذنُ خروجك من المستشفى وإجازتك جاهزان. وكذلك إذنُ إجازتي.

كانت هيلدا تتحدث بعجلة وهي تساعده على ارتداء كسوته وتمدّ يدها إلى قميصه فتسوّيه. شعر إيوهان موريتز بيد هيلدا على صدره فأحسّ بأنها يد حبيبة عرفها منذ زمن طويل. كانت تساعده على ارتداء ملابسه كما لو كان ابنها أو زوجها منذ الأبد.

كانت هيلدا حتّى ذلك اليوم نافرة باردة الإحساس نحوه، فكانت تأتيه بالأدوية وتقيس حرارته ثم تمضي دون أن تتفوّه بكلمة، أما الآن فقد أصبحت ودودا متحبّبة أكثر تعلّقا به وأحنّ عليه من سوزانا وإيوليسكا.

شعر موريتز بأن هيلدا متيّمة به. لقد خلقت هذه العاطفة في نفسها فجأة بعد صدور أمر الطبيب. كانت تحبه تنفيذا لوعدها للطبيب. وكانت تلك اليد التي امتدت إلى صدره لتسوي القميص والتي راحت تساعده على ارتداء ثوبه يد امرأة محبّة عاشقة تماما مثلما أشار إليها الطبيب.

قالت هيلدا:

- لقد سمح لنا الطبيب بأخذ سرير من المستشفى. إنّه سرير كبير أبيض من قسم الجراحة ومعه غطاءان من الصوف. فسريري يضيق عن استيعاب شخصين.

كانت هيلدا تفكّر حتّى في السرير. قالت معقبة:

- لقد قال الطبيب إنّه لا يجب أن أثيرك كثيرا. وهذا طبيعي للغاية لأنك كنت مريضًا مرضا خطيرا. غير أنّ حالك بعد أسبوع من النظام الغذائي والمواظبة على تناول الأطعمة المغذية مع الراحة التامة، سيتبدّل كليّا.

سأل موريتز:

- ما الذي سيتبدّل؟

فقاطعته قائلة وهي تطبع قبلة على شفتيه:

- سترى.

قبض إيوهان موريتز مرتّبه. لكنّه لم يشعر بالسرور لأنه كان ينفذ أمرا صدر إليه. لم يكن أمرا بالعمل في الحصون أو في مصنع الأزرار أو بالقيام بالحراسة في المعسكر، بل كان أمرا بمرافقة هيلدا ومضاجعتها ليشفى بعد شهر من الناحيتين: الجسدية والنفسيّة. وإنه لأمر جميل غير أنّه يبقى أمرا على كل حال وما كان الأمر ليسعد موريتز.

-86-

قالت هيلدا بعد انقضاء أسبوع على حياتها المشتركة:

- أتدري أننا لو تزوجنا فإنّني سأحصل على أربعة عشر يوما أخرى أقضيها معك.

نظر إليها بحنان. فأعقبت:

- حدثتني البارحة عن عزمك على الزواج بي.

فقال موريتز:

- صحيح.

تذكّر أنّه شرب أمس مع هيلدا وأمّها خمس زجاجات من الخمر.

قالت هيلدا:

- لم لا نتزوج؟ إذا أسرعنا في ذلك فإنّني سأحصل على إذن إضافيّ وسيكون نصيبك كذلك تمديد راحتك. سوف يعطوننا مسكنا وأثاثا وعلاوة مالية قدرها ألف مارك. ثم إنك لن تنام في الثكنة إلاّ في يوم خدمتك. ولقد تحدثت بذلك إلى أمي وأعتقد أنّ الإجراء الأنجع هو أن نسارع بالزواج.

لم ينبس موريتز ببنت شفة. فظنّت هيلدا أنّه لا يريد قضاء عطلته بالطواف بين مختلف الدوائر لإعداد الشكليات اللازمة. قالت:

- لن أرهقك بأي مجهود. يمكنك البقاء في البيت والاستمتاع بالراحة الكاملة بينما أقوم أنا بالخطوات اللازمة في مكاتب الأحوال المدنية والإسكان والإعاشة والعمل ودائرة الشرطة. بإيجاز سأقوم بكل ما ينبغي. إذ لا ينبغي أن تتعب نفسك.

كان إيوهان موريتز موافقا على هذا العرض. لقد كانت نظريات هيلدا وعروضها منطقية. إنّهما إذا تزوجا ستزداد الفائدة التي يجنيانها.

تزوجا وحصلا على مسكن ذي ثلاث غرف وحمام ومطبخ وأعطي لهما ألف مارك مع بطاقات للحصول على الأسرّة والألبسة والأثاث وأدوات المطبخ ولوازمها من الحطب والفحم والنبيذ واللحوم اللازمة لحفلة الزفاف إلى جانب جهاز «للراديو» وعدد كثير من الكماليات.

قالت هيلدا وهي تساعد موريتز في ارتداء ثيابه للذهاب إلى الثكنة:

- لو أننا لم نتزوج لكنّا من الحمقى لأننا كنا سنخسر كل هذه الفوائد.

ثم أعقبت:

- أوَليس النوم في البيت أحسن لك من النوم في الثكنة؟

فأجابها:

- بلا شك.

- أليست الأطعمة التي أقدّمها لك مساء أفضل ممّا تأكل في السرية؟

كانت هيلدا متباهية فخورة بعملها. أردفت تقول:

- سأعلن بعد شهرين أنني حبلى وبذلك سأحصل على إجازة طويلة وبذلك تستطيع أن تتناول طعام الظهر في المنزل أيضا وسنحصل على مزيد من الطعام لأن المرأة الحبلى تعطى عادة ثلاث بطاقات تغذية. سيمكنك أن تأكل كما تشتهي، لأنني أتوق إلى رؤيتك منتفخ الأوداج سمينا.

ابتسم إيوهان موريتز وقال لها:

- إنك فتاة طيبة يا هيلدا!

-87-

تلقى مخفر درك فانتانا نسختين من إعلام عن فارّ لإذاعته في القرية. قرأ رئيس المخفر نيكولاي دوبريسكو فيها ما يلي: «إن اليهودي موريتز ايون المسمى إيوهان وجاكوب وايانكل قد فرّمن معسكر العمل. والمطلوب من كل شرطة البلاد ورجال الدرك فيها البحث عنه. مع العلم

أنّ كلّ من يأويه أو يعرف معلومات عن مكان وجوده ولا يتقدّم بها إلى السلطات يعاقب بالسجن.

وكان في الزاوية اليمنى من النشرة صورتان لإيوهان موريتز إحداهما مأخوذة من الأمام والأخرى من الجانب.

قال رئيس مخفر الدرك وهو ينظر إلى الصورة: «إن هذا الشخص إذن يهودي حقا!». ثم استدعى أحد الجنود وأمره قائلا:

- خذ بندقيتك وامض على الفور فأتني بأمّ هذا اليهوديّ وبأبيه وألصق هذا الإعلان على الجدار الخارجي وليكن الإلصاق محكما فلا يتطاير مع الريح.

كان الثلج يتساقط في فانتانا ورئيس المخفر يتأمّله عبر النافذة فلمح على الطريق الكاهن ألكسندرو كوروغا يسير مقوّس الكتفين متأبطا حافظة أوراق.

عاد الجنديّ بعد فترة يقول:

- لقد جئتك بأمّ اليهوديّ فقط لأنّ أباه مريض.

غضب رئيس المخفر لأنه كان يريد استجواب الأبوين معا. فقال الجندي:

- إذا أمرت أتيتك بالأب عُنوةً. غير أنّه لا يستطيع الوقوف على ساقيه. لقد نزعت الغطاء عنه فوجدت جسده منتفخا كالقربة.

فكّر رئيس المخفر برهة ثم عدل عن استجواب الأب وأمر الجندي بإدخال أمّ إيوهان موريتز التي كانت منتظرة عند الباب.

دخلت أريستيتزا إلى المكتب وهي ممتقعة الوجه من الغضب، سألت حانقة:

- كيف تجرؤ على إرسال الجنديّ إليّ ليسوقني ببندقيته وكأنني مجرمة؟ أليس لديك كفاية من اللّصوص والمجرمين تستقدمهم إلى المخفر فرحت توقف الأشراف بدلا منهم؟ أم تراني ارتكبت جريمة ما!

لقد جُنّ جنون أريستيتزا فصمّمت على اقتلاع عيني رئيس المخفر عندما أبلغها الجندي المسلّح أنّه جاء يقودها إلى القسم.

قال رئيس المخفر:

- إنك لست مجرمة. ولكنّ ابنك الآن موضع بحث السلطات وملاحقة رجال البوليس.

نظرت أريستيتزا إلى إعلام البحث التي قدمها رئيس المخفر فلما رأت صورة ابنها انخرطت في البكاء وقالت:

- كم هزل المسكين!

فحسبها أن ابنها إيوهان قد هزل لتستخلص من ذلك أنّه أسيء إليه. وكان هذا هو كل ما يستحوذ على اهتمامها.

قال رئيس الخفر آمرا:

- اقرئي.

فأجابت وهي تمسح دموعها:

- وما فائدة القراءة؟ إنّني أرى صورته وأعرف أنّه سينفق من الجوع وأنّ القمل يفترس جسده وأنّهم ضربوه وسجنوه فماذا تريدني أن أقرأ بعد هذا؟ إن هذا يكفيني؟

قرأ الدركي النشرة بصوت مرتفع فقاطعته أريستيتزا منذ قراءته الجملة الأولى وهتفت:

- اقرأ مرّة أخرى أيها الدركي. علّني لم أفهم ما سمعت. هل قلت «اليهودي موريتز ايون»؟ إذا كنت قرأت ذلك فإن الأمر لا يتعلق بولدي! إنّني لست أمّا لولد يهودي!

مد رئيس المخفر إليها الإعلام فعادت أريستيتزا تتأمل الصورة وعواطفها تجيش حسرة على ولدها الهزيل.

سأل رئيس المخفر:

- أليس هذا ابنك؟

فأجابت أريستيتزا:

- إنّه هو، المسكين! ألا لا غفر الله خطيئات أولئك الذين سجنوه! هتف رئيس المخفر:

- هل تعرفت عليه؟ إذن لمَ تنكرين أنّه يهودي؟ دعينا لا نضيع وقتنا. من الخير لك أن تصغي إليّ. إنّ كل ما ستعلنينه عديم الفائدة. إنك شخص خاص. أمّا أنا فلا أصدّق إلاّ الأقوال الرسمية. إن هذه الورقة مستند صدر عن السلطات فهي إذن مقدّس وهي تؤكد أن ابنك يهودي.

صرخت أريستيتزا:

- إذا تجرّأت على القول إنّ ابني يهودي فقأت عينيك! هل تريد سخطي؟ مسكين ولدي! لقد كان عند ذهابه جميلا معتدا كالأرزة السامقة والآن لم يبق عليه إلاّ الجلد والعظام!

قال رئيس المخفر:

- لا تهيني السلطة وإلا حرّرت في حقّك ضبطا لإهانتك أحد أفراد القوة العامة!

هتفت أريستيتزا:

- لقد أنجبت إيوهان مع زوجي وليس مع السلطات؟ أنا التي حملته في أحشائي وأرضعته حليبي وليست السلطات. وأنا أعرف أنّه ليس يهوديا.

- إن وزارة الداخلية تؤكد حرفيا في هذا الإعلام أنّ موريتز إيون يهودي.

- لتقل لي وزارة الداخلية ذلك إذا وجدت في نفسها الجرأة؟ سأبصق في وجهها إذا تجاسرت على القول إنّها تعرف ذلك الذي حملته في أحشائي أكثر مني.

- إذا كنت رومانية فإن زوجك قد يكون يهوديا. إن واحدا منكما ينبغي أن يكونه على كل حال. لأن هذا مستند رسميّ. لعلّك ما كنت تعرفين ذلك.

سألت أريستيتزا:

- هل أنت ثمل؟ كيف لا أعرف من هو ربي وأمام أية «أيقونة» أجثو على ركبتي؟

فقال رئيس المخفر:

- إن القضية ليست مسألة أيقونات. يمكن أن يكون المرء يهوديا مسيحيا لأن المسألة مسألة دم.

- إن دمي ودم زوجي مسيحيان. أما أولئك الذين سجنوا ابني وعذبوه في السجون فهؤلاء هم الكفرة!

قال رئيس المخفر ملمّحا:

- هل أنت واثقة من أن زوجك مسيحي؟ لعلّك خلال هذه السنوات الطويلة من الحياة الاجتماعية الوثيقة قد اطّلعت على شيء. إن الرجال أسهل من النساء في تقديم الدليل. أم تراك تجهلين هذه الناحية المميزة؟

زمجرت أريستيتزا:

- أتجرؤ على القول إنّني لا أعرف ذلك الذي نمت إلى جانبه خمسة وثلاثين عاما؟ إن النساء الفاسقات يعرفن نوع الرجل الذي يضاجعهنّ. مع ذلك فإنّك تجرؤ على الإقرار بأنّني نمت خمسة وثلاثين عاما إلى جانب زوجي دون أن أعرفه؟ وأن السلطة تعرف خيرا مني مذهب الغلام الذي أنجبته أنا وزوجي؟ أتسألني أنت أيها الدركي والسلطة من ورائك تفسيرا عن الذي حملته في بطني وأرضعته لبني؟

كانت عينا أريستيتزا تحدّقان في المحبرة الموضوعة على المكتب قبالتها. كانت ترى كل شيء مصبوغا بلون أحمر، فالمحبرة التي كانت تريد قذفها إلى رأس الدركيّ كانت حمراء والجدران كذلك. بل إن الدركي نفسه كان من ذلك اللون في نظرها.

وشعر الدركي باتجاه أبصارها فنقل المحبرة بحكمة بعيدا عن متناول يدها.

تقلّصت أصابع أريستيتزا على أردان ثوبها بغضب وكأنها تعتصر عنق السلطة بين يديها فتخنقها. فلمّا أبعدت المحبرة عن متناول يدها شعرت بأن آخر سلاح قد انتزع منها.

راحت أريستيتزا تصرف على أسنانها ثم رفعت أطراف ثوبها بيديها لتغطي رأسها. فتطايرت أطراف الثوب العريض المثنيّ وكأن عاصفة قد هبت بين طياته فارتفع كذلك قميصها وتعرى بذلك جسدها المغضن المزرق وظهر ثدياها وكأنهما كيسان فارغان أسودان من الجلد. شاهد الدركي خلال لحظات خاطفة كلّ عري أريستيتزا من الصدر والظهر والجانب فأغمض عينيه. ثم سمع صوت الباب ينصفق بعنف اهتزت له الجدران وتساقطت من السقف قطع بيضاء من الجير.

خرجت أريستيتزا وصوتها يجلجل كالنفير الصدئ في أسماع الدركي قائلة:

- إليك جوابي! فلتلحس... أنت والسلطة معا!

-88-

لما وصلت أريستيتزا إلى منزلها تخلّصت من الشال الذي كان يغطي به كتفيها وقرفصت أمام الموقد. ألقت قطعة من الخشب تغذّي النار المشبوبة وراحت تنظر إلى اللّهب الطويل الأحمر يتراقص أمام عينيها. كانت الدموع تنهمر من عينيها وتسيل على خديها. فكرت في نفسها: «لن أقول شيئا لزوجي، إنّه مريض فلا يجب أن أعذبه».

أدارت أريستيتزا رأسها. كان العجوز نائما على ظهره فراحت تنظر إليه من خلال دموعها وتفكر في ايون الذي كانت السلطة ورجال الدرك يعذبونه منذ خمس سنين في كل السجون ويعتبرونه يهوديا. غمغمت: «وهو ليس كذلك. فلو أنّه كان يهوديا لما كان سجن. مسكين ايون فهو ساذج يصدق كل ما يقوله الناس له ولو أنهم ضربوه ليعترف بأنه يهودي لاعترف ولنجم عن ذلك تصديق السلطة لاعترافه!».

لبثت أريستيتزا تنتحب بهدوء ورأسها بين يديها. ما كانت تستطيع السيطرة على مشاعرها فأرادت أن تقول لزوجها إنّ ولدهما قد طبعت صورته على إعلانات خضراء كإعلانات الانتخابات وإنّها ملصقة على باب مخفر الدرك. غير أنّها راحت تفكر: بأنها لن تحدثه عن هزال ايون وعن أنّه يشبه الكلب العقور لأنه سيغتمّ للخبر. غير أنني سأحدثه بأن الدركي قال لي: إن ايون يهودي».

هتفت أريستيتزا:

- ايانكو! استيقظ. إذا نمت طوال النهار فإنك لن تستطيع الاستراحة خلال الليل!

لم يجب العجوز. كان من عادته أن يخلد إلى الصمت كلّما أوقظ، لكنّه الآن غير نائم. إن عينيه مفتوحتان ولا شك أنّه يسمع كل ما يقال له غير أنّه لا يجيب لشدة كسله. قالت:

- ايانكو! لقد قال الدركي إنّك يهودي. أتظن أنّه كان شديد المكر. لقد أجبته الجواب الذي يستحقه.

خيل لأريستيتزا أن زوجها يبتسم: كانا كثيري التشاحن خلال حياتهما الزوجية التي تخطّت عامها الخامس والثلاثين. لكنّها كانت تشعر دائما بكثير من المودة نحوه. كانت تقرعه لأنه كان متناهي الطيبة، يغرر به من الجميع. لكنّها كانت تحبه رغم كل ذلك. كانت أريستيتزا تحب زوجها بكل ما في روحها من قوة.

قالت:

- إيانكو، إذا لم تشف حتّى صباح الغد سآتيك بطبيب من المدينة. سأبيع خنزيرا وأدفع من ثمنه أجرة الطبيب. أمّا إذا شفيت فسنشتري خنزيرا آخر. لكن ينبغي أن تشفى.

غير أنّ العجوز لم يجب بل ظلّ صامتا فاسترسلت أريستيتزا:

- افتح عينيك يا ايانكو سأعطيك لفافة. لقد احتفظت لك بواحدة.

ونهضت من مكانها ومضت إلى عمود في الركن أخرجت من تحته «سيجارة» كانت قد وضعتها جانبا من أجل زوجها وقالت تسأله:

- هل لديك أعواد ثقاب إلى جانبك؟

واقتربت من السرير واللفافة في يدها. كانت تريد أن تضعها بيدها بين شفتي زوجها كما جرت عادتها في أيام زواجهما الأولى. فقد كانت تعرف أنّه لن يفتح عينيه بل سيباعد بين شفتيه بما يكفي لإدخال طرف اللفافة. غير أنّ شفتي العجوز المتورّمتين لم تتحركا ذلك اليوم. بل لبثتا جامدتين حتّى بعد أن قربت أريستيتزا اللفافة منهما.

قالت المرأة:

- ماذا بك يا ايانكو؟

وأمسكت بكتفه تهزه.

شعرت أريستيتزا وهي تمسه بيدها ببرودة الجسد تسري إليها عبر القميص. لمست جبينه فكان الجبين مثلجا. كان العجوز قد قضى.

أخذت أريستيتزا تصرخ، ثم أرادت أن تفرّ هاربة من الغرفة. لكنّها نكصت على عقبيها وعادت قرب الميت. وبعود الثقاب الذي أرادت أن تشعل اللفافة به، أضاءت شمعة وضعتها على رأس السرير. كانت تبكي بكاء شديدا لأنها كانت تعلم أنّه لم يعد لديها أحد ليصغي إليها.

-89-

بكت أريستيتزا حتّى أنهكها البكاء وأرهقها الألم فخفّت حدّة تأوّهاتها وراحت تنتحب صامتة قرب الميت المسيحي، دون كلمات ولا ضجّة وكأنها تبكي في فكرها. غير أنّ ألمها لم يكن أخفّ وطأة.

ثم أجهد فكرها أيضا فكفت عن البكاء. كانت أريستيتزا في تلك اللحظة وحيدة مع نفسها. كانت وهي تبكي تشعر بوجود غامض إلى جانبها. أما الآن وقد كفت عن البكاء فقد ثقلت الوحدة عليها ورانت قوية مؤلمة فأرادت أن تعاود البكاء لتستأنس لكنّها أخفقت.

انتصبت واقفة وراحت تؤجّج النار ثم وضعت ماء في القدر لتهيئ الطعام كما كانت تفعل كلّ يوم ثمّ جذبت ستائر النوافذ. فلمّا انتهت من كلّ هذا أحسّت بالوحدة أكثر فأكثر. كانت ذاهلة متعبة. حدّقت في وجه الميت لأنها لم تكن تخاف الموتى. هي تعرف الآن أنّها ستنام وحيدة مع الميت في غرفة واحدة تلك اللّيلة والليالي الثلاث المقبلة حتّى يدفن وأنها ستبقى خلال هذه الفترة وحيدة مع ميتها في ذلك البيت.

تذكرت أريستيتزا أقوال الدركي: «لعل زوجك يهودي.»

كانت واقفة في منتصف الحجرة معقودة الذراعين على صدرها حائرة في أمرها.

راح الماء يغلي في القدر لكنّها لم تكن تشعر بالجوع. كان السرير غير منظم وفي وسعها الاستلقاء عليه. غير أنّ النعاس قد هجرها أيضا. كانت تريد أن تتحرك، أن تقوم بشيء مهما كلّف الأمر. هزّ الألم عقلها وجسمها وأثارهما، فما عادا يستطيعان السكون. ينبغي أن تتحرك. ثم إنّ الوحدة ما تزال هناك. فعادت من جديد تجذب الستائر بعد أن رفعتها واقتربت من الميت وهي تشعر وكأنّ الدركي منتصب بالقرب منها يقول لها «لعل زوجك يهودي!».

نظرت أريستيتزا إلى الميت ثم أزاحت الغطاء. كانت الجثة منتفخة. عبرت بنظرتها على القميص والسروال المصنوعين من الكتان الخشن لطالما غسلتهما بيديها وطوتهما بعناية، ثم حملت رباط السروال وأنزلته حتّى ركبتي الميت، وقد حال لون جسده إلى الزرقة.

هتفت أريستيتزا بصوت مرتفع:

- لماذا أخجل؟ إنّه زوجي.

تذكرت أيام شبابهما عندما كانت تراه عاريا تماما إلى جانبها. لقد صار جسد الرجل الآن بنفسجي اللون.

«لعلّ زوجك يهودي!» رنت هذه الجملة في أذني أريستيتزا من جديد

فراحت يدها تبحث عن أعضاء زوجها أسفل بطنه. لقد كانت هي الأخرى بنفسجية اللون كالجفنين والأنف والشفتين. سحبت أريستيتزا يدها وقد أجفلت ورفعت سراويل الميت بسرعة وأعادت عليه الغطاء ثم انتصبت واقفة ورسمت إشارة الصليب وهي تتمتم:

- أشكرك يا رباه لأنك أوقفتني في اللحظة المناسبة.

وعادت ترسم إشارة الصليب على صدرها وتقول:

- لو أنني نظرت إلى أعضائه الجنسية لاحترقت في الجحيم. لأن فعلتي كانت ستعتبر خطيئة قاتلة. إنّني لم أر شيئا. ولا أريد أن أرى أو أن أعرف إذا كان يهوديا. لا أرغب في ذلك!

نظرت أريستيتزا إلى الميت ثم قالت وهي تنتحب:

- اغفر لي يا ايانكو. أقسم لك أنني لم أر شيئا. وأنني ما كنت أريد رؤية شيء. إنك تعرف يا ايانكو أنني لم أنحدر في الخطيئة إلى هذا الحد، إنك تعرفني تماما لتتأكد من صحة قولي. لقد حشا الدركي والسلطة الخطيئة في رأسي فليحترق كلاهما في نار جهنم.

-90-

كان الجندي إيوهان موريتز يجتاز شوارع المدينة مرافقا خمسة مساجين. وكانت الساعة السابعة صباحا. فلما مرّ قرب بيته أطلت هيلدا من النافذة ولوّحت له بيدها. كانت تحمل بين يديها ولدهما فرانتز. سمع موريتز صوت هيلدا وهي تقول. «هذا أبوك أتعرفه؟ اُنظر. إنّه يلبس خوذة ويحمل بندقية.»

كان فرانتز في شهره الثالث وكان لا يستطيع رؤية موريتز وهو يحرس المساجين خلال شوارع المدينة متنكبا بندقيته. غير أن هيلدا كانت تريه كل يوم تلك اللوحة ليكون فخورا بأبيه كما تفخر هي به.

ظل إيوهان موريتز يفكّر في هيلدا وفي ابنه طوال الطريق.

بعد أن تجاوز السجناء المدينة قطعوا حقلا وموريتز في أعقابهم

صامت وبندقيته على كتفه. ثم اتجهوا نحو جسر فهبطوا تحته. كان هذا الجسر هو منطقة عمل أولئك السجناء. ولما بلغ السجناء الضفة التفتوا نحو موريتز وضحكوا مقهقهين. كانوا هنا بعيدين عن الأبصار والأسماع.

هتف أحد السجناء وهو يضغط على يد موريتز بصداقة وإخلاص:

- سالف سكلاف! هل نمت جيدا؟

كان ذلك السجين هو جوزيف.

أجاب موريتز بمثل ذلك النداء وراح يضغط على أيدي السجناء مصافحا بعد أن أسند بندقيته إلى صخرة ثم فتح أزرار معطفه وأخرج قطعة كبيرة من الخبز وخمس علب من «السجائر».

قال موريتز وهو يقدم «السجائر» إلى جوزيف:

- مازلت مدينا لك بخمسة عشر ماركا لأنني ما استطعت شراء الصابون. سأحاول الحصول عليه غدا. ثم أخرج من حقيبته العسكريّة رغيفا من الخبز أعطاه لجوزيف فجلس السجناء وراحوا يدخنون اللفافات يشاركهم موريتز في جلستهم. كانوا كل صباح منذ أن بدؤوا العمل في هذا الجسر، يجلسون كل يوم نصف ساعة تحت الجسر يستريحون ويضحكون ويتجاذبون الحديث مع موريتز بعيدا عن أعين الرقباء. ثمّ يشتغلون حتّى الظهر حيث يعاودون الاستراحة فيعطيهم موريتز الرسائل التي وردت إلى عنوانه باسمهم من فرنسا ويوزع عليهم «السجائر» والخبز وكل ما كان يشتريه لهم من المدينة. وبعد الاستراحة كانوا يعودون إلى العمل. وكان موريتز كثيرا ما يساعدهم في عملهم بنفسه. كان يقوم بالعمل سرا كي لا يُفتضح، لكنّه كان يشعر بلذة في القيام بذلك. وكان السجناء يحاولون منعه فيشفق عليهم. فقد كان السجناء الخمسة من المثقّفين لذلك كثيرا ما يحارون في إنجاز هذا العمل. وعندئذ كان موريتز يأخذ الرفش ويدلهم على الطريقة التي يتوجب عليهم اتباعها. فقد كان معتادا على هذا النوع من العمل.

قال جوزيف:

- جان أريد أن أناقشك اليوم في موضوع.

وقف السجناء الآخرون وشرعوا في العمل فكانت المعاول والمجاريف تضرب الصخر ضربات متزنة رتيبة.

قال جوزيف لما أضحى وحيدا مع موريتز:

- إننا سنلوذ بالفرار. ليس اليوم ولكن في أحد الأيام. سوف نفر نحن الخمسة معا.

نظر موريتز إلى الفرنسي. كان يظن أنّ جوزيف يمزح في قوله غير أنّ جوزيف لم يكن يمزح.

سأل موريتز:

- أية إساءة سببتها لك ولزملائك لتهربوا؟ هل تريدون أن أقضي ما بقي لي من عمر بين جدران السجون؟

كان موريتز ممتقع الوجه من الغضب. استرسل:

- إنك تعرف أنني لن أستطيع إطلاق النار عليك إذا فررت لأنني لا أريد أن أقتلك. وإذا لم أطلق النار عليك انتهى بي الحال إلى السجن. لكنني أعتقد بأنك تمزح.

أجاب جوزيف:

- كلا إنّني لا أمزح. ينبغي أن نفر. غير أنك لن تسجن. لم يكن موريتز راغبا في متابعة الإصغاء. قال:

- سأطلب إلى آمر السرية أن يبدل مركزي. لن أعود لحراستكم على هذا الجسر اعتبارا من صباح غد لأنكم عازمون على الفرار. إنّني لا أريد أن أقتل أحدا ولا أريد أن أسجن أيضا. لم أطلق النار على أحد في حياتي وقد مكثت سنين كافية في السجن. لن أحضر معكم بداية من الغد وباستطاعتكم إذا شئتم أن تفروا من حراسة سواي. إنّ ذلك شأنكم.

سأل جوزيف:

- لم لا تدعني أطلعك على خطتنا؟ ينبغي أن تفر معنا؟

فأجاب موريتز:

- لا مبرر لي على الفرار؟ إنّ لي ولدا وزوجة ولست سجينا. لو كنت سجينا لكان من الممكن أن أهرب.

قال جوزيف:

- لكنك سجين مثلنا يا عزيزي جان. إنك رفيق يحمل بندقية على كتفه بينما نحن أرقاء دون بنادق. إننا رغم ذلك من طراز واحد لذلك ينبغي لك أن تفرَّ معنا.

قال موريتز وهو يشعل «سيجارته»:

- لن أحضر معكم اعتبارا من الغد.

كان وجهه شديد الاحمرار من الغضب.

قال جوزيف يقنعه:

- لكننا نريد مصلحتك يا عزيزي. إنك تعرف بأن الحرب ستنتهي قريبا والحلفاء يقتربون. ألا ترى أنّهم إذا وجدوك في ثياب الحرس الألماني ذقت منهم ويلا جديدا؟ سيسجنونك لعشرين عاما.

فقال موريتز:

- لا تتفوّه بالحماقات. إذا وصل الحلفاء فلن يسيئوا إليّ لأنني لم أسئ إلى أحد. إن أجهزة الراديو تتحدث قائلة: إن الحلفاء أقوام عادلون.

- لكنك عدوهم يا جان. إنك عدو فرنسا وطني وعدو الأمم الحليفة.

قال إيوهان موريتز غاضبا:

- أنا عدو فرنسا؟ ألأنني عدو فرنسا أشتري لكم خبزا «وسجائر» وكل ما تريدون؟

طرح موريتز «سيجارته» على الأرض واسترسل بانفعال:

- ما كنت أعرف أنكم تعتبرونني عدوا لكم. كنت أظن أنني صديقكم.

قال جوزيف:

- إنك صديق الألمان تحارب من أجلهم. إنك من جنود هتلر فلا ينبغي أن تنسى ذلك.

سأل موريتز غاضبا:

- قل لي: عندما أحصل على زجاجة من الجعة هل أشربها مع الألمان أم معكم؟ هل أشربها في الثكنة أم هنا معكم تحت الجسر؟ أجبني؟ مع من أدخن التبغ الذي أملكه؟ هل أتحدث معكم عن كل ما في خاطري أم معهم هم؟ إنّني لم أتحدث أبدا إلى الألمان في الثكنة. إنّني أتحدث معكم وحدكم لأنني صديقكم. لكنكم تدّعون الآن بأنني عدوكم. لقد ذكرت لي منذ حين أنني صديق الألمان. هل رأيتني مرّة أتحدث معهم كما أتحدث إلى أصدقاء؟ لقد كنت صديقا لكم، لكم وحدكم!

كانت يدا موريتز ترتعدان كلّما رفعهما باللفافة إلى شفتيه:

استرسل قائلا:

- لقد قلت إنّ الحلفاء سيسجنونني عشرين عاما ولعل الفرنسيين أنفسهم هم الذين يتولون ذلك. أليس كذلك؟

فأجاب جوزيف:

- نعم. إذا دخل الجيش الفرنسي إلى هنا فسيسجنك الفرنسيون.

- حسنا. إذا كان الأمر كذلك فإن معناه أن كل عدالة على الأرض قد اختفت. وعندئذ لن آسف على شيء حتّى ولو رموني بالرصاص. إذ ما فائدة الحياة بعد زوال العدالة. ما فائدتها. إذا كنت أنت والآخرون تزعمون أنني عدوّ لكم. اعتبارا من الغد لن أرافقكم إلى الجسر. وإذا شئتم الفرار فذلك شأنكم. لن أتدخل في خطّتكم ولن أوقفكم. بل إنني إذا استطعت مساعدتكم فلن أتوانى عن مساعدتكم شريطة أن لا أعرض نفسي للخطر. إن مساعدة السجين على الفرار عمل طيب يسرني القيام به. لكنني لن أفر معكم. ولا أريد قضاء بقية عمري في سجن الأشغال الشاقة من أجلكم.

قال جوزيف:

- إن المسألة لا ينبغي أن تناقش من هذه الزاوية. نريد إنقاذك معنا وهذا هو عربون الصداقة. نريد أن نصحبك معنا إلى فرنسا.

قال موريتز:

- إن لي زوجة هنا وولدًا ولا أستطيع مرافقتكم.

- لن تمضي شهور قليلة حتّى يكون الحلفاء قد وصلوا إلى هنا. وعندئذ سنستقدم زوجتك إلى فرنسا. إن لي مزرعة في منطقة باريس وستبقى فيها. فأنت حرّاث لذلك فستعنى بها وستربح مالا وفيرا تستطيع به أن تشتري لنفسك مزرعة وبيتا. إن فرنسا جميلة وأهلها طيبون. ماذا تفعل في ألمانيا بعد الحرب؟ سوف نفرّ معا.

فقال موريتز:

- لن أفر.

قال جوزيف:

- سنترك لزوجتك مالا يكفيها ريثما نعود لأخذها معنا إلى فرنسا. لقد وفّرنا خمسة آلاف مارك حتّى اليوم ولن تنقضي أشهر معدودة حتّى نكون قد عدنا لأخذها. إن فرنسا ستعترف بجميلك إذا ساعدت خمسة من أبنائها على الفرار. ما جوابك على كل هذا؟

لم يجب إيوهان موريتز. كان طوال الوقت يفكّر في المزرعة التي سيحصل عليها في فرنسا. كان يحاول أن يتخيل الأرض التي سيشتريها هناك والبيت الذي سيشيده والحياة التي سوف يحياها مع هيلدا وفرانتز. كان يحدث نفسه بقوله: «سيكون لي أطفال آخرون. إنّني أتوق إلى ابنة أسمّيها أريستيتزا باسم أمي».

شعر موريتز بأنه يبتسم لمستقبله فاكتأب وجهه وتجهم وقال:

- لن أفرّ.

-91-

استقبلت هيلدا إيوهان موريتز على عتبة الباب. كانت مرتدية ثيابها مستعدة للذهاب إلى قاعة السينما.

ما كان موريتز يذكر أيّ فيلم كان يشاهد، لأن أفكاره كانت تنحدر نحو جهة أخرى. كان يتذكر فقط المناظر التي عرضت فيها المعارك الأخيرة على الجبهة: مصفحات محطمة وبيوتا محترقة ورجالا قتلى. كانوا قد عرضوا كذلك خارطة القتال فظهرت الجبهة قريبة من حدود الرايخ. لذلك فإن موريتز عند خروجه من القاعة لم يكن يحس برغبة في الحديث. وقبل أن ينام ألقى نظرة على ولده في السرير وأوى إلى فراشه. لكنّه ما كان يستطيع أن يغمض جفنه.

- هيلدا، ماذا سيحل بنا إذا هزمت ألمانيا؟

فأجابت:

- إن ألمانيا لن تهزم أبدا!

راح موريتز يفكّر في المعارك التي تدور رحاها على كل الجبهات والتي شاهد عرضا عنها منذ حين في قاعة السينما ثم انتقل بتفكيره إلى خارطة الجبهات التي عرضت وأخيرا إلى جوزيف ومنه إلى الطفل الذي في السرير وقال:

- إنّني أعرف يا هيلدا أن ألمانيا ستخسر الحرب. لكني لا أعرف ماذا سيحل بنا. إنّني واثق من أنهم سيسجنونني. فكيف تستطيعن الحياة أنت والطفل؟

أجابت هيلدا:

- سننتصر أو نفنى حتّى آخر رجل. إن أي ألماني لن يقبل العيش في ألمانيا محتلة!

سأل موريتز:

- وإذا لم نمت؟

- سنموت ونحن نحارب! إن من لا يموت أثناء المعركة عليه أن ينتحر في اللحظة التي يدرك فيها أنّ كلّ شيء قد أفلت من يديه.

قال موريتز:

- هذا حال الرجال ولكن ماذا ستفعل النساء؟

- إن النساء سيحذين حذو الرجال وسأكون أوّل من تنتحر مع ابنها إذا خسرنا الحرب. لن أعيش يوما واحدا بعد الهزيمة. غير أن ألمانيا لن تخسر الحرب. إنها لن تهزم أبدا! كيف استطعت التفكير لحظة واحدة في هذا المصير؟ والآن عم مساء!

ورفعت هيلدا الغطاء إلى ما فوق رأسها.

راح إيوهان موريتز يفكّر في هيلدا وفي فرانتز. رآهما يموتان. كان يحلم طيلة اللّيل بأن الحلفاء دخلوا ألمانيا وأنهم كانوا أمام بيته بوحداتهم المصفحة وأن هيلدا أخذت بندقيته فأطلقت منها الرصاص على فرانتز في سريره ثم قتلت نفسها. فاستيقظ سابحا في العرق وهو يصيح في نومه. تسلل من السرير بهدوء متحاشيا إيقاظ هيلدا وارتدى ثيابه ومضى إلى الثكنة. لم يطلب إلى رئيسه إبدال مركز خدمته كما كان مصمما أمس، مع ذلك، فإن الفرنسيين لم يدهشوا عندما رأوه معهم بل غمرت الغبطة نفوسهم. كانوا يخافون من تخلف موريتز عن حراستهم في العمل. ولما بلغوا الجسر هتف جويزف كعادته:

- سالف سكلاف! هل نمت جيدا؟

تذكر إيوهان موريتز أحلام ليلة أمس، وتحديدا ذلك الحلم الذي رأى فيه زوجته هيلدا تقتل ابنه وتنتحر فقال:

- هل تقسم لي يا جوزيف بأنك ستنقل زوجتي وابني إلى فرنسا إذا خسر الألمان الحرب؟

- نقسم لك على أننا سننفذ ذلك منذ أن تصل القوات الحليفة إلى هنا.

طرح إيوهان موريتز سلاحه جانبا وراح يقص على الفرنسيين المناقشة التي دارت بينه وبين زوجته عند أوبتهما إلى البيت وأردف:

- وماذا تفعلون إذا تأخرتم في الوصول، بعد أن تكون قتلت ابني وانتحرت.

فوعده الفرنسيون بأنهم سيكونون مع الصفوف الحليفة الأولى التي ستدخل ألمانيا. فامتلأت عينا موريتز بالدموع وقال:

- إذا كنتم تعدونني بذلك فسأفرّ معكم. متى ينبغي أن ننفذ عزمنا؟

فأجاب جوزيف:

- غدا صباحا. سنأتي إلى عملنا كالمعتاد غير أننا لن نعود إلى المعسكر. إنك تقوم بعمل مشرف لفرنسا ولن تنسى لك فرنسا هذا الجميل.

قال موريتز:

- إنّني لا أقدّم شيئا لفرنسا! إنّني أعرف هيلدا تمام المعرفة. إنها تنفذ وعدها دائما. فإذا لم نصل في الوقت المناسب قتلت نفسها فورا. إنّ لها قلبا كالجلمود.

صمت برهة مفكرا واسترسل:

- كيف اعتقدت بأنني أفرّ من أجل فرنسا؟ لقد تعلمتَ كثيرا وقرأت كثيرا فينبغي أن تفهم. أنا لا أعرف ما هي فرنسا. إذ ما الذي يجمع بيني وبينها؟ كلّ ما أعرفه هو أن لي ولدا وزوجة حياتهما في خطر. ومن أجلهما أفرّ معكم!

-92-

رسالة من ترين كوروغا إلى أبيه:

«أبي، أكتب إليك من البريد الدبلوماسي وأرجوك أن تبعث إلي بالجواب دون أيّ إبطاء. إنّني أخاف أن يكون قد أصابك مكروه. يمكنك أن تسخر من ذعري القاتل. لك أن تتهمني بالهستيريا. لكنني أتوسل

إليك أن تجيبني فورا. أريد أن أعرف إذا كنت لازلت على قيد الحياة.

روايتي الجديدة تتقدم في طريق نهايتها. لقد وصلت إلى الفصل الرابع، إلى الساعة الثالثة بعد موت الأرانب البيضاء. إن العبيد التقنيين يدمرون كل شيء على طريقهم والأنوار تُطفأ بعضُها إثر بعضٍ والرجال هائمون في ظلمة قريبة من ظلمة الموت.

نقبلك كما نقبل أمي. —تريان ونورا-.»

الباب الرابع
القسم الرابع

-93-

أجاب الكاهن كوورغا على رسالة تريان دون إبطاء فأعلمه بأنه وزوجته في صحة جيدة وأن فانتانا مازالت كما كانت عليه من قبل باستثناء إيوهان موريتز الذي لم يعد إلى منزله ولا يعرف أحد عنه شيئا.

دخل قاضي التحقيق جورج داميان إلى باحة دار الكاهن في اللّحظة التي كان هذا يعيد قراءة الرسالة. جاء يقضي يومين في الريف مع الكاهن. تلك كانت عادة درج عليها لا يخطئها إلاّ أسابيع نادرة، فمضى الرجلان يُودعان الرسالةَ في البريد.

قال الكاهن وهو يطلع داميان على الرسالة التي تلقاها:

- إن تريان شديد القلق من أجلنا.

قرأ قاضي التحقيق الرسالة وهو يبتسم وأعقب:

- إن تريان شاعر. إنّه يبالغ دائما وأعتقد أنّه متعب مرهق الأعصاب.

كان عدد كبير من الناس مجتمعا في فناء البلدية.ولم تكن عربة البريد قد تحركت بعد فأراد الكاهن إعطاء الرسالة إلى الساعي غير أنّه رفض أخذها قائلا:

- إننا لا نقبل رسائل إلى الخارج بدءا من اليوم. فقد استسلمت رومانيا اليوم في الساعة السادسة وسيحتل الروس البلاد. ألم تسمع بخطاب الملك في الراديو؟

فوضع الكاهن كوروغا الرسالة في جيبه.

-94-

اجتمع القرويون ذلك المساء في فناء دار الكاهن ألكسندرو كوروغا. جاءوا يسألونه النصح. فقد دخل الروس مدينة مجاورة نفر سكانها إلى الأرياف مذعورين وهم يروون الفظاعات التي يرتكبها المحتلون: لقد

استحيوا النساء وشنقوهنّ وأطلقوا الرصاص على الرجال في الشوارع.

خرج الكاهن كوروغا إلى شرفة منزله وكان القرويون متجهمي الأسارير صامتين فقال لهم:

- إن رجالا آخرين يديرون البلاد. وهم ليسوا أسوأ من أسلافهم الأُول لأنهم غرباء. غير أن المؤمنين بمسيحيتهم يعرفون أن كل سيطرة على عالمنا الأرضي صعبة الاحتمال. إنّ الملكوت الحقيقي هو ملكوت السماء.

سأل قروي شاب:

- هل يجب علينا الالتجاء إلى الغابة ومتابعة النضال ضد المحتلين؟ بماذا تشير علينا أن نعمل؟

- إن الكنيسة لا تستطيع دفع المسيحيين للقتال من أجل الحصول على سلطة زمنية.

فسأل القروي مستزيدا:

- هل تنصحنا الكنيسة بمد أيدينا لتُلفّ حولها السلاسل؟ هل تريد الكنيسة أن نلبث مكتوفي الأيدي بينما تُغتصب نساؤنا وتُحرق دورنا! إن الكنيسة لا يمكنها أن تطلب منا ذلك. وإذا أوجبت الكنيسة هذا التصرف فإننا لن نكون بعد اليوم مع الكنيسة!

أيّد القرويون الشبّان وجهة نظر زميلهم بينما لبث الكاهن كوروغا شديد الهدوء. قال مجيبا:

- لقد علّم يسوع المسيحيين الخضوع للسيطرة الزمنية. لعلّكم تقولون إنّ السيادة الحالية في رومانيا سيادة أجنبية قاسية كافرة. أعرف ذلك. غير أنّ أولئك الذين كانوا يهيمنون على الأرض التي ولد فيها يسوع المسيح كانوا كذلك غرباء قساة وملحدين. فكروا في ألوف الأطفال الذين ذبحوا في بلاد اليهود بأمر الملك هيرودت عقب ولادة المسيح. لقد كانت السلطة وحشية باغية ولعلّها كانت تساوي في البغي والطغيان سيطرة الشيوعيين وحكمهم. غير أنّ يسوع لم يشر ولم يدفع أحدا إلى الثورة. لقد قال:

«أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله».

سأل القروي الشاب:

- وأنت يا أبانا، هل ستصلّي في الكنيسة من أجل ستالين إذن؟ إذا كنت ستبتهل من أجل ستالين في الكنيسة فذلك يعني أنّك ستصلّي من أجل الدجّال. ونحن لن نطأ بأقدامنا أرض الكنيسة!

- إذا أمر محتلّو البلد المسيطرون عليه أن أصلي من أجل ستالين كما صليت حتّى الآن من أجل الملك فإنّني سأخضع وأمتثل. إنّني أعرف أن «ستالين» ملحد كافر غير أن الكفرة ليسوا إلاّ آدميين. فإذا كانت نفوسهم محمّلة بالخطايا فذلك لأنهم تاهوا بعيدا عن حظيرة المسيح. والكاهن ينبغي أن يصلي من أجل كلّ البشر وخصوصا من أجل النفوس الخاطئة.

قال الفلاح الشاب:

- باستطاعتك أنت أن تصلي من أجل ستالين أما نحن فإننا لن نطأ بعد اليوم أرض الكنيسة.

وأعقب صوت عامر بالحقد:

- وإذا أوينا إلى الغابة لنكافح ضد البلشفية من أجل حريتنا، هل ستصلي أيام الآحاد في الكنيسة من أجلنا أيضا؟

- إن الكاهن يصلي كذلك من أجل أولئك الذين يناضلون في الغابات والجبال ليس أيام الآحاد فحسب بل مرتين كل يوم. فحياة أولئك المكافحين في خطر دائم وهم في حاجة إلى صلوات الكاهن ورحمة العذراء.

ران الصمت على الحشد وفجأة قال آبوستول فازيل:

- إذا صليت مرّة من أجلنا أعدموك رميا بالرصاص!

- إن هذا ليس سببا وجيها لأكف عن الصلاة من أجلكم. إن الموت لم يرهب قط مسيحيا.

قال أبوستول:

- إننا سنمضي إلى الغابة. ونرجوك قبل ذهابنا أن تباركنا وأن

تستمع إلى اعترافاتنا. فنحن لا نعرف ما سيقع ولا ندري إن كنا سنعود. إننا سنناضل من أجل الصليب والكنيسة.

فقال الكاهن:

إذا أردتم النضال من أجل الصليب والكنيسة مستعملين السيف فإنكم تنساقون في طريق الخطيئة ومن الخير لكم أن تمكثوا في بيوتكم. إن الكنيسة والإيمان المسيحي لا يتطلبان للدفاع عنهما نضالا مسلحا.

قال آبوستول فازيل:

- سنناضل من أجل رومانيا التي هي بلد مسيحي.

ثم نظّم الفلاحين فرقا صغيرة بعد أن أجمعت كلمتهم على اللجوء إلى الغابة. وكانوا خيرة شباب القرية.

كان بينهم عدد من النساء وصبية كانوا طلابا في المدرسة.

جثوا جميعا على الحشائش في الفناء!

تلا عليهم الكاهن كوروغا صلاة ثم راح يباركهم تباعا. فقال قاضي التحقيق جورج داميان:

- أرجوك يا أبي أن تباركني أنا الآخر!

وجثا أمام القسيس وهو يقول:

- سأنسحب معهم إلى الغابة وأقاتل من أجل حرية الإنسان والإنسانيّة!

فقال الكاهن:

- إن الكنيسة تقدم بركاتها إلى كل من يطلبها.

سأل القاضي:

- هل تبارك الكنيسة أولئك الذين يرتكبون إثما أم إنك قانع من عدالة قضيّتنا؟

فقال الكاهن:

- أحِبَّ واعمل ما تريد. فإذا كان عملك يا سيدي القاضي ناشئا عن بواعث مخلصة فلا تخش من الخطيئة لأنك تكون عندئذ في الطريق القويم.

قبّل قاضي التحقيق يد الكاهن ألكسندرو كوروغا كما فعل القرويون وخرج مع الجماعات المنظّمة في طريقهم إلى الغابة.

وفي البيت، كانت زوجة الكاهن تبكي.

-95-

مضت ساعتان على ذهاب القرويين. والكاهن يحاول القراءة ليبدد قلقه. وفي تلك اللحظة دخل المكتبة قرويّان غريبان عن القرية، دون أن يقرعا الباب. كانا يربطان على سواعدهما أشرطة ثلاثيّة الألوان ويحملان المسدسات. فاستقبلهما الكاهن باسما متجاهلا رؤية الأسلحة.

قال الكاهن بصوت مرتفع ليتأكد من أن زوجته قد سمعت قوله في الغرفة المجاورة.

- يخيّل إلي أنهم يدعونني إلى دار البلدية.

كان يتحاشى بث الخوف في نفس زوجته.

قال أحد القرويين بصوت مرتفع:

- لقد تلقّينا أمر سوقك لتمثل أمام محكمة الشعب!

ألقى الكاهن نظرة إلى حيث كانت زوجته في الغرفة المجاورة وابتهل في سرّه أن لا تكون قد سمعت عبارة القروي. ثم وضع الكتاب على الأريكة وخرج.

وقبل أن يغادر الفناء، ألقى نظرة إلى الوراء.. كانت نظرة وداع.

رافقه القرويان وهما سائران إلى جانبيه فاجتاز العتبة مرفوع الرأس. ما كان يمشي كالمساجين. كان يبدو كمن يلامس جبينه السماء.

مشى هكذا في أزقة القرية وطرقاتها، من بيته حتّى دار البلدية... !

-96-

كانت «محكمة الشعب» تشغل قاعة البلدية الكبرى وكان ماركو غولدنبرغ يرأسها وهو جالس على مقعد وثير.

كان شعر ماركو غولدنبرغ محلوقا ككلّ المحكومين بالأشغال الشاقة.

وقد حرّره الروس قبل أيام قليلة من السجن الذي كان يقضي فيه عقوبته تكفيرا عن قتله «لانجييل».

كان إلى يمينه وراء مكتب رئيس البلدية أريستيتزا أم إيوهان موريتز. لقد انتخبها ماركو غولدنبرغ لتكون قاضية لأنها كانت أفقر «المواطنين» في فانتانا. وإلى يساره كان ايون كالوغارو الذي قتل دركيّا منذ سنين بضربات من فأسه، وقد رفعته فعلته هذه إلى هذا المركز.

حياهم الكاهن كوروغا فحدجه ماركو غولدنبرغ بنظرة قاسية. لكنّه لم يجب على تحيته.

وخفض ايون كالوغارو وأريستيتزا بَصَريْهما متشاغلين عن رؤيته. لقد أصدرا حكمهما على آخرين قبل وصول القس. أما في تلك اللحظة فقد كانت قاعة البلدية خالية، إلاّ من القضاة الثلاثة والقرويّيْن المسلحيْن.

سأل ماركو غولدنبرغ الكاهن عن اسمه وسنه وصنعته. فلما أجاب قال غولدنبرغ:

- إن الكهانة ليست مهنة!. إنّ الحذّاء يصنع الأحذية، ويخيط الخيّاط الألبسة، كلّ شغيل ينتج شيئا فهل يمكنك أن تخبرني ماذا ينتج القس؟

أشاح ايون كالوغارو وأريستيتزا ببصريهما عن القس وأطرقا إلى الأرض بينما راح القرويّان المسلحّان يضحكان من وراء ظهره.

- أترى ليست لك مهنة؟ وإنها لجريمة أن يكون المرء غير ممتهن. لقد عشت إذن عالة على أكتاف الشغيلة.

كان وجه ماركو غولدنبرغ شاحبا كالليمون وشفتاه رقيقتين بنفسجيتي اللون. تذكّر الكاهن أنّ أبا غولدنبرغ العجوز كانت له مثل تينك الشفتين الرقيقتين البنفسجيتين لكنهما كانتا تنفرجان بابتسامة. أما شفتا ماركو فكانتا متقلصتين.

سأل غولدنبرغ:

- أتدري لماذا استدعيت أمام محكمة الشعب؟

أجاب الكاهن:

- كلاّ.

صرخ ماركو محنقًا:

- إنّه جواب المعارضين المثاليّ! فالمُعارض يزعم دائما أنّه يجهل السبب الذي من أجله يحاكم. هل تعترف أنّك نظّمت العصابات الفاشية التي أوت إلى الغابات؟

- لم أنظّم عصابات. غير أنّني أعترف بتلاوتي الصلوات في فناء منزلي من أجل شباب القرية الذين طلبوا مني الابتهال من أجلهم.

سأل غولدنبرغ:

- وتقول مع ذلك إنّها ليست عصابة فاشية؟ لماذا صلّيت من أجلهم إذا لم تكن راعي أولئك الجناة؟

قال الكاهن:

- إنّني أعرف أن الشبان الّذين صلّيت من أجلهم يجتازون الآن حقبة عصيبة. لقد ابتهلت إلى العذراء أن تساعدهم وتهديهم طريق الحقيقة والعدالة.

قال ماركو غولدنبرغ:

- إنّ محكمة الشعب تحكم عليك بالموت شنقا! إنك متهم بتنظيم عصيان مسلّح ضدّ النظام العام. وقد صحّت التهمة!

رفع ايون كالوغارو وأريستيتزا عيونهما مذعورين وراحا ينظران إلى ماركو.

كان غولدنبرغ يكتب دون أن يعيرهما انتباها.

حوّل ايون كالوغارو وأريستيتزا عيونهما إلى القس فابتسم الكاهن كوروغا لهما بعذوبة.

وقال ماركو:

- سينفّذ الحكم فجر غد أمام الشعب! رُفعت الجلسة.

-97-

اقتاد القرويان المسلّحان الكاهن كوروغا وسجناه في إصطبل البلديّة رفقة جورج داميان الذي لم يستطع بلوغ الغابة ورئيس مخفر درك فانتانا وفازيل أبوستول وثمانية من القرويين الأكثر ثراء في القرية. لقد كانوا جميعا محكومين بالإعدام شنقا وسينفّذ الحكم فجر غد لأن محكمة الشعب قرّرت أن يكون الأمر كذلك.

غير أن السجناء أُخرجوا خلال اللّيل الواحد تلو الآخر وأُعدموا رميا بالرصاص أمام حفرة مجاري القرية لأن ماركو غولدنبرغ تلقّى أمرا بعدم تنفيذ أحكام الإعدام جهارا تحاشيا لإثارة غليان في الرأي العام ضدّ الجيش الأحمر. لذلك فقد قتل السجناء بيده بإطلاق رصاصة على مؤخرة رأس كلّ منهم.

-98-

بعد منتصف تلك اللّيلة سمعت أريستيتزا قرعا على زجاج النافذة. كان الطارق سوزانا زوجة إيوهان موريتز.

خيّل لأريستيتزا وهي تسمع تأوّهات المرأة وتحسّرها أنّ الروس قد دخلوا القرية وأنهم استحيوها، فنهضت ساخطة. كانت تعرف أن فصيلة من الجنود الروس ستمرّ بالقرية وأن من عادة الجنود استباحة النساء. لكنّها ما كانت تحتمل أن تكون كنّتها أولى النساء اللواتي يعتدى على عفافهنّ، كنّتها هي، المواطنة القاضية في محكمة الشعب!

سألت أريستيتزا وهي تفتح لها الباب:

- ماذا جرى؟

قالت سوزانا:

- لقد أعدم الكاهن كوروغا رميا بالرصاص.

قالت أريستيتزا:

- هذا غير صحيح! إن غولدنبرغ يريد شنقه صباح غد في فناء

الكنيسة. غير أنّه لن يستطيع تنفيذ هذا الحكم. إنّني أنا الأخرى قاضية! ليس وحده قاضي القرية. ولسوف نعيد النظر غدا في قضية الكاهن وسنطلق سراحه. لقد تحدّثت في ذلك إلى كالوغارو فاذهبي إلى زوجة القسّ وطمئنيها حتّى تنام مطمئنة.

قالت سوزانا:

- إن الكاهن كوروغا قد مات! لقد شاهده عدد من الرجال عندما أُطلق عليه الرصاص وحدّثوني بذلك.

كانت أريستيتزا لا تستطيع تصديق ذلك الخبر فاتجهت مع سوزانا إلى دار البلدية دون أن تعود إلى غرفتها. ولم تكن مرتدية إلاّ جلباب النوم. كانت اللّيلة مضيئة والمرأتان تمشيان وسط الطريق دون أن تتفوها بكلمة. كانت سوزانا تبكي بهدوء وتمسح عينيها بين الحين والحين بذيل ثوبها أمّا أريستيتزا فقد كانت حانقة تتنفس بصعوبة. استدارت نحو زوجة ابنها عدّة مرات خلال الطريق وهتفت بها صاخبة:

- أتنامين وأنت تمشين؟ ما الذي يسيل في عروقك؟ أهو دم أم حليب؟

كانت سوزانا تحثّ الخطى وهي تفكّر في أن إسراعها عبث لأن الكاهن قد مات ولن يستطيع أحد أن يعيد إليه الحياة.

كانت الأنوار مضاءة في بناء البلدية. ولكن لم يكن فيها أحد.

قالت أريستيتزا:

- هيا بنا إلى الإصطبل. إنّني قاضية ولي الحق في السؤال وفي معرفة كلّ ما حصل.

كان الظلام مخيّما على الزريبة والباب موصدا. غير أنّ الرتاج لم يكن مدفوعا وراءه. فلمّا دخلت أريستيتزا شعرت بالخوف. فقالت تسأل سوزانا:

- هل معك عود ثقاب؟

- كلاّ يا أمّاه.

فهتفت أريستيتزا حانقة:

- إنك لا تملكين شيئا أبدا حتّى أنّك عندما تزوّجت كنت خالية الوفاض. كان عليك أن تجدي معتوها كابني ليتزوجك كما كنت.

لم تغضب سوزانا لأنها كانت تعرف أن نقمة أريسيتتزا لم تكن موجهة إليها. كانت أريسيتيتزا تخاف ثبوت موت القس لذلك كانت تزجرها.

هتفت أريستيتزا وهي واقفة أمام باب الاصطبل.

- هل من أحد هنا؟

قالت سوزانا:

- لا أحد هنا يا أماه. إن ماركو قد ساق كلّ الذين كانوا هنا وقتلهم رميا بالرصاص قرب حفرة أقذار القرية.

صرخت أريسيتيتزا:

- هل تحلمين؟ كيف يستطيع قتلهم دون إعلامنا نحن القضاة؟

صمتت سوزانا وراحت المرأتان تبحثان في الفناء في ذلك الظلام عن أجساد القتلى.

قالت أريستيتزا:

- لا أحد هنا، لقد قلت لك إنّك تحلمين، لعلّهم نقلوهم إلى سجن آخر فانتهز المعارضون في القرية هذه الفرصة ليشيعوا أنّ ماركو أعدمهم رميا بالرصاص.

ابتعدت سوزانا عن أريستيتزا وراحت تبحث بعناية عن الفناء حول حفرة القاذورات. لقد روى لها الفلاحون الذين شهدوا الحادث أن ماركو غولدنبرغ أخرج السجناء من الإصطبل واحدا واحدا وأيديهم معقودة إلى الوراء بوثاق متين وأنه أطلق عليهم الرصاص من الخلف.

قالت أريستيتزا:

- هيا بنا نبحث عن غولدنبرغ:

أطلقت سوزانا صرخة وتهاوت على الأعشاب فهرعت أريستيتزا إليها

غاضبة حدّ الحنق:

- ماذا دهاك أيتها المغفّلة؟ هل رأيت ظلّك فارتميت عليه؟

غير أن الكلمات توقفت في حنجرتها. فقد رأت إلى جانب سوزانا على حافة حفرة الأقذار أجسادا ممدودة على العشب.

رأت أريستيتزا بادئ الأمر جثّة رجل يرتدي قميصا أبيض كانت مسجّاة قرب أقدام سوزانا، ثمّ جثّة سوداء على بعد خطوات من الأولى وثالثة ورابعة، فرسمت على صدرها إشارة الصليب لتبعث الشجاعة في نفسها وقالت آمرة:

- انهضي، إنّني بحاجة إليك.

كانت أريستيتزا لا تخاف الموتى غير أنّها في تلك اللحظة ما كانت تريد البقاء وحدها.

نهضت سوزانا وهي ترتعد فقبضت أريستيتزا على يدها وراحتا تبحثان بين الجثث وتنحنيان فوق كل واحدة منها، وتتفحصان الوجوه بعناية للتعرّف على أصحابها. كان هناك تسع جثث على حافة الحفرة، وثلاثة بداخلها.

انحنت أريستيتزا تتأمل إحدى الجثث وقالت:

- إنّه نيكولاي جيوبوتارو رئيس البلدية السابق!

جثت على ركبتيها وأدنت أذنها من صدر الجثة تتحسس ضربات قلبه ثم نهضت وهي تقول:

- ميت!

ومضت إلى جثة أخرى تنحني فوقها من جديد.

قالت أريستيتزا:

- ما زالت الجثة دافئة غير أنّ القلب ميت. إنّه كونستانتنان سالومون ليرحمهم الله. لقد سألني الزواج منه عندما كنت شابة.

ولكي تبعد الألم عن نفسها صرخت في وجه سوزانا غاضبة:

- ابحثي أنت الأخرى عمّا إذا كان هناك بعض الأحياء! لماذا تمكثين هكذا باكية كالحمقاء؟

قالت سوزانا:

- لا أستطيع يا أمّاه، إنّني خائفة.

- ولمَ تخافين؟ ضعي أذنك على كلّ صدر واكتمي أنفاسك لحظة وأصغي إلى ضربات القلب. فإذا كان ساكتا، اطلبي إلى الله أن يرحم الميت وارسمي على صدرك إشارة الصليب. أما إذا كان القلب ما يزال خافقا فإننا عندئذ سنعمل شيئا آخر غير رسم إشارة الصليب. هل فهمت؟

فأجابت سوزانا:

- لقد فهمت ولكني خائفة!

صرخت أريستيتزا مهتاجة:

- أيتها الحمقاء المغفّلة! كيف تزوّج ابني بك!

كانت أريستيتزا في تلك اللحظة منحنية على جثة أخرى. قالت:

- إنّ هذه جثّة قاضي التحقيق الشاب الذي كان يأتي كلّ أسبوع لزيارة كوروغا. لقد كان صديق السيد تريان وكان شابا ممتازا.

أزاحت أريستيتزا سترة القاضي وأصغت برهة ثم نهضت وقالت:

- ليرحمه الله! إنّه ميت هو الآخر. لعلّ للمسكين زوجة وأطفالا ينتظرونه في البيت.

كانت أريستيتزا قد نسيت تقريبا وجود سوزانا بقربها إذ أنّها عثرت في تلك اللحظة على جثة الكاهن كوروغا وانحنت على صدره باحترام وتقوى فأزاحت ثوبه الكهنوتي وألصقت أذنها على صدره. وقالت بصوت منخفض:

- إن الكاهن لم يمت بعد يا ابنتي.

ازداد نحيب سوزانا وبكاؤها لدى سماعها بأنّ الكاهن ما يزال على

قيد الحياة. فقالت أريسيتيتزا:

- أمجنونة أنت؟ أتبكين بدلا من أن تسرّي وتسعدي؟ تعالي قربه وأصغي إلى ضربات قلبه الرتيبة.

ركعت سوزانا أمام القس لكنّها لم تنحن للإصغاء إلى ضربات قلبه. أخذت أريستيتزا يد الكاهن بين يديها وقالت:

- إنّه ما يزال دافئا. انظري كم هو دافئ يا ابنتي.

كانت أذنا أريستيتزا ويداها تحاول لمس الحياة التي يختلج بها جسد الكاهن بدقة أكثر. لكن حواسّها لم تلتقط شيئا جديدا عن حياة الرجل الممدد بالقرب منها أكثر من حرارة يده ووجنتيه وضربات قلبه:

- هذه إذن هي الحياة: وجيب خفيف في القلب وقليل من الحرارة التي تنتشر في أطراف الجسد.

كانت أريستيتزا تعتقد أن ذلك شيء ضئيل تافه.

قالت:

- إذا كانت حياة البشر هي هذه الدلائل فإنها في الحقيقة من أتفه الأمور.

كان السكون مخيما على الفناء حول المرأتين.

أردفت أريستيتزا:

- إن رائحة البخور والريحان تفوح منه. إن جسد الكاهن يشبه الكنيسة لشدة ما تفوح منه رائحة طيبة. إنّه كالكنيسة الحقيقية.

كانت الروح قد فارقت أجساد كل السجناء باستثناء الكاهن. وكانت بعض الجثث لا تزال دافئة لأن أصحابها لم يموتوا بل تألموا وقتا طويلا. وكان باديا على جثثهم أنهم تدحرجوا وتقلبوا على الحشائش طويلا قبل أن يسلموا الروح. وكانت بعض الجثث باردة ما يدل على أن أصحابها فارقوا الحياة فور اختراق الرصاصة أجسادهم.

مسحت أريستيتزا يديها بثوبها للمرة الخامسة أو السادسة دون أن

تدرك سببا لتلك الحركة وكانت ركبتاها قد ابتلتا لكثرة ما جثت عليهما. قالت:

- لعلني وطأت دماءهم. لقد غمّست في هذه الظلمة قدمي ويدي في دمائهم. وإنها لخطيئة كبرى أن يطأ المرء بأقدامه دماء الإنسان. غير أن الله سيغفر لي لأنني ما فعلت ذلك إلاّ بسبب الظلام.

وبينما هبطت أريسيتيتزا إلى حفرة الأقذار لتفحص الجثث الأخرى كانت سوزانا تدلك جبين القس.

سألت أريسيتيتزا وهي تخرج من الحفرة وتمسح يديها بأطراف ثوبها من جديد:

- أين الجرح؟

- لست أدري يا أماه.

إنك لا تدرين شيئا. ينبغي أن نضع شيئا فوق الجرح فورا وإلا فإن الدم كله سيغادر الجسد كما تغادره الروح.

وجدت أريستيتزا بقعة مغرقة بالدم. كان الكاهن مصابا في ظهره في أعلى الكتف اليمنى.

هتفت أريستيتزا آمرة:

- اعطني خرقا لأضعها على الجرح وأسرعي.

راحت سوزانا تتساءل من أين تأتي بالخرق فنفد صبر أريسيتيتزا ورفعت ثوبها بحثا عن قميصها لتنتزع منه قطعة. راحت يداها تبحثان عبثا عن القميص وهما تتقلّصان بين ثوبها وجلدها. فرفعت الثوب إلى أعلى صدرها وقالت مغتاضة.

- أي شيطان ذهب بالقميص؟ أين هو؟

تذكرت أنّها صباح أمس لما دعيت على عجل إلى محكمة الشعب فاتها أن تلبس قميصها تحت ثوبها. قالت:

- إنّني ألبس ثوبي دون قميص تحته.

أخذت أريستيتزا الكاهن بين ذراعيها وفكّت أزرار ثوبه الكهنوتي فكشفت عن كتفه حيث موضع الجرح وخاطبت سوزانا آمرة:

- اعطني قميصك يا سوزانا.

وراحت تمسح الدماء عن الجرح بيديها وتقول:

- ما أطيب أريج الريحان والبخور. إنّ جسده يتضوّع بشذى عطريّ كالكنيسة.

التفتت أريستيتزا نحو سوزانا التي كانت قد فرغت من نزع ثوبها وراحت تنزع قميصها وهي عارية تماما فصرخت فيها:

- أمجنونة أنت يا ابنتي؟ ألا تخجلين من المثول عارية تماما في حضرة الكاهن والأموات!

سألت سوزانا:

- كيف تريدين مني أن أقدم لك قميصي دون أنزع ثوبي أولا؟

فقالت أريستيتزا دون أن تصغي إليها:

- يا لك من قذرة! إنك تُظهرين عريك أمام الكاهن والأموات.

وبصقت على الأرض.

-99-

توقفت أريستيتزا وسوزانا قرب حقل من الذرة ووضعتا جسد الكاهن على الحشائش بعد أن نقلتاه من الإصطبل حتّى ذلك المكان ملفوفا بكسوته الكهنوتية وكأنه لُفّ في الأكفان. بدأتا الطريق بأن أسجتا الجسد على الثوب الكهنوتي وحملت كل منهما جانبا من الثوب أشبه بالنقالة، فسبحتا في العرق وأعياهما الحمل. وكانت أريستيتزا كلّما وضعتا حملهما على الأرض تنحني على الكاهن تتلمس بوادر الحياة فيه وتعود مع سوزانا إلى نقله. فلما أعياهما التعب عزفتا عن نقل الكاهن على طريقة النقالة واكتفتا بأن راحتا تجرانه جرا بعد أن حزمتا جسده في ثوبه.

قالت أريستيتزا:

- عسى أن يشاء الله فلا يميته على الطريق. لنسرع ولسوف نجد متسعا من وقتنا للاستراحة. إن لدينا الغد وما بعده والأيام التي تليه.

خافت أريستيتزا أن تنقل الكاهن إلى منزلها فيكشف الشيوعيون عن مكانه فكانت تقول في نفسها: «إذا استطعنا إنقاذه في المرة الأولى فإنه لن يفلت في المرة الثانية.» لذلك قررت نقله إلى الغابة، حيث يختبئ الفتيان «لأنهم سيعالجونه إلى أن يشفى دون أن يستطيع الشيوعيون اكتشاف مكانه في الغابة».

قالت سوزانا:

- إن موظف الصحّة قد رافقهم حاملا معه صندوقا من العلاجات والأضمدة.

فقالت أريستيتزا:

- سوف نعثر عليه.

لكنهما كلّما اقتربتا من الغابة هبطت حماستهما وفترت عزيمتهما. فالغابة كبيرة واسعة الأرجاء وليس من السهل العثور على موظف الصحة فيها. إن البحث عنه فيها يشبه البحث عن إبرة في كومة التبن.

قالت أريستيتزا:

- إذا لم نجد الفتيان سنخفي الكاهن بعيدا عن الشيوعيين. إن هذا هو المهم وبعدئذ سنرى ما سنفعل. ستمكثين معه في الغابة بينما أمضي إلى القرية. وسأعود قبل الفجر ومعي الطعام والماء ولعلني أصطحب معي إحدى القابلات اللواتي يحسنّ تضميد الجراح.

-100-

راحت سوزانا تبكي. كانت تخاف البقاء في الغابة وحيدة في ذلك الظلام. وكانت تبتهل إلى الله بصمت أن يجمعها بفتيان القرية.

كانت هناك طريق تسير بمحاذاة الغابة فلما عزمتا على قطعها أصاخت أريستيتزا السمع خشية أن يكون بعض الجنود الروس مارّين

عبرها في تلك اللحظة فرأت على الطريق رتلا من السيارات تدرج ببطء وأنوارها مطفأة.

كان دوي المحركات الخافت المكتوم يصل إليهما خافتا كالدندنة. كان الرتل يقترب في الطريق الصاعدة. فوضعت المرأتان حملهما على العشب واختبأتا بين الذرة بجانب الطريق.

همست أريستيتزا:

- إنها فرقة روسية. ولكن لا بأس علينا منها. لندعهم يمرون ولن يروننا.

وصلت السيارات إلى مكان اختبائهما وتوقف الرتل دفعة واحدة وكفت المحركات عن الدوي. وتعالت أصوات الصراصير. هبط بعض الجنود من السيارات وراحو يتحدثون بأصوات خافتة.

قالت سوزانا:

- إنّهم ألمان!

أصاخت أريستيتزا السمع ثم اقتربتا كلتاهما من الرتل وهما تزحفان عبر حقل الذرة وتصغيان بعناية وانتباه.

قالت أريستيتزا:

- إنّهم ألمان حقا. ماذا لو سألناهم علاجا للكاهن؟ ينبغي أن يكون بينهم ممرض أو طبيب؟

خرجت المرأتان من حقل الذرة. وقالت أريستيتزا تسأل سوزانا:

- ألا تعرفين كلمة من الألمانية؟ ولا كلمة واحدة؟ إذا لم نتحدث معهم فإنّهم سيظنون أننا أعداء وسيرموننا بالرصاص.

فأجابت سوزانا:

- إنّني لا أعرف أية كلمة بالألمانية.

خطت المرأتان بضع خطوات أخرى نحو القافلة ثم توقفتا. لبثتا على الطريق دون حراك وإحداهما ملتصقة بالأخرى بينما كانت يد أريستيتزا

تعتصر معصم سوزانا بحركة متشنّجة. قالت لها:

- إنك أصغر مني سنا. حاولي أن تذكري كلمة ألمانية. لا شك أنك سمعت خلال حياتك حديثا بالألمانية. لقد كان أبوك يتكلم هذه اللغة. إن الإنسان في شبابه يكون عادة متوقد الذاكرة.

قالت سوزانا:

- إنّني لا أذكر شيئا. حدثيهم باللّغة الرومانية.

قالت أريستيتزا بتوتّر:

- ماذا تريدين أن أقول لهم بالرومانية؟ إنّهم لن يفهموها وسيعتقدون أننا شيوعيون.

قالت سوزانا:

- لنهتف بكلمة كريست يا أماه. إن الألمان مسيحيون فإذا سمعونا ننادي بكلمة «كريست» سيعرفون أننا لسنا شيوعيين. إن كلمة «المسيح» «كريست» تعني أفكارا نبيلة وطيبة.

فقالت أريستتيزا:

- حسنا حاولي. فإذا فهم الألمان، فإنك ستثبتين أنك لست حمقاء كما تبدين!

قالت سوزانا:

- لا أجرؤ على الذهاب وحدي. لنصرخ معا.

ازداد التصاق المرأتين بعضهما ببعض وراحتا تصيحان بصوت منخفض راح يرتفع تدريجيا:

- كريست! كريست! مسيح! مسيح!

سأل صوت آمر:

- من هناك؟

لم تفهم المرأتان ماذا يطلب الألماني فأجابتا بصوت واحد:

- كريست!

اقترب جنديان منهما فارتعدت أريستيتزا من الخوف. كانت أشد خوفا من سوزانا. لم يفهم الألمان ماذا تريدان فذهبتا إلى حيث كان الكاهن في حقل الذرة وعادتا به فوضعتاه في منتصف الطريق أمام القافلة.

أشعل الألمان بعض المصابيح وراحوا ينظرون إلى وجه القس.

سأل ضابط:

- أهو كاهن؟

فأجابت أريستيتزا:

- كريست!

سأل الضابط:

- هل أعدمه البلاشفة؟

ظنت أريستيتزا أنّ الضابط يسألها عمّا إذا كان الجريح شيوعيا، فكررت مقتنعة:

- كريست!

كانت القافلة الألمانية في طريق التقهقر فأصدر الضابط الذي تحدث إلى المرأتين أمره بالمسير وأشار إلى أريستيتزا أن تزيح الجريح عن طريق السيارات لتمر.

قبضت أريستيتزا على يده وراحت تتوسل إليه أن يعطيها ممرضا أو طبيبا ليعنى بالقس.

ولما سمعت أريستيتزا صوت السيارات يدوي من جديد استحوذ عليها رعب قاتل. كانت لا تريد أن يغادرها الألمان قبل أن يضمّدوا جراح القس. فجثت على ركبتيها أمام الضابط وقبّلت يديه. كانت تعرف أنّها لن تستطيع إيجاد طبيب في مكان آخر.

سأل قائد القافلة:

- ماذا تريد هذه المرأة؟

- إنها تريد أن نأخذ معنا جريحا إلى المدينة. إنّه قس أرثوذوكسي.

فقال القائد:

- ولم لا نأخذه؟ إننا شعب متمدّن حتّى في الهزيمة! احملوا الجريح إلى عربة الإسعاف وأسرعوا لأننا راحلون.

رأت أريستيتزا وسوزانا الجنود يحملون الكاهن على محفة ويغطّونه بدثار من الصوف وتحرّكت السيارات. ولما همت أريستيتزا أن تركب بدورها لترافق الكاهن سخر الجنود منها وأغلقوا باب العربة.

تحركت القافلة وراحت تختفي عن أنظار سوزانا في طيات اللّيل. فبكت هذه وكأنها تنشد عونا.

أمسكت أريستيتزا بكتفها وراحت تهزها قائلة:

- ماذا أصابك أيضا؟ أتريدين أن يسمع صياحك الروس؟

قالت سوزانا:

- سيعاقبنا الله على الخطيئة التي ارتكبناها الآن. ما كان يجب أن نسلمه إلى الألمان! من يدري ماذا سيفعلون به!

قالت أريستيتزا:

- سيحملونه إلى المستشفى. ومن الخير له أن يكون في المستشفى بدلا من الغابة.

لكنها بعد لحظات انخرطت هي الأخرى في البكاء وقد أسفت شديد الأسف على تصرفها. هتفت:

- ما كان يجب أن نعطيه للألمان. لقد ارتكبنا خطأ كبيرا. سيعاقبنا الله عليه! سوف نحترق في جهنم. إنّه خطؤك. ولولاه لما أعطينا الكاهن إلى الألمان.

أرادت المرأتان اللحاق بالقافلة لاستعادة القس، غير أن الطريق كانت مقفرة.

فعادتا إلى القرية.

-101-

في صبيحة اليوم الثاني أوقفت أريستيتزا وجلدت في دار البلدية بالحبال الندية فاعترفت بأنها أخرجت القس من الحفرة وأعطته للألمان.

وفي الساعة التاسعة أُعدمت بالرصاص قرب حفرة الأقذار بينما فرت سوزانا مع ولديها من القرية.

ولما جاء رجال ماركو غولدنبرغ للقبض عليها وجدوا بيت إيوهان موريتز خاليا...

-102-

قال جوزيف وهو يتمدد على سريره.

إن هذا هو أجمل يوم في حياتي!

كان السجناء الفرنسيون الذين فرّوا بفضل مؤازرة إيوهان موريتز قد اخترقوا منذ حين الخطوط الأمريكية وحلّوا بينهم.

وجد إيوهان موريتز وجوزيف نفسيهما في غرفة جميلة في فندق من فنادق «الأونرا». كانا قد التهما ألوانا شهيّة طيّبة من الطعام واحتسيا كؤوسا من الخمر ودخّنا لفائف ثمينة جدا. أعطيت لهم رزم من الطعام والألبسة واللوازم الأخرى. كان إيوهان موريتز ينظر إلى تلك الرزم المرصوفة على السجادة قرب الجدار ويشعر أنّه قد تلقى من التكريم وحسن الالتفات ما لم يتلقّ مثلهما من قبل. لقد أعطاه الأمريكيون حاجته من القمصان والأثواب الجديدة وأمواس الحلاقة كما أعطوه أحذية وصابونا وعلب «السجائر». لقد أعطوه كل هذه الأشياء، هو إيوهان موريتز، منذ أن وقعت أبصارهم عليه. فصار فخورا اعتقادا منه بأنّه قام بعمل جليل تأييدا لنصر الحلفاء لأول مرّة في حياته.

«لو أنني لم أقم بعمل خطير لما أعطاني الأمريكيون كل هذه الأشياء بسخاء».

تذكّر أنّ الأمريكيين لم يسألوه عن اسمه وتصوّر أنّهم كانوا على علم بفراره قبل أن يصل زملاؤه. كان كلّ الأمريكيين يبتسمون له شأن من يدلّل على أنّه مطّلع على كل ما عاناه من ألم وما بذله من مشقة وأظهره من شجاعة.

لم تكن لإيوهان موريتز رغم الإجهاد أيّ رغبة في النوم. لذلك ظلّ ينظر حوله بإعجاب، لا يستطيع التصديق أنهم احتجزوا له تلك الغرفة الفخمة وأنّ كل تلك الأشياء المصفوفة بعناية قرب الطاولة أو على السجادة له. لقد منحه الأمريكيون كل هذه الأشياء الثمينة لأنه بذل شجاعة خارقة وأنقذ خمسة من المساجين الفرنسيين من معسكر الاعتقال.

قال جوزيف:

- لقد كان فرارُنا فرارا كاملا موفقا.

تذكر إيوهان موريتز كيف خرج ذلك الصباح من المعسكر مع المساجين الخمسة واخترق شوارع المدينة. كانت هيلدا تنتظره دائما وراء نافذتها والطفل بين يديها تقول له «انظر، إن ذلك الذي يحمل البندقية ويلبس الخوذة هو أبوك.» ابتسم موريتز ذلك الصباح ابتسامة كل صباح لكنّه لم يتوقف على الجسر. كان السجناء يتقدمونه وهو يمشي وراءهم وبندقيته على كتفه حتّى بلغوا حدود الغابة. كان الناس الذين يلاقونهم على الطريق يعتقدون أنهم إزاء جندي يحرس خمسة مساجين. لكنهم كانوا في الحقيقة خمسة فارين. خيّل إلى موريتز أن امرأة أطالت النظر إليه فشعر بقلبه يدق بعنف وبالخوف يدب فيه. وقد نظر إليه بعضهم بشيء من الارتياب غير أن موريتز تجاهل نظراتهم.

ولما بلغوا الغابة ارتدى موريتز ثوبا مدنيا كان الفرنسيون قد أتوا به له وحطّم جوزيف بندقيته على الصخور. فلما أصابته بعض الشظايا شعر إيوهان موريتز بأن شيئا قد تحطم في قلبه. غير أنّه كتم ما في نفسه

ولم يمانع عندما أشعل الفرنسيون النار في ثوبه العسكري رغم أنّه شعر برغبة ملحة في البكاء وهو يشاهد بزته تحترق. لكنّه تمالك أعصابه كي لا يُغضب الفرنسيين الذين كانوا يشتمون هتلر دون أن يفهم موريتز شيئًا من أقوالهم.

لبثوا بعد ذلك أسبوعا كاملا يسيرون في الغابة. وذات يوم خرجوا منها فإذا هم أمام سيارات أمريكية. فراح الفرنسيون يغنون. كانوا منهوكين من الإعياء غير أنهم راحوا يغنون على مشارف الغابة كالمجانين، وضعوا أشرطة ثلاثيّة الألوان في عروة ستراتهم ومثلها في عروة إيوهان موريتز. ثم خرجوا أمام السيارات الأمريكية فأعطاهم الأمريكيون لفافات وحملوهم إلى مركز المساعدة «أونر» حيث خُصّصت لهم الغرف وقدم لهم الطعام وكأنهم كانوا ينتظرون مجيئهم.

منذ وصول الفارّين وحتى ذلك اليوم لم يكفّ الأمريكيون عن إعطائهم الرزم والطعام. حتّى أن إيوهان موريتز شعر بأنه يعيش في جو سحري من قصص الجان. لكنّه عندما يرى جوزيف إلى جانبه يتأكد من أنّه يعيش في الواقع وأن كل ذلك قد وقع له، هو، إيوهان موريتز، لأنه قام بعمل جليل في سبيل نصرة الحلفاء.

نام جوزيف بينما كان إيوهان موريتز يحدّث نفسه بأنه سيذهب من هنا إلى فرنسا ويحلم في البيت الذي سيشيده وفي هيلدا وفرانتز ويطمئن نفسه بقوله «عندما تنتهي الحرب سأستدعي أبي وأمي إلى فرنسا».

ثم أغفى هو الآخر وهو في كامل ثيابه ونام ليلته وهو يحلم بسعادته المقبلة فلم يستيقظ ولم يتحرك حتّى انبلج الصبح.

-103-

أمضى إيوهان موريتز أسبوعين في مركز «الأونرا». كان قد قصّ على الأمريكيين كيفية فراره مع الفرنسيين الخمسة وهنأه الأمريكيون على شجاعته ثم طلبوا إليه أن يقص تفاصيل الفرار خطّيًا لأنّهم يريدون

نشر قصة إيوهان موريتز في صحفهم. سوف يشيد كل الناس بذكره ويتحدثون عنه.

كان إيوهان موريتز يزداد اقتناعا كلّ يوم بأنّه ساعد الأمم الحليفة في كسب الحرب. فكان سعيدا فخورا لأنه استطاع أن يقوم بعمل في سبيل الأمم الحليفة ولأنه رأى تلك الأمم الحليفة، مسرورةً من فعلته.

وذات يوم استدعاه المدير إلى مكتبه. وكان قد استدعاه من قبل عدة مرات ليقص حكاية فراره.

دخل إيوهان موريتز إلى المكتب فرحا مسرورا فدعاه المدير إلى الجلوس على الأريكة وقدم له علبة «سجائر» وابتسم. فكان هذا التقدير يذهل إيوهان موريتز وتطيب له نفسه. كان يستقبل كل مرّة بمثل هذه الحفاوة لكنّه ما كان يستطيع احتمال هذه الحفاوة دون أن تهتزّ مشاعره.

قال المدير وهو يشمل لفافة إيوهان موريتز...

- لم يعد من حقك الإقامة وتناول الطعام في «الأونرا». لن تستطيع اعتبارا من الغد الجلوس إلى المائدة وتناول الطعام معنا. وينبغي لك أن تخلي الغرفة التي تقيم فيها في الفندق.

شحب وجه إيوهان موريتز. راح يتساءل عن الخطيئة التي ارتكبها حتّى غضب عليه الأمريكيون. قال في سره: «لعلّني ارتكبت جرما كبيرا حتّى يطردوني ويلقوا بي إلى الشارع».

كان قد تلقى حتّى ذلك اليوم عددا كبيرا من الهدايا. كان لديه خمس رزم من الأشياء له ولهيلدا. ولما عرف الأمريكيون أن له طفلا حملوه بالهدايا والثياب لطفله فرانتز وطلبوا منه إبراز صورة ابنه وراحوا كلهم ينظرون إليه بحنان.

«والآن، وفجأة، يطرحني هؤلاء الرجال أنفسهم إلى الطريق فلا شك إذن أن الخطأ خطئي».

قال المدير!

- إن «الأونرا» لا تحمي إلاّ رعايا الدول الحليفة. أمّا أنت فإنك عدو الأمم المتحدة.

تذكر إيوهان موريتز الهدايا التي حصل عليها لقاء العمل الذي قام به. كانوا جميعا يؤكدون له منذ حين أنّه قام بعمل شديد الأهمية في نصرة الحلفاء. وها أن أولئك الرجال أنفسهم يدّعون الآن أنّه -هو إيوهان موريتز- عدو للأمم المتحدة.

كرّر المدير قوله:

- إنك عدوّ الأمم المتحدة.

فقال إيوهان موريتز:

- لكنني لم أرتكب شيئا ضد الأمم المتحدة! أقسم لك يا سيدي المدير أنني لم أسئ مطلقا إلى الحلفاء!

سأل المدير بصوت قاس:

- ألست رومانيا؟ إن الرومانيين أعداء الأمم المتحدة. وأنت روماني وإذن فإنك تكون عدوّا لنا بصورة آلية ولا تستطيع مؤسسة «الأونرا» أن تأوي رعايا البلاد العدوة وتطعمهم. ينبغي أن تخلي غرفتك.

خرج إيوهان موريتز من مكتب الرئيس مطرق الرأس. كان يود العودة إلى سريته لكنّه تذكر أنّه حطم بندقيته في الغابة وأن الفرنسيين أحرقوا ثوبه العسكري وما كان يستطيع العودة إلى فصيله دون سلاح. فراح يتساءل: «والآن إلى أين أمضي؟».

-104-

أوقفت هيلدا بعد فرار موريتز مباشرة فأعلنت في دائرة البوليس أنّها لا تعرف شيئا. وأوقفت أم هيلدا بعد يومين من توقيف ابنتها وأخضعتا معا للاستجواب والضرب. غير أن مفتشي البوليس لم يستطيعوا الوصول إلى أيّ معلومات عن طريقهما. ولما فتش المسكن، عثر رجال البوليس على رسائل للزعيم موللر.

قالت هيلدا:

- إنّه صديق إيوهان! لقد كان يرسل إلينا مائتي مارك كل شهر. وقد كان يزودنا في عيدي رأس السنة والفصح وفي أعياد زواجنا وميلادنا بما نحتاجه من الأطعمة والسجائر.

فأعلمت الشرطة العسكريّة الزعيم موللر بفرار موريتز على أمل الحصول على معلومات متمّمة تتيح لها الاستمرار في التحقيق.

وبعد يومين، تلقى رجال البوليس البرقية المطولة التالية من دائرة الأركان.

أبرق الزعيم موللر يقول:

«منذ أربعة قرون، لم يشر مرّة واحدة إلى فرار فرد من «الفصيلة البطوليّة» التي ينتمي إليها إيوهان موريتز. نقطة. يستحيل استحالة كلية أن يكون إيوهان موريتز قد فر من الجيش. نقطة. إنّني مقتنع بأن اختفاءه يرجع إما إلى اختطاف وإما إلى جريمة قتل. نقطة. إن اختفاء إيوهان موريتز يشكل بالنسبة إلى تاريخ «الفصيلة البطوليّة» خسارة لا تعوض. نقطة. ينبغي العثور عليه مهما كان الثمن. نقطة. لا تلوثوا بشبهة الفرار من الجندية فردا من أعرق الأسر ذات الدم الجرماني وأكثرها شجاعة. نقطة. لا تستعملوا كلمة فرار من الجندية في التحقيق الذي تقومون به. نقطة. إن زوجة إيوهان موريتز وولده يعتبران منذ الآن محميين من قبل مؤسسة الدراسات والبحوث الألمانية. نقطة. سيمنح لزوجة إيوهان موريتز وولده جراية غذائية من المؤسسة حتّى العثور على الزوج. نقطة. إن الشرطة المحلية مدعوّة للسهر على المرأة والطفل. نقطة. أطعلوني على سير الأمور. نقطة. كل خبر جديد يتعلق بإيوهان موريتز ينبغي أن يبلغ برقيا إلى الأركان العامة. نقطة. الزعيم موللر رئيس مؤسسة الدراسات الألمانية.».

فقال الرئيس قائد الشرطة العسكريّة:

- إذا علم الزعيم بأننا أوقفنا زوجة موريتز فسوف ينقلنا إلى الجبهة فورا لأسباب تأديبية خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. من الخير لنا أن نطلب إلى المرأة عدم الاتصال بالزعيم وإطلاعه على مسألة توقيفها.

وسأل الملازم الأول الذي يترأس الشرطة العدلية:

- وماذا سنعمل بالملف؟

فأجاب الرئيس:

- احفظ القضية فورا. إن اللعب مع مؤسسة الدراسات خطير جدا.

واسترسل يقول:

- هذا لا يمنع من أن نعترف بأن عدم إبلاغنا عن حالة فرار هذا الجندي من الجيش حماقة جسيمة. إن الرؤساء أحيانا يرتكبون من الأخطاء أكثر ممّا ترتكبه الكائنات العاديّة. إن الزعيم موللر عالم. ولقد قرأت عدة مقالات له في المجلات. بل إنّه نشر كتبا أيضا. غير أنّه شديد التعصب لرأيه إذ كيف يستطيع التصور أن موريتز لم يفر من الجيش؟

اقتيدت هيلدا إلى دارها في سيارة الرئيس قائد الشرطة الذي قال لها:

- إذا احتجت إلى السيارة مرّة أخرى، فمرّي بي أو اتصلي هاتفيا. فسيارتي «الميرسدس» ستبقى رهن إشارتك ليل نهار. اتصلي بي لأنفذ لك أية رغبة تعتلج في نفسك. وسوف أكون لك من الشاكرين إذا امتنعت عن إخبار الزعيم موللر بأمر توقيفك. فنحن لم نقم بهذه الخطوة إلاّ على سبيل إعطاء المثال للآخرين وإبراز القدوة الحسنة. لقد كان توقيفك لمجرد الشكليات.

سألت هيلدا:

- إن زوجي لم يفر من الخدمة إذن؟ هل أرسل في مهمة خاصة؟

فأجاب رئيس البوليس:

- لا نستطيع إعطاءك جوابا شافيا. إن زوجك لم يفر. أما الباقي فإنه سر.

احمرّ وجه هيلدا من الاغتباط وراحت ترى حياتها ابتداءً من ذلك اليوم أشبه بقصص ألف ليلة وليلة.

كانت مقتنعة من أن زوجها قد أرسل في مهمة خاصة من قبل مكتب الدراسات وإلا «فلم يضعون السيارة تحت تصرفي؟».

كانت تلبث ساعات طويلة أمام النافذة وهي تتصور إيوهان موريتز في مواقف مختلفة تكتنفه الأسرار كما تشاهد في أفلام المغامرات.

كانت تحدث نفسها: «إنه لم يحدثني بشيء. إنّه يعتبرني أدنى منه مقاما. لذلك فسأبذل قصارى جهدي لأكون جديرة به».

قبلت هيلدا ابنها وراحت تضمّه وتقول:

- لم أكن في حياتي أكثر سعادة من اليوم.

ولا أحد يستطيع معرفة هذه السعادة وتذوّقها غيرها، سعادة اقتران امرأة ببطل!

-105-

قالت هيلدا:

- لا أستطيع التصديق أننا خسرنا الحرب. لقد فرّ كلّ سكان المدينة إلى الغابات أو الأرياف وهم يقولون إنّ الروس على بعد عشرة كيلومترات من هنا. لقد ارتحل كل الجيران. لكنني لا أصدق ذلك. فليس الأمر سوى دعاية من العدوّ هدفها بث الذعر في النفوس. سأبقى في مكاني لأن ألمانيا لا يمكن أن تخسر الحرب.

فقال الضابط الذي كانت تحدّثه:

- آتني بوعاء فيه ماء لأغتسل.

وراح ينزل معطفه الجلدي ويعلّقه على المشجب. كانت حقيبته على مقعد قريب فنزع سترته العسكريّة ووضعها على مسند المقعد وظلّ واقفا

يكسو جذعه قميص صوفيّ.

كانت هيلدا تتابع حركاته، وهي تشعر بأنها قادرة على البقاء ساعات طويلة تتمتع بالنظر إليه وهو يخلع معطفه الجلدي ويعلقه على المشجب ثم يفك أزرار سترته.

قال الضابط:

- آتني بماء ساخن لأحلق لحيتي.

ثم أدار لها ظهره وفتح الحقيبة فخرجت هيلدا من الغرفة تاركة بابها مفتوحا. كانت ترى من نافذة المطبخ سيارة الضابط العسكريّة الواقفة أمام الباب. لقد جاء الضابط في تلك السيارة. نظرت هيلدا إلى ساعة المطبخ فإذا بها تشير إلى أن الضابط لم يمض أكثر من ربع ساعة في المنزل فقالت في سرها «مع ذلك فإنّني أشعر بأنني أعرفه منذ الأبد».

كان الضابط قد قرع الباب ففتحت له. أنبأها بأنه يريد الاغتسال وإبدال ثيابه. كانت لهجته آمرة وكأنه يصدر أمرا إلى جنوده. ودخل البيت دون أن ينتظر جوابها. مرّ بجانب هيلدا التي لبثت واقفة على العتبة واحتك بها في مروره بجانبها فاستنشقت رائحة المعطف الجلدي الممتزجة بأريج الرياح والغبار والحرب، فتبعته إلى الداخل نشوى.

كان القادم طويل القامة عملاقا. فتح باب غرفة الطعام بحركة طبيعية وكأنه كان في مسكنه ودخل إليها ثم راح يخلع ثيابه بينما ظل الباب مفتوحا. انتظرت هيلدا على العتبة علّه يصدر أمرا، غير أن العملاق راح يخلع ثيابه دون أن يلتفت إليها.

لما خلع خوذته لمحت هيلدا شعره الأشهب الفضي ثم خلع معطفه فلمحت رتبة الملازم الأول التي يتقلدها فقالت تناجي نفسها:

- «إنّه من ضباط الاحتياط».

نظر إليها العملاق عدّة مرات غير أنّ نظراته كانت تخترقها ببساطة دون أن تراها. راحت هيلدا تتحدث وتقصّ عليه ما يجيش في صدرها

والعملاق لا يجيب على قولها ولا ينظر إليها.

وبعد أن خلع سترته أمرها بكل بساطة أن تأتيه بالماء وبإناء. همّت هيلدا بدعوته إلى الاغتسال في الحمام لأنّ بيتها كان يضمّ حمّاما جميلا أنيقا، لكنّه بعد أن أمرها بإحضار الإناء والماء لم تجرؤ على معارضة رغبته.

ملأت إبريق الماء وهي تنظر من جديد إلى السيارة الواقفة أمام الباب. كانت السيارة مغطاة بطبقة من الغبار كما كان حال معطف الضابط الجلدي. ولما رجعت بالإناء إلى الغرفة كان العملاق يستر جسده بقميصه.

قال لها وهو يبدو مشغول البال متعبا:

- أعطني مرآة.

فكرت هيلدا في أنّه قد يطلب إليها أن ينام. كانت على استعداد لإعداد سرير له في غرفة نومها وتركه ينام فترة ويرتاح.

شهدت في الأيام الأخيرة عددا كبيرا من قوافل الجند تخترق المدينة، وقرع عدد كبير من الجنود والضباط بابها في طلب القِرى لليلة أو الماء للاغتسال أو لطهي الأطعمة المحفوظة. وقد عنيت خلال هذا كله بإسداء كل ما استطاعته من خدمات وهي تفكّر في زوجها. كانت تعرف أن إيوهان موريتز في مهمّة سريّة خاصّة فأرادت أن تبرهن عن جدارتها به وبخدمة وطنها أسوة بزوجها.

كان أولئك الجنود والضباط يجدون عندها ما يريدون من خدمات وكانت تسمح لبعضهم بالنوم في غرفة الطعام. أما هذا العملاق فإنها كانت على استعداد لدعوته للنوم في غرفة النوم أمّا هي فإنها كانت ستنام على الأريكة في غرفة الطعام.

فكّرت هيلدا في أنّ العملاق قد يختار سريرها بدلا من النوم في سرير موريتز. فارتعدت فرائصها لهذه الفكرة. أخذت المرآة التي كان موريتز

يقف أمامها كلّما أزال لحيته وحملتها إلى العملاق الذي كان يسير في الغرفة جيئة وذهابا مفتوح الياقة. فأخذ المرآة وبحث عن مكان مناسب يضعها فيه. غير أنّه لم يجد المكان المناسب لأنه كان طويل القامة لا يستطيع تركيز المرآة على المائدة لأنه في هذه الحالة سيضطر إلى الانحناء لإتمام مهمته. لذلك فقد وضع المرآة بين يدي هيلدا دون أن ينطق بكلمة وراح يغطي وجهه بطبقة الصابون.

هتف آمرا:

- ارفعيها أكثر من ذلك

فرفعت هيلدا المرآة أعلى من الجبهة وشعرت بذراعيها يتخدران وودّت لو قالت شيئا. غير أنّ صوت الموسى المتزن وهي تقطع شعر اللحية الأصهب المغطى بالصابون جعلها تلزم الصمت. كانت حواسها المستيقظة تلتقط رائحة الصابون وتحسّ بأنّها ليست مجرد عطر يفوح من الصابون نفسه بل إنّها رائحة الرجل والحرب والطريق التي لا نهاية لها. إنها رائحة المعطف الجلدي. لم يلاحظ العملاق أنّها تترنح لأنه كان يزيل لحيته بعناية متفاديا جرح بشرته.

ولما فرغ من غسل يديه بالصابون في الإناء النظيف الأبيض قال لها:

- شمّري عن ساعدي.

فلفّت هيلدا أكمام القميص. كانت تخاف أن تلمس بشرة العملاق ولما اصطدمت يداها بيده ارتعدت. كانت رائحة الغابة والريح التي حملها العملاق معه تفوح في البيت كله. وكانت تشمّ ذلك العطر وتشعر أنّه تغلغل في قطع الأثاث والسجاد والجدران ولن يبرحها أبدا. لقد اخترق ذلك العطر أثوابها وبشرتها وشعرها وقميصها ولن يخرج منها ولو أمضت العمر في الاغتسال.

قال الضابط:

- والآن أريد أن أبقى وحيدا.

ولما استدارت هيلدا لتغلق الباب رأت جذعه عاريا لأنه كان يخلع قميصه. كان رأسه محجوبا بالقميص فلم تر إلاّ صدره. لقد رأت من قبل ألوفا من الرجال بوصفها ممرضة. لكنّها لم تر أبدا قبل تلك اللحظة صدرا يشبه ذلك الصدر.

مضت هيلدا إلى المطبخ وعادت تنظر إلى السيّارة من النافذة.

كان طفلها نائما فراحت تتساءل عمّا إذا كان العملاق سيتابع طريقه على الفور أم أنّه سينال قسطا من الراحة. ودّت أن تهيّئ له الطعام. لكنّها كانت في تلك اللحظة مصغية بكل جوارحها استعدادا للإجابة على أوّل طلب.

قالت إحدى الجارات وهي تمر أمام نافذة هيلدا:

- إنّ الروس على بعد ثلاثة كيلومترات! أما زلت باقية هنا؟

فأجابت هيلدا:

- لن أبرح مكاني.

راحت تتساءل عن سبب إبطاء العملاق في مناداتها ونفد صبرها فلم تعد تطيق الصبر والانتظار. قرعت الباب ودخلت. كان العملاق مرتديا ثوب الحفلات وقد غطت الأوسمة صدره العريض.

تسمرت هيلدا على العتبة مذهولة.

ابتسم لها العملاق للمرة الأولى. كانت رائحة الزهور تفوح في الغرفة بدلا من رائحة الجلد والحرب والريح التي كانت تملأ جو المكان.

قال العملاق:

- أريد أن أعلم إذا كنت ألمانيّة حقا. لأنّني أريد سؤالك خدمة لا تستطيع أداءها إلاّ ألمانية خالصة.

فأجابت:

- إنّني الألمانية الخالصة التي تطلب. لست فقط ألمانية بل إن زوجي موفد من قبل..

كانت هيلدا تتوق إلى سرد سرّ ذهاب زوجها على العملاق. لكنّها بترت حديثها فجأة. كانت على المائدة صور مؤطرة لامرأتين جميلتين. فراحت هيلدا تنظر إليهما. لم تجد في نفسها الشجاعة على التصريح له بالسر الذي لم تبح به لإنسان والذي كادت أن تُطلع العملاق عليه لمجرد رغبة رعناء. لكنّها ما أن رأت الصورة تحت أبصارها حتّى أسفت على ما اعتزمت من رواية القصة التي تعرفها.

قال العملاق:

- هذه زوجتي وتلك ابنتي. لقد ماتتا، كلتاهما. لقد أحببتهما كثيرا لكنهما خدعتا حبي. إن زوجتي وابنتي قد خدعتاني. ولقد ووريت زوجتي الثرى. أما ابنتي فإنها في مكان لا أعرفه. لقد تزوجت صعلوكا تافها ومنذ ذلك الحين اعتبرها ميتة بالنسبة إليّ.

نظرت هيلدا إلى الصورتين وناجت نفسها قائلة: «أمّا أنا فإنّني ما كنت لأخدعه قط لو أنّه أحبّني!».

كان بالقرب من الصورتين صورة ثالثة ذات إطار من الجلد. تلك كانت صورة الفوهرر.

قال:

- والآن لقد مات الفوهرر أيضا! إنّ ألمانيا لم يعد لها وجود. ولم أحيا إلاّ من أجلهم. كنت أحبّ الخيول لمّا كنت فتى لكنّه كان حبّ شباب. لقد اختفى كل من عشت من أجله. لقد ماتوا جميعا: زوجتي، ابنتي، زعيمي ووطني. والآن جاء دوري. سيكون الروس هنا بعد نصف ساعة وإنّني أود قبل مجيئهم أن أنهي واجبي الأخير خلال حياتي.

اخضلّت عينا هيلدا بالدموع. كانت تظنّ أنّ العملاق سينام في غرفة نومها وأنّه جائع فتتقدّم له طعاما يأكله، وإذا بها الآن تراه مرتديا ثوب الحفلات الرسمية.

قالت:

- سأعمل كلّ ما تطلبه منّي. هل تريد الذهاب إلى مكان ما؟
كانت تنظر إلى ثوبه الأنيق. فأجابها:
- لن أذهب إلى أي مكان. إنّ هذه آخر رحلاتي في هذا العالم السفلي.
راح العملاق يضحك راضيا وأردف:
- كنت تظنين أنني سأذهب إلى مكان ما لأنّني حلقت لحيتي واغتسلت وارتديت كسوتي الجميلة؟
أخذ يربّت على كتفها وهي شديدة الارتباك. شعرت هيلدا بضآلتها إزاءه تماما كالضآلة التي أحسّت بها عندما علمت أن إيوهان أرسل في مهمة خاصة.
قال العملاق:
- انتبهي جيدا إلى ما سأقوله لك. إنّه أمر شديد السهولة. غير أن المرأة الألمانية وحدها هي التي تستطيع إنجازه! إن زوجتي ما كانت تقدر على مثل ذلك الأمر. أما أنت فتقدرين. لقد كانت زوجتي شديدة الضعف. بل إنني ما كنت لأسألها مثل ذلك الأمر. أما أنت فإن الأمر يختلف معك.
شعرت هيلدا بالاعتداد والزهو لأن العملاق يسألها ما لا يسأل مثله زوجته الخاصة.
استرسل يقول:
- بعد موتي ينبغي أن تسحبي جثتي إلى الفناء وأن تحرقيها. ستجدينني ميتا هنا على قطعة من قماش الخيام.
كان العملاق قد مدّ على الأرض قطعة من قماش الخيام. أردف يقول:
- لن يكون عليك إلاّ أن تأخذي بطرفي قطعة القماش وأن تسحبيني إلى الفناء.
وأخرج العملاق من تحت المائدة صفيحتين عسكريتين وقال:
- هذا هو البنزين اللازم. إنّه من وقود الطائرات. بعد أن تجري

جثتي إلى الفناء ستغطيني بهذه القطعة من قماش الخيام وتسكبين الوقود عليها ثم تشعلين النار بهذه الولاّعة.

كان العملاق دائم الابتسام. أخرج من جيبه ولاّعة ذهبيّة قدّمها إليها واسترسل يقول:

- إليك ما تشعلين به النار. إذا انطفأت النار الأولى فما عليك إلاّ أن تصبي ما في الصفيحة الثانية من وقود وأن تشعلي النار من جديد. وبعدئذ أعتقد أنّه لن يبقى منّي شيء. لن يجد الروس إلاّ رمادي. إن جنديا جديرا بشرف هذا الاسم لا ينبغي أن يترك جثته بين يدي أعدائه. لقد تصرف الجنود الألمان هكذا خلال حقبات التاريخ. كانوا إذا قضي الأمر يسقون أنفسهم كأس المنون ويتلفون أجسادهم فلا يجد العدو إلاّ بقاياهم المتفحمة.

راح العملاق يفرك كفّيه بارتياح، بينما لبثت هيلدا صامتة تنظر إلى الصور.

- إذا شئت إحراق الصور فما عليك إلاّ وضعها معي ضمن قطعة القماش. إنها ستحترق كما أحترق أنا. أما إذا شئت الاحتفاظ بها فلك ذلك. لكنني لا أرى سببا يدعوك للاحتفاظ بها. فأنا لست من هذه البلاد بل من رومانيا.

لبثت هيلدا صامتة لا تريم. كانت تتخيّل العملاق ممدّدا على قماش الخيمة. لكنّها ما كانت تستطيع تصديق ذلك واعتباره ممكنا. كانت ترى أن العملاق ما خلق ليموت بل ليبقى خالدا.

- هل تشعرين بالخوف؟ إن الألمانية لا تخاف أبدا وخصوصا لمّا يكون الأمر متعلقا بالوطن. أعتقد بأنك مقتنعة من أن في تنفيذك رغبات جندي قبل موته خدمة لوطنك.

قالت هيلدا:

- أعرف ذلك ولست خائفة. لكنني لا أستطيع تصديق كل هذا. لا

أصدق أنّ الروس سيصلون إلى هنا ولا أعتقد أنّ ألمانيا يمكن أن تهزم!
قال العملاق:
- لقد انتهى كلّ شيء. لقد ضاع كلّ شيء ولا يمكن التعويض عنه. لا تنسي وضع المسدس في جرابه الجلدي ليحترق معي في آن واحد. ينبغي أن يدفن الجندي أو يحرق مع سلاحه.
ساد الصمت فترة كان العملاق خلالها ينظر إلى اللانهاية ساهما تائها في أفكاره مستغرقا فيها وكأنه غارق في ماء لا قرار له.
وفجأة قال:
- والآن لقد انتهى كلّ شيء.
رفعت هيلدا عينيها إليه. ظنّت أن العملاق يريد الانتحار أمامها وهو ما لا تستطيع احتماله. ولكن لم يبدُ عليه أنّه راغب في الانتحار. استدار العملاق إلى حيث كانت صورة الفوهرر فوقف وقفة الاستعداد ورفع ذراعه اليمنى محيّيا.
كانت هيلدا تقف وراءه وتنظر إلى كتفيه وقامته التي يضمها الثوب العسكري. كانت ترى ذراعه الممدودة وهو جامد كالتمثال. وأخيرا استدار نحوها ورفع ذراعه يحييها وقال:
- الوداع يا صديقتي وشكرا! إنّني الملازم إيورغو إيوردان. ولكن لا حاجة بك إلى ترديد هذا الاسم. كوني فخورة بما ستقومين به. إنّه شرف للألمانية أن تنفذ الرغبات الأخيرة للجندي!
ضغط على يد هيلدا مصافحا. كان يضغط عليها بشدة كمن كان يشعر بالفراق ثم قال آمرا:
- أريد الآن أن أبقى وحيدا! تعالي حالما تسمعين صوت الطلقة. الوداع!

-106-

ظهرت السيارات الروسية الأولى عند أوّل الشارع.
سمعت هيلدا بادئ الأمر دويّ محركاتها ثمّ رأتها من نافذة المطبخ

مقبلة فهرعت إلى الغرفة التي تركت العملاق فيها. كان قد أمرها بأن لا تدخل الغرفة إلاّ بعد سماعها صوت الطلق الناري ولم تكن حتّى تلك اللحظة قد سمعت شيئا لذلك ما كانت تجرؤ على خرق أوامره.

كانت السيارات الروسية الكبيرة التي تمرّ في الشارع تهز الجدران فلم تستطع هيلدا الانتظار أكثر مما انتظرت لأنها كانت خائفة. قرعت الباب ودخلت.

كان العملاق منطرحا وسط الغرفة مسجى على ظهره فوق قطعة الخيمة.

تساءلت هيلدا: «كيف لم أسمع صوت الطلق؟»

كان جسد العملاق مستقيما وكأنه مات وهو في وضعية الاستعداد يحيّي صورة الفوهرر. وكانت وجنته اليمنى وفمه وأنفه ملطخة بالدم. ليس دما كثيرا وإنّما خيوط دقيقة لا أكثر.

أخذت هيلدا المسدس الذي سقط قرب فم العملاق ووضعته في جرابه الجلدي وأغلقت الجراب وهي تتساءل: كيف استطاع العملاق أن ينتحر دون أن تسمع صوت الطلقة النارية.

أمسكت هيلدا بأطراف قطعة القماش وغطّت الجثة وقبل أن تحجب وجهه ألقت على العملاق النظرة الأخيرة.

راحت تحدث نفسها:

- لا أشعر بأنني بالقرب من ميت. فالموت لا يخيفني. وأنا لا أرى الموت حتّى عندما أكون بجواره. وذلك راجع إلى عدد الأشخاص الذين رأيتهم يموتون في المستشفى..».

غطت هيلدا وجه العملاق دون أن تلمسه.

كان في تلك اللحظة يشبه كلّ الرجال الذين رأتهم من قبل. لكنّ العملاق لم يكن يشبه الآخرين حين كان على قيد الحياة. بيد أن هيلدا كانت لا تكاد تذكر اللحظات التي لبث العملاق فيها حيّا يزيل لحيته ويرتدي ثوبه

ولا الرعدة التي كانت تسري في كلّ أوصالها عندما كانت تقترب منه.

أما الآن فقد بدا ذلك وكأنه حصل منذ سنين طويلة. لأنها كانت قد نسيت كل شيء عنه تقريبا.

وفي الخارج كان ضجيج السيارات والمصفحات الروسية يرتفع مدويا. شعرت هيلدا بالخوف. فأرادت أن تأخذ الطفل وتفرّ به إلى الغابات عن طريق باب الحديقة. لكنّها تذكرت الوعد الذي قطعته للعملاق.

همست تحدّث نفسها: «إنّني آسفة إذ وعدته بإحراقه بعد موته».

كانت لا تستطيع حمل الجثة إلى الحديقة لأنها كانت تعرض نفسها للاكتشاف من قبل الجنود الروس وهم في سياراتهم ومصفحاتهم يمرون أمام الباب.

ناجت نفسها تقول: «ينبغي أن أنتظر حتّى المساء. وعندئذ سأحمله إلى الفناء وأشعل النار فيه عند هبوط الظلام وألوذ بالفرار مع الطفل.»

لبثت هيلدا بجانب الميت لا تفكر في شيء. وفجأة حدثت نفسها بأنهم إذا وجدوا الميت في البيت فإنها قد تسجن. لذلك فقد جاءت بطفلها من الغرفة المجاورة وجلست على مقعد قرب الميت وأجلست الطفل في حجرها.

خاطبت نفسها: «لا أستطيع الإخلال بوعد قطعته لجندي قبل موته.»

أغلقت الباب ودفعت المزلاج وراءه مصممة على الانتظار حتّى يهبط الظلام. كانت هيلادا لا تحمل ساعة لكنّها كانت تعرف أن الظلام سيسود بعد ساعتين أو ثلاث ساعات. تذكرت أن العملاق يحمل ساعة حول معصمه فأزاحت طرف القلع ونظرت إلى ساعة العملاق لتعرف الوقت الذي يجب عليها الانتظار خلاله. وحينئذ سمعت قرعا على الباب.

ضمّت هيلدا الطفل بين ذراعيها ولم تجب.

سمعت حديثا بالروسية وراء الباب وعادت الضربات تقرع الباب من جديد ففتحت النافذة المطلة على الحديقة.

«لا أستطيع الفرار دون أن أنفّذ وعدي. إنّ إيوهان «زوجي» بطل فلا يحق لي أن أكون أنا على عكسه نذلة».

رفعت هيلدا غطاء إحدى الصفيحتين وصبت محتوياتها على قطعة الخيمة بينما كانت ضربات أعقاب البنادق تكاد أن تطيح بالباب. فتحت هيلدا الصفيحة الثانية وصبت نصف محتوياتها. كانت متعجلة خائفة أن يوفق الروس في تحطيم الباب. ثم حملت طفلها واتجهت نحو النافذة.

حدثت نفسها: «بعد أن أقفز من النافذة سألقي بالزناد المشتعل في الغرفة فيحترق الجسد وبذلك أكون قد بررت بوعدي».

كان جو الغرفة مشبعا بالسائل القابل للاشتعال فراح الطفل يسعل بينما زادت هيلدا من سرعتها. ولما تخطت حاجز النافذة لتقفز إلى الفناء كان الروس قد تمكنوا من تحطيم الباب بأكتافهم. لم تكن المسافة بين حافة النافذة وممشى الحديقة مرتفعة جدا وكان القفز سهلا. غير أنّه في تلك اللحظة بالذات ظهرت ثلاث مدرعات روسية أمام النافذة.

كان في الحديقة عدد آخر من الجنود فتعذر عليها القفز. ألقت هيلدا نظرة نحو الباب. كان الطفل يصيح وهو على وشك الاختناق من غاز الوقود. فقررت القفز من النافذة وشق الطريق لنفسها بين الجنود الروس. وفي تلك اللحظة مد أحدهم يده من النافذة محاولا الإمساك بها فلمس قدمها.

أطلقت هيلدا صرخة وأرادت الدفاع عن نفسها. لم يكن في يديها إلاّ الزناد فضغطت عليه دون وعي كما يضغط المرء على زناد المسدس عندما يهاجم فانبعث ضوء هائل دام ثانية أعقبه ظلام أشد حلكة وكثافة من اللّيل البهيم. كان الضوء قد مضى دون رجعة.

واحتوت النيران التي تحرق جسد العملاق ايوروغو إيوردان زوجة إيوهان مويرتز وطفلهما فرانتز ودمرت تلك النار نفسها المنزل من القبو وحتى السطح، وأتلفت كل ما فيه بما في ذلك الصور التي أتى بها العملاق

معه ووضعها بنفسه على المائدة: صورة أم سوزانا وصورة سوزانا زوجة موريتز الأولى.

لبث الوقود الذي أتى به العملاق مشتعلا وارتفعت ألسنة اللهب صاعدة نحو السماء.

-107-

لبث تريان كوروغا وألينورا وست جالسين أمام الميجر براون الحاكم الأمريكي لمدينة ويمار.

قال تريان كوروغا:

- هذا كل شيء يا سيدي الحاكم. عندما طلبت رومانيا الهدنة في الثالث والعشرين من آب أوقفنا، زوجتي وأنا، من قبل الكرواتيين مع جميع أعضاء السفارة الرومانية.

«لقد سجنا حسب القوانين الدبلوماسية في فندق مع ممثلي الدول العدوة الأخرى. ثمّ احتل أنصار تيتو بلاد الكروات فنقلنا إلى النمسا ثم إلى ألبانيا ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا. ولما استسلمت ألمانيا لم يكن هناك من يسجننا بعد ذلك فمضينا نحو الغرب. لقد هجرنا كلّ شيء لنذهب نحو الغرب.»

تخيلت أليونورا المائتي كيلومتر التي قطعتها مشيا على الأقدام والتي أدمت ساقيها وملأت باطن قدميها بالشنن.

قالت أليونورا وست معقبة:

- لقد تركنا كلّ شيء وفررنا عبر الغابات والحقول لنصل إلى منطقة محتلة من قبل الأمريكيين أو البريطانيّين أو الفرنسيين. ما كنا نريد أن نقع أحياء بين أيدي الروسيين أو الحلفاء. لقد كنا على استعداد لقتل أنفسنا بدلا من الاستسلام لهم.

سأل الحاكم:

- لِمَ كنتما تخافان من الروس والحلفاء؟ إنّ الفاشيين وحدهم

يخافون منهم. إن الروس والحلفاء أنصارنا. لقد حاربوا في سبيل نصرة الأمم المتحدة.

قال تريان:

- إنك لست فاشيا يا سيدي الحاكم مع ذلك فإنّني لا أظن أنك تقبل ببقاء زوجتك في أرض يحتلها البلاشفة ولو لأربع وعشرين ساعة. ليس لأسباب سياسيّة ولكن بسبب قسوتهم ووحشيتهم والذعر الذي يشيمونه في النفوس. إنّني أعتقد بأنك شخصيا لا تجد في نفسك الشجاعة على الدخول إلى منطقة سوفييتية إلاّ وأنت ترتدي لباسك العسكري ويحيط بك حرس كاف. فهل من العدل أن تسألنا، ونحن مخلوقان محرومان من كل سلاح عن سبب فرارنا أمام عصابات البرابرة المسلحين ببنادق رشاشة من أحدث طراز أمريكي.

قال الحاكم:

- وماذا تريدان الآن؟ ليس باستطاعتكم الخروج من ألمانيا. سوف تعاملان هنا معاملة رعايا الأعداء وتخضعان للقيود التي يخضع لها الشعب الألماني. سيكون لكما ما لهم من حقوق وليس أكثر.

فقال كوروغا:

- أي أنّه لن يكون لنا أيّ حق. إن الألمان في ويمار يرغمون على تنظيف مراحيض معسكر «بوشنوالد» وغسل ألبسة الموقوفين السابقين مرّة كل أسبوع على الأقل. فهل تريد إرغام زوجتي على القيام بمثل هذه المهمات؟

وقالت أليونورا وست:

- إننا لسنا أعداء أمريكا والأمم الحليفة. لقد سُجنّا قرابة عام من قبل أعداء الأمم المتحدة واليوم نسألك أن تسمح لنا بالسكن في غرفة ما في هذه المنطقة أو إمكانية تأمين رحيلنا إذا كنا غير مرغوب فينا هنا. فنحن لا نملك شيئا ولا ندري أين ننام ولا أين نأكل ولا نستطيع الاغتسال فيُحجّر علينا البقاء ويُمنع عنا الذهاب.

قال الحاكم:

- إنكما من رعايا الأعداء ووجودكما لا يهمني. ألستما تحملان جوازات سفر رومانية؟ إنكما أعداء إذن.

قالت أليونورا وست:

- لكن رومانيا تقاتل مع الحلفاء ضد ألمانيا منذ أكثر من عشرة شهور وأنت تعرف ذلك كما أعرفه. لقد قتل ثمانون ألف روماني في سبيل قضية الحلفاء. فهل تعتبرون أولئك الذين يقاتلون في صفوفكم أعداء لكم.

كرّر الميجر براون:

- إن رومانيا دولة عدوة.

وأخرج من درج في مكتبه ورقة راح يقرؤها بصوت مرتفع:

- البلاد العدوة: رومانيا، هنغاريا، فنلندا، ألمانيا، اليابان، إيطاليا.»

إن هذا واضح أليس كذلك؟ إنكم معشر الرومانيين أعداء الولايات المتحدة.

نهض تريان كوروغا واقفا بينما ألقت أليونورا وست نظرة متوسلة على الحاكم وسألته:

- ألم تقرأ أبدا في الصحف أن رومانيا تقاتل في صفوف الحلفاء منذ حوالي عام؟ ألا تكفيكم أوراقنا التي تدل على أننا سُجنّا من قبل الألمان؟ إننا لسنا أعداءكم.

فأجاب الحاكم:

- إن الأمر لا يمكن أن يهمني حتّى ولو كان كما تقولين. إنّ التعليمات التي تلقّيتها تفيد بأنّ الرومانيين أعداء للولايات المتحدة. لقد أضعت وقتا طويلا في النقاش معكما. إنك يا سيدتي عدوة لي. عدوة هل تسمعين؟ ولو أنني وقعت بين أيديكما لأعدمتماني رميا بالرصاص ولما لبثتما تناقشاني كما ناقشتكما منذ حين. إن ما قمت به حتّى الآن غير قانوني ولن أعود لمثله لأنه لا يجوز أن يناقش المرء أعداءه!

كان الميجور براون حاكم مدينة ويمار العسكريّ ممتقعا غضبا فلم يردَّ على تحية تريان كوروغا وأليونورا.

قال تريان كوروغا وهو يبهط السلم:

- هذا هو الغرب. إنّهم لا يأبهون بالوقائع ولا بالإنسان. لقد عمّموا كلّ شيء فهم لا ينحنون إلاّ أمام النظام.

قالت نورا:

- لا أستطيع الاستمرار في السير.

أمسك تريان بذراعها ليسندها فارتمت على كتفه وراحت تبكي:

- لقد قطعنا مائتي كيلومتر ونحن نجري لنصل إليهم. لقد ركضنا وكأننا نقصد الجنّة...

قال تريان:

- لا يجب أن تأسفي يا نورا. لقد فررنا من الهول الروسي ونجاتنا منه منّة على كلّ حال. غير أنّ بني الإنسان لا يمكن أن يكونوا في هذه اللحظة طيبين في أية ناحية. لم تعد الأرض ملكا للبشر.

-108-

بعد أربعة أيام عاد تريان كوروغا وأليونورا وست إلى مكتب الحاكم لأنهما كانا في حاجة إلى إذن يخوّل لهما حق البقاء أسبوعا آخر في مدينة ويمار.

كانت أقدام نورا منتفخة لا تسمح لها بالسير والابتعاد عن المدينة في الوقت الحاضر.

ارتدت أجمل ثيابها ووضعت على رأسها قبعة وانتعلت أحذية ذات كعبين مرتفعين. وبعد أن أعلنا للجندي الحاجب عن رغبتهما في التحدث إلى الحاكم قال تريان يحدّث أليونورا:

- إنك مرتدية ثيابك وكأنك ماضية إلى حفلة استقبال رسمية.

ابتسمت أليونورا. لقد ارتدت ذلك الثوب لأول مرّة منذ ثلاثة أعوام

عندما ذهبت في زيارة صباحية إلى وزير فنلندا.

عاد الحاجب وقال لهما بأدب:

- إن سيدي الحاكم يرجو الانتظار بضع لحظات.

وانقضت دقائق كانت نورا خلالها مسرورة. ثم تقدم جندي نحوهما وسأل:

- أأنتما الدبلوماسيان الراغبان في التحدث إلى الحاكم؟ تفضلا بالانتظار برهة أخرى.

وذهب الجندي؟ فراحت أليونورا وست تخمّن في سرّها أنّ الميجر براون كان في حقيقته رجلا مهذبا يحسن التصرف. لقد اعتذر مرتين لأنه تركهما ينتظران خمس دقائق.

كان قصر الحاكم في بناء كبير ذي بهو متسع. راحت تنظر إلى نفسها في المرآة. رأت أنّها قد هزلت وأن ثنيات ثوبها كانت في هذه المرة أكثر انسدالا مما كانت عليه عندما زارت مفوضية فنلندا.

عاد الجندي يقول وهو يتجه نحوها:

- اتبعاني.

ابتعدت أليونورا وست عن المرآة باسمة وأخذ تريان يساعها لتستند إليه وتبعا الجندي الذي ما كان يصعد السلم كما فعل في المرة الأخيرة بل يهبطه متجها نحو باب الخروج.

ثم دعاهما إلى أخذ أمكنتهما في سيارة جيب كانت تنتظر أمام الباب.

سأل تريان:

- إلى أين نمضي؟

هز الجندي الذي كان يقود السيارة كتفيه. كانت الريح نشطة والسيارة مندفعة في شوارع ويمار بسرعة جنونية. انحنى تريان على أذن الجندي الآخر وسأله:

- إلى أين نمضي؟

فهز هذا كتفيه كما فعل زميله من قبل. التفت تريان إلى نورا. كانت ممسكة بحواف قبعتها بيديها الاثنتين. كانت تضحك. لقد كانت دائما تحب السرعة.

توقفت سيارة الجيب في الطرف الآخر من المدينة أمام جدار من الحجر. وفتح الباب بواب يعتمر قبّعة ذات حافة أمامية.

لكن السيارة لم تدخل إلى الفناء.

سلم أحد الجنديين مغلّفا إلى البواب، ثم أشار إلى أيليونورا وتريان بالنزول.

سألت أليونورا وست:

- أين نحن؟

غير أن الأمريكيين كانا ينتظران هبوطهما من السيارة فلم يجيبا.

كرّرت نورا السؤال باللغة الألمانية متوجهة به إلى البواب:

- أين نحن؟

فأجاب هذا:

- في سجن المدينة.

ثم أخذ بذراع نورا.

أرادت نورا أن تقول شيئا للجنديين ولكن بعد فوات الأوان إذ أن سيارة الجيب كانت قد اختفت بمثل السرعة التي جاءت بها.

التفتت نور إلى تريان الذي كان شاحب الوجه. وانغلقت الأبواب الحديدية خلفهما.

لقد أصبحا الآن في باحة السجن.

-109-

أودع تريان كوروغا في الزنزانة رقم «5» من الطابق الأرضيّ أمّا نورا فقد اقتيدت إلى الزنزانة رقم «2» في الدور الثالث.

قال تريان في نفسه عندما أضحى وحيدا:

- لعلهم أخطؤوا.

كان يحاول معرفة أسباب هذا التطوّر. لكنّه تذكّر أنّ نورا كانت في تلك اللحظة نفسها سجينة في زنزانة مماثلة ففقد هدوءه.

ود تريان قبل افتراقه عن نورا أن يقبّلها وأن يقول لها جملة أو كلمة عاطفية. غير أنّ الحارس أمسك بكتفه وفرّقهما بوحشية.

استدارت نورا إلى الحارس متوسّلة لكنّه دفعها بعنف نحو الجانب الآخر من الممشى.

وهكذا قُدّر لهما أن يفترقا في ممشى السجن.

- أعتقد أنهم يخلطون بيني وبين مجرم يحمل اسمي أو يشبهني لا يعرف إلاّ الله من أمره شيئا. ولكن لماذا أوقفوا نورا؟

راح تريان كوروغا يقرع الباب بقبضتيه ليستدعي الحارس، وهو يفكّر في سره:

«كنت أنتظر أن يوقفني الروس. لأنّ الأيدي النظيفة عندهم تكفي لاعتقال الشخص. بل إنّهم لو أوقفوني دون أن ينظروا إلى يدي أو أن يكون هناك أي داع لما استغربت تصرفهم فالمرء يتوقّع كل شيء من الروس.

لقد قطعت مائتي كيلومتر سيرا على الأقدام لأبتعد عن مجتمع يعتبر فيه "الافتقار للأدلّة" سببا كافيا للتوقيف أو القتل أو النفي.»

راحت قبضتاه تؤلمانه غير أنّه استمر يقرع الباب دون هوادة.

لم يكن يضرب الباب لاستدعاء الحارس فحسب بل ليعاقب نفسه على قطعه مائتي كيلومتر عبثا وهو يجرّ نورا وراءه، نورا ذات القدمين المنتفختين المثخنتين.

حدث نفسه قائلا: «كان يستطيع الألمان توقيف نورا لأن الألمان كانوا نازيين وأعداء اليهودية.»

قال الحارس الذي ظهر على عتبة الباب:

- ماذا تريد؟

قال تريان:

- أريد أن أتحدّث إلى مدير السجن فورا. لقد أُوقفنا -أنا وزوجتي- خطأ.

فأجاب الحارس ساخرا:

- لا أشك في ذلك. فكلّ الوافدين إلى هنا، يدّعون أنهم أُوقفوا خطأ.

قال تريان:

- لا أسمح لك أن تسخر مني! أريد التحدث إلى مدير السجن فورا.

- ليس هنا مدير للسجن. لقد أوقفكما الأمريكيون. ونحن هنا نشرف على الإدارة. أي أننا سجناء بشكل ما.

- إذن، أريد التحدث إلى الأمريكيين!

فقال الحارس:

- إن الرقيب لا يأتي إلاّ مرّة كلّ أسبوع، يوم الاثنين.

تذكّر تريان أنّه كان في يوم الاثنين فسأل مذعورا:

- أتعني أنّ عليّ أن أنتظر حتّى الاثنين المقبل قبل أن أتصل بمسؤول ما؟ أتعتقد بأن زوجتي تستطيع البقاء أسبوعا كاملا في السجن؟

قال الحارس:

- لا حول لي ولا قوة. تستطيع أن تحدثني بما تشاء وتستطيع كذلك أن تقرع الباب ساعات وساعات ولكن عبثا. فلن أستطيع حيالك شيئا، والرقيب لن يعود إلاّ يوم الاثنين المقبل.

وأغلق الباب.

- أعلم من تشاء أو لا تُعلم أحدا بأنني لن أقرب الماء ولا الطعام حتّى تحين اللحظة التي أتحدث فيها إلى مدير السجن لمعرفة سبب توقيفي. إنّه الأسلوب الوحيد الذي أستطيع اللجوء إليه للاحتجاج. وسأستعمله.

سأل الحارس:

- هل ستضرب عن الطعام؟

- وعن الماء أيضا!

لبث الحارس برهة في الباب والمفاتيح في يده وراح ينظر إلى تريان بإشفاق ثم أغلق الباب:

- يا للأسف! أنت ما تزال في ريعان الشباب!

وأدار المفتاح في القفل دورتين.

-110-

- قرعت نورا وست باب زنزانتها بيديها طيلة نصف ساعة فجاء حارس يصغي دون أن يفتح. نظر إلى الزنزانة عبر فتحة في الباب وقال لها:

- إذا لبثت تقرعين الباب هكذا فإنك ستعاقبين. لا يحقّ للسجناء قرع أبواب زنزاناتهم.

وابتعد الحارس.

تمدّدت نورا وست على السرير. لكنّها لم تلبث حتّى نهضت مذعورة وهي تغمغم: «من المؤكد أن السرير حافل بالقمل». كانت خائفة. ودّت لو تقرع الباب لتطلب غطاء آخر أو لتستعلم على الأقل عمّا إذا كان هناك قمل أم لا. لكنّها كانت تعرف أنّه ليس من حقّها أن تقرع الباب. فاستمرّت تذرع الزنزانة.

كانت تشعر في أعماق نفسها بأنّها مذنبة، وبأنّ توقيفها حق وعدل. فقد استحوذت فكرة السجن على عقلها ليلَ نهار منذ أن زوّرت أوراقها المشيرة إلى أصلها اليهودي واشترت كلّ ذي علاقة ورَشَت لتسحب تلك الوثائق من ملفات الأحوال المدنية. لذلك كانت تنتظر كل يوم وصول رجال الشرطة فلا بدّ أن تُكتشف يوما وتُعتقل. كانت ترتعد خوفا خلال رحلتها في ألمانيا كلّما وقع بصرها على شرطي: إنّ أوراقها مزوّرة!

ولم تكن السنوات الأخيرة غير فترة انتظار طويلة: انتظار الساعة التي ستحين لاعتقالها.

غمغمت: «ولقد حانت الساعة. لقد اكتشفوا الآن أنني يهودية ولن أستطيع الخلاص بعد اليوم».

كانت ترتعد من الخوف ويقشعرّ جسمها رعبا.

«إنّني سخيفة إذ أظنّ أنّ الأمريكيين قد أوقفوني بسبب إخفائي نشأتي العنصرية وتزييفي أوراقا في رومانيا. لكنّني مع ذلك أشعر بأنّ هذا هو سبب توقيفي الحقيقي، والسبب الوحيد. أعرف أن هذا غير منطقي لكنّه كذلك: فأنا مذنبة، سأنال عقابي وسيكون عقابا مثاليا، عقابا قاسيا، لكنني أستحقه.»

شعرت أليونورا وست بالبرد. فلم تكن ملابسها الداخلية الشفافة الرقيقة التي تشبه فقاعات الصابون وثوبها الخفيف الرقيق قادرة على صدّ الرطوبة الباردة التي تتسرّب من الجدران الحجرية.

اخترق البرد بشرتها وبلغ عظامها. فكانت تشعر بتلك الرطوبة منتشرة في أعماق جسدها. لم تشعر قطّ بالبرد في كليتيها بل إنّها ما كانت تعرف تماما موضع الكليتين ولا الحجم الذي يمكن أن تكونا عليه. أمّا الآن فقد أحسّت ببرودة في الكليتين ولم تكن البرودة مقتصرة عليهما فقط بل إنّ أمعاءها كانت كذلك متجمّدة.

غطت أليونورا وست ركبتيها بثوبها لكنّ ذلك التدبير لم يُجْدِ فتيلا. كانت تخاف الجلوس على السرير فراحت ترتعد وترتجف وبدأت أسنانها تصطكّ.

كان الجوّ خارج الزنزانة حارّا، ولكن لا أهميّة لذلك طالما أنّها كانت ترتجف من البرد وأسنانها تصطكّ وكأنّها في أوج الشتاء. حاولت أن تجثو وسط الزنزانة لتبعث الدفء في أوصالها غير أنّها شعرت في تلك اللحظة بالحاجة الجسدية الملحّة إلى بيت الخلاء. أحسّت بمئات من الإبر تخترق مثانتها ولم تعد قادرة على إخضاع عضلاتها لإرادتها.

تذكّرت القصص التي كانت تقرؤها: في زنزانات السجون يقوم وعاء

أو صحفة مقام دورات المياه. لكنّها لم تجد في زنزانتها غير سرير ومائدة صغيرة ونافذة مشبّكة. تقدّمت نورا نحو الباب ورفعت يدَها لتطرقه.

قالت في سرّها: «سوف يأذنون لي ولا شك بالذهاب إلى دورات المياه.»

وفي تلك اللحظة تذكّرت كلمات الحارس الألماني القاسية: «إذا قرعت الباب ستعاقبين!». فأسقطت يدها إلى جانبها.

قالت: «لقد أخطأت في قرع الباب حين لم يكن هناك داع لقرعه وعادت تسير في طول الزنزانة وعرضها.

توقفت من جديد ورفعت يدها. لكنّها لم تهو بها على الباب لأن عبارة الحارس كانت تدوّي في أذنيها: «ستعاقبين إذا قرعت الباب!».

وبينما كانت تتذكر تلك الكلمات سرى في جسمها تيار كهربائي: إشارة الخطر. شعرت بأنها فقدت سيطرتها على عضلاتها. أحسّت بسراويلها الحريرية تبتل وبالبلل ينتقل إلى حمّالة جواربها فإلى الجوارب. شعرت بشيء رطب وساخن معا يسيل منحدرا على فخذيها فجوربيها ليبلغ زوج حذائها.

بذلت أليونورا وست جهدا جهيدا لتتمالك نفسها غير أنّ عضلاتها وبشرتها وكل جسمها ما عادوا ملكا لها فازدادت انكماشا. وكلما ازداد سروالها بللا وشاع فيه الدفء، اجتاح كيانها إحساس بالراحة والتحرر لم تشعر بمثله من قبل. كانت كلّ عضلة من عضلاتها وكلّ ثقب من مسامّها وكلّ ليف من ألياف جسدها يسترخي رويدا رويدا. وكان الإحساس الذي خالج نفسها بالغبطة أقوى من أي إحساس شعرت به من قبل. كان لذة حقيقية بل إنّه كان أكثر من لذة. كان نشوة. وبفضل هذه اللذة انفصلت عن كلّ العوالم الأرضية. وصارت بعيدة عن مضمار الزمن. صار جسمها كله متحررا.

شعرت أليونورا وست بأنّها تفرغ مثانتها منذ ساعات وساعات دون انقطاع ولا توقف. لكنّها عندما رأت سطح الأرض مبتلاّ حولها، اعتراها

الذعر والذهول فانتفضت واقفة وهرعت إلى زاوية الزنزانة تحتمي بها وكأنها تبحث عن مخبأ. كانت تلك الساعة من أعصب ساعات حياتها. فقد تبلّلت الأرض كلّها وسالت «الأملاح» إلى أسفل السرير والمائدة وتجمّعت أمام قدميها.

أدركت أنّها ارتكبت أمرا محظورا وأنّ ذلك الأمر سيُكتشف ويؤدي إلى عقابها وعاد صوت الحارس القاسي يدوّي مهدّدا في أذنيها: «ستعاقبين!».

همّت بتمزيق ثوبها لتجفّف الأرض غير أنّها أدركت عقم المحاولة. فقد كان السائل من الوفرة بما يضيق ثوبها الحريريّ عن امتصاصه، حتّى ولو استعملت في سبيل ذلك ما عليها من ألبسة رقيقة شفافة. وظل ذلك الصوت قريبا منها وظلّت تسمعه دون فكاك: «ستعاقبين! ستعاقبين!».

تأكّدت أنّها لن تستطيع الاختفاء وأنها ستكتشف فتصبح كل محاولة للإفلات من العقاب غير مجدية. فغطّت عينيها بقبضتيها اللّتين لم تنزع عنهما القفازين الشفافين المصنوعين من الدانتيلا على شكل العنكبوت وراحت تبكي من اليأس.

-111-

قال الرقيب غولد سميث، مدير السجن.

- إنّ ما وقع لكما يدعو إلى الأسف الشديد. أقدّم لكما اعتذاري وأعرب عن أسفي الشديد لأنّني لم أطّلع على مسألتكما من قبل.

كان قد مضى أسبوعٌ على توقيف تريان كوروغا وأليونورا وست وكان تريان ممدّدا على سريره لا يستطيع الحراك لأنه لم يقرب طعاما ولا شرابا منذ سبعة أيام.

جاءهما الرقيب غولد سميث بأشيائهما في سيّارته وراح يساعد نورا على ترتيبها. وقدّم لهما السجائر وقد بدا عليه انزعاج شديد. وقال:

- سيُطلق سراحكما غدا صباحا وسأبحث لكما بنفسي عن مسكن

أقودكما إليه بسيارتي. إنّني آسف بصدق لما حدث لكما.

كان تريان كوروغا وأليونورا وست صامتين واجمين.

قال الرقيب غولد سميث لرئيس الحرس:

- إنّ السيدة والسيد كوروغا لا يعتبران موقوفين. لقد أُدخلا هنا خطأً وسيخرجان صباح غد لأنهما لا يملكان مأوى في الوقت الحاضر. لذلك فإنّهما سيقضيان ليلتهما في هذه الغرفة فقدم لهما أغطية نظيفة كافية واعتبرهما ضيفين علينا، ولا أقلّ من ضيفين.

مضى الرقيب وعاد بعد نصف ساعة يحمل صُرّة فيها أطعمة وقدّم إلى تريان برتقالا وعددا من «الكريب فروت». وقبل أن ينسحب اعتذر لهما من جديد وضغط على يد تريان مصافحا ومضى.

كان رئيس الحرس يراقب هذا المشهد، جاحظ العينين وكأنه يشاهد معجزة.

قالت أليونورا:

- لقد كنت واثقة خلال كلّ هذا الوقت من أنّ الأمريكيين سيقدّمون لنا اعتذاراتهم. إنّ الولايات المتحدة بلد تقطنه أمة متمدّنة.

كان تريان مصابا بالحمّى فنام على الفور. وحلم خلال نومه أنّه على سطح غوّاصة وأنّ كل الأرانب البيضاء ماتت عن آخرها فاستيقظ وهو غارقٌ في عرقه وجلبابُه مبتلّ. وهتف: «لا أمل بعد موت الأرانب البيضاء.»

كان قد صاح خلال نومه بهذه الحقيقة بكلّ قواه غير أنّ البحارة أبَوْ تصديقه...

-112-

لم يعد الرقيب غولد سميث صباح اليوم التالي فلبثت نورا تنتظره طيلة ذلك النهار، وهي تقول:

- من يدري ما الّذي منعه من الحضور؟ لكنّه سيحضر غدا حتما.

وكان رئيس الحرس من رأيها. غير أن الرقيب لم يحضر في اليوم

التالي ولا في اليوم الثالث. ومضى أسبوع فجاء رقيب آخر بدلا منه.

قال مدير السجن الجديد:

- لست مطّلعا على قضيتكما! لقد عاد الرقيب غولد سميث إلى الولايات المتحدة دون أن يترك لي إشارة عنكما. لكنني سأبحث في أمريكا وأطلعكما يوم الاثنين المقبل على النتيجة.

ومضى.

كان شابا ذا شعر أحمر يغطّيه الكلف. لم يشأ ذكر اسمه حتّى ولا لرئيس الحرس. وكان توقيعه معقّدا غير مقروء.

وفي الأسبوع التالي عاد إلى السجن لكنّه لم يُمض في مكتبه إلاّ فترة قصيرة وكانت حركاته تدلّ على عصبيّة ظاهرة.

فلمّا جاء تريان وزوجته للقائه في مكتبه وجدا أنّه قد غادر السجن فاضطّرا إلى الانتظار أسبوعا آخر.

كان الرقيب في هذه المرّة سيّئ المزاج. قال:

- لقد سألت عن التعليمات الصادرة بخصوصكما فأُعلمت بأنكما موقوفان كالآخرين وليس هناك ما يسمح لكما بجراية غذائيّة خاصة.

وأدار لهما ظهره وأصدر أمره إلى رئيس الحرس:

- ينبغي سجنهما في زنزانتين منفصلتين وإخضاعهما للنظام الغذائي الساري مفعوله على الآخرين. لا أقبل أية استثناءات في السجن.

حملق رئيس الحرس في وجهه وجحظت عيناه وهو يحاول إقناع نفسه بصحة ما سمع وقال مردّدا:

- لقد فهمت: زنزانتان منفصلتان ونظام غذائي عاديّ دون استثناء.

وكان صوته متهدّجا...

-113-

قالت نورا وهي تصغي إلى وقع الحارس في الممشى:

- لقد جاؤوا يفصلوننا!

ارتمت على عنق تريان باكية منشجة وقالت:

- أفضّل الموت على الانفراد في زنزانة من جديد!

وقف رئيس الحرس بالباب يلوّح بحلقة مفاتيحه. لم تلتفت نورا إليه لأنها كانت تعرف سبب مجيئه كما يعرف تريان ذلك. شخص ببصره إليه. ودّ أن يتوسل إلى الحارس أن يبقيهما معا بضع دقائق أخرى. لكنّه لم ينطق بحرف واحد لأنه كان يعرف عقم المحاولة.

قال الحارس:

- سوف أسرّح خلال الصيف المقبل لأنني رجل مسن. ومن كان في سنّي لا يروق له أن يلعب «الطميمه». بل ولا أريد أن ألعب هذه اللعبة.

ثمّ صمت برهة وراح يستجمع قواه وكأنه يحاول إزاحة عبء ثقيل. وقال:

- ستبقيان معا كما كنتما وسأترك لكما الباب مفتوحا.

سألت نورا:

- هل رجع الرقيب عن أمره؟

فأجاب الحارس:

- لم يرجع الرقيب عن أمره.

ومضى وهو يهز مفاتيحه، تاركا باب الزنزانة مفتوحا على مصراعيه.

-114-

سألت نورا بيأس:

- ماذا يحمل الأمريكيون نحونا؟ لمَ يبقوننا في السجن منذ ستة أسابيع؟

فأجاب تريان:

- لا حقد للأمريكيّين علينا بل إنّهم لا يشعرون بوجودنا أصلا.

- وكم ينبغي لهم من الوقت ليعرفوا أنهم أوقفونا وأودعونا السجن؟ فلم أعد أستطيع الاحتمال!

قال تريان:

- لن يتحقّقوا أبدا من وجودنا. فالحضارة الغربيّة في مرحلتها التقدميّة الأخيرة لا تحفل بالفرد. وليس هناك ما يدعونا إلى الأمل بأنهم سيحفلون به. إنّ هذا المجتمع لا يعرف إلاّ بعض المقاييس عن الفرد. أمّا الإنسان المتكامل، الإنسان بصورة فردية فلا وجود له في هذا المجتمع. أنت أليونورا وست التي تبقين في السجن دونما ذنب، وأنا وكثير غيرنا لا وجود لهم ولا أثر. إننا عديمو الوجود. ووجودنا مقتصر على اعتباره كسرا في حسابات الكميات الصغرى. أنت مثلا، لست إلاّ مواطنة عدوة اعتُقلت في أرض ألمانية. وهذا أقصى درجات الإحصاء في المجتمع، لا يتعرّف عليك إلاّ على ضوء هذه الخطوط المميّزة ولا يعاملك إلاّ مع النوع أو الفصيلة التي تنتمين إليها وحسب قواعد الضرب والتقسيم والطرح. لست إلاّ جزءا من رومانيا وقد أوقف هذا الجزء. والخطيئة أو الجريمة التي سببت هذا التوقيف راجعة إلى فصيلتك.

قالت نورا:

- مع ذلك لا بدّ وأن يكون للأمريكيين سبب لاعتقالنا. إنّهم حاقدون علينا. ويشتبهون بأمرنا. وإلاّ لأطلقوا سراحنا. أتألم كثيرا لأنني لا أعرف سبب اعتقالنا، لا بدّ أن يكون هناك سبب!

أجاب تريان:

- هناك سبب ولا شك. لكنّه سبب سخيف شاذ من الناحية الإنسانيّة ومعترف بعدالته من وجهة نظر الآلة. فالغرب ينظر إلى الإنسان بعيني التقنية. أمّا الإنسان المخلوق من لحم وعظم، القادر على الشعور بالفرح والألم، فإنه غير موجود. ولهذا السبب، فإن واقع توقيفنا واحتفاظهم بنا في السجن بل وإعدامنا غدا إذا أرادوا لا يمكن أن يعتبر جُرمًا. كان يمكن أن يكون كذلك لو كان متعلّقا بواقع بشر من لحم ودم. غير أن المجتمع الغربي عاجز عن الاعتراف بالرجل الحيّ. وهو عندما يعتقل شخصا أو يقتله فإنه لا يعتقل شيئا حيا بل رقما أو إشعارا. فإذا راعينا

المنطق الصحيح وجدنا أن هذا الجرم لا يمكن أن يُعزى إلى المجتمع الغربي إذ لا يمكن أن تُتّهم آلة من الآلات بالقتل ولا يمكن لأحد أن يطلب من آلة مّا معاملة الإنسان معاملة تنطبق على مميزاته الشخصيّة.

سألت نورا:

- ماذا يمكن أن يكون السبب العادل الكامل الذي دفع الأمريكيين إلى اعتقالنا من وجهة النظر التقنيّة؟

فأجاب تريان:

- أجهل السبب. وكلّ ما أعرفه، هو أنّ واقع إخضاع الإنسان للقوانين والمقاييس الآلية، تلك المقاييس الممتازة بالنسبة إلى الآلة وحدها، يساوي جريمة قتل. إن الإنسان الذي يُرغم على العيش في الوسط والجوّ اللّذين تعيش فيهما الأسماك، يموت خلال دقائق معدودات. والعكس صحيح. لقد خلق الغرب حضارة تشبه الآلة وهو يرغم الإنسان على الحياة في صميم هذا المجتمع ويدعو إلى التطبّع بطبائع الآلات وقوانينها. لكنهم بذلك يقتلون الإنسان بإخضاعه للقوانين التي تهيمن على الشاحنات والساعات.

الناس ليسوا كذلك...

الشعوب ليست كذلك.

ليس كلّ إنسان مشابها في القوّة أو في الضعف لكلّ إنسان آخر.

الآلات وحدها يمكن أن تكون متكافئة فيما بينها. هي وحدها يمكن أن تُستبدل وأن تُفكّك أجزاؤها وتُحوّل إلى عناصرها الرئيسيّة أو إلى حركات أساسيّة. فإذا تشبّه الإنسان بها حتّى يماثلها، فلن يبقى حينها إنسان واحد على سطح الأرض.

زفرت نورا بينما استرسل تريان يقول:

- أنت غير موجودة بوصفك من الأحياء، أو إذا شئت، أنت موجودة ولكن يُنظر إليك مشوّهة مُفكّكة بعيني الآلة.

فلا قيمة للإنسان في المجتمع التقني كما هو الحال في المجتمعات البربريّة. وإذا كانت له بعض القيم فإنها تافهة. ومن ذلك يتضح أنك لم تُعتقلي في حقيقة الأمر.

- ألسنا موقوفين؟

- أبدا. وأقصد أننا رغم مرور ستة أسابيع على بقائنا في السجن لا يمكن أن نكون موقوفين. لأنّ شخصيتنا وكياننا الفردي لا وجود لهما في المجتمع الآلي الغربي. لذلك فإن كيانا لا وجود له لا يمكن كذلك أن يُعتقل ويُسجن.

قالت نورا:

- هذا لا يعزيني. نحن غير موقوفين مع أننا في السجن.

- بل إنّه عزاء. إنّه العزاء الأوحد في هذه الساعة المتأخرة من التاريخ.

-115-

قال رئيس الحرس وهو يدخل زنزانة كوروغا:

- لقد انتهى كل شيء الآن. اقرأ هذا البلاغ. لقد استسلمت مدينة ويمار ومدينة «سورينج» إلى الروس وقد اجتاحتهما الوحدات الروسية بعد أن نقلتها سيارات كبيرة طيلة اللّيل. لقد انسحب الأمريكيون من المدينة ولم يبق تحت سيطرتهم الآن إلاّ مقرّ الحكومة والسجن وعدد من المساكن. ولا يحق لأحد مغادرة المدينة. فقد أحاطت بها الشرطة العسكريّة منذ الصباح الباكر.

قرأت نورا البلاغ في الصحيفة وراحت تنقل الطرف بين تريان والحارس المستند إلى الباب.

سألت:

- وعندما يُسلّم السجن إلى الروس، سنبقى فيه لنُسلّم إليهم بدورنا أليس كذلك؟

فأجاب الحارس:

- أخشى أن يكون كذلك. سوف يستولي الروس على السجن صباحا أو بعد الظهر أو في المساء على أقصى تقدير. لا يمكن تحديد الوقت.

ضغط تريان كوروغا رأسه بين يديه يفكّر لحظة ويستعيد في ذاكرته عددا من الأحداث: «الفرار، مائتي كيلومتر، روسيا، الرعب والذعر، استباحة النساء، سيبيرا، أقدام نورا المنتفخة المقروحة، المحقّقين، السياسيين، تسليمهم عند تسليم السجن وكأنّهم عبيد مغلولون.»

قال تريان:

- لا تهتمّي بعد الآن إلاّ بالأهم لأنّ الزمن لا يسمح بغير ذلك. لا يجب أن نحتفظ بالأسرار في هذه اللحظة ويستطيع رئيس الحرس أن يصغي إلينا. إنّني أعرف أنّ الأمريكيين سيسلّموننا ونحن في زنزاناتنا إلى الروس وأعرف أن هذا العمل جريمة. لكنّني إذا نظرت إلى الأمر من زاويتهم أدركت أنهم أبرياء. إنّهم يشبهون في سذاجتهم القاطرات التي تبدو كأنها تبتسم عندما تسحق إنسانا على الخط الحديدي. لقد حوّل الغربيون الخطيئة ذاتها إلى مقياس محدود موحّد. لقد ضغطوا ذلك المقياس حتّى أعدموه. بل أستطيع الإقرار بأنهم نسوا كل مقياس للخطيئة. فلا ذنب لهم في ذلك. بل الذنب ذنب الحِضارة. غير أنّ كل هذا عديم الفائدة في الوقت الحاضر. ولقد ذكرته لأُبعد الشكّ والتورية عن الحديث. سنصبح بعد لحظات ملكا للروس أي لأشد الرجال وحشية بفضل أسلوب حكمهم على الأرض. فإذا كنت أستطيع احتمال «الرجل الآلي» الذي تحوّل إلى مخلوق عديم الإحساس فإنّني لا أستطيع أبدا مجابهة «الوحش المفترس الآلي». ولا أريد ذلك. سأحاول أن أفرّ قبل أن أسلّم إلى الروس فإذا لم أفلح قتلت نفسي.

والتف تريان كوروغا إلى الحارس وقال:

- هل تساعدنا على الهرب؟

فقال هذا:

- سأعمل ما في وسعي. إنّني أريد الذهاب من هنا أيضا لأنني نمساوي. سأذهب إلى فيينا لكنني لن أستطيع الذهاب الآن.

قالت نورا:

- ماذا يصيبني بعد فرارك؟ فأنا لا أستطيع الهرب! أشعر بالخوف. وأفضل ما تعمله يا تريان هو أن تقتلني!

قال تريان:

- بل سنفرّ معا!

فقال الحارس:

- يحسن بك أن تحاول الفرار أوّلا. فالأمر ليس مستحيلا. لقد دُمّرت الجدران بالقنابل والصعوبة هي في بلوغ الفناء. ومتى بلغته أصبح الأمر لعبةَ أطفال.

-116-

قالت نورا:

لا أجد في نفسي الشجاعة على الهبوط من الدور الثالث على الحبل. أمّا أنت فإنك رجل ويمكنك أن تهبط.

كان تريان كوروغا يربط الأغطية بعضها ببعض ليصنع منها حبلا. قال:

- لا يجب أن تخافي. سوف أربطك بالحبل وأدليك من النافذة وعندما تبلغين الأرض تتسللين على طول الجدار، وتختبئين قرب الشجرة التي أشرت إليها.

كانت نورا ممسكة بطرف الحبل بينما كان تريان يعقده. فأفلت الحبل من يدها وقالت:

- لا أستطيع الفرار... عندما تدليني من النافذة لا يمكنني إلاّ أن أفكر في أنهم سيطلقون عليّ الرصاص. ومجرد التفكير في ذلك يجعلني أفقد شعوري. ألا تظن بأنهم سيطلقون عليّ النار عندما أكون هابطة؟

فأجابها تريان:

- هذا ممكن ولكن ينبغي أن نحاول فلعلّهم لا يطلقون. على كل حال إننا بهذه العملية نقابل احتمال النجاة وذلك خير من أن نقتل أنفسنا مباشرة.

سألت نورا:

- وماذا لو بقينا لدى الروس؟ قد لا يكون الشيطان شديد السواد كما يصفونه. إنّ هناك عددا كبيرا من البشر تحت الحكم الشيوعي. وبما أنّهم على قيد الحياة فإننا نستطيع أن نعيش مثلهم.

قال تريان:

- أنت على حق. هناك بشر يعيشون في الدولة الشيوعية. ولعلّ حياتهم ليست أكثر مشقة وصعوبة من حياة الرجال في الغرب.

ليست هناك زاوية نظر لا يمكن للمرء أن يحكم منها. ليس في العالم حقائق موضوعية، إنّ كل ما فيه ذاتي. أمّا أنا فإنّني لن أتقبّل أبدًا أن أعيش في الاتحاد السوفياتي. وقد يبدو عنادي غريبا، لكنني أراه من وجهة نظري عادلا صحيحًا. إنّ الكائن البشري لا يجد أشياء عادلة إلاّ حسب وجهة نظره الشخصيّة. و شخصيا لا أريد الوقوع في أيدي وحوش الفولغا الآليين. قد أكون مجنونا لكنني لا أتمسك بالحياة بصورة خاصة. إنّني أستطيع التخلي عنها متى أشاء. لكنّني لن أتخلّى عن الحياة بل أريد أن أحياها في شروط تبدو لي أكثر ملاءمة. يمكن لأيّ كان أن يبرهن لي على أنّ أسلوبي في الاحتفاظ بالحياة ليس أسلوبا حسنا. وأنا أتقبّل أيّ نقد. لكنني لا أرتضي أبدًا أن يدلّني أحد على الطريقة التي يجب أن أعيش بها حتّى ولو اقتنع المتكلّم بوجاهة رأيه وأراد أن يرغمني على اتباعه. إن حياتي ملكي أنا وهي ليست ملكا للوحدة الاشتراكية أو للمخابرات السياسيّة أو لغيرهما. لذا فإنّ من حقي أن أحيا حسب الطريقة التي أنتقيها بنفسي فأستطيع إذا شئت محاكاة حياة المحقّق

نفسه. لكنني لا أرغب في ذلك ولو رغبت فيه لما جاز لأحد لومي أو الادعاء بأنني أسأت العمل أو أحسنته. إنّني أتصرّف بحياتي كما أشتهي. لذلك فإنّني أرفض أن أعيش على الطريقة السوفياتية. ولذلك فإنّني سأقتل نفسي.

راحت نورا تبكي. بينما استمرّ تريان يعقد الحبل ويربطه بعد أن أعاد الطرف الثاني إلى يد نورا التي أمسكت به بقوة.

قال تريان:

- انظري إذا كان الأمريكيون قد غادروا برج الحراسة في الفناء.

خرجت نورا إلى الممشى ومضت إلى باب السجن فأطلّت منه على أبراج الرقابة لتتأكّد من أنّ الروس لم يحتلّوها بعد لأنهم لو فعلوا ذلك لفات الوقت.

قال تريان:

ينبغي مراقبة ذلك مرّة كلّ خمس دقائق. إنّ اللحظة المناسبة لفرارنا هي تلك التي تسنح لنا أثناء تبادل الحرّاس الروس مع الحرّاس الأمريكيين. فإذا لم ننتهزها أفلتت الفرصة من أيدينا.

واستمرّا يلفّان الحبال ويبرمانها فأمضيا ساعات النهار الأولى. وأخيرا راحا يختبران طول الحبل ومدى مقاومته.

كان أحدهما يخرج من الغرفة كلّ خمس دقائق ليراقب أبراج السجن ويعود معلنا لزميله:

- ما زال الأمريكيون في أمكنتهم!

كانا مسرورين لبقاء الأمريكيين لأنهما اعتقدا أنّه طالما لبث الأمريكيون في أمكنتهم فإن الخطر لم يكن قد دنا والفرصة لم تكن قد أفلتت.

-117-

في الساعة السادسة مساء، أُخرج تريان كرووغا ونورا وست من زنزانتهما ونُقلا إلى سيّارة نقل عسكريّة كبيرة مع الموقوفين الآخرين.

كان تريان شاحبا و نورا تبكي.

قال تريان:

- لقد انتقوا موضعا آخر يسلّموننا فيه إلى الروس. إنّ السيارة تتجه نحو الشرق.

كانت شوارع مدينة ويمار تعجّ بالجنود الروس وبالسيارات الروسية.

سأل تريان:

- أتوافقين على أن نقفز من السيارة؟ إنّهم ينقلوننا حتما إلى سجن روسيّ.

كانت السيّارة قد خرجت من المدينة فراحت نورا تنظر إلى الحقول الخضراء ثم إلى الشمس، وكان الاتجاه إلى الشرق واضحا تماما.

قال تريان:

سنجتاز غابة بعد حين وليس عليك إلاّ أن تقفزي أولا ثم تختبئي في دغل وتنتظريني. وسأقفز بعدك.

كانت نورا تبكي. فقال تريان:

- استعدّي.

أجابت:

- لن أستطيع الآن لأنني شديدة الخوف. لننتظر قليلا.

قال تريان:

- لن تسنح لنا فرصة أفضل من هذه. انظري إلى الأدغال على جانبي الطريق. لا شيء أسهل من الاختفاء فيها. ألا تريدين القفز؟ انظري لقد أبطأت السيارة!

قبض على ذراع نورا فتشبثت بيديها في المقعد وتقلصت أصابعها على جوانبه وقالت:

- كلاّ. تستطيع أن تقفز أنت. أقسم لك أنّني لن أحقد عليك إذا تركتني ونجوت بنفسك وحيدا.

جلس تريان كوروغا إلى جانبها وأغمض عينيه كي لا يرى الأدغال الكثيفة التي كان يمكن أن يختبئ فيها. كان يعرف أنهما لن يجدا فرصة أطيب من هذه.

ولما فتح عينيه وجد أنّه يمضي في مواجهة الشمس والشمس تبهر بصره فدهش وذهل لأنها كانت أمامه بعد أن كانت وراءه منذ حين.

كانت السيارة تتجه الآن نحو الغرب.

أمسك تريان بيد نورا وقال لها:

- إن الأمريكيين نبلاء رغم كل شيء. إنّهم لن يسلموننا إلى الروس!

كان وجهه يطفح بالبشر فسألت نورا:

- وإلى أين يمضون بنا؟

تجهّم وجه تريان وقال:

- إلى سجن أمريكي.

شعر بالخجل لما بدا عليه من حبور. قال معتذرا.

- اصفحي عني يا نورا لما بدر مني من سرور. إن من الجنون أن يبتهج المرء لأنه سيحبس في سجن دون آخر.

لكن هذه هي المرحلة الأخيرة التي بلغها الإنسان في أوروبا.

لم يكن أمام الإنسان سوى اختيار واحد من سجنين.

-118-

سأل الضابط الأمريكي.

- ألست أنت إيوهان موريتز؟

وابتسم ابتسامة وديعة متورّدة وأردف:

- إن قائد المدينة يودّ أن يسمع من فمك كيفيّة فرارك. ألست أنت الذي أنقذت خمسة من المساجين من معسكر الاعتقال؟

احمرّ وجه إيوهان موريتز من الغبطة.

ما كان يصدّق أن الضباط الأمريكيين يمكن أن يأتوا إليه بسياراتهم

لاستقدامه ليقصّ بنفسه على مسامعهم كلّ ما عمله. فكّر إيوهان موريتز في سرّه: «حتى قائد المدينة سمع ما يروى عني» فقال ببهجة لم يشعر بمثلها من قبل:

- نعم. إنّني أنا إيوهان موريتز:

قال الضابط:

- لنمض! إنّ سيارتي معي.

أراد إيوهان موريتز أن يرتدي سترته لأنه كان بالقميص والسروال فقط. ورغب في وضع جواربه لأنه كان ينتعل أحذية دون جوارب.

غير أنّ الضابط كان مستعجلا فقال له:

- إنّ القائد ينتظرنا فتعال كما أنت الآن سوف تعود خلال نصف ساعة. سأعيدك بسيارتي.

صعد كلاهما إلى سيارة الجيب. راح موريتز يحدّث نفسه بأنه سيروي القصة إلى القائد دون أن يضيف إليها شيئا وأخذ ينتقي كلماته سلفا. كان مشرق الوجه من الحبور. كان يتصوّر وجه القائد ويرى نفسه جالسا أمامه يحدّثه عن قصّة الفرار.

خلال ذلك الوقت كانت السيارة قد بلغت بناء كبيرا من الحجر فالتفت الضابط إلى موريتز وقال:

- إنك ستمكث هنا.

نزل إيوهان موريتز من السيارة وهو يأسف لأنّ الضابط لم يرافقه. كان يعتقد بأنّه سيستوحي من وجوده شجاعة أكثر عند سرد قصّته. لكن السيارة كانت قد ابتعدت. أدخل حارس الباب إيوهان موريتز إلى الفناء فجاء شرطيان ألمانيان يأخذانه منه. راح موريتز يتلفت يمينا ويسارا. لم يكن يعتقد أن قائد المدينة يوافق على الإقامة في بيت بشع كهذا غير أنّه لم يجرؤ على السؤال.

ولمّا أدخل عبر الفناء إلى البيت رأى كلّ النوافذ مشبكة بقضبان

حديدية كنوافذ السجون.

سأل إيوهان موريتز:

- هل يقطن قائد المدينة هنا؟

قهقه الشرطيان ضاحكين إذ أخفقا في امتلاك نفسيهما. اقتادا إيوهان موريتز إلى أحد الأقبية حيث أدخلاه إلى زنزانة محرومة من الضوء وأغلقا الباب بالمفتاح وأداراه دورتين وهما يضحكان للسؤال الساذج الذي طرحه السجين.

-119-

استدعيت كورينا كوروغا زوجة الكاهن كوروغا إلى دار البلدية. كان الوقت يقارب منتصف اللّيل حينما تقدّم فلاّحان يربطان على ساعديهما أشرطة ثلاثيّة الألوان فقرعا الزجاج وأمراها بالمجيء معهما. كان القمر بدرا فأغلقت كورينا كوروغا الباب بعناية واحتفظت بالمفتاح في يدها.

وفي دار البلدية كان عشرة من الجنود الروس يثرثرون مع القرويين. استحضرت زوجة الكاهن أمامهم فقدموا لها قدحا من الخمر وراحوا يفحصونها من كل الزوايا.

أطرقت زوجة الكاهن بعينيها إلى الأرض وراحت في سرّها ترفع صلاة للقديس نيكولا.

أجبرها الجنود على الشرب. غير أنّها لبثت تبتهل إلى القديس نيكولا دون أن تنظر إلى أحد أو أن تمس قدح الخمر بشفتيها. فصبّ لها أحد الجنود خمرا في طوقها ورفع آخر ثوبها وراح يصبّ الخمر على جسدها. غير أنّها لم تكن تسمع شيئا ولم تكن ترى شيئا. أغمضت عينيها واسترسلت ترفع الصلوات للقديس نيكولا الذي كان يشبه الكاهن ألكسندرو كوروغا زوجها. راح الروس والقرويون يسكبون على رأسها أقداحا أخرى من الخمر وعلى قميصها وأثوابها حتّى ابتلّت كلّها. ثمّ طرحوها أرضا بوحشية. شعرت زوجة القس أن ثوبها وجسدها قد ابتلاّ

وكأنها سقطت في الماء وأحّست بأنها تغرق وتختنق وعلى الشاطئ لبث القديس نيكولا يصلي من أجلها.

وفي اليوم التالي شنقت كورينا زوجة القس كوروغا نفسها في غرفة الدواجن إثر ما وقع لها في دار البلدية.

-120-

نورا وست في اللّيلة الأولى في معسكر أوهردروف.

حدثت نورا نفسها: «لا يمكن رغم ذلك أن يكونوا قد اعتقلونا بلا سبب.»

كانت مستلقية. لم يكن لديها فراش ولا غطاء. لا شيء غير السرير ذي الألواح الخشبية. كان جسمها كله يؤلمها: وركاها، مرفقاها، ظهرها... كل جسمها.

عندما وصلت إلى المعسكر قبيل ساعات، كان اللّيل قد أرخى سدوله.

فرّق الجنود بينهما حال نزولهما من السيارة التي نقلتهما من (ويمار) واقتيد تريان إلى مكان آخر. أمّا هي فقد جيء بها إلى هنا..

حدّثت نفسها قائلة: «لا بدّ وأن يكون الوقت قد شارف الآن على منتصف اللّيل. ترى ما هي هويّة النساء اللاتي سُجنَّ هنا؟

انبعثت ضحكة مكتومة من الزاوية الأخرى للغرفة.

خيّل لنورا أنّها ضحكة رجل. غير أن الرجال لا يمكن أن يكونوا في معسكر للنساء. أصاخت السمع. تأكدت من أنّه رجل. لكنّه لم يكن يضحك. شعرت أنّه يضاجع امرأة. لأن حركاتهما كانت واضحة.

عاد الرجل يضحك من جديد غير أن الصوت انبعث في تلك المرة من الزاوية الثانية.

أحست نورا بالخوف.

قالت تُطمئن نفسها: «لماذا أخاف من هؤلاء الرجال الذين يقضون سويعاتهم مع النساء؟»

غير أنّها لم تهدأ ولم تسكن.

صمّت أذنيها فلم تعد تسمع شيئا. ولكنّها ظلّت تراهم حتّى وهي مغمضة العينين. اهتز خشب سريرها ففتحت عينيها. كان الباب مفتوحا على مصراعيه فرأت عددا من الرجال يدخلون إلى الغرفة ويقفون في وسط المهجع يتحادثون.

وكانت امرأة مرتدية جلبابا واقفة بالقرب منهم.

لم تستطع أن تضبط شعورها فراحت تصرخ. أغمضت عينيها وزمجرت بكل قواها.

لم تعرف هي نفسها لمَ راحت تصرخ غير أنّها استمرت في صراخها، لأنها كانت تخاف منَ النساء والرجال الذين في المهجع. لعلهم سيسحقونها باللكم والضرب لأنها صرخت وحرمتهم بذلك من لذاتهم.

قالت في سرها: «ما كان ينبغي أن أصرخ. إن ما فعلته سخيف. سوف يرتمون عليّ ويضربوني حتّى الموت. ولن يكونوا مخطئين في قتلي لأنني صرخت.»

هرع الرجال يغادرون الغرفة فارّين. كان عددهم كبيرا. وكان بعضهم مستلقيا على أرض المهجع نفسه مع أن نورا لم تسمع حركاتهم.

وكان آخر قد ضاجع امرأة في سرير مجاور لسريرها ومع ذلك فإنها لم تسمع صوتا لحركاته.

والآن غادر الرجال المهجع أشبه بالظلال والأشباح.

ظنّت أليونورا وست أنّها ترى أولئك الرجال أطول من المعتاد وأشدّ سوادًا من اللّيل.

ذهب بعض النسوة مع الرجال لكنهنّ عدن بعد فترة قصيرة وتسللن على أطراف أقدامهنّ واستلقين في مضاجعهنّ.

والآن عاد السكون وعادت النسوة كلّ إلى سريرها ما عدا اثنتين منهنّ لبثتا وسط الغرفة واقفتين في الظلام. كانتا مرتديتين قمصانا قصيرة صغيرة وكان شبحاهما واضحين في الظلام. كانتا صامتتين لا تتكلمان،

وكلّ واحدة منهما ملتصقة بالأخرى. سمعتهما نورا تأكلان. لقد كانتا تقضمان قطع «الشوكولاته». انتظرت نورا أن تذهب المرأتان الواقفتان وسط الغرفة إلى سريرهما. كانت تخاف أن تضرباها أو تذبحاها خلال نومها. غير أن المرأتين لبثتا واقفتين بهدوء واستمرتا تقضمان الشوكولاته دون أن تنطقا بحرف واحد.

سألت إحداهنّ بصوت منخفض:

- من التي صرخت؟ أليست الغريبة الصهباء التي وصلت مساء اليوم؟

فأجابت الأخرى:

- لست أدري. لكنني لست آسفة على صراخها. كنت قد انتهيت من رجلي، وما كانت بي رغبة في معاودة الكرّة...

لبثتا تقضمان «الشوكولاته»، دون أن تتبادلا كلمة، بينما راحت نورا تتابع حركاتهما. وأخيرا افترقتا، ومضت كلّ منهما إلى زاويتها في المهجع، فاستلقت على سريرها. وارتفع صرير أخشاب السرير ثم عاد السكون.

غير أن نورا كانت تختنق. لم تكن تستطيع النوم.

لم يكن في تلك اللحظة أيّ رجل في الغرفة. وكانت النسوة قد أوين إلى مضاجعهنّ ونمن، لكنّ الجوّ كان عابقا برائحة الخمر، والعرق، ورائحة الرجال الذين يمارسون لذائذهم البهيميّة. كانت النوافذ مفتوحة الدرفات. غير أنّ الرائحة لم تتبدّد.

لم تعد نورا وست تستطيع المقاومة.

كانت تقول لنفسها: «ينبغي أن يكون هناك سبب لاعتقالي، ولولا ذلك لما كنا حيث نحن.»

شعرت بحاجتها إلى السعال. لكنّها وضعت يدها على فمها، وكتمت تلك الحاجة خشية أن يضربها النسوة...

-121-

الصبيحة الأولى في معسكر اعتقال أوهردروف. فتح تريان كوروغا

عينيه، فوقعتا على إيوهان موريتز.

قال تريان، وهو يضغط على يد إيوهان موريتز مصافحا:

- لقد نمنا كلّ اللّيل جنبا إلى جنب! كيف وصلت إلى هنا؟

قصّ إيوهان موريتز حكايته على تريان، بادئا من النهاية. ذكر أنّ الضابط قد أتى به إلى السجن، بحجّة استقدامه ليقصّ قصة فراره على القائد. واسترسل موريتز قائلا:

- وبدلا من أن يصحبني إلى قائد المدينة ألقاني في السجن! لقد لبثت فيه، ثمانية أسابيع، في زنزانة لا نوافذ فيها، ولا شعاع من ضوء. انتظرت طوال الوقت أن يستدعيني القائد، لكنّه لم يفعل. ثم جاءوا بي إلى هنا. هذا كل شيء.

- وأنت، كيف جئت إلى هنا؟

هزّ تريان كوروغا كتفيه.

راح المساجين الذين ناموا مستلقين على الأرض يستيقظون واحدا إثر واحد. كان معسكر اعتقال أوهردروف حقلا كبيرا محاطا بالأسلاك الشائكة. يضمّ خمسة عشر ألفا من المساجين، ولا شيء فيه غير السماء والأرض والرجال.

على أركان الحاجز الشائك الأربعة، وقف جنود مسلّحون بالرشاشات قرب المصفّحات يراقبون المعسكر، ويسهرون عليه.

سأل إيوهان موريتز:

- هل لديك أخبار عن فانتانا؟

ونظر إلى وجه تريان، وقال مسترسلا:

- لا أستطيع تصديق وجودك هنا! كيف حدث والتقينا هنا وجها لوجه؟ لقد بتنا ليلتنا جنبا إلى جنب. حقّا، لا أستطيع الفهم...

-122-

كان قائد معسكر أوهردروف يهوديا. فاستبشرت أليونورا وست.

قالت تحدث نفسها: «إن اليهودي يستطيع أن يفهم آلامي أكثر من سواه. سوف يساعدني كما يساعد إحدى قريباته. سوف يخرجني من هنا.»

صمّمت على أن تروي له حكايتها، وأن تتوسل إليه، وتطلب منه مساعدتها. عزمت على التحدث إليه كما تتحدث مع أخ.

كانت جدران حجرة القائد مغطّاة بصور أخذت في معسكرات الاعتقال الألمانية.

راحت أليونورا وست تتأملها. كانت الصور بحجم الجدار، تمثّل رجالا بين قتلى ومشنوقين وجائعين، وسجناء يرتدون أثوابا مخططة، وأشلاء الجثث، وأعمدة المشانق، وسيارات كبرى مملوءة بنساء ميتات.

نسيت نورا أين كانت في تلك اللحظة. خُيّل إليها أنّها، هي الأخرى في معسكر من معسكرات إفناء اليهود.

نظرت إلى الملازم ذي الشعر الأحمر الفاتح، الذي كان في المكتب، وراحت تتوسل إليه بنظرتها، مبتهلة أن ينقذها من الفناء والجوع، وغرف الغازات والتعذيب.

غمغمت نورا في سرها: «إنّني أختك، أتوسل إليك أن تساعدني!»

لم تشعر نورا في حياتها أنّها أكثر يهودية مما كانت عليه في تلك اللحظة!

قالت نورا:

- أيّها الملازم!

كان صوتها متهدّجا، وحنجرتها مضغوطة، وكأنّ نصالا تخترق حنجرتها وتمنعها من الكلام.

قال الضابط بجفاء:

- لا يحق لك أن تتحدثي قبل أن تُسألي.

عضّت نورا وست على شفتيها وصمتت. راحت تنتظر الأسئلة.

كان الضابط يقرأ دون أن يحفل بها. وأخيرا سألها بجفاء:

- إن اسمك أليونورا وست كوروغا؟ أهي أنت؟ إنّ زوجك هو الآخر موقوف، أليس كذلك؟

كان الضابط يخاطبها بلغة المفرد. لكن لهجته لم تكن لهجة أخ.

استطرد يسأل:

- لقد كان زوجك موظفا في حكومة الدكتور أنتونيسكو؟

فأجابت نورا وست:

- كان زوجي موظفا في مملكة رومانيا.

احمرّ وجه الضابط بعد أن كان شاحبا وازداد الكلف الذي في وجهه دكنة، وارتعدت شفتاه. سأل قائلا:

- لقد وقع في رومانيا استفزاز رهيب ضد اليهود؟

لم تجد نورا وقتا كافيا للجواب، لأنه استطرد يقول:

- ألم يكن في رومانيا معسكرات اعتقال لليهود؟ لقد كان فيها معسكرات، كان اليهود يفنون فيها، سواء في غرف الغاز، أو على أعمدة المشانق، أو رميا بالرصاص أو بالنطع...

نهض الملازم واقفا.

قرّرت نورا أن تخبره بأنّها كانت هي الأخرى يهودية، وأنّها تحصّلت على أوراق زائفة، وأنّها فرّت وظلّت ترتعد خوفا كلّ ليلة.

زمجر الضابط:

- أجيبي على أسئلتي!

تأكّدت نورا من أنّه سيضربها بجمع قبضته على وجهها، فأغمضت عينيها، وانتظرت اللكمات. راح جسدها يرتعد فزعا، وفقدت الشجاعة فلم تستطع أن تجيب.

زمجر الضابط:

- أجيبي أيتها المجرمة! كم يهودية قتلت بيديْك؟ أجيبي! إذا لبثت

صامتة مزقتك إربا! كم يهودية قتلت بيديك هاتين؟

ظلت نورا صامتة.

- ألا تريدين القول! إنك خائفة الآن. الآن فقط ترتعدين. إنك تلوثين سروالك من الخوف، لكنك لما كنت تقتلين، ما كنت تشعرين بالخوف!

قالت نورا وست:

- إنّني أنا الأخرى...

صرخ الضابط حانقا:

- أيتها العاهرة النازية القذرة، أُخرجي من هنا! أُخرجي!

كانت قبضته مرفوعة مهدّدة، تكاد أن تلامس عينيها، فلم يسع أليونورا وست إلاّ الخروج.

الباب الخامس
القسم الخامس

كان تريان كورغا يكتب. وإيوهان موريتز إلى جانبه ينظر، بانتباه، إلى الطريقة التي يمسك بها قلمه بأصابعه المشدودة، ويرسم أحرفه بدقة، وكأنه ينضد عقدا من اللؤلؤ.

لم يكن إيوهان موريتز صبورا في الكتابة، وما كان يحب أن يكتب، لكنّه كان قادرا على البقاء، ساعات طويلة، ينظر إلى تريان كوروغا وهو يكتب، دون أن يشعر بملل.

كان يقول في نفسه: «عندما يكتب السيد كوروغا، يبدو كأنه يصلي أمام «الأيقونات». وعندما ينظر المرء إلى السيد كوروغا، ينسى أنّه سجين. ينسى أنّه حافي القدمين، طويل اللحية، ممزق السراويل. عندما يكتب كوروغا، فإنه يكتب كسيد، يشعر المرء أمامه برغبته في نزع قبّعته، وبالتحدث إليه بصوت منخفض.»

سأل تريان، متوقفا عن الكتابة:

- هل سمعت مرّة عن مروّضي الثعابين؟

- نعم.

فقال تريان:

- لقد لبث القديس دانيال في حفرة مع الأسود، دون أن تفترسه. لقد سيطر عليها. إن الرجال يستطيعون ترويض الثعابين، والسيطرة على الأسود. لقد كان لدى موسوليني نمران في مكتبه. وقد حوّلهما من وحشين ضاريين إلى حيوانين أليفين. إنّ الإنسان يستطيع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة. غير أنّ حيوانا جديدا ظهر على سطح الأرض في الآونة الأخيرة. وهذا الحيوان الجديد اسمه: المواطنون. إنّهم لا يعيشون في الغابات، ولا في الأدغال، بل في المكاتب. ومع ذلك فإنّهم أشدّ قسوة

وضراوة من الحيوانات المتوحشة في الأدغال. لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الآلات. إنّهم نوع من أبناء السفاح، وهو أقوى الأصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض. وجوههم تشبه البشر، بل إنّ المرء غالبا ما يخلط بينهما. ولكنّه سرعان ما يدرك أنهم لا يتصرفون كما يتصرف البشر، بل كما تتصرف الآلات. إن لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات، بدلا من القلوب. وأدمغتهم نوع من الآلة، فهم بين الآلة والإنسان، ليسوا من هذه ولا من ذاك. رغباتهم رغبات وحوش ضارية، مع أنهم ليسوا وحوشا ضارية. بل مواطنين... إنها سلالة غريبة اكتسحت الأرض.

راح إيوهان موريتز يحاول تصوّر المواطنين، لكنّه لم يفلح. انتقل تفكيره خلال فترة إلى ماركو غولدنبرغ. غير أن تريان استرسل في الحديث، فطرد صورة ماركو من خيال موريتز.

استطرد تريان:

- أنا كاتب. وفي نظري أنّ الكاتب نوع من المروّضين. فهو حين يبرز الجمال للبشر، وأقصد الحقيقة، إنّما يُرهف شعورهم. أما أنا، فأريد أن أروّض المواطنين. لقد بدأت في كتابة هذا الكتاب، وبلغت الفصل الخامس. ثم أوقفني المواطنون وسجنوني، فانقطعت عن الكتابة. لذلك فإن الفصل الخامس لم يبدأ بعد.

والآن لم تعد هناك حاجة لكتابة الفصل الخامس.

فلن أنشر كتبا بعد اليوم. لذلك أريد أن أكتب، بدلا من الفصل الخامس، شيئا لأروّض به المواطنين.

وإذا نجحت في ترويضهم، فسأموت قرير النفس. سأقرأ لك ما سأكتب. لن يكون رواية، ولا نصّا مسرحيّا، لأنّ المواطنين لا يحبون الأدب. ولكي أستطيع إيناسهم، وإخضاعهم، فسأكتب بالأسلوب الذي يتقبّلونه. سأكتب «عرائض». فالمواطنون لا يجدون من وقتهم ما يضيعونه في قراءة الروايات، والملاحم، والتراجيديات، لكنهم يقرؤون العرائض.

عريضة رقم 1 – الموضوع اقتصادي «مواد دسمة».

سأرسل إليكم عرائض كثيرة، وسأبدأ بموضوع اقتصادي. إنّني أعرف أنّ المدينة الآلية مبنيّة على أسس ماديّة، وأنّ الاقتصاد أنجيلكم. أنا شخصيا كاتب، وكل كاتب «شاهد» قبل كل شيء.

والميزة الأولى للشاهد هي الحياد الذي يجب أن يتصف به. وبناء على ذلك، فإن العرائض التي سأقدّم، ستكون شواهد على الحقيقة.

إن المشكلة التي سأعرضها عليكم، تبدو لي شديدة الأهمية. وتتعلق بالمواد الدسمة. وأنتم ولا شك على علم بنقص المواد الدسمة والحاجة الماسة إليها، التي يعرفها العالم أجمع.

عندما وصلت إلى هذا المعسكر، وجدت المساجين ينامون على الأرض، الواحد بجانب الآخر، فلم أجد مكانا أستلقي فيه إلاّ بمشقة. وكنت منهوكا خارجا من السجن، للتوّ. لاحظت أنّ الحقل الذي يحيط بالمعسكر متسع جدا. فلم أفهم سبب تضييقكم فسحة المعسكر إلى هذا الحد.

إنّ الخمسة عشر ألفَ سجينٍ، الموجودين في هذا المعسكر، يمكثون ملتصقين بعضهم ببعض. فإذا وقفوا، ظلّت مساحة قليلة خالية. أمّا إذا أرادوا النوم، فإنّ المساحة شديدة الضيق، حتّى أنهم يتراكمون بعضهم فوق بعض. وأنا، شخصيّا، لم أستطع مدّ ساقي طيلة اللّيل، وكلّ من حولي يضعون أقدامهم فوق رأسي. ولمّا كانت أرجلهم حارة وهم متمدّدون طوال اللّيل فوق جسمي، فإنّني لم أشعر بالبرد.

أعتقد، الآن، أنّني فهمت السبب الذي من أجله ضيّقتم فسحة المعسكر إلى هذا الحد. ذلك لأن المساجين يطؤون الحشائش بأقدامهم، بينما أنتم ترغبون في توفير تلك الحشائش في الحقول، لأنها مرتفعة الثمن، ومن المؤسف أن تطأها الأقدام، دون أن تنجم عن ذلك أية فائدة. فمن

الخير أن تعطى تلك الحشائش لبقرة تجترها، لأن البقرة تعطي الحليب. أما المساجين، فإنّهم لا يعطون شيئا.

ومن جهة أخرى، فإنّ جعلكم ساحة المعسكر أكثر اتساعا، سيكلّفكم مزيدا من الأسلاك الشائكة، وهذه الأسلاك مرتفعة الثمن، وليس من الضروري إنفاق مبالغ طائلة لمجرد إتاحة مساحة أوسع للمساجين، حتّى يستطيعوا النوم براحة على طول أجسادهم.

وعندما يحين البرد، ويحلّ موسم الأمطار، فإن معظم المساجين سيموتون، بينما سيموت بعضهم قبل ذلك. وعليه، فإنّ الذين يظلون على قيد الحياة بعدهم سيجدون ولا شك المكان الكافي للاستلقاء وتمديد سيقانهم. أعتقد بأنّكم عنيتم ذلك، عندما بنيتم هذا المعتقل، فلا أستطيع والحالة هذه إلاّ أن أنحني أمام دقة نظرياتكم الفنية.

لقد أصغيت، قبل أن أنام، إلى محاضرة. كان المحاضر –وهو أستاذ في جامعة برلين– يحدّثنا عن المواد الدسمة، فاسمحوا لي أن أشرح لكم في عرض الحال هذا، خلاصة محاضرته.

لقد أحصى الأستاذ حبّات الفاصوليا التي تُقدّم إلينا في الحساء الذي نأكله في المعسكر كل يوم.

لبث يعدّ ثلاثين يوما، كلّ ظهر وكلّ مساء، جميع الحبات التي تحويها صحفته. ثم جمَع، واستخرج نسبة وسطية. وهو يؤكد، بناء على إحصاءاته، أنّ السجين الواحد يتلقّى في صحفة الطعام عشر حبّات من الفاصوليا فقط. وكان المستمعون إلى محاضرة الأستاذ قد عدّوا بدورهم محتويات قصعاتهم، فأيّدوا حساب الأستاذ الدقيق وأكّدوه.

ثم أحصى الأستاذ قشور البطاطا، واستخرج حسابيا كميّة الطحين الموجودة في الحساء. ولا شك أنّ هذا الحساب الأخير تقريبي، لأنّ الأستاذ، لا يُسمح له بالدخول إلى المطبخ.

أنتم تعرفون، مثلي، أنّ الألمان قوم أقوياء في مشاكل القياسات

والإحصاءات، لذلك فإنّه يحقّ لنا أن نعتقد ونؤمن أنّ حبّات الفاصوليا قد أحصيت بدقة متناهية. فالألمان شديدو الصبر، كثيرو التدقيق. وبعد ثلاثين يوما من العمل والإحصاء المتواصل، أنهى الأستاذ دراسته، وألقى محاضرته التي قدّرها المستمعون حقّ قدرها. وكما تعرفون فالألمان شغوفون بالاستماع إلى المحاضرات، والبحث فيها عن شتى المواضيع على اختلافها. وهي عادة قديمة عندهم، ترجع إلى العصور الوسطى. وبعد أن سرد الأستاذ كيف استطاع إحصاء الحبّات، بتصفية حسائه كل يوم، بيَّن عدد الحريرات الموجودة في كلّ حبة -ولست أذكر الرقم على وجه الدقة- ثمّ أحصى عدد الحريرات الكامنة في البطاطا والدقيق، الذي لم يلحظ المساجين وجوده في حسائهم، ويؤكّد الأستاذ وجوده. فاستنتج من ذلك أنّ كلّ سجين في المعسكر، يتلقى وسطيا، خمسمائة حريرة كلّ يوم. إنّه ولا شك يتلقى أحيانا أقل من هذا العدد. فقد وقع للأستاذ نفسه أنّه لم يجد يوما حبة واحدة من الفاصوليا في حسائه، وأنه أمضى الأيام الأخيرة منقطعا عن الإحصاء، لأنه لم يجد ما يحصيه. غير أن هذا الشح يقابله، في أيام أخرى، إغداق في الكرم، إذ يبلغ عدد الحبات أحيانا خمس عشرة حبة، ويرتفع هذا الرقم أحيانا إلى ثماني عشرة. وإذن فإن المعدل صحيح.

إنّ المساجين، في المعسكر، لا ينامون كلّ النهار. ومع ذلك فقد وضع الأستاذ حساباته على أساس أنّ المساجين يستهلكون، في حالة اليقظة، عددا من الحريرات مساويا لما يستهلكونه في حالة قضائهم النهار كله في النوم. فوجد أن أقل كمية من الحريرات اللازمة لبقاء السجين في حالة حيوية تبلغ ألف حريرة.

وبما أنّ المساجين يتلقون خمسمائة حريرة في حبات الفاصوليا، فعليهم إذن أن يستهلكوا خمسمائة حريرة أخرى، من رصيدهم الاحتياطيّ من الشحم. وبعبارة أصح، من رأس المال المجمّد في أجسادهم كلّ يوم، فإنّ

السجين يفقد شهريا ثلاثة كيلوغرامات من وزنه.

إنّ كلّ هذا، ولا شك، مأخوذ على حساب المعدّل. لقد وزن الأستاذُ نفسُه المساجينَ، مستعملا وحدات مُرتجَلة. مع ذلك، فقد أثبتت التجربة أن تلك الأدوات التي ابتكرها كانت دقيقة. فإذا جمعنا الكيلوغرامات الثلاثة من الدهن التي يخسرها كلّ سجين بتحويلها إلى حريرات، نستنتج أنّ في معسكر أوهردروف، الموضوع تحت سلطتكم الإدارية، خسارة قدرها خمسة وأربعون ألف كيلوغرام من المواد الدسمة شهريا، أي أنّه في كلّ شهر يتبدّد من هذا المعسكر وحده، حمولة خمس عربات من عربات السكة الحديدية. إنّ الخمسة عشر ألفًا من المساجين يبدّدون، في الهواء المحيط بهم، هذه الكميّة الهائلة من الدهنيّات. ولكم أن تحصوا الخسارة التي تنجم عن ذلك. شخصيا لست اقتصاديا، لذلك لن أستطيع إبداء أي حلّ، أو اقتراحه. ومع ذلك، فإنّني مقتنع بأنكم تستطيعون بفضل الوسائل الآلية التي تملكونها، الإفادة من هذه المواد الدهنية الحية. فلماذا إذن تدعونها تضيع؟

هذا هو موضوع عريضة اليوم.

إنّني واثق من فهمكم الأمر، لأنكم تنتمون إلى أرقى سلالة في الحضارة الآلية، ولعلكم ترفعون تقاريركم بهذا الصدد إلى المجامع العلمية في بلادكم.

فمن البربرية أن يترك المرء خمسة وأربعين ألف كيلوغرام من الدهن تضيع هباء كلّ شهر. إن لديكم معسكرات أخرى، وأعتقد أن عدد هذه المعسكرات يبلغ، في ألمانيا وحدها، أكثر من مائتين. فلديكم إذن، كل يوم، جبال من الدهن الطازج.

لقد صرت، منذ أن استمعت إلى محاضرة الأستاذ برلين، أستنشق العبير الذي يتضوع في الأجواء، وأجده مشبعا برائحة دهن الإنسان.

إنّ معسكركم عبارة عن مكبس جبّار لاستخلاص شحم المساجين.

وقد صرت أشمّ رائحة هذا الشحم في الهواء. ألا يحدث لكم استنشاق هذه الرائحة مثلي، كلّما فتحتم نوافذ مكاتبكم؟ إن ثيابكم كلها مجبولة فيها. ولكم أن تسألوا زوجاتكم أو عشيقاتكم، اللواتي تنامون بقربهنّ ليلا، عمّا إذا كنّ لا يجدن في الرائحة التي تفوح من شعركم وجلودكم رائحة شحم الإنسان؟ إنّ النساء يفُقن الرجال بحاسّة الشم. فاسألوهنّ يُجبْنكم. أمّا أنا، فإنّ مجرّد التفكير في هذه الحقيقة تضطرب له نفسي، وأشعر بالغثيان. تفضلوا بقبول تحياتي، وتأكّدوا من أنكم ستجدونني أبدا من أكبر المعجبين بالحضارة التي تمثّلونها. إنّني واثق من أنكم، بفضل مصادركم وأساليبكم الآلية التي تمتلكون، تستطيعون الإفادة من كل هذه الكمية من الشحم. (ولا تنسوا أنني، شخصيا، أقدّم لكم كل شهر ثلاثة كيلوغرامات من جسدي الخاص).

الشاهد

-125-

عريضة رقم 2 – الموضوع: علم الجمال. (غاية الجمال البشري في المجتمع التقنيّ الغربي).

لقد تناقشت مساء أمس في موضوع الجماليات مع أستاذ ألماني... فتنازعنا. إن الألمان، كبقيّة الأوروبيين، ما زالوا مقتدين بالكلاسيكية في الفن. لذلك فقد انهار مجتمعهم. بينما يملك مجتمع سليم متطوّر كمجتمعكم فنّه المميّز الحديث.

لقد أشار الأستاذ إلى السجناء الذين كانوا يتجولون في المعسكر، ودلني على هؤلاء الذين لم يبق لهم –وأنتم تعرفون ذلك بلا شكّ– إلاّ العظم والجلد. قال لي الأستاذ الألماني إنّ هؤلاء المساجين بشعون، لأنه ما زال مقتصرا، في تفكيره، على مثال الجمال اليوناني. أمّا أنا، فإنّني أجد الرجال الذين تحوّلوا إلى هياكل عظمية تغطيها جلودهم، غايةً في الجمال، يكوّنون أمثلة حقيقية من الفن الحي.

لقد حاولت إقناع الألماني بأنّ مجتمعكم، يُقدّر الجمال إلى درجة لم يبلغها أي مجتمع حتّى يومنا هذا، وأنّكم تمارسون مهمَّة تبديد الشحم والدهن من الأجساد البشريّة، لأسباب جمالية بحتة تهدفون من ورائها إلى تجميل العالم. لكنّه لم يفهم. والألمان يفهمون بصعوبة. لذلك يقال إنّهم ذوو رؤوس مربّعة. سأحاضر غدا في موضوع غاية الجمال البشري، في الغرب المتمدّن.

هناك نحّات سويسري، اسمه ألبرتو جياكوميتّي، حقّق في حقل النحت المبادئ إياها، والغاية إياها، عن الجمال المذكّر والمؤنّث، التي حقّقتموها في الحياة العملية، بتبديد الدهن واللحم، من الأجساد البشريّة!، فقد عمل هو الآخر، وهو ينحت تماثيله، على أن يُسقط الدهن والشحم من الجسم البشري، ومن الفراغ. وبهذا الشّكل حُوّل الجسم البشريّ إلى مقياس واحد. فأخذ أشكالا ممدّدة جافة، لا تزيد على حجم سلك حديدي.

وأنتم تنحون النحو ذاته في المعسكر. لقد كنت أعرف منذ الأزل أنّ حضارتكم كلها مبنية، على مبادئ جمالية.

وغدا عندما يصبح سطح الكرة الأرضية معمورا ببشر من ذوي الأجساد المتحوّلة، بحسب قوانين الجمال الجديدة، وأعراف فنّ جياكوميتي وفنّكم، فإن العالم سيشعّ بهاء وجمالا!

الشاهد

-126-

قال تريان كوروغا:

- يا عزيزي موريتز. لقد كتبتُ حتّى الآن حوالي أربعين شكوى، أردت أن أبيّن لهم الحقيقة، وأن أقنعهم بالعزوف عن تعذيب البشر. إنّني واثق من أنني على صواب. لقد نظمت كلّ شكوى ببراعة، ولكن عبثا. لقد استعملت الإنشاء القضائي، والإنشاء الدبلوماسي، ثم الأسلوب البرقي وأسلوب حسابات المطابخ، ثم الأسلوب الإذاعي. فكنت على التتالي

عاطفيا، أو مبتذلا، أو متوسّلا. سألتهم عدالة بكلّ الوسائل التي وضعها اليأس في متناول يدي، لكنّي لم أَتلَقّ أيّ جواب.

لقد قلت لهم أكثر الحقائق إيلاما، لكنهم لم يغضبوا. جثوت على ركبتي لأكتب لهم، لكنني لم أوفّق في إثارة إشفاقهم. أنّبتهم بفلظة، لكنهم لم يشعروا بالإهانة. أردت إضحاكهم، أو إثارة فضولهم، ولكن عبثا. لم أوفق في إيقاظ العواطف النبيلة فيهم، كما لم أوفق في تسخير شهواتهم العادية. ولم أتوصّل إلى إيجاد أيّ ردّ فعل في نفوسهم. لقد كان أفضل لي، لو كتبت إلى حجارة. إنّهم عديمو الشعور، لا يعرفون الكراهية، ولا الانتقام. والشفقة غريبة عنهم. إنّهم يعملون آليا، ويجهلون كل ما هو غير مستحيل في البرامج. قد أقتطع جزءا من جسدي، وأكتب عليه بدمي الساخن الشكاية المُرّة. لكنهم لن يقرؤوا شكايتي. سوف يلقون بها إلى سلة المهملات، كما فعلوا بما قبلها. بل إنّهم لن يعرفوا أنّها قطعة من اللحم، اللحم البشري الساخن. لا قيمة للمرء عندهم. وتلك هي لا مبالاة المواطن حيال الإنسان، ذلك هو الإغفال الذي تخطّى مثيله عند الآلات.

قال إيوهان موريتز بإشفاق:

– يا سيدي تريان المسكين! ماذا تنوي أن تفعل؟ أعتقد شخصيا، بأنّ من الأفضل لك الانقطاع عن الكتابة.

قال تريان:

– بل سأستمرّ. لن أتوقف إلاّ إذا متّ. لقد روّض الإنسان كلّ الحيوانات المتوحشّة، فلماذا لا نروّض المواطنين؟

فقال إيوهان موريتز:

– لعلّه ينبغي أن تتصرّف على نحو جديد. أعتقد أنك بالكتابة لن تصل إلى أية نتيجة.

– إن انتصارات البشر كلّها، منذ أن وجد على سطح الأرض، كانت انتصارات العقل. وبفضل العقل، سنستطيع أخيرًا، السيطرة على

المواطنين في مكاتبهم.

إذا لم نتوصل إلى ترويضهم، فإنّهم سيمزقوننا إربا، مهما بلغ شأننا.

ينبغي لنا أن نعلّمهم أن لا يمزقوا المرء عندما يلتقون به. وإذا لم نعلّمهم ذلك فإنّنا لن نستطيع الإقامة على هذه الأرض، في المدن ذاتها، وفي البيوت ذاتها، التي يسكنون فيها. إنّ المهمة أكثر صعوبة من ترويض الأفاعي، والسيطرة على النمور. لكنني لم أكن مرّة أكثر تفاؤلا ممّا أنا عليه اليوم. وهو ولا شك تفاؤل الرجل قبل الموت. إنّه فصل الاحتضار، فصل العرائض، من الساعة الخامسة والعشرين، لكنّني سأكتبه!

-127-

عريضة رقم «3» – الموضوع: اقتصادي (سجناء لم يعد لهم إلاّ نصف أجسامهم أو ثلثها.)

لقد استطاع صديق لي بمساعدتي، أن يميّز خلال أربعة أيام السجناء الذين لم يعد لهم إلاّ نصف أجسامهم أو ثلثها في هذا المعسكر.

لم يُنه صديقي إحصاءاته بعد. إنّه ذو باع في الحسابات، لكنني تعجلت في الكتابة إليكم، لأنّ المسألة بدت لي مستعجلة من وجهة النظر الاقتصادية. فأنتم تستطيعون كل يوم توفير بضعة ملايين من الماركات على الأقل.

إليكم الأمر كما هو: إن بين الخمسة عشر ألفَ مُعتَقلٍ المسجونين معي، ثلاثة آلاف على الأقل، لا يملكون أجسادهم كليا. فمِنهم مائتان فقدوا سيقانهم، وهم يزحفون كالزواحف في المعسكر، وألف ومائتان لا يملكون إلاّ ساقا واحدة، ولا يملك غيرهم إلاّ ذراعا، بينما هناك مَن هُم أشلاء تماما من حيث المظهر.

غير أن عددا كبيرا منهم فقدوا عضوا داخليا: رئة، أو كلية، أو عظاما... إلخ، وأربعين سجينا فقدوا الأبصار.

إن كل هؤلاء الأشخاص، قد أوقفوا آليا، مثلي تماما. وقد أشفقت

عليهم في البداية. إنّ صديقي إيوهان موريتز، يغمض عينيه كلّما وقع بصره على المقعدين، وكبار المشوهين في المعسكر. لكن إيوهان موريتز، رجل بدائي. و لا يفهم أنَّ الاعتقال «أوتوماتيكي»، وأنّه لا يمكن للمرء أن يفلت منه لأنّه فقد ساقا أو عينا أو أنفا أو رئة، طالما أنّه يمتّ إلى فصيلة ينبغي أن توقف وتسجن. إن الاعتقال الآلي، لا ينظر في استثناءات تتعلق بأولئك الذين يملكون أجسادا في حالة متعطّلة. ومن العدالة أن يكون كذلك. ينبغي أن تعمّ العدالة، وتنفذ دون استثناء.

يوجد في هذا المعسكر أستاذ أبتر الساعدين، أشلّ، لأنه فقد ذراعيه أثناء الحرب، فلمّا أصدرتم الأمر باعتقال الأساتذة، ما كان من العدل والإنصاف استثناء صديقي الأستاذ، لأنه فاقد الذراعين. إذ ما هي العلاقة بين واقع الاعتقال والذراعين؟ أيّة علاقة. إنّه أستاذ، وإذن، ينبغي أن يُعتقل مع كلّ أفراد الفصيلة التي ينتمي إليها، وهذا ما قمتم به، وأنتم لا تخطئون أبدا! ومن أجل هذا فأنا معجب بكم كل الإعجاب، بل وقادر على التضحية بحياتي في أية لحظة، في سبيل حضارتكم الكبرى الممتازة. إنّكم العدالة والدقّة المجسّدتان.

لكن لنعد إلى موضوعنا: إن أجزاء البشر هؤلاء، الذين لم يعد لهم إلاّ بقايا من الجلد والجسد، يتلقّون كلّ يوم الكميّة الغذائيّة المخصّصة لكاملي التكوين من السجناء. إنّ حكومتكم تقوم بتضحيات جسام، لتؤمّن الحصص الغذائية للسجناء. لكنّ كلمة سجين تعني شخصًا كاملا. فإذا جمعتم أولئك المشوّهين، وأحصيتم عدد أيديهم وأرجلهم، وعيونهم ورئاتهم، لوجدتم أنهم ألفان من ثلاثة آلاف رجل.

باستطاعتكم، إذن توفير ألف حصة غذائية في اليوم على الأقل.

فلمَ إذن تنفقون المال لتغذية أعضاء لا يملكها المساجين؟ إنّ كرما من هذا القبيل، هو في الحقيقة في غير محلّه.

أعتقد بأنّ السلطات العليا سترضى عنكم كثيرا إذا أعلمتموها

بالموضوع. بل ولعلّكم ستمنحون أوسمة، لأنكم بذلك تحقّقون ربحا كبيرا للدولة. كلّ إنسان يعرف أنّ المال هو كلّ ما له أهميّة في الوجود. لذلك سمحت لنفسي بالخوض في هذا البحث، استنادا إلى هذا النظرية.

الشاهد

-128-

عريضة رقم «4» – الموضوع: عسكري (تبديل الجنس).

لقد ظهرت على المساجين في المعسكر، بعض الأعراض بسبب الجوع يمكن أن تُشكّل بالنسبة إليكم، أهميّة عسكريّة كبيرة. وإليكم خلاصة تلك الأعراض في بضع كلمات: إن المساجين الموقوفين منذ زمن طويل، والذين قضوا كل هذا الزمن معتمدين على خمسمائة حريرة يوميا، لم يعودوا في حاجة إلى حلق لحاهم. أصبح الرجال منهم الذين اعتادوا على إزالة لحاهم مرّة أو مرتين في اليوم، لا يمارسون هذا الواجب بعد أن أدخلوا المعسكر إلاّ مرّة كل يومين، ثم مرّة في الشهر الواحد. وأخيرا، كفّوا نهائيا عن هذا العمل، لأنّ شعرهم أصبح نادرا يشبه الزغب. وسوف يؤول هذا الزغب إلى الفناء من تلقاء نفسه. لقد أصبحت وجوههم تشبه في نعومتها وجمالها وجوه النساء. لكنّ الأمر لم يقتصر على هذا النحو. إذ أنّ أصواتهم أيضا قد تخنثت، وأثداءهم قد انتفخت حتّى بلغت عند بعض المساجين حجم أثداء فتيات الثالثة عشرة، وغدت جلودهم ناعمة حريرية كبشرة النساء. لكنني لا أعرف تماما ما آلت إليه أعضاؤهم التناسلية. غير أنني واثق من أنّ تلك الأعضاء ستنتهي إلى السقوط، والتحوّل إلى أعضاء نسوية بفضل قانونكم الغذائي، وخصوصا إذا عمدتم إلى إنقاص الحصص الغذائية عمّا هي عليه. إن الأطباء يدّعون أنّ هذا يرجع إلى نقص الغذاء، وأنّ الحرمان من التغذية يحوّل تحويلا خطيرا، بل ويوقف الإفرازات الهورمونيّة، ذات المفعول المزدوج: الآندروجين (أي الهورمون المذكّر) والأوستروجين (أي الهورمون المؤنث).

«ثمّ إنّ الكبد الضعيفة، لا يمكن أن تمارس مهمتها كمنظم للهورمونات: بل إنّها تغدو قادرة إذا ازداد ضعفها، على إتلاف هورمونات الآندروجين المتزايدة مع الاستمرار في الإبقاء على الهورمونات المؤنّثة. وحينما يختل التوازن الهورموني، فإنّ التكوين العضوي يبشّر بتحوّل أنثوي!».

إنّ هذه الملاحظة، يمكن أن تكون ذات أهمية عسكريّة قصوى في حضارتكم. يكفي أن تفكّروا في الهدوء الذي سيعمّ الأرض، فيما إذا وضعتم كل أعدائكم البرابرة في معسكرات اعتقال -كما فعلتم الآن- وأعطيتموهم بضع مئات من الحريرات يوميا ليصبحوا جميعهم نساء بعد حين. ستكون الأمة العدوّة لكم، محرومة من الذكور. وإذن، فإنكم لن تجدوا من يعلن عليكم الحرب. أعتقد بأنّ هيئة الأركان عندكم، ستستعمل هذا الاكتشاف وتفيد منه، وإنّني استنادا إلى العقلية العملية والإبداعية الرائعة في حضارتكم، أعتقد بأنكم ستطبقون أيضا عكس هذه العملية: فتزيدون تغذية النساء في بلادكم، ممّن يتطوّعن للتحول إلى رجال، وبذلك تحصلون على الأيدي العاملة اللازمة.

لذلك أعرض عليكم تخفيف الحص الغذائية التي تمنحونها للسجناء في معسكركم، الحاوية على خمسمائة حريرة، وإنقاصها، وبذلك ستحولون المساجين إلى نساء حقيقيات بسرعة زائدة.

الشاهد

-129-

الاستعدادات للرحيل.

كان يجب نقل الخمسة عشر ألف سجين إلى معسكر آخر. كانت السّاعة الثانية صباحا. والمصفّحات وسيّارات النقل منتشرة حول المعسكر، وقد أضيئت كلّ المشاعل والأنوار، بما فيها مصابيح المصفحات، فحوّلت الظلام إلى نهار. وكانت الأسلحة من كل العيارات، مصوّبة إلى جماعة المساجين الذين كانوا يتدفّقون من البوابة كالنهر الهادر. مشى تريان

كوروغا وإيوهان موريتز جنبا إلى جنب، وأسنان موريتز تصطك ارتعادا.

كان أمام الباب فصيلتان من الجنود المسلّحين بالعصيّ، يحصون المساجين، ويقسّمونهم إلى جماعات.

- إنّهم يريدون حشرنا كلّ سبعين سجينا في سيارة تتّسع في الأحوال العادية لعشرة رجال أو لاثني عشر رجلا. فكيف سيوفّقون في ذلك؟ هل سمعت من قبل بقانون استحالة تداخل الأجساد البشريّة؟

لم يجب موريتز. كان يرتعد. راح تريان يراقب الجنود بانتباه وهم يملؤون السيّارة الأولى. أدخلوا فيها بادئ الأمر عشرين رجلا، ثم راح الجنود يضربون الراكبين بعصيهم، فأخذ هؤلاء يتقلصون ويلتصق بعضهم ببعض، وعندئذ أمر الجنود عشرة آخرين بالصعود. ثم عادت العصي إلى العمل، فراح الوافدون الجدد ينكمشون، محاولين تفادي الضرب، وبذلك أخلوا فراغا جديدا، فصعد عشرة آخرون. كان يمكن للناظر عندئذ أن يقسم أيمانا مغلظة على أنّه يستحيل إيجاد مكان لطفل صغير. لكن الجنود لم يقنعهم ذلك. قلبوا أسلحتهم وراحوا يضربون المساجين بأعقابها، فازدادوا التصاقا بعضهم ببعض، وأفسحوا مكانا لعشرة آخرين. وهكذا، لم يبق من السبعين رجلا من ظلّ على الأرض بسبب انعدام المكان في السيارة. وعندئذ، كفّ الجنود عن الضرب، وانتظرت السيارة أوامر الحركة.

صعد تريان كوروغا إلى السيارة، ممسكا بإيوهان موريتز من يده، لأنه كان يأبى الافتراق عنه. قال تريان:

- يا صديقي موريتز العجوز، لم تعد في الدنيا قوانين قطعية. ليس لعلم الفيزياء نفسه قوانين لا تتبدل، لأن هذا العلم يزعم أن جسمين لا يمكن لهما أن يشغلا معا مكانا واحدا في الفراغ. بينما في حالتنا الحاضرة يشغل سبعة رجال مكانا واحدا. فهل يمكن بعد ذلك الاعتماد على علم الفيزياء؟ هل سمعت شيئا عن بيكاسو؟

- كلا، يا سيدي تريان.

كان صوت إيوهان موريتز مختنقا مكتوما.

كان تريان طويل القامة، يستطيع بذلك الحصول على الهواء. أما إيوهان موريتز، فكان قصيرا ينسحق رأسه بين صدور من حوله، فكانت رئتاه مضغوطتين لدرجة جعلتهما لا تحويان نفحة من الهواء.

قال موريتز:

- إنّني أختنق!

انتابه ذعر مريع وشعر برغبة في البكاء. كان لا يستطيع الحراك، وأنفه يبحث عبثا عن الهواء، عن كمية مهما ضؤلت. لكنّه ما كان يجدها. قال:

- إنّني أختنق، يا سيدي تريان. إنّني أشعر بأني أموت!

- أجبني هل سمعت شيئا عن بيكاسو؟

قال موريتز:

- لم أسمع عنه شيئا. لا أعرف شيئا. ولكنني أختنق، وهذه هي النهاية ولا شك.

أراد تريان أن يرفع رأس موريتز قليلا، لكنّه ما كان يستطيع تحريك ذراعيه. بل إنّه كان عاجزا عن تحريك عضلة واحدة. لقد كان جسمه مسحوقا محوّلا إلى الحد الأدنى من الحجم. لكن رأسه كان سابحا فوق الرؤوس.

قال تريان:

- إن بيكاسو هذا، أكبر رسام في المجتمع الغربي.

قال موريتز:

- لا أسمع شيئا. أتوق إلى إخراج أنفي من هنا، ولو فتحة واحدة منه. أتوسل إليك يا سيدي تريان أن تساعدني. إنّني أموت!

حاول تريان أن يوفّر له بعض الفراغ، لأن رأس موريتز كان في تلك اللحظة مضغوطا على صدره.

- لقد رسم بيكاسو صورتك كما أنت الآن، في هذه السيارة يا صديقي العجوز.

سأل موريتز:

- صورتي؟ لا أسمع شيئا، أذناي مسدودتان.

كرّر تريان:

- صورتك. تشبه الصورة تماما. وصورة سيارتنا حيث يشغل سبعة رجال مكانا في فراغ يكفي لرجل واحد. فقد رسم لأحدهم خمس سيقان، وللآخر ثلاثة رؤوس، ولكنه محروم من الرئات. أنت مثلا، لك صوت ولكن ليس لك فم. وأنا ليس لي إلاّ الرأس محرومًا من الجسد، رأس يرتفع في الفضاء، فوق سيارة النقل.. حين شاهدت لوحته للمرة الأولى -وكان ذلك في باريس- أعجبني كثيرا. بيد أنني لم أفهم الغاية منها. أمّا الآن فأكاد أجزم بأنني فهمت. إنها صورة هذه السيارة، وقد رسمت بدقة متناهية، دون أن يفلت الرسام أية لحظة أو تفصيل. لقد رسم كذلك معسكرنا. كان يرسم كما لو أنّه يصوّر، ولا يهتم إلاّ بالأشياء الواقعية. إنّه رسام عبقري.

بدأت السيارات تصعد الطريق، فراح تريان ينظر إلى الرجال حوله. لم يكونوا مخلوقات بشرية، بل إنّه لم يكن في السيارة كلها مخلوق حي واحد عندما كانت تخترق طرق القرية الغارقة في الظلام. ومع ذلك، فإن الرجال في تلك السيارة لم يكونوا أمواتا. كانوا يتأرجحون بين الموت والحياة. كانوا خلال لحظة أحياء، وفي اللحظة التي تليها أمواتا. بل وكانوا أحيانا أحياء أمواتا في آن واحد. وفي النطاق الذي يشغلونه، لم يكن هناك فراغ. لقد حذف الفراغ كله، حتّى قُتل ومات.

لم يكن في النطاق الذي يشغلونه إلاّ التشنجات، فالعيون كانت تشنجات، واللحم والدم والهواء، والوقت والتفكير، كانت كلها تشنجا. لم تكن للرجال أشكال ولا عقول، لم يكونوا إلاّ تشنجات...

سأل تريان:

- هل تستطيع التنفس بعد؟

- لست أدري. ربّما أشعر بذلك. ولكن بواسطة فتحة واحدة من أنفي، وفي فترات معينة فقط. إنّني أتنفس هنا، فوق صدرك، عبر ضلوعك.

قال تريان:

- إن فتحة واحدة ينبغي أن تكفي. أصغ إليّ، سأحدثك بأمر ذي أهمية قصوى...

فقال موريتز:

- لا أستطيع سماع شيء. اعذرني.

- حاول، إن الأمر عظيم الأهمية:

كلّ رعب يمكن أن يُعرّف[1].

وكل حزن يبلغ نهاية ما:

ليس في الحياة وقت نكرسه للأحزان الطويلة،

لكنّ هذا، خارج نطاق الحياة، خارج نطاق الزمن.

خلودٌ مستمر للشر والطغيان.

لقد تدنّسنا بأدران لا نعرف كيف نغسلها،

قذارة متحدة بالهوام الخارقة للطبيعة،

لسنا نحن وحدنا، وليس البيت، ولا

المدينة فقط ما قد تدنّس.

العالم بأسره تدنّس.

قال موريتز:

- ارفع صوتك! أكاد لا أسمع شيئا.

فاسترسل تريان رافعا صوته ما استطاع:

- نقّ الهواء، اشطف السماء، واغسل الريح، ارفع الحجر عن الحجر، واسلخ الجلد عن الذراع، انزع العضلة عن العظم واغسلها. اغسل

---

(1) هذه أبيات للشاعر ت.س. إليوت تمّ تضمينها في النصّ.

الحجر، واغسل العظم، واغسل الذهن، واغسل النفس، اغسلها اغسلها!

قال إيوهان موريتز:

- لا أفهم شيئا. كم أنت سعيد يا سيدي تريان، إذ تستطيع التنفس. فأنت لا تختنق!

كان قصيرو القامة في المعسكر أقل تأثرا بالجوع من زملائهم طوال القامة. أما في هذه السيارة التي حشر فيها سبعون شخصا، في هذه السيارة التي كانت تجتاز شوارع قرية أوهردروف كالشبح، فإن قصار القامة من المساجين كانوا على و شك الموت اختناقا لقلة الهواء.

قال إيوهان موريتز:

- يا سيدي تريان لا تقل شيئا، لأنني لا أسمع ما تقول.

- إذا كنت لا تسمع فستدفع حياتك ثمنا..

- أسمع ماذا؟

- لقد ارتكب الأستاذ الألماني خطيئة كبرى! لقد أخطأ، وسيموت بسبب خطئه.

- أي ألماني ارتكب خطيئة خطيرة؟

قال تريان:

- الأستاذ الذي وزن شحمنا ولحمنا الحي. لقد وزنها حافلة بالحياة، ليقيس آلامنا. غير أن آلام البشر لا يمكن أن تقاس بالكيلوغرامات والأطنان!.. إن الحياة لا يمكن أن توزن. إن ذلك الذي يحاول وزنها يرتكب خطيئة قاتلة.

قال إيوهان موريتز:

- إنّني لا أسمع شئا!

فأجاب تريان:

- لا أهمية لذلك. إن المرء لينهار حتّى ولو لم يسمع. إن سائق سيارتنا، والحرّاس، والجنود المسلحين بالعصي والمسلحين منهم بالرشاشات،

الذين ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة المناسبة لقتلنا، لا يسمعون هم أنفسهم شيئا. ما من أحد منهم يسمع. ومع ذلك، فإنّهم يتساقطون مثلنا وبالطريقة ذاتها. هل تراهم وهم يتساقطون؟

فقال موريتز:

- إنّ عينيّ محجوبتان فلا أرى شيئا.

- أو لا تحس بشيء أيضا؟

فأجاب موريتز:

- لا شيء. أشعر فقط بأنني أختنق!

فقال تريان بحزن:

- ومع ذلك فإنّك تحس بالشيء الجوهري؟ فلمَاذا تزعم إذن أنك لا تحس بشيء؟ العالم كلّه يشعر بما تشعر به. ولكنّه لا يريد أن يعترف...

-130-

نُقل السجناء إلى عربات السكة الحديدية المخصّصة لنقل الحيوانات.

كانت كل عربة تتسع لخمسة وعشرين حصانا. ومع ذلك، فقد استوعبت حمولة قدرها مائة وأربعون رجلا.

أغلقت أبواب كل العربات.

في العربات الأخيرة حُبست ثلاثة آلاف امرأة.

كان القطار ممتدّا جدا، فهمس تريان في سره: «لكم كان يحلو لي أن أرقب مرور مثل هذا القطار عن بعد». ثمّ قال:

- إنّ قطارنا يشبه القافلة التي كانت تتسلّق هضبة غولغوثا[1]. والفرق أن قافلتنا آلية. إنّنا نتسلق الغولغوثا بوسائل آلية. لقد صعد إليها يسوع سيرا على قدميه بين مجرمين حقيقيين. هل تعرف بأن يسوع قد صلب بين مجرمين؟

- كلاّ، لا أعرف ذلك.

من عادة القضاة، إذا أرادوا معاقبة بريء، أن يحيطوه بمجرمين. وهذه

---

(1) غولغوثا: جبل قرب بيت المقدس، صُلب عليه المسيح.

حيلة معروفة منذ القدم. لم يجرؤ اليهود على صلب المسيح وحده، فأحاطوه باثنين من المجرمين من ذوي السمعة الشائنة المعروفة وذلك لسبب واحد: وهو جذب انتباه الجماهير إلى ناحية أخرى، خلال تنفيذ أحكام الإعدام.

فأنا، وأنت، وزوجتي، وعدد كبير آخر، نجد إلى يميننا ويسارنا مجرما. إنّها الخدعة المعهودة التي سبق تنفيذها على غولغوثا، ولم تتبدل من الواقع غير النسب. كان كلّ بريء في ذلك العهد يحاط بمذنبين. واليوم، يحاط عشرة آلاف بريء بمذنبين. ثم إننا نصعد إلى الصلب بشكل آلي وبوسائل آلية. غير أنّ الخدعة صبيانية. فبعد أن تنفذ الأحكام، لن يتحدّث الجمهور بعد ذلك عن المُجرميْن اللّذيْن أعدما ويسوع في آن واحد، لن يذكر الجمهور غير يسوع، ويسوع وحده. هذا ما وقع في كل العصور وهذا ما يقع اليوم، حتّى ولو رفعنا على الصليب بشكل آلي، ولو صعدنا إلى غولغوثا قاطرات قاطرات!

اقترب تريان كوروغا من النافذة المشبكّة. كان القطار قد توقف.

سأل إيوهان موريتز:

- هل ترى شيئا؟

كان لا يبلغ مستوى النافذة لقصر قامته.

قال تريان:

- لقد توقف القطار في محطة. وهناك قطار بمحاذاة قطارنا.

سأل إيوهان موريتز:

- أهو مشحون بالمساجين أيضا؟

كان الفضول يلوعه. فقال تريان:

- إنّه قطار من المساجين المحرّرين. إنّهم العبيد الأجانب الذين كانوا في ألمانيا أمس، والذين أعيدت إليهم الحريّة.

كانت جماهير من الرجال والنساء تتلاطم كالأمواج، حول القطار الآخر، أردف تريان قائلا:

- إنّهم يدخّنون اللفافات!

ابتلع إيوهان موريتز لعابه، واستطرد تريان:

- هناك امرأة نزلت من العربة. إنها تأكل خبزا أبيض مع مرق محشو باللحم.

وتلمّظ هو الآخر!

قال إيوهان موريتز:

- وددت لو أستطيع رؤيتهم مثلك. علّني أعرف واحدا منهم. ما هي جنسيتهم؟

أجابه تريان وهو يتأمل الأعلام المرسومة على العربات، وتلك التي أودعها أصحابها في عراهم:

- إنّهم من جنسيات مختلفة. إن المرأة التي تلتهم الخبز المدهون بالزبدة والمحشو بالسجق والتي يشبه فخذاها في لونهما لون الخبز الأبيض الذي تقضمه، دانماركية، تأتي وراءها مباشرة فرنسية. إنها جميلة ذات عينين سوداوين.

سأل موريتز:

- هل هناك فرنسيون بين الحشد؟

أجاب تريان:

- هناك جمهور كبير واقف قرب عربتنا. هناك بلجيكيون وإيطاليون.

قال إيوهان موريتز بنفاد صبر:

- أريد رؤية الفرنسيين!

رفعه تريان كوروغا ليتيح له بلوغ النافذة والنظر من خلالها. فقال موريتز مشرق الوجه:

- إنّهم فرنسيون! إن هذا الذي بالقرب من الإيطالي يشبه جوزيف كما تشبه نقطة الماء النقطة الثانية. هل تراه؟

- أي جوزيف؟

أجاب إيوهان موريتز.

- صديقي جوزيف. ألم أحدّثك عنه؟ ذلك الذي ساعدته على الفرار. لو لم أكن واثقا من أن جوزيف في فرنسا الآن، لظننت أنّه هو. إنّه يشبهه شبها بالغا! هل تريد أن تقول له شيئا؟

- ماذا تريد أن أقول له؟

قال موريتز:

- أي شيء. إنّه يشبه جوزيف تماما. إنّني لا أعرف الفرنسية. لكنني أود لو أقول لهم شيئا. قل لهم: مرحبا، وعودة طيّبة إلى فرنسا!

كان إيوهان موريتز، لا يستطيع أن يقابل فرنسيا، دون أن يقول له شيئا، أو أن يبتسم له ابتسامة ودية.

قال موريتز:

- هه! إنّه قريب جدا منك. قل له شيئا إذا أردت!

لبث تريان كوروغا صامتا، غير أن إيوهان موريتز لم يستطع تمالك نفسه فهتف بالألمانية:

- عودة سعيدة إلى فرنسا!

نطق جملته بوداعة وكان وجهه طافحا بالبشر والسرور لأنه استطاع أن يخاطب فرنسيا، ولأنه يحب الفرنسيين.

توقف أفراد الجماعة المحتشدة عن الكلام فجأة، وتسمّروا في أمكنتهم، ورفعوا عيونهم إلى النافذة التي وقف وراءها إيوهان موريتز.

سمع تريان كوروغا الرجل الذي يشبه جوزيف يتساءل بالفرنسية:

- ماذا يريد منا هذا الخنزير النازي؟

راح الرجال والنساء على الرصيف يحدجون إيوهان موريتز الذي كان يبتسم لهم من وراء قضبان النافذة الحديدية ابتسامة رقيقة ودية.

- لعل الخنزير النازي يريد «سيجارة»!

وضع شبيه جوزيف يده في جيبه. غير أن حركته توقفت فجأة. ذلك

أن واحدا بجانبه انحنى على الأرض، وأخذ حجرا وألقاه بعنف على النافذة التي كان إيوهان موريتز واقفا وراءها، وهو لا يزال يبتسم. فمرّ الحجر بين القضبان وسقط وسط العربة بعد أن أصاب أحد السجناء.

وهتف الرجل الساخط:

- إليك لفافتك! لقد أ مضيت ثلاثة أعوام في ألمانيا بسببك!

اصطدم الحجر الثاني بجانب العربة، ثم أعقبه الثالث. وتتابع مطر من الحجارة، يهطل على العربة. فتمدّد السجناء داخل العربة على أرضها، وهم يتباعدون على قدر المستطاع عن النافذة. كانت الحجارة تتساقط كالبرد، والشتائم والصرخات تدوّي وكأنّ هجوما مُركّزا كان موجّها ضد تلك العربة.

كانت صيحات نساء ورجال وأطفال وثائرين. صرخات بالفرنسية، والإيطالية، والروسية، والفلامانكية، والنرويجية، والدانماركية. صرخات بكل لغات العالم. وكان ذلك السباب يتدفّق مُعربا عن حقد واحد متفجّر. وكانت الكلمة التي تعقب كلّ حجر يلقى، واحدة في كل اللغات: خنزير نازي، مجرم نازي، سفاح نازي، نازي، نازي، نازي...

كان كل ركاب ذلك القطار من «الأشخاص المُرحّلين»، قد هبطوا من العربات وانضمّوا إلى الآخرين ليلقوا بالحجارة على قطار السجناء.

وتدخّل الحرّاس ورجال الشرطة العسكريّة لإعادة النظام، ولكن الهجوم ازداد ضراوة، فاستحالت تهدئة الخواطر، وأصبح يزداد خطورة بعد كل فترة، ما اضطرّ رجال الشرطة إلى إطلاق الرصاص في الهواء لإرهابهم. فدوّت زمجرة ثائرة موحدة من كل صدور العبيد المحررين ضد رجال الشرطة الذين يحمون النازيين من التمزيق.

لبث إيوهان موريتز خلال هذا الهجوم واقفا وراء النافذة، حتّى بعد أن مرقت الحجارة الأولى قرب رأسه. لم يتحرّك من مكانه، ولم يكفّ عن الابتسام حتّى في أشدّ لحظات الهجوم خطورة. لم يكن يفهم شيئا

لتلك الثورة، ولو أنّه فهم السبب، لما صدق لحظة واحدة أن الفرنسي الذي يشبه جوزيف يمكن أن يرميه بحجر قصد تحطيم وجهه.

وبينما كان موريتز يتأمّل ذلك المشهد، وقد اتسعت حدقتاه، ويرى الجمهور الغفير يقذفه بالحجارة، أطبق سجناء العربة على ساقيه وانتزعوه من أمام النافذة انتزاعا وألقوه أرضا، وكلّ واحد منهم يريد ضربه. وكل الأيدي تسعى للنيل منه، وتتعلق به لتمزّق جسده وتقطّعه إربا إربا.

وطئت مئات الأقدام جسد إيوهان موريتز، وسحقته بحقد وضغينة ويأس ووحشية، بينما لبثت الحجارة تتساقط كالبرد فوق رؤوسهم.

لم يكن السجناء ليغفروا له أنّه تسبب في إثارة الحقد الدفين وتحريره من عقاله، ممّا جعلهم عرضة لهجوم العبيد المحررين الذين كانوا على الرصيف. كانوا يريدون تمزيق جسده!

لم يكن موريتز محاطا بمخلوقات بشرية، بل بكتلة من الرجال تشبه وحش التلمود ذا الألف ساق، وهي تسحق جسده ولحمه الساخن الحي.

وخارج العربة كانت تلك الكتلة بالذات، وحش التلمود ذو الألف ذراع، تلقي بالحجارة عليه!

راح دم إيوهان موريتز ينبجس من فمه وأنفه.

شعر بدنوّ الموت منه. فلما استأنس بتلك الفكرة لم يعد يحس بالأحذية التي تسحقه، والقبضات التي تضربه. لم يعد يشعر بأيّ ألم. كانت نهاية الآلام تقترب. فكّر في الكاهن كوورغا، وفي كنيسة فانتانا وفي «أيقونة» العذراء. كان السلام يخيّم على جسده وروحه، وهو يسمع الضربات تكاد تحطم أطراف العربة وجدرانها، وكان يعرف أن تلك الضربات كانت موجهة إليه وإليه وحده!

كانوا يريدون سحقه. كلهم يتوقون إلى موت إيوهان موريتز. لقد فهم الآن كل شيء. كان يحس بأن العالم لن يكون عالما، وأنه لن يكون فيه أيّ «تقدّم» طالما لبث «هو» على قيد الحياة.

لقد كان مسؤولا عن كل الإثم الذي يغطي الأرض، هو إيوهان موريتز المسؤول الوحيد، والمذنب الأوحد. ولهذا السبب يتهافت هؤلاء الناس على قتله؛ ولهذا السبب يطؤونه فيضربه السجناء، ويرجمه السجناء السابقون! نعم هذا هو السبب الذي من أجله أوقفه الجنود. إن الجمهور الغاضب لن يهدأ طالما بقي –هو- على قيد الحياة. إن الشرطة العسكريّة لن تستطيع تهدئة هؤلاء السجناء المحررين قبل موته. ولن يستطيع الجنود المسلّحون بالرشاشات والمصفحات الوصول إليه، وبلوغ هذا الجانب من المحيط المتلاطم إلاّ بعد أن يكون قد مُزّق أشلاء!

كان يجب أن يموت، لأنه كان الإنسان! ولا يمكن أن يغفر له. تساءل في شبه غيبوبة: «وما هو ذنبي يا ربي؟ إنّني أحبّ الفرنسيين. ولقد أردت أن أقول لهم كلمة طيبة تعرب عن صداقتي. ولهذا السبب يقتلونني. لقد قتلوا "يسوع" كذلك لأنه كان يحب البشر!».

«سنتسلق الغولغوثا في القاطرة، سنتسلق "غولغوتة" آلية ومتحركة».

شعر إيوهان موريتز وكأنه معلق على الصليب، وأحس بالظلام ينسدل فلم ير إلاّ الظلام، الظّلام، الظلام الحالك...

-131-

استيقظ موريتز بعد إغماءة طويلة، فأحسّ بالأضمدة تحيط برأسه وصدره. كان رأسه مستندا إلى كتف تريان كوروغا. شعر بأن وجنته تلامس بشرة أخرى غير محجوبة بشيء. كانت كتف تريان العارية بعد أن فقد قميصه!

ودّ لو سأل تريان عن سبب خلعه قميصه، لكن قواه خانته. فأنّ:

- عطشان!

تظاهر تريان كوروغا بأنه لم يسمع شيئا. فكرّر موريتز:

- عطشان!

كان موريتز مستلقيا منذ ساعات بين ذراعي تريان دون أن يشعر.

وكان تريان قد ضمّد جراحه خلال ذلك الوقت، بعد أن مزق قميصه ووجد مكانا مناسبا مدّده فيه.

صمت إيوهان موريتز. فوضع تريان يده على صدره يتحسّس ضربات قلبه الضعيفة. كان يسحب يده أحيانا ويلصق أذنه بالضمادة ويصغي. فأحيانا كان قلب إيوهان موريتز يخفت وجيبه حتّى ليتعذر على يد تريان تحسّس النبضات. بل إنّه لم يسمع بأذنه بوادر الحياة في ذلك القلب الضعيف إلاّ بصعوبة.

وها أن إيوهان موريتز يتكلّم الآن!

شعر تريان كوروغا بالسرور، وكأنه عاد شخصيا من مكان سحيق! غير أن إيوهان موريتز كان يريد أن يشرب. لقد كان يطلب الماء كما فعل يسوع على صليبه من قبل. ولم يكن في العربة ماء.

لقد انقضت عشرون ساعة على المساجين في تلك العربة، لم يتذوقوا خلالها طعاما ولا شرابا ولم يسمح لهم أثناءها أن يخرجوا منها لقضاء حاجاتهم. كان جو العربة مشبعا برائحة البول والغائط النتنة، والهواء فيها ثقيل كريه.

كانت أرض العربة مبللة بفضلات مثانات السجناء. فكان موريتز مستلقيا على تلك السوائل دون أن يحس بها، لأنه لم يكن يشعر بشيء. لم يكن قد فتح عينيه حتّى تلك اللحظة، بل إنّه باعد بين شفتيه فقط ليقول:

– عطشان!

قال تريان كوروغا:

– آسف، ولكن ليس في العربة ماء، وليس فيها ما يشرب.

كان يتساءل عمّا يمكنه أن يقدّم إلى موريتز ليبلّل شفتيه. لم يكن في العربة ما يشرب. تذكر تريان أنّه قرأ ذات مرّة أن جنود جنكيز خان كانوا عندما يجتازون الهضاب والقفار دون أن يجدوا ماء يشربونه، أو طعاما يأكلونه، ينزلون عن صهوات جيادهم، فيفصدون بخناجرهم شريانا

من شرايين الحصان ويمتصون الدم. ثم يضمدون الجرح ويسيرون إلى الأمام. وهكذا كان جنود جنكيز خان، لا يأكلون ولا يشربون شيئا طيلة أيام وأسابيع إلاّ تلك القطرات من الدم الحار.

وسوس هذا الخاطر في نفس تريان فأراد أن يمنح موريتز قطرات من دمه ليروي عطشه. ولعل الدم يفيده!

قال إيوهان موريتز بصوت متضرّع:

- عطشان!

فأجابه تريان:

- يا عزيزي موريتز، ليس هنا ما يشرب. إن السائل الوحيد الذي أستطيع إيجاده والذي أقدمه لك بسرور هو قطرات من دمي، من دمي الشخصيّ. ولكن لا ينبغي لك أن تشرب دما. إن الرجل الذي يشرب الدم شيطان مُرّبدّ، له وجه إنسان، ولكنه ليس إنسانا. إنّه آلة، إنّه الشيطان، إنّه الجمهور، إنّه يشبه الإنسان في كلّ شيء عدا الروح!

تمتم إيوهان موريتز:

- عطشان!

فقال تريان:

- إنّني أصدقك! مع ذلك لا ينبغي لك أن تشرب دما. وليس لدي ما أقدمه لك غير ذلك. إنك الرجل الوحيد، بين كل المحيطين بي، الذي لم تشرب بعد دما بشريا. هل تسمعني؟ لقد ولغ الآخرون جميعا في الدم، وهم الآن كالعفاريت. إنّهم ليسوا بشرا. لم يبق بين كلّ هؤلاء السجناء، وكل الحراس، وكل السجناء المحررين، رجل واحد يمكن أن يكون إنسانا. لم يبق إنسان سواك، لأنك ما زلت تحب البشر.

- عطشان!

- أصدقك! إنّني أعرف ذلك، وأعرف أنك قد تموت إذا لم تشرب. ولكن من الخير لك أن تموت على أن تصبح مثلهم. لا ينبغي لك أن تشرب

دما بشريا. هل تفهم ما أقول لك؟

عاد إيوهان موريتز يتمتم من جديد:

- عطشان!

-132-

عريضة حال من إيوهان موريتز:

أنا الموقع أدناه، إيوهان موريتز، من قرية فانتانا في رومانيا، أرسل هذه الشكوى إلى حكّام هذا البلد سائلا إياهم السبب الذي من أجله يحتفظون بي سجينا، ويعذّبونني عذابا لم يذق مثيله غير المسيح على الصليب.

وإنّني إذا كنت لم ألق عليكم هذا السؤال من قبل -كما كان يجب أن أفعل- فذلك لأنني صبور بطبعي. فأنا حرّاث، والمزارعون يعرفون كيف ينتظرون!

وعليه فقد انتظرت ربيعا كاملا، وانتظرت صيفا كاملا، وشتاء طويلا. والآن عاد الربيع من جديد، ولم يعد لي إلاّ الجلد والعظام. إنّ روحي قاتمة شديدة الحلكة من الألم والغم، سوداء كالفحم والحبر.

لم أعد أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. ولهذا السبب أسألكم: لماذا تحتفظون بي سجينا؟ فأنا لم أسرق، ولم أقتل، ولم أخدع إنسانا قط، ولم أرتكب ما يعاقبني عليه القانون وتحرمه الكنيسة. وإذا كنت لم أجرم ولم أسرق، ولم أسئ إلى أحد، فلِمَ تبقونني سجينا؟

لقد سجنتموني وعذبتموني، حتّى غدوت مجرّد ظل على الأرض.

لقد سجنت في أربعة عشر معسكرا، وأعتقد أنّه قد آن الوقت لأسألكم عمّا لديكم ضدي.

إن أصعب الأمور عندي هو العزم. ولكنني عزمت الآن.

إنّني أرسل هذه العريضة بالبريد إلى حكّام هذا البلد. وأرسلها كذلك بواسطة الحارس الذي يسهر على باب السجن. ولسوف تصل عريضتي إلى الحاكمين، حتّى ولو طافت من أجل ذلك حول العالم. يجب

على الحاكمين الإصغاء إلى شكواي ولو كان في آذانهم وقر!

سوف ألصق عريضتي على أبواب السجن، وألقيها ملفوفة في حجر إلى الشارع. سوف أقنص الطيور التي تحلّق فوق المعسكر وسأربط عريضتي بقوائمها لتحملها عبر الكرة الأرضية.

لن أتوقف بعد الآن عن الصراخ، حتّى تأخذ العدالة مجراها. لعلكم ستسجنونني في القبو، لتمنعوني من إسماع صوتي إلى الآخرين. ولكن أينما كنت، وأينما حللت، لن أتوقف عن الصراخ. وإذا لم يكن لديّ قلم أكتب به، أو ورق أسطر عليه، فسأكتب بأظفاري على جدار سجني. فإذا تلفت أظفاري ودميت أصابعي تريثت حتّى تبرأ لأكتب من جديد. وإذا أعدمتموني بالرصاص، فلن أذهب إلى الجحيم، ولا إلى الجنة، ولا إلى المطهر. بل ستبقى روحي هائمة على الأرض، تلاحقكم دون هوادة.

سوف تدور حولكم كالطيف، سأقلق مضاجعكم، وأقضّها مائة مرّة كل ليلة، وأحرم عشيقاتكم من النوم، لأصرخ قائلا: إنّني على صواب.

لن تستطيعوا إغماض أعينكم حتّى نهاية أيّامكم، ولن تستطيعوا الإصغاء إلى الموسيقى والاستماع إلى كلمات الحب. لن يمكنكم الاستماع إلى شيء. ستدوّي كلماتي وحدها في آذانكم، كلماتي أنا، إيوهان موريتز.

إنّني إنسان، فإذا كنت لم أسئ إلى أحد، فلا يحق لأحد أن يسجنني ويعذبني. إنّ حياتي وظلي ملك لي. ولا يحق لكم –مهما بلغت مصفّحاتكم ورشّاشاتكم ومعسكراتكم ونقودكم التي تملكونها– أن تمسّوا حياتي وظلي.

لم أشته طيلة حياتي إلاّ شيئا قليلا: أن أستطيع العمل، ويكون لي مكان آوي إليه مع زوجتي وأولادي، وأن أجد ما نأكل!

فهل من أجل هذه الرغبة تسجنونني؟

لقد أرسل الرومانيون الدركي ليصادرني، كما تصادر الأشياء والحيوانات. فاستسلمت لمصادرتهم. كانت يداي فارغتين، فما كنت أستطيع مقاومة الملك ولا الجنديّ المسلح بالبندقية والمسدسات. لقد

زعموا أن اسمي اياكوب وليس ايون، كما عمدتني أمي. وسجنوني في معسكر لليهود تحيط به الأسلاك الشائكة، وأجبروني على الأعمال الشاقة كالحيوانات. لقد نمنا كالحيوانات مع كل القطيع، واضطررنا إلى الأكل مع كل القطيع، وشرب الشاي مع كل القطيع. وكنت أنتظر أن أرسل إلى المسلخ مع كل القطيع. ولقد أرسل الآخرون إلى المسلخ، لكنني فررت. فهل من أجل ذلك تسجنونني؟ ألأنني هربت قبل أن أساق إلى المسلخ؟

زعم الهنغاريون أن اسمي لم يكن اياكوب، بل ايون. فأوقفوني لأنني روماني. وعذبوني وضربوني، ثم باعوني إلى الألمان. وزعم هؤلاء أنني لم أكن أدعى لا اياكوب، ولا ايون، بل ايانوس. وعذبوني من جديد لأنني هنغاري. ثم جاء زعيم وقال إن اسمي ليس اياكوب، ولا ايانكل، بل إيوهان، ثم بعثني جنديا. لقد قاس رأسي بادئ الأمر، ثم عد أسناني، ووضع دمي في أنابيب من زجاج. كل ذلك ليبرهن على أنّ لي اسما غير ذلك الذي عمدتني به أمي. فهل من أجل هذا تسجنونني؟

لقد ساعدت –بصفتي جنديا– خمسة من السجناء الفرنسيين على الفرار. فهل من أجل هذا تسجنونني؟

عندما وضعت الحرب أوزارها، ظننت أنني أنا الآخر سأحظى بقسط من حقي في السلام. فجاء الأمريكيون وأعطوني «شكولاته» وأغذية من عندهم، كما يعطون الأمراء!

ثم سجنوني دون أن يتفوّهوا بكلمة. لقد أرسلوني إلى أربعة عشر معسكرا، كما يرسل أخطر مجرم حملته الأرض.

والآن أريد، أنا الآخر، أن أعرف: لماذا؟

ألا يعجبكم اسمي إيانوس، أو إيون أو إيوهان، أو جاكوب، أو إيانكل؟ هل تريدون أنتم أيضا تبديل اسمي؟ بدلوه. إنّني أعرف الآن أنّ بني الإنسان لم يعد يحق لهم حمل الأسماء التي تطلق عليهم ساعة العماد. لكنني أريد أن أسألكم شيئا: إنّني لن أستطيع بعد الآن صبرا. أريد أن

أعرف السبب الذي من أجله أسجَن وأعَذب.

إنّني أنتظر جوابكم وأحيّيكم باحترام.

موريتز إيون، إيوهان – إياكوب –
إيانكل – إيانوس، حرّاث وربّ عائلة.

سألِ تريان كوروغان بعد أن انتهى من كتابة الشكوى:

- لمَ تبكي، يا موريتز؟

- لست أبكي.

- إنّني أرى دموعا في عينيك. لمَ تبكي؟

- لست أدري السبب.

سأل تريان كوروغا:

- هل تخاف نتائج إرسال هذه العريضة؟ أليس ما جاء فيها صحيحا؟

فأجاب موريتز:

- لست أخشى شيئا. إن كل ما جاء في هذه العريضة صحيح.

- لمَ تبكي إذن؟

فقال موريتز:

- أبكي لأنه صحيح. لأنه يتفجر بالحقيقة!

-133-

بعد ثلاثة أيام من إرسال العريضة، استدعي إيوهان موريتز للاستجواب. فأعاره تريان كوروغا قميصه وسرواله.

قال تريان:

- لقد انتصرنا. لقد أحدثت العريضة الأثر المرجوّ!

كانت عينا إيوهان موريتز تلتمعان. كان يرى نفسه حرّا طليقا منذ تلك اللحظة.

- لقد انتصرنا. إنّني مدين لك بذلك. لقد كان كلّ ما كتبته في العريضة يصرخ بالحقيقة!

فقال تريان:

- لا تخف، ينبغي أن يشعروا هم بالخوف، لأنهم هم المذنبون.

ومضى موريتز إلى الاستجواب باسما.

عاد موريتز عند الظهيرة، وكان تريان ينتظره أمام الباب.

- كيف كان الاستجواب؟ هل وعدوا بإطلاق سراحك؟

لبث موريتز مطرقا. كان من عادته أن يتخذ هيئة غامضة كلّما وجّه إليه سؤال. قال:

- سأقصّ عليك النبأ فيما بعد. لا أستطيع التحدّث الآن.

- هل جننت؟ لقد مكثت هنا ساعات في انتظار أوبتك، فتقول لي: إنك ستحدثني عن النتيجة بعد حين؟

كان إيوهان موريتز قد جمع أعقاب السجائر من المكتب، فأخرجها من جيبه وراح يمزق الورق الرقيق المحيط بها ببطء وتؤدة. ثم قسم التبغ إلى قسمين متساويين أحدهما له والآخر لتريان. ثم راح يلف «سيجارة» مستعملا ورق الصحف.

قال موريتز:

- من الأفضل، يا سيدي تريان، ألاّ أحدّثك بشيء.

- هل قالوا لك إنّهم لن يخلوا سبيلك؟

- كلاّ، لم يقولوا لي ذلك.

- هل وبّخوك وشتموك؟

قال موريتز، وهو مستغرق في عملية لف «السيجارة»:

- لم يشتموني.

- هل ضربوك إذن؟

- كلاّ!

سأل تريان بانفعال:

- لماذا إذن لا تريد أن تكلمني؟ إنّني أرى أنهم لم يسيئوا إليك.

فأشعل موريتز لفافته، وقال:

- كلاّ، لا شيء!

سأل تريان:

- ألَمْ يحن دورك في الاستجواب؟ إنّ ذلك ليس مصيبة، سوف يستدعونك غدا.

- لقد حان دوري!

- هل استجوبوك؟

- نعم.

كان يبدو على إيوهان موريتز أنّ لسانه قد أصيب بالشلل، فكان ينبغي انتزاع الكلمات من فمه انتزاعا، كلمة فكلمة. نفد صبر تريان، وهتف:

- قصّ عليّ كلّ ما وقع. ابدأ من البداية.

فأجاب موريتز:

- لقد كنت أوّل من دخل المكتب، فلما دخلت أشار إليّ أن أجلس، وكان هناك مقعد أمام الطاولة.

فقال تريان:

- لكنّها بداية طيبة. إنّهم إذا دعوك إلى الجلوس، فذلك فأل حسن. لقد تصفّحوا ولا شك إضبارتك، ووجدوا أنك بريء. أنا لا أظن أنّهم يدعون كلّ الداخلين إلى الجلوس. استمر!

- إنّ الذي استجوبني كان برتبة رقيب.

- هل كان مهذّبا؟

- نعم.

- ماذا كان السؤال الأول؟

- لقد نظر بادئ الأمر إلى الأوراق، ثم سألني: «أهو أنت إيوهان موريتز؟» فأجبته: «نعم». فنظر إليّ ثم عاد يتصفّح الأوراق، وأخيرا سألني: «كيف تكتب كلمة موريتز؟ أتكتبها بحرف «التاء» أم بحرف

«الزاي»؟ فقلت له إنّني أكتبها بالطريقتين، بالتاء إذا كتبت باللغة الرومانية، وبالزاي إذا كتبتها بالألمانية.

توقف إيوهان موريتز ونظر بيأس إلى تريان كوروغا.

قال تريان بصبر نافد:

- استمر! لمَ توقفت؟

ثم قال الرقيب:

- شكرا، يمكنك الانسحاب.

- أهذا كل شيء؟

فقال موريتز:

- إنّه كل شيء!

سأله تريان:

- ألم تحاول أن تقول له شيئا؟ لمَ لمْ ترو شيئا مما لقّنته لك؟

فأجاب موريتز:

- لقد حاولت. لكن الرقيب ما كان يريد الإصغاء إليّ. لقد قال دون أن ينظر إليّ: «دور التالي».

- وماذا قلت أنت؟

- لا شيء.

هتف تريان، وهو يضغط رأسه بين يديه:

- إنّه غريب، سخيف! تماما! ثمّ ذهبت بعد ذلك؟

- نعم، لقد خرجت.

- وهذا هو الاستجواب الذي انتظرناه طيلة عام كامل في السجن؟ ألا يوجد شيء غير هذا؟ ألم تنس شيئا؟

أجاب موريتز يائسا:

- كلاّ لم يحدث غير هذا. لقد خرجت أنا، وبينما كنت أغلق الباب بيدي المرتجفة استدعي الذي يليني. وكان اسمه: توماس مان.

- ماذا سألوه؟

- لقد سئل عما إذا كان يكتب مان بالنون المشدّدة، أم النون فقط!

- ولا شيء غير ذلك؟

سالت الدموع على وجنتي إيوهان موريتز. دموع كبيرة كحبات اللؤلؤ. فقال تريان وهو يربت على كتفه:

- ينبغي أن تقنع يا عزيزي العجوز. بعد موت الأرانب البيضاء، لا يبقى من حل إلاّ الاستسلام للمقدّر...

-134-

عريضة رقم 5 – الموضوع: عدالة. (آلية الاستجواب).

إنّني على علم بأنّكم تلقيتم تعليمات خاصة لاستجواب سجناء هذا المعسكر بصورة شخصية. وبالطبع، فإنّ هذا الأمر لا يخلو من الغباء. إذ طالما أنّ الرجال كلّهم قد أوقفوا جماعات، وبشكل إجماليّ آليّ، فإنّ من الحماقة استجوابهم فرادى.

ومع ذلك أعتقد أنّي أستطيع التكهّن بسبب صدور هذا الأمر إليكم. إن حضارتكم تعرف كيف تعمد أحيانا إلى تصرفات فضولية، فيها حب المعرفة، حيال تقاليد الوطنيين أبناء البلاد. فهذا الأمر إذن ليس إلاّ منّة، لمجرد الشكليات، إنّه مجرد ملاطفة.

إن واحدا من ضبّاطكم مرغم على استجواب خمسمائة سجين خلال فترة قبل الظهر ومثل هذا العدد بعد ظهر كلّ يوم. وقد لاحظت أنكم تطرحون سؤالا واحدا على كل السجناء، كل بدوره. وأنّكم لا تصغون إلى الجواب أو الأجوبة. إذ أنّه من الغباء ولا شكّ أن تستمعوا إلى كل ما يريد أن يقوله كل شخص من أولئك الموقوفين لأنّ المرء لا يمكن أن يلمس شيئا مهما من فم سجين!

لكنني أفكّر في النشاط والحيوية اللّذين تصرفونهما في طرح هذه الأسئلة وأشعر أنّ الضباط المكلّفين بهذا الأمر يحسّون مساء كلّ يوم

بآلام هائلة في فكوكهم وشفاههم.

لذلك فإنّني أقترح عليكم أن تعبّئوا إسطوانات مشحونة بهذه الأسئلة. سيكون نظام استعمال هذه الإسطوانات كما يلي: يلبث الضابط المكلف بالاستجواب الشخصيّ في مكتبه – يجب أن يكون هناك، لأن أسلوب الاستجواب الشخصيّ يستوجب وجوده- ويضع الإسطوانة في لاقط الصوت. فلما يدخل السجين إلى المكتب، تنطق الإستطوانة قائلة: «اجلس!» فيجلس السجين، وتستمر الاسطوانة في الدوران، فتطرح السؤال الأول ثم الثاني فالثالث، وأخيرا تعلن الاسطوانة: «أشكرك، يمكنك الانسحاب» فيقف السجين ويتجه نحو الباب، فلما يبلغه تكون الاسطوانة قد بلغت في دورتها عبارة: «إلى التالي». وهكذا تنحل عقدة الاستجواب ويدخل السجين التالي، وتعود الإسطوانة إلى إعادة أسئلتها المملة! وبهذا الأسلوب تستطيعون استجواب خمسمائة سجين باسطوانة واحدة!

خلال هذا الوقت يكون الضابط المكلّف بالاستجواب جالسا في مكتبه يقرأ رواية بوليسية. فإذا خرج ظُهرًا لتناول طعامه، فإنّه يستطيع تناول وجبة الطعام بشكل طبيعي، دون أن يشعر في فكيه بألم المجهود الذي يبذله في الوقت الحاضر.

ينبغي النظر بعين الاعتبار إلى أنّ هذه الاستجوابات، قد وضعت في الواقع لطرح الأسئلة دون الإصغاء إلى أجوبة المستجوبين. لذلك فإنّ الآلة تستطيع القيام بهذا العمل. إنّ المنطق سديد، إذ ينبغي احترام الشكليات. لكنّ إجهاد أولئك الذين يشرفون على تنفيذها يعتبر عديم النفع والجدوى. وبهذا الأسلوب تربح العدالة طريقة جديدة. والعدالة في مجتمع متمدّن ينبغي أن تتحقّق بشكل آليّ. فليس من الضروريّ إذن التصرف وفق الأساليب المتبعة قبل اختراع الكهرباء. إذ ما فائدة كل هذه المخترعات التقنيّة إذا لم تستفد العدالة منها، حتى باستعمال لاقط الصوت؟

الشاهد

دارمستادت: معسكر الاعتقال الخامس عشر. معسكر يشبه كلّ المعسكرات السابقة لكنّه يختلف عنها بكنيسة أورثوذوكسية، كنيسة صغيرة أقيمت بالوسائل المحلية.

رفع تريان كوروغا وإيوهان موريتز قلنسوتهما ودخلا إلى الكنسة.

كانت مُقامةً تحت خيمة وفي صدرها مذبح. أما «الأيقونات»، فقد كانت مرسومة على قطع من الورق المقوّى، بالفحم والعلب الملوّنة. لم تكن للكنيسة أرضية من خشب، فقد أقيمت الخيمة على أرض عادية.

كان المطر قد انهمر خلال اللّيل، فتجمعت المياه تحت الخيمة، وحوّلت الأرض إلى وحول. وكان وسَطَ الكنيسة صليب كبير، يضاهي ارتفاعُه قامةَ الرجل. جثا تريان أمام قدمي الصليب. كان يسوع مصنوعا من الورق المقوى. وكانت الأشواك التي في إكليله مصنوعة من علب الأطعمة المحفوظة التي قطعت قددا صغيرة.

رفع تريان كوروغا عينيه إلى جراح المسيح التي سبّبتها المسامير المغروسة في يديه، والحراب في أضلعه. وجد أن الرسام لم يجد لونا أحمر ليسرم به الدماء، فألصق في الأمكنة التي يجب أن تكون فيها الجراح أوراقا حمراء، أخذها من أغلفة سجاير «اللوكي سترايك». فكانت الأحرف السوداء التي وسط الدائرة الحمراء لا تزال مقروءة لإخفاق الرسام في محوها.

قال تريان:

- لم أرك مصلوبا على هذا الشكل الأليم، يا يسوع! كنت مزمعا على الابتهال من أجل جروحي حينما جئت، لكنني أشعر الآن بعجزي عن الابتهال من أجلها. اصفح عني يا يسوع، إذا كنت أصلي أولا، من أجل جراحك من اللوكي سترايك التي تغطي فخذيك وقدميك وراحتيك. إنها جراح أشد إيلاما من جراح الدم واللحم. اسمح لي أوّلا أن أصلّي من أجل

أشواك علب الأطعمة المحفوظة، المغروسة في الإكليل الذي يحيط برأسك.

راحت عينا تريان تتنقّلان على جسد المسيح، فاكتشفتا على صدر المخلّص حرف M. وهو الحرف الّذي كان يُطبع في العادة على علب الأطعمة الموحدة التي استعمل ورقها المقوى لإقامة الجسد المصلوب.

وقف تريان وقبّل قدمي المسيح:

- أشعر الآن أنني «تناولت» من جسدك يا يسوع، يا مولاي. إنّ «طعامنا» الأبديّ من الآمال يا مولاي، أنت يا «طعامي الموحد». لم أفهم أبدا أفضل مما فهمت الآن، إن جسدك هو طعامنا. كيف اهتدى الرسام السجين إلى فكرة صنع صورتك من ورق العلب التي تعبأ بالأطعمة الموحدة؟ إنك ترمز الآن إلى تعطّشي الكليّ إلى الروح والخبز والحريّة.

كان تريان في حالة من الاستغراق والتمجيد فلم يعد يرى بشرا حوله، بينما كان إيوهان موريتز يفحص الملائكة المصنوعين من الورق المصقول المأخوذ من علب السجاير، وأيقونات العذراء، ذات القلائد المصنوعة من أغطية العلب المذهّبة التي تغطّي عادة علب الحلوى.

رسم موريتز إشارة الصليب على صدره أمام أيقونة القديس نيكولا، الذي يشبه الكاهن كوروغا، وركع بجانب تريان، وراح ينظر إلى جراح المسيح الحمراء.

قال تريان:

- مولاي، لا أطلب منك إبعاد هذه الكأس عن شفتي لأنني أعرف أن إبعادها مستحيل. لكنني أبتهل إليك أن تساعدني على شربها. إنّني أنظر إليها منذ عام، وأحتفظ بها على مقربة من شفتي. منذ عام، وأنا أقف على حدود الحياة والموت. منذ عام، وأنا على أطراف الحياة والحلم. لقد خرجت من نطاق الزمن، ومع ذلك مازلت أعيش. لقد تبددت الحياة من جسدي عن طريق كلّ المسامات ومع ذلك ما أزال على قيد الحياة أتنفس وأجر نفسي وأدخل في جسدي خبزا وماء، لست أرغب فيهما. إن

كل هذه الآلام منشؤها عدم معرفتي، هل أنا سجين أم حرّ!

أرى نفسي سجينا، ومع ذلك لا أتوصل إلى تصديق أنني في السجن.

أراني لست حرا طليقا، ومع ذلك فإن عقلي يحدثني بأن لا موجب يستدعي ابتعادي عن الحريّة. وهذا العذاب الذي يحدثه عدم الفهم أكثر إيلاما وشدة من العبودية. إنّ الرجال الذين سجنوني هنا لا يمقتونني، ولا يريدون معاقبتي، ولا يطلبون موتي. إنّهم يريدون إنقاذ العالم فقط! ومع ذلك، فإنّهم يعذبونني ويقتلونني تدريجيا... إنّهم يعذبون ويقتلون الإنسانيّة كلّها. لست الوحيد الذي أتألم، وأنا أعرف ذلك.

لقد راح أولئك الذين يديرون العالم ينشؤون مستشفيات هائلة، لإبراء جراح البشر. لكن آلاتهم لا تقيم المشافي بل السجون. وكلّ شيء يحدث كما لو كانت اللعنة قد حلّت عليهم.

تفكيري لا يستوعب شيئا. ولهذا السبب، أريد أن أموت، فساعدني يا مولاي على أن أموت. لم تعد قواي تحتمل هذا العذاب.

إنّ الساعة التي أنصف نفسي خلالها لا تخص الحياة. فأنا عاجز عن المرور بثقلي من اللحم والدم بينها. إنها الساعة الخامسة والعشرون، الساعة التي يكون فيها الإنقاذ قد فات أوانه وفات الوقت كذلك للموت. صارت الحياة عديمة الجدوى، لأنّها حياة بعد فوات الأوان. وما دام الأوان قد فات، فلن تصلح هذه الساعة لأي شيء.

اجعلني قطعة من الحجر يا مولاي، ولكن لا تتركني للحياة!

إذا تركتني وهجرتني فإنّني لن أستطيع الرحيل. انظر إلى جسدي وعقلي. كلاهما ينبئ بالموت. لكنني ما أزال على قيد الحياة. مات العالم، مع أنّه ما يزال يعيش. وأنا بين هذا وذاك، لست شبحا ولا مخلوقا حيّا.

ضغط تريان كوروغا رأسه بين يديه، فلمس إيوهان موريتز كتفه بلطف كمن يريد ملاطفته، لكن تريان لم يكن يشعر بشيء.

دخل الكاهن إلى الكنيسة، وهو يرتدي ملابس الأمريكيين العسكريّة

وقد طُبع عليها حرفا «س. ح» (سجين حرب)، كبقية ملابس المساجين.

استقبله إيوهان موريتز وقبّل يده.

بينما لبث تريان كوروغا جاثيا على ركتبيه.

طلب الكاهن إلى موريتز إعلامه عن جنسيته وجنسية زميله. فلما علم بأن زوجة تريان كانت سجينة كذلك، عقد ذراعيه على صدره، وصلّى من أجلها، ثمّ منح تريان بركته، وكان هذا لا يزال جاثيا أمام الصليب، لا يشعر بدنوّ أحد.

قال الكاهن: أنا المطران «يالاد» من فارسوفيا. وجميع الكهنة التابعين لي مسجونون في هذا المعتقل. لقد اعتُقلنا جميعا. إنّ الحفلات الدينية التي نقيمها جميلة جدا فتعالا، إننا نقيم القدّاس كل يوم في الساعة السادسة. لدينا كاهن رومانيّ يرتّل الصلوات. ولكنّه الآن في المستشفى.

راح إيوهان موريتز يحدق في وجه المطران، فقال له:

- سأرسل إليه كلمة إلى المستشفى. فعندما يعلم أنّ في المعتقل رومانييْن، سيحضر ليعطيكما بركته...

-136-

بدأ مجمع من الكهنة يقيمون الشعائر حوالي الساعة السادسة مساء، مرتدين «بطارشهم» فوق ثيابهم العسكريّة الخاصة بالسجناء.

كان تريان كوروغا وإيوهان موريتز معا. وكان المطران مرتديا حلته، يضع تاجه على رأسه. وبالطبع كان التاج محروما من الأحجار الكريمة، التي جرت العادة على وجودها.

كان صوت المطران جميلا عذبا كلحن الكمان الكبير.

اقترب تريان من المذبح. لكنّه ما كاد يقترب من الصليب، حتّى انهار على الأرض. ظنّ موريتز أن قدم تريان قد زلت فسقط، لذلك هرع إليه لينهضه. غير أن جسد تريان كان لدنا، كما لو كانت عظامه كلها قد اضمحلت. وكانت وجنتاه ممتقعتين، وكأنهما من الشمع.

لم يكن في خيمة الكنيسة إلاّ القساوسة. فرفع إيوهان موريتز عينيه يطلب العون. ولكنه في تلك اللحظة بالذات فهم السبب الذي من أجله انهار تريان كتلة واحدة على الأرض. تمتم: «الأب كوروغا!» ثم ارتمى على ركبتيه أمام القس! كان يبدو كمن يحاول تقبيل ركبتي الكاهن. غير أن القس كوروغا لم يكن يملك ساقيه. اقترب منهما معتمدا على عكازيه.

لبث تريان كوروغا وإيوهان موريتز جامدين.

كان شعر القس كوروغا قد ازداد بياضا. وكان يبسم، وعلى شفتيه علامات طيبة عميقة، وفي أمارات وجهه دلائل السعادة. كان الناظر إلى بسمته وعينيه يُخيّل إليه أنّه يرى من خلالهما السماء!...

هتف الكاهن كوروغا:

- تريان، ولدي الحبيب!

ولما حاول الانحناء سقط أحد عكازيه، لكن الكاهن لم يسقط، بل لبث واقفا معتمدا على عكاز واحد.

ثم ترك العكاز الثاني يسقط من يديه، ولبث واقفا أمام تريان، منتصبا كالسهم على ما تبقى له من سيقان. لقد أسقط عكازيه ليتسنى له عناق ولده بيديه الاثنتين.

التقط إيوهان موريتز العكازين وأبقاهما في يديه، ووقف قرب الكاهن كوروغا وولده تريان.

-137-

أصبح الكاهن كوروغا الآن وإيوهان موريتز وتريان كوروغا يأوون إلى خيمة واحدة، في معتقل دارستادت.

سمح أخيرا للسجناء بتلقي الرسائل والإجابة عليها، بعد عام كامل من الانتظار والصبر.

كان إيوهان موريتز أوّل من تلقى رسالة. كانت من أم هيلدا. وقد ورد فيها ما يلي:

«عزيزي هانز

لقد احترق منزلك في 9 أيار 1945. أعرف أنك لست على علم بالأمر. لقد شبّت النار فيه بعد ظهر اليوم الذي دخل فيه الروس مدينتنا. كانت هيلدا وولدك فرانتز في المنزل. لكنني لم أعرف خلال الأسابيع الأولى أنّهما احترقا معه، وهما على قيد الحياة. عثرت على جثّتيهما محترقتين حين كنت أبحث بين الأنقاص ذات يوم، علّني أعثر على شيء عفت عنه النيران. لقد ماتت هيلدا وهي تضمّ الطفل بين ذراعيها. لست أدري لمَ لمْ تفرّ لمّا اشتعلت النار في البيت. يُخيّل إليّ أحيانا أنّها كانت نائمة، لكنني لا أعتقد بأنّها كانت نائمة في تلك الساعة، خصوصا في اليوم الذي دخل فيه الروس المدينة. لقد هرب الناس كلهم، وخصوصا النساء في ذلك اليوم. ولم يكن من عادة هيلدا النوم بعد الظهر، وأنت تعرف ذلك. كانت عند عودتها من المستشفى ظهرا تمارس عملها المنزلي مباشرة.

لقد جمعت عظام هيلدا وولدك المحترقة، ووضعتها في تابوت واحد ودفنتهما في مقبرتنا. لم أتمكّن للأسف من صنع تابوتين، لأن الثمن مرتفع جدا، ولا أحد يوافق على صنع التوابيت. فليس هناك ما يلزم من الخشب، والمسامير مرتفعة الثمن. وقد اضطررت إلى انتزاع المسامير من الجدران ومن اللوحات، وإعطائها إلى النجار ليصنع تابوتا لهيلدا. ولكنّه رفض صنعه رغم هذه التسهيلات، زاعما أن المسامير كانت دقيقة وقصيرة لا تصلح للتوابيت. فاضطررت إلى إعطائه إحدى قبعاتك لأقنعه. فأرجو أن لا يغضبك تصرّفي بقبعتك دون إذنك، فلولا تلك القبعة لما وافق النجار على صنع التابوت، كنت مضطرة إلى دفن عظامها، رغم أن الناس في هذه الأيام أصبحوا يدفنون موتاهم دون توابيت. لقد لبثت العظام حتّى الأسبوع الأخير في البيت. وقد صنعت صليبا من الخشب، لكنك عند عودتك ستأمر بصنع واحد من الحجر. إنّ كل صلبان قبور عائلتنا مصنوعة من الحجر وجميلة.

لقد وجدوا بين الأنقاض جثة ضابط محترقة تماما. لعلّه ضابط، طلب القرى أو أراد إبدال ثوبه بثوب مدني، لأنّ كلّ العسكريين نهجوا على هذا النحو، وارتدوا ثيابا مدنيّة عندما وصل الروس. لكن حافظته الجلدية لم تحترق كلّها. وقد عثرت فيها على أوراقه. إن اسمه إيورغوا إيوردان، وهو روماني مثلك. وقد كتبت لك هذه التفصيلات ظنّا منّي أنّ الرجل قد يكون من أقربائك، وأنّه قد جاء ليراك.»

-138-

قال الكاهن ألسكندر كوروغا:

- لعل من الخير أن آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن!.

كان واضعا يده على كتف إيوهان موريتز يحاول تعزيته. استطرد:

- تصور أن هيلدا ما زالت على قيد الحياة، وأنهم أطلقوا سراحك يوما، فإلى أي زوجة من زوجتيك كنت ستذهب؟ لا أحد يستطيع المفاضلة بينهما أو الانتقاء!

قال إيوهان موريتز:

- إن سوزانا إذن لم تطلقني!

لم يكن يعرف الحقيقة من قبل. كان قد ألمّ بها في تلك اللحظة بالذات، وعرف أنّ سوزانا باقية على عهده. أردف:

- وهي تنتظرني في البيت؟

فأجاب الكاهن:

- إن سوزانا تنتظرك، وستنتظرك إلى الأبد. إنها زوجتك ولم تتبدل. وهي لم توقّع على ورقة الطلاق إلاّ لتبقى في البيت، فلا يلقى بها خارجا مع ولديك. لقد تصرّفت على هذا النحو بسبب يأسها من بلوغ غايتها على نحو آخر. لكنّها لم تعتبر نفسها أبدا مفترقة عنك.

قال إيوهان موريتز:

- وهذا الطلاق؟ لقد كان كذبة فظيعة! وأنا، بما جُبلت عليه من

سخف، صدقت أنّ سوزانا انفصلت عنّي بالطلاق لتقترن بسواي بما جبلت عليه من سخف! لقد اعتقدت أن سوزانا هجرتني. كيف يتسنّى لي أن لا أصدق ذلك بعد أن قرأته في ورقة الطلاق بعيني هاتين؟ لكنني ارتكبت إثما! لن يسامحني الله، ولن يصفح عني أبدا!

قال الكاهن كوروغا:

- سوف يغفر لك هذا الإثم! إن ما وقع خطير جدا يا موريتز! لكنّك لست مخطئا ولا سوزانا كذلك. فالمسؤولية كلّها تقع على الدولة وقوانينها. ولن يغفر للدولة! سوف تعاقب الدولة كما عوقبت سدوم وعمورة . ولن تسقط الصاعقة على دولتنا فحسب، بل ستحرق كل مجتمع اليوم، ذلك المجتمع الذي يرتكب الخطايا والآثام التي لا يمكن لله أن ينظر إليها، دون أن يتألم منها بمرارة.

-139-

مضى تريان كوروغا للاستجواب الأول الذي أخضع إليه..

قال الضابط المستجوب:

- إنك تزعم أنك لا تعرف سبب توقيفك وسجنك، منذ أكثر من عام؟ ليس بين الخمسة والعشرين ألف سجين الذين يعج بهم المعتقل واحد يعترف بأنه يعرف سبب توقيفه. إنكم على اختلاف مناحلكم ومللكم، تدّعون بأننا غزونا أوروبا وأوقفنا الناس إرضاء لنزعاتنا. لكنكم مخطئون. إن كل توقيف حصل بناء على مرسوم.

ابتسم تريان كوروغا، بينما تابع الضابط وقد لاحظ ابتسامته:

- لعلك تزعم أن قوانيننا لا تتفق مع مبادئ الحقوق الخالدة؟ إنّني أسمع هذا النقد كل يوم. إنكم جميعا تستندون إلى نقص القيم الخالدة، أو نقص الشمول في القوانين التي جرى توقيفكم بموجبها. وأنتم بذلك تثيرون السخرية! أوّلا إنّ لكل بلد الحقّ في سن القوانين التي يريد تطبيقها، فالقوانين السائدة إذن في بلدنا تهمّنا وحدنا. ثانيا: ليست

هناك مبادئ حقوقية خالدة. فالعدالة تتحقّق بواسطة بني الإنسان. ولا يمكن لشيء بشري أن يتسم بطابع الخلود. فكل قانون إذن يساوي على العموم، مثيله في بلد آخر. وكلّ القوانين فانية وأزلية في آن. ومن يرى عكس ذلك، إنّما يخدع نفسه بنفسه.

أنت موقوف الآن باعتبارك من موظّفي دولة عدوة، وذلك بحسب القوانين السائدة حاليا في منطقة الاحتلال الأمريكية. والقانون هو الّذي يريد ذلك. وقد أوقفت زوجتك هي الأخرى، استنادا إلى القانون الذي ينصّ على أنّ زوجات كبار الموظّفين الأجانب يوقفون آليا. وأوقف أبوك كذلك بشكل آليّ، باعتباره موظفا في دولة عدوّة.

أوافقك على أنّ ذلك قد يبدو قاسيا بالنسبة إليك. ولكن القانون هو القانون. لقد كانت القوانين قاسية دائما خلال حقبات التاريخ. ولا أظن أنك تزعم أنّه كان يجب علينا استشارتكم قبل وضع قوانيننا!

وقف تريان كوروغا يريد الخروج. كان واثقا منذ أن بدأ في كتابة روايته، من أنّ الوقت الذي تُحرّم فيه القوانين على بني الإنسان العيش كما تحلو لهم الحياة، قد حان. وقد شعر، منذ توقيفه، بأن تلك القوانين بدأت تدخل في حيّز التنفيذ. لكنّه ظل يحتفظ بأمل غامض، يدفعه إلى الاعتقاد بأنّه مخطئ في زعمه. والآن أبلغ رسميّا بأنّ تلك القوانين قد أصبحت مطبّقة بحزم، ومحترمة.

لم يكن هناك أي مجال للاعتقاد بالخطأ. فقد تعرّضت مخلوقات بشريّة غير مذنبة، وبشكل مشروع، للتوقيف، والتعذيب، والإهانة، والسلب والإفناء!

استرسل الضابط يقول:

- أنا مقتنع بأنّك غير مذنب. وهذه هي المرّة الرابعة التي أطلب فيها إلى السلطات إطلاق سراحك وسراح زوجتك وأبيك، رغم أنّه ممنوع منعا باتا أن نطلب إخلاء سبيل شخص مّا من المساجين الموقوفين بصورة

آلية. لكنني لم أتلق جوابا. فأوامر إخلاء السبيل لا يمكن أن تمنح بصورة فردية. ولا يمكن لإطلاق السراح أن يقع إلاّ لمجموعات من الأشخاص.

سأل تريان:

- إنّ كون الشخص مذنبا أو غير مذنب، لا علاقة له بموضوع الاعتقال إذن؟ إن هذا جدير بإثارة انتباهكم، ولو من قبيل حبّ الاستطلاع.

فأجاب الضابط:

- هذا لا يهمّنا في شيء، حتّى وإن جرح إحساسك كرجل نشأ حسب المفاهيم الفردية، وأدمى كلّ أفكارك وعقائدك اللاهوتية والجمالية والإنسانيّة. فلا أستطيع أن أبدل شيئا. بل، لا حاجة لأن يُبدَّل أيّ شيء. قد يبدو أسلوبنا جافًا، آليا وحسابيا، لكنّه عادل. العالم كله يتحرك بطريقة حسابيّة ولن يخطر على بال أحد أن يبدل سيره واتجاهه.

قال تريان:

- إن الاستجواب الذي سُخّرت له الآن لا يهمّك إذن؟ أليس كذلك؟ يبدو أن ما من شيء يتعلق بالفرد يمكن أن يثير اهتمامكم!

أجاب الضابط:

- لا شيء. إن كل ما نريد معرفته عن الشخص هو معلومات خاصّة، أي اسمه الكامل الصحيح، تاريخ الولادة ومكانها، مهنته، إلخ...، لنسجل تلك المعلومات على بطاقات خاصة وندونها في إحصاءاتنا.

على كل حال إن هذه الاستجوابات تهدف في حقيقتها إلى التحقق من بعض المعلومات، وتقسيم المساجين إلى فئات. فالتعليمات المتعلقة بالتوقيف أو إطلاق السراح لا ينظر في شأنها إلاّ على أساس جماعي. وعملنا يقوم على وضع كل شخص ضمن الفئة التي ينتمي إليها. إنّه عمل حسابي دقيق.

- أولا تجدون أن إلغاء الإنسان ومعاملته كجزء من فئةٍ عملاً غير إنساني.

فقال الضابط:

- كلاّ، لا أرى في ذلك شيئا غير إنساني. فهذا الأسلوب عمليّ وسريع

بل إنّه علاوة على ذلك عادل. ولا يمكن للعدالة إلاّ أن تربح منه. فهي تسير وفق مناهج العلوم الرياضية والفيزيائية، أي حسب الأساليب الأكثر دقة. والشعراء وعلماء اللاهوت فقط يستنكرون هذه الوسائل والأساليب.

لكنّ المجتمع المتمدّن، قد تخلّص من المبادئ اللاهوتية والشعر. نحن نجتاز الآن حقبة علميّة رياضيّة سليمة ولا يمكن لنا العودة إلى الوراء لأسباب عاطفية. وعلى كل حال، ليست العواطف إلاّ ابتكارا من ابتداع الشعراء.

أشار الضابط إشارة يُفهم منها أنّ الاستجواب قد انتهى.

فتح تريان كوروغا الباب، وسمع من ورائه صوت الضابط الذي استجوبه يقول بفتور:

- إلى التالي...

-140-

كان إيوهان موريتز يفكّر في الفرار من المعتقل. فمنذ أن عرف أنّ زوجته سوزانا لم تطلب الطلاق منه، وأنها تنتظره بكل إخلاص مع أولادها، لم يعد يستقرّ على حال.

قال تريان:

- لا يستوجب الأمر مجرد التفكير فيه. فما إن تقترب من الأسلاك الشائكة حتّى يطلق البولونيون النار عليك.

نظر موريتز إلى الحرّاس البولونيين المرتدين ألبسة أمريكية زرقاء. كان البولونيون واقفين ينظرون إليه بانتباه، كما لو أنّهم قد خمنوا ما يجول في رأسه، ممسكين أسلحتهم بأيديهم على استعداد لإطلاق النار.

استطرد تريان:

- فإذا أخطأك البولونيون فإنك ستقتل من قبل العسس الأمريكي، أو الألماني، قبل أن تصل إلى رومانيا. ستلاقي في طريقك جنودا نمساويين، وتشيكين، وفرنسيين، وهنغاريين، فلا تصل أبدا إلى رومانيا... سينالون

منك في الطريق. فإذا تفاديت بنادق أمة ونجوت من جنودها، قتلتك الأمة التي تليها. إنّ بينك وبين بيتك وبين أسرتك يا عزيزي موريتز، أممَ العالم، أممًا مسلحة تريد قتلك... فهذا الجيش الدولي العالمي يقف حائلا بين كل شخص وحياته الشخصيّة الخاصة. لم يعد يُسمح للمرء الآن بأن يعيش حياته الخاصة. إنّه يقتل رميا بالرصاص إذا حاول ذلك. ولم تُصنع المصفحّات والرشّاشات والأنوار الكشّافة والأسلاك الشائكة، إلاّ من أجل هذا الهدف...

فقال إيوهان موريتز:

- سوف أهرب رغم ذلك.

ونظر إليه الحارس البولوني باهتمام متزايد.

وفي تلك اللحظة، دخل ضابطان أميركيان إلى فناء المعتقل، واتّجها نحو المستشفى، فتابعهما إيوهان موريتز بأبصاره.

وفجأة ترك تريان دون أن يتفوه بكلمة، وراح يجري في اتجاههما وانتصب أمامهما فتوقف الضابطان كذلك. نظر إيوهان موريتز إليهما ونظرا إليه. ودام ذلك فترة بلغت دقيقة كاملة. وفجأة أحاط أحد الضابطين -وهو أقوى من زميله بنية وأكبر سنّا- موريتز بذراعيه وعانقه بأخوية. فأحاط المساجين بهما، وقد استبدّ بهم الفضول والاستغراب. لم يسبق لواحد منهم أن رأى ضابطا أمريكيّا يعانق سجينا.

توجه إيوهان موريتز نحو مستشفى المعسكر مع الضابط الأمريكي الذي لبث يطوقه بذراعيه، ودخلا معا.

اقترب تريان كوروغا من المستشفى ووقف قرب الباب. لبث منتظرا يتطلع إلى عودة صديقه توّاقا إلى معرفة أخباره. كان ينتظر أوبة موريتز ليقص عليه وقائع الأمر، لكن إيوهان موريتز تأخّر في العودة.

انقضت فترة سمع تريان كوروغا بعدها صوت إيوهان موريتز. رآه يطل عليه من نافذة مكتب المستشفى، وعيناه السوداوان تلتمعان كالشعلة

الملتهبة. وقال:

- إن الضابط الأمريكي هو صديقي الدكتور ابراموفيسي. لقد عرفته على الفور. لقد فررت معه من رومانيا. إنّني الآن واثق من أنني سأعود إلى الحريّة!

أغلق إيوهان موريتز النافذة لأن صديقه استدعاه ليكلمه.

-141-

لم يكن إيوهان موريتز قد تحدث مع الطبيب ابراموفيسي في معسكر رومانيا، وفي هنغاريا، إلاّ بلغة الييديش، فاستمر يحدّثه بها. وكان الطبيب الملازم ابراموفيسي يشعر بابتهاج حقيقي لمقابلته إيوهان موريتز فكان يصغي بانتباه إلى كلّ كلمة من كلماته.

قصّ عليه موريتز كلّ ما وقع له منذ أن افترقا في هنغاريا حتّى تلك اللحظة، فكان ابراموفيسي يهزّ رأسه للإعراب عن عطفه وإشفاقه خصوصا لمّا قصّ عليه موريتز حكاية العذاب الأليم الذي تعرّض له في المعسكرات الخمسة عشر التي دخلها في ألمانيا في السنوات الأخيرة.

قال الطبيب ابراموفيسي وهو ينظر إلى ساعة يده:

- ينبغي أن أذهب. أنت في حاجة إلى المعونة يا عزيزي يانكل. إنّني أعرف حاجتك إلى العون، لأنّها حاجة طبيعية. حدّثني عما تحتاج إليه، وسوف أساعدك. إنّني لا أنسى أنّنا اجتزنا لحظات عصيبة معا.

وربّت الطبيب على كتف موريتز وأردف:

- إنّني الآن مقتدر قويّ، وأنت تجتاز لحظات رديئة من حياتك. ما الّذي تحتاج إليه؟ أتريد لفافات، أو غذاء أو ألبسة؟ اذكر لي ما تريد.

فقال إيوهان موريتز:

- أريد الخروج من هنا. أريد العودة إلى بلدي والعودة إلى زوجتي وأولادي.

قال الطبيب بانزعاج:

- لا تطلب المستحيل يا عزيزي يانكل. اطلب شيئا تمكّنني سلطتي من منحه لك. إن إطلاق سراح الأشخاص يحدث آليا فلا يجب أن تفكر فيه. بل ينبغي أن تتعود الصبر.

قال إيوهان موريتز:

- لكنني بريء، فلماذا يوقفونني؟

فأجاب الطبيب:

- لا علاقة للإدانة والبراءة والحريّة بالموضوع.

ثم أردف وقد بان الانفعال على صوته:

- هل زعم أحدهم أنّك مذنب يا عزيزي يانكل؟ إن إطلاق سراحك مسألة صبر.

- لقد انتظرت بما فيه الكفاية!

قال الطبيب:

- هذا رأيك الشخصيّ. لقد ظللت قرويا شديد السذاجة والجمود. إنك تعتقد بأن أيّ ضابط يستطيع إطلاق سراح سجين ما، لأنه يعتقد بأنه غير مذنب أليس كذلك؟ لو كان الأمر كذلك لأخلي هذا المعسكر بين عشية وضحاها. إنّ كل نازي يستطيع إيجاد أدلة على براءته.. وإطلاق السراح لا يتحقق إلاّ بناء على أمر الأركان العامة في فرانكفورت، ومنه ترسل الأوراق إلى واشنطن فيحوّل القرار منها إلى ويسبادن، فتشكل لجنة خاصة في اسلنجن، وترسله إلى برلين. وبذلك يرسل أمر إطلاق السراح إلى هيدلبرج، ترفع البطاقة من المحفوظات في مئات من المكاتب وعندئذ فقط تكون مطلق السراح. لكن كلّ هذه المعاملات شديدة التعقيد، إنها آلة تعمل «أوتوماتيكيا». ولكلّ سجين بطاقته. ولدى الأمريكيين دار للسجلاّت، ضخمة جدّا، تضاهي الثكنة التي تراها في الجانب الآخر. فعندما يرسل أمر إطلاق السراح إلى هيدلبرج، ترفع بطاقتك آليا من سجلاّت واشنطن وشتوتجارت، ولوديمبسنورج، وميونيخ، وكورنويستذيم،

وباريس، وفرانكفورت، وبرلين.

إنّ اسمك مسجّل في العالم بأسره، في كل مكان، في المكتب الاتحادي للمعلومات في أمريكا، وفي القيادة الحليفة العليا في باريس، وفي لجنة الرقابة في برلين، وفي المعسكرات والسجون، وفي مكاتب البوليس: بوليس الجرائم، بوليس السياسة، الشرطة العسكريّة، شرطة المشبوهين، شرطة الطوارئ إلخ... و كلّ حركاتك حتّى أكثرها تفاهة مثل نقلك من معسكر إلى آخر، تحدث حركة وتبديلا في بطاقتك، بين مختلف دوائر السجلاّت. فهل كنت تعرف ذلك؟

راح إيوهان موريتز يتخيّل اسمه مكتوبا في كلّ مدن العالم، تكرّره الآلات الكهربائية، فيضيء وينطفئ على التوالي أشبه بتلك الأنوار الكشّافة المسلّطة على الأسلاك الشائكة في المعسكر. عرف في تلك اللحظة أنّ كلّ حركة من حركاته كانت تصوّر وتسجل وتضاء! فقال:

- ما كنت أعرف ذلك!

- لو أنك عرفته لما سألتني إطلاق سراحك. لذلك، فإنّني لست بناقم عليك لأنك سألتني ذلك. لقد كنت تظن أنّني أستطيع أن أنتزعك وحدي من بين ذراعي هذه الآلة الجبارة. أليس كذلك؟

راح الطبيب آبراموفيسي يقهقه ضاحكا ثم أردف:

- إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة لن يستطيع ذلك، ينبغي لك أن تنتظر حلول دورك بهدوء.

سأل إيوهان موريتز:

- ولكن، لماذا أبقى في السجن طالما أنني بريء؟ لماذا تنقم الآلة عليّ إذا كنت لم أسئ إليها؟ إنّ الآلة التي تتحدث عنها مصنوعة ولا شك لمطاردة اللصوص والمجرمين والآثمين.

قال الطبيب:

- تعلّم يا عزيزي يانكل عدم إصدار الحكم بعد الآن على غرار مزارع

متخلّف ساذج. إنّك تعود بالأشياء كلّها إلى نطاق الحالات الشخصيّة الخاصّة. إنّ البلدان المتمدّنة لا تعنى بالحالات الشخصيّة. فأن تكون مجرما أو بريئا، مسألة شخصية يمكن أن تهتم بها زوجتك أو أن يعلّق عليها جيرانك والفلاحون الآخرون في قريتك اهتمامهم. هؤلاء وحدهم يهتمون بمسائلك الشخصيّة. أمّا الدول الراقية فإنها تنظر إلى الأمور نظرة شمولية. إنها لا تهتمّ بشؤون الأشخاص فرديا.

- ولكن، لماذا أوقفوني؟

- لقد قمنا بتوقيفات وقائية حسب الأصناف والطبقات. فإذا احتجنا إلى المذنب، أو إلى مجرم حرب مثلا، فإنه يكون تحت يدنا، بدلا من البحث عنه في كل مكان، وملاحقته في كل القرى والغابات. لو فعلنا ذلك لأضعنا وقتا كبيرا. أما بهذه الوسيلة فإننا لن نتكلف إلاّ عناء الضغط على زر يتعلق بالحروف الأولى من الاسم، وقبل أن نعد إلى ثلاثة، تكون بطاقة الشخص المطلوب بين أيدينا مع صورته وكل المعلومات المتعلقة به: طوله، وزنه، لون شعره تاريخ ولادته ومكانها، عدد أسنانه، وكل ما يهمنا معرفته. وعندئذ يكفي أن نرفع البوق لنبلغ بواسطة ا لراديو، المعسكر أو السجن الذي يكون رجلنا فيه، فلا تنقضي ساعات محدّدة، إلاّ ويكون الشخص بلحمه ودمه ماثلا أمام محكمة نورمبرغ الدولية. وهذا عمل مدهش. فقد صار كلّ شيء، نتيجة التقدم التقني، يتحقق آليا، وكل شيء يسير بالكهرباء. فكيف تريدهم أن يطلقوا سراحك؟ إنّ ذلك يعادل الجنون! أنت الآن شبيه بخيط في نول للحياكة، ومنذ أن أدخل في مكانه صار يتعذّر استخراجه. وعندئذ ينبغي الانتظار حتّى يخرج من تلقاء نفسه منسوجا مع الخيوط الأخرى، ولن يكون ذلك إلاّ في وقت معيّن. من المستحيل التصرّف على نحو آخر. فالآلات دقيقة جدا، وينبغي للمرء أن يتعلّم الصبر عندما يتعامل معها.

إنّك في صميم آلة جبارة. ومهما بذلت من مجهود وتحركت وناضلت

فلن تخرج منها. إنّ الآلة صمّاء، لا تسمع ولا ترى، بل تعمل فقط. وهي تعمل عملا مدهشا تبلغ فيه الكمال الذي لا يستطيع الإنسان بلوغه أبدا. فعلى المرء أن ينتظر وهو مطمئن تماما إلى أنّ دوره سيحين. الآلة لا تنسى كما ينسى المخلوق البشري، إنّها دقيقة. فهل فهمت؟

رفع موريتز كتفيه يأسا وقال:

- لا تستطيع عمل شيء إذن ينجم عنه إطلاق سراحي؟

- ألم أفسّر لك أنّك في آلة جبارة، وأنّ أفضل ما تقوم به هو الانتظار؟

فقال موريتز ملحا:

- ولكنك إذا تدخّلت في الموضوع لصالحي، فإن ذلك يجعل الأمور في صفي. أليس القادة والحُكّام بشرا مثلك ومثلي؟ إنّهم يفهمون. لعلّهم إذا فسّرت لهم موقفي وشرحت لهم أنّ لي زوجة وأولادا، وأنّني أتألم في المعسكرات منذ سنوات وسنوات دون أن أقترف ذنبا، لعلّهم يطلقون سراحي فور ذلك.

قال الطبيب أبراموفيسي بانفعال وغضب:

- كأنّي أحدّث بغلا!... أنت تعيد الأمور دائما إلى نواحيها الشخصيّة الخاصة. إنّك لا تستطيع إغفال نفسك لحظة واحدة. وهذه صفة الرجل البدائي. قل لي بدلا من هذا، إذا كنت تحتاج شيئا. فعليَّ أن أذهب الآن. هل ترغب في الحصول على لفافات، أو أطعمة، أو ألبسة؟

فقال موريتز:

- أريد فقط أن أُنصَف. لكنّني أرى أنّ عدالة الإنسان قد ماتت على طول الأرض وعرضها، لذلك فإنّني لا أريد شيئا آخر.

قال الطبيب أبراموفيسي وهو يمدّ يده إلى موريتز محمّلة بعلبة «لوكي سترايك»:

- يمكنك مع ذلك أن تأخذ لفافة.

وابتسم بوداعة وأردف:.

- لقد كنا رفيقين في الضرّاء يا عزيزي يانكل!

مدّ موريتز يده ليأخذ لفافة لكن العلبة كانت فارغة. راح الطبيب يبحث في جيوبه عن علبة أخرى، فلم يجد غيرها، فقال:

- سأقدّم لك سيجارة في المرة القادمة، لمّا أعود إلى هنا يا عزيزي يانكل.

ثم خرج..

-142-

لبث الكاهن كوروغا جالسا أمام الضابط الذي يستجوبه وعكازتاه على ركبتيه.

قال الضابط متسائلا:

- ماذا كنت تفعل في ألمانيا إذا لم تكن نازيا، أو عميلا للنازيين؟ إنّ القصّة التي ترويها والتي تزعم فيها أنّك استيقظت فوجدت نفسك في مستشفى عسكريّ ألماني، دون أن تعرف كيف وصلت إلى ذلك المكان، تصلح للأطفال وحدهم. إنّ مثل هذه الأمور لا يمكن أن تحدث إلاّ في حكاياتكم الخرافية التي تروج بينكم في البلقان. إنّ الكذب واضح فيها، إنّها بعيدة عن المنطق، بعيدة عن العقل، وهي إذن لا تصدّق، مثلها مثل قصص الجان. لماذا يحتفظ بك الألمان في مستشفاهم إذا لم تكن نازيا أو مؤيدا للنازية؟ لماذا يعالجونك ستة أشهر متتالية، ويبترون ساقيك؟ ألأنك كنت عدوّا لهم؟ ألمجرّد شعورهم الإنساني؟ ومتى كان الألمان إنسانيين؟ لقد سجن الألمان كلّ أعدائهم وقتلوهم خنقا في غرف الغاز. لقد كنت تؤازرهم ولهذا السبب عنوا بك، ينبغي أن تكون الآن شديد الحزن لأن هتلر لم يربح الحرب!

لزم الكاهن كوروغا الصمت وهو ممتقع الوجه تنثال من حاجبيه قطرات العرق كاللآلئ.. كان يجلس بصعوبة على المقعد لأنه منذ أن بترت ساقاه لم يعد يستطيع الجلوس إلاّ مستلقيا، وكانت الحمى تنهش

جسده، وهو يتلهف إلى الخلاص من هذا الاستجواب بأسرع ما يمكن ليستطيع مغادرة المقعد.

استطرد الضابط:

- لو ربح هتلر الحرب لكنت شديد الاغتباط، أليس كذلك؟ كان هتلر سينصبك مطرانا على رومانيا. لو ربح الحرب لكان أسعدك الأمر أليس كذلك؟

قال القس:

- كلاّ، إنّني ما كنت لأشعر بالسرور أو السعادة.

- هل سررت إذن لأن الحلفاء ربحوا الحرب؟

فأجاب الكاهن:

- ولا هذا يسرّني أكثر.

قطّب الضابط حاجبيه، فابتسم ألكسندرو كوروغا وقال:

- إنّ أي نصر يحصل عليه بواسطة السلاح لا يمكن أن يدخل السرور إلى نفسي.

كان الكاهن ينظر خلال تلفظه بتلك الجملة إلى الصور المأخوذة في معسكرات الاعتقال الألمانية. كان يفكّر في جثث المستنطق جورج داميان وفازيل آبوستول والفلاحين الآخرين في فانتانا الذين قتلهم ماركو غولدنبرغ، وألقاهم في حفرة الأقذار وراء زريبة دار البلدية. كان يفكّر في جثث أطفال درسيد، وفرانكفورت، وبرلين، وفي جثث دونكرك، وستالينغراد، فما كان يستطيع الشعور بالسعادة، وهو يفكّر في تلك الجثث التي كان لها الفضل في النصر.

فبُغية الوصول إلى النصر، كانت الأرض قد كُفّنت بجثث الأبرياء.

«لا يوجد جمال حتّى في النصر،

وذلك الذي يُسمّى جميلا،

هو من أولئك الذين يجدون الغبطة في المذابح.

ومن يرى الغبطة في المذابح،

لن ينجح في طموحه الهادف إلى السيطرة على العالم.

إن تأوهات حزينة رافقت ولا بدّ الجماعات المذبوحة،

لذلك ينبغي أن يحتفل بالنصر، حسب الطقوس الجنائزية»[1].

فقال الضابط:

- هذه قصيدة رائعة. أأنت الذي نظمتها؟

- بل إنها لشاعر صيني، كتبها قبل ألفي عام.

فقال الضابط:

- اكتبها لي، سأرسلها إلى أسرتي في أمريكا.

ثمّ ابتسم. كان ولا شك يفكّر في أسرته. لكنّه اكتأب بعد ذلك ونظر إلى القسّ نظرة مستريبة وقال:

- هل أنت واثق من أن القصيدة التي تلوتها الآن قد نُظمت من قِبَل صيني؟

فأجاب الكاهن:

- كل الثقة! ولكن، إذا أعجبتك الأبيات فماذا يهمّك أن يكون الشاعر صينيا أو من أي قطر آخر. إن هذه الأبيات جميلة، وهذا هو المهم، أمّا ما عدا ذلك، فليس مهما أو جديرا بالاهتمام؟

فقال الضابط معترضا:

- بل إنّه جدير بالاهتمام، إنّني سعيد لأن الشاعر صيني. فالصّين أمّة حليفة للولايات المتحدة، وستكون أسرتي سعيدة عندما تتلقى هذه الأبيات. لو أن الشاعر كان من أمة عدوّة، لما أرسلتها إلى أسرتي. انسخها لي حتّى صباح الغد. سأعطيك قلما وورقا. هل تعلمت شيئا آخر غير اللاهوت؟ هل قمت بدراسات أخرى؟

- لقد تعلّمت كل ما سمحت لي الحياة بتعلّمه، كل ما راق لي أن أتعلّمه!

---

(1) هذه قصيدة للشاعر الصينيّ لاو - تزي.

- هل تعرف اللغة الصينية؟

- كلاّ.

- يا للأسف، لو أنّك كنت تعرفها لطلبت إليك أن تكتب الأبيات بالأحرف الصينية. ولكان ذلك مفاجأة كبيرة لأسرتي التي لا تنتظر حتما استلام رسالة منّي مكتوبة بالصينية. ومع ذلك لا بأس عليك إذا كنت لا تعرف الصينية، اكتبها بالانجليزية. إن الصيني الشاعر ذو قريحة هزلية، إنّه حليف للولايات المتحدة.

لمّا عاد الكاهن إلى المعتقل كان محطّما من التعب.

مدّده موريتز على السرير ووضع على جبينه كمادات باردة. وسأله:

- هل تحدّثت عن إطلاق سراحك يا أبي؟

فأجاب العجوز:

- كلاّ.

- ولكن، ماذا سألوك إذن؟

- لقد طلب منّي أن أنسخ قصيدة للاو–تزي كان يود أن يحصل عليها باللّغة الصينية، ولقد أسف أسفا كبيرا لأنني لا أعرف القراءة والكتابة باللغة الصينية!

- أ كان هذا مدار الاستجواب كله؟

فهز الكاهن برأسه: «نعم».

-143-

تلقى تريان كوروغا رسالة من نورا.

قال تريان وهو يضغط بين يديه على الغلاف وقد طُبعت على جانبه عبارة: سجين حرب.

أعرف أن نورا موقوفة. لكنّي ظننتهم أطلقوا سراحها خلال هذا الوقت. والآن لم يعد في الإمكان الجري وراء الوهم. إنها سجينة مثلنا، في معتقل كمعتقلنا، تتألم مثل ألمنا، خاضعة للمعاملة نفسها التي نعامل بها،

وهي تنقل من معتقل إلى آخر مثلنا، ويحرسها جنود بولونيون مسلحون بالرشاشات، من وراء الأسلاك الشائكة، كما هو حالنا. إن كل وجودي وكياني يرفضان الاحتمال أكثر من ذلك.

كانت نورا لا تعرف عنوان تريان عندما أرسلت تلك الرسالة، لذلك فقد وضعت على الغلاف، إلى جانب اسم تريان، أرقام كل المعتقلات القائمة في المنطقة الأمريكية وبذلك لم تبلغ الرسالة يدي تريان إلاّ بعد أن نقلت من معتقل إلى آخر.

استطرد تريان:

- إنّهم لم يذكروا لها اين أنا وقد رفضوا إعلامي رقم المعتقل الذي هي فيه.

راح الكاهن يحاول تعزيته والتخفيف عنه، وهو ممدّد على السرير والكمادات الباردة على جبهته وإيوهان موريتز واقف بالقرب منه. لكن تريان لبث أصمّ الأذن لا يصغي إلى كلمات العزاء.

استطرد تريان يقول:

- لكل ألم حدود، وأنا أقدّر أنني بلغت الحدود. ولاوجود لكائن بشري يستطيع تخطي تلك الحدود والبقاء بعد ذلك على قيد الحياة.

ثمّ نهض تريان كوروغا واقفا وخرج من الخيمة.

قال موريتز بذعر:

سوف ينتحر السيد تريان يا أبتاه.

لبث الكاهن مغمض العينين. لم يسمع كلمات موريتز لأنه كان يصلي. لم يكن يصلي من أجل تريان ونورا فقط، بل كان يصلي من أجل موريتز أيضا ومن أجل البشر الذين دفعهم المجتمع الآلي الغربي إلى حد لا يمكن للكائن الحي أن يتخطّاه ويبقى على قيد الحياة.

قال موريتز:

- إذا تركت السيد تريان وحيدا سيقتل نفسه.

فتح الكاهن عينيه ولمس يد إيوهان سامحا له بالخروج.

-144-

قال الكاهن كوروغا:

- أعطني يدك أرجوك.

كان مستلقيا على السرير وعيناه نصف مغمضتين، شاحب الوجنتين، ممتقع الجبين وقد غادرت الدماء وجهه. قبض العجوز على يد تريان وأودعها يديه دون أن يتلفظ بكلمة، فاختلطت حرارة الأيدي، وبدا كأن الدم قد انتقل من واحدة إلى أخرى. شعر كلاهما بتدان لا يشعر بمثله إلاّ الأب والابن، وتجاوبت ضربات قلبيهما غير أنّ وجيب قلب القس كان يزداد خفوتا. أراد إيوهان موريتز أن يبدّل الكمادة، غير أن المريض ابتسم له وأشار إليه بعقم المحاولة. فجلس على حافة السرير وأصغى للكاهن وهو يقول:

- في هذه اللّحظة لا أشعر بأنني أدفئ يدي بحرارة إنسان، بل بنار الحياة ذاتها. إنك دافئ محرق يا تريان ولا أحد يستطيع أن يكون كذلك، إلاّ الحياة نفسها.

ضغط تريان على يدي أبيه. كانت اليدان باردتين غير أن الكاهن ابتسم واستطرد قائلا:

- لقد صَبوتُ إلى تحقيق حلمين كبيرين في حياتي على الأرض: أن أكون كاهنا في أمريكا، وأن أدفن بعد موتي في مقبرة فانتانا. أتعرف تلك المقبرة يا تريان؟ إنها مقبرة لا جدران لها ولا أسلاك شائكة، وهي مغطاة بالأزاهير والأعشاب البرية. إنّ تلك المقبرة تشبه الحقل الكبير، وقد كنت أفضّل أن أكون هناك، لأتأمّل رحلتي الأبدية. ولقد تحقق الحلمان بطريقة مضحكة غريبة. لم أذهب إلى أمريكا، لكن أمريكا جاءت إليّ. وسأموت في هذا السجن الذي تخفق عليه الراية الأمريكية ذات النجوم ولن أدفن في مقبرة فانتانا. لكن مقبرة فانتانا قد اتسعت حتّى عمت أوروبا كلها.

إنّ فانتانا ورومانيا وأوروبا كلها، ليست الآن إلاّ لطخة سوداء على خارطة العالم، كلطخة الحبر. والقارّة كلّها صامتة حزينة. لقد غادرها السرور والانشراح كما غادرا مقبرة فانتانا. وعما قريب ستُغطّى هذه الأرض بالأزاهير والأعشاب البرية كما هو حال مقبرتنا. ولا أهميّة بعد ذلك للمكان الذي سأدفن فيه على هذه القارة. سأشعر أينما كنت مثل شعوري في مقبرتنا الخالية من الأسلاك والحواجز.

قال تريان:

- لمَ تحدثني بكل ذلك؟ يجدر بك أن تستريح.

فأجاب القس كوورغا:

- إنك على حق. لكنّني أريد أن أحدّثك بأمر آخر. اعلم يا بني أن «الحياة لم يكن لها أبدا مقصد موضوعي إلاّ إذا أردنا بذلك التنويه بالموت. إن كل هدف حقيقي وواقعي ليس إلاّ هدفا ذاتيّا مرتبطا بالنفس، والمجتمع التقني الغربي يريد أن يعطي للحياة هدفا موضوعيا، وتلك خير وسيلة لإفنائه. لقد حوّلوا الحياة إلى إحصاء، ولكن: «كل إحصاء يُغفِل الحالة الفريدة من نوعها. وكلما تطورت الإنسانيّة كلّما أصبحت خصوصيّة الشخص، وفرادة كلّ ما يتعلّق به، هي التهمة التي يؤخذ بها. إنّ المجتمع التقنيّ يتقدم في الاتجاه المعاكس تماما: إنّه يعمّم كل شيء: «وبسبب الاستمرار في التعميم والبحث، أو إيداع كل القيم في ما هو عام، فإن الإنسانيّة الغربية فقدت كل شعور بالقيم الفردية، وبالتالي بالكيان الفردي. ومن هنا نشأ خطر الجماعية، سواء كان على الطريقة الروسية أو على الطريقة الأمريكية.»[1]

وبذلك نستطيع أن نتأكد من أنّ هذا المجتمع سينهار. لقد تحدثت عن ذلك بنفسك، ذات مساء في فانتانا. لقد أصبح مجتمع الحضارة التقنيّة متناقضا مع حياة الفرد لأنه يخنق الإنسان. والبشر يموتون

---

(1) من كلمات للكونت: هـ. دو كيسيرلنغ.

ميتة الأرانب البيضاء التي تتحدث عنها في رواياتك. إننا نموت جميعا مختنقين في الجوّ المسموم الذي يخلقه هذا المجتمع، حيث لا يمكن لغير العبيد التقنيين والآلات والمواطنين أن تتحرك، كما ذكرت في كتابك. إنّ الإنسان بهذا الشكل يرتكب خطايا بالغة الخطورة، ويعتبر مذنبا حيال الربّ.

إننا نجابه خيرنا الشخصي بكلّ قوانا وضد الربّ على الأخصّ. وبذلك يكون المجتمع البشري قد بلغ قاع الهاوية. وفي يوم من الأيام سوف يُباد هذا المجتمع كما أبيدت مجتمعات كثيرة خلال حقبات التاريخ، وقبل أن يبدأ التاريخ. فالبشر يحاولون إنقاذ هذا المجتمع بنظام منطقي في حين أن ذلك النظام بالذات هو الذي يقضي عليه.

هذه هي جريمة المجتمع التقنيّ الغربي. إنّه يقتل الإنسان الحي في سبيل النظرية، في سبيل التجريد، و في سبيل الخطة. هو ذا الشكل الحديث للقرابين الإنسانية. لقد استُبدلت أكوام الحطب والإعدام حرقا في السابق، بالمكتب والإحصاء اليوم. وليست تيْنك الأسطورتان الوثنيتان الجديدتان في المجتمع المعاصر إلاّ النار التي تحرق الضحية الإنسانيّة.

إنّ الديمقراطية مثلا شكل تنظيمي اجتماعي متفوق بوضوح على النظام الكليّ السائد في المجتمعات الأخرى. لكنّها لا تمثل من الحياة البشرية سوى بعدها الإجتماعي. فإذا بلغ المرء حدّ خلط الديمقراطية بمعنى الحياة نفسه، فإنّه بذلك يقتل الإنسان ويختزله في بعد أحادي. وتلك هي الخطيئة الكبرى، الخطيئة التي ارتكبها النازيون والشيوعيون. فلا معنى للحياة الإنسانيّة إذا لم تؤخذ ولم تُعش في مجموعها. ولكي يتعمق الإنسان في الاتجاه الأقصى من الحياة، يجب أن يستعمل الأدوات نفسها التي نستعملها لفهم الفن والدين: أدوات الإبداع الفني، وأدوات كلّ إبداع. أمّا العقل فيشغل دورا ثانويا في اكتشاف هذا الاتجاه الأقصى من الحياة. فالرياضيات والإحصاء والمنطق ليس لها في استيعاب الحياة

البشريّة وتنظيمها إلاّ ذلك المفعول الذي يحدثه الإصغاء إلى لحن من ألحان بتهوفن أو موزار. لكنّ المجتمع الغربي التقنيّ يلحّ بعناد على الوصول إلى فهم بتهوفن ورافائيل عن طريق الحسابات الرياضية، ويلح بعناد على فهم الحياة الإنسانيّة وتحسينها بواسطة الإحصاء..

إن هذه المحاولة منافية لجوهر الحياة ومؤلمة في الوقت نفسه.

يستطيع الإنسان أن يبلغ على أبعد حد -استنادا إلى هذا الأسلوب- ذروةَ الكمال الاجتماعي، لكن ذلك لن يفيده في شيء. لأنّ حياته نفسها لن يكون لها وجود في اللحظة التي تنقلب فيها إلى الجماعية والآلية، وإلى قوانين الآلة. وهذه القوانين لا يمكن مطلقا أن تعطي معنى للحياة البشريّة. وإذا جرّدنا الحياة من معناها -وهو المعنى الوحيد الذي تحتفظ به، معنى مجاني يخرق المنطق- فلا طريق أمامها غير الفناء. إنّ معنى الحياة شخصي وفردي محض.

والمجتمع المعاصر نبذ منذ زمن طويل هذه الحقائق، ومضى بسرعة مريعة يدفعه اليأس، نحو سبل أخرى. ولهذا السبب، تتدفق أمواه الرين والدانوب والفولغا فائضة بدموع العبيد. إنّ تلك الدموع تستطيع ملء مجاري كل أنهار أوروبا، وكل أنهار العالم. حتّى البحار والمحيطات، فإنها تفيض عن استيعاب مرارة البشر المُستعبدين للآلة والدولة وللبيروقراطية ورأس المال. ولسوف يشفق الربّ على البشر أخيرا، كما أشفق عليهم مرارا. ومثلما كانت فلك نوح على الأمواج، هكذا، سوف يطفو ما تبقى من البشر، أولئك المحتفظين بإنسانيتهم، فوق أشلاء هذا الدمار الجماعي. ولسوف تنجو الإنسانيّة بفضل هؤلاء، كما نجت مرات ومرات، على مجرى التاريخ. لكنّ الخلاص والسلام لن يهبطا إلاّ على الإنسان الذي ظلّ إنسانا. وأقصد على الأشخاص بمفردهم. فلن تكون النجاة في هذه المرة من نصيب الفئات والجماعات، بل من نصيب الأفراد فحسب.

لن تستطيع كنيسة ولا أمّة ولا دولة ولا قارة، أن تنقذ أفرادها جماعات أو فصائل. إن من يُنقذ عندئذ سيكون الإنسان الفرد، بصرف النظر عن عقيدته وعرقه، وعن الفئات الاجتماعية أو السياسيّة التي ينتمي إليها. ومن أجل ذلك لا يجب أن يحاكم الإنسان استنادا إلى الفئة التي ينتسب إليها.

إنّ الفئة، هي الخدعة الأكثر وحشية والأشدّ فظاعة من كل ما اقتحم يوما عقل الإنسان من آراء. إذ لا ينبغي أن ننسى أنّ عدونا كذلك شخص وليس فئة.

انتهز تريان كوروغا فترة صمت الكاهن ليسأله بصوت مروع وَجِل:

- أبتاه، لمَ تشرح لي كل هذا الآن؟ لعلّ من الأفضل لك أن تستريح.

- هذا ما سأفعله. إنّني سأستريح. ولكن يجب أن أقول لك كل هذه الأمور قبل أن أرتاح. أنت تعرفها وتشعر بها مثلي. وكلّ إنسان يحسها ويعرفها، وإيوهان موريتز يعرفها هو الآخر. لكن تكرارها بعث في نفسي الراحة والهناء. ولن أستطيع التمتع بالراحة لو لم أتحدث عنها.

- إن يدك باردة، يا أبتاه.

- أعرف ذلك، يا تريان. لعلّ ذلك مردّه إلى حالة غريبة من حالات القلق، لا أستطيع التغلب عليها! إنّه قلق أقوى من جسدي.

قال تريان:

- لست أفهم، يا أبتاه. ماذا تريد أن تقول؟ هل تشعر بألم؟

فأجاب الكاهن:

- كلاّ.

تقلصت شفتا الكاهن في حركة حادّة وكأنّ تيارا كهربائيا أو سهما من البرق قد اخترق جسده، فانحنى تريان عليه. وفجأة أضاءت وجه الكاهن ابتسامة حارة طافحة بالحب، والتمع نور في مكان ما وراء جبهته.

فهم تريان أنّها النهاية، فركع إلى جانب السرير، وراح ينشج وينتحب.

نهض إيوهان موريتز وسأل:

- هل أستدعي طبيبا؟

لم يجب تريان، واستمر يضغط على يدي أبيه بين يديه، ويبكي بيأس لم يشعر طيلة عمره بأقوى منه.

فهم إيوهان موريتز عندئذ الخبر، فنزع قبعته وركع بجانب تريان، ورسم على صدره علامة الصليب.

نهض إيوهان موريتز بعد لحظات، فإذا بالسجناء قد تجمهروا حول الخيمة، وقد جاءوا من الخيام المجاورة وكل الخيام الأخرى. فشقّ لنفسه طريقا بين السجناء الذين كانوا جميعا عراة الرؤوس صامتين، وعاد بعد قليل بشمعة وضعها قرب رأس الميت، في علبة فارغة، بدلا من الشمعدان. كانت الشمعة مصنوعة من بقايا الشحوم التي تطلى بها عادة جوانب صناديق الورق المقوى التي تشحن فيها أنواع «الشوكولاته». أضاءها ونصبها فوق سرير الكاهن كوروغا.

-145-

جاء طبيب المعسكر، وهو من سجناء الحرب كذلك، يتبعه ممرضان يحملان نقالة، فدخلوا الخيمة حيث كان جثمان الكاهن كوروغا مسجى.

سأل تريان:

- ماذا تريدون؟

أجاب الطبيب:

- لقد جئنا نحمل الجثة، لأننا لا نستطيع ترك جثث تحت الخيام.

- وإلى أين تمضون بها؟

فأجاب الطبيب:

- إلى خارج المعتقل، لكننا لا ندري أين. يجب علينا أن نعلم السلطات العليا كي يحضر الأمريكيون فينقلوها في سيارة.

- لكن من حقي رغم ذلك، معرفة المكان الذي ستضعون فيه جثة أبي.

أجاب الطبيب بخشونة:

- هناك أشياء كثيرة نودّ لو نعرفها، لكن معرفتها مستحيلة.

اقترب الممرضان من السرير وأرادا نقل جثة الكاهن على النقالة، فأوقفهما الطبيب بإشارة من يده وقال:

- يجب أن أعاين الوفاة لأتأكد منها. لعلّه على قيد الحياة.

أمسك بيد الكاهن واحتفظ بها برهة بين يديه، ثم انحنى ووضع أذنه على صدر العجوز.

انتصب واقفا وأمر الممرضين قائلا:

- يمكنكما نقل الجثة.

صاح تريان:

- كلاّ!

قال الطبيب:

- ما فائدة الاعتراض؟ فلسنا سوى مساجين مثلكم، ولا نستطيع إلاّ إطاعة الأوامر.

- أريد قبل كل شيء أن أعرف المكان الذي ستنقلون إليه جثمان أبي. إن هذا أقل ما أستطيع طلبه، طالما أنني لن أستطيع حضور دفنه. أريد أن أتأكد من أنّه سيدفن حسب الطقوس المسيحية. من حقي معرفة ذلك ولو كنت سجينا. فبدءا من اللحظة التي فارق فيها الحياة لم يعد سجينا بل أصبح من حقه أن يُحترم، كما يُحترم الأموات، كلّ الأموات، على اختلاف مذاهبهم!

سأل الطيب:

- ومن قال لك إن الأموات لا يحترمون؟

أجاب تريان:

- أنا لم أقل هذا. إن أبي كاهن أرثوذوكسي، وأريد أن يدفن حسب طقوس الكنيسة التي ينتمي إليها.

- اطلب ذلك خطيّا من القائد الأمريكي.

- وهل تستطيع أن تؤكّد لي أنّ الوقت لمثل هذا الطلب لن يكون قد فات غدا؟

قال الطبيب:

- لا أؤكّد شيئا. فأنا سجين بدوري مثلك تماما.

- إذن سيمكث الجثمان هنا. أريد، قبل أن أفترق عنه، أن أحصل على تأكيد بأنه سيدفن حسب تعاليم الكنيسة الأورثوذوكسية.

قال الطبيب:

- إنك تعترض عبثا.

- يجوز، ولكنني أمانع رغم ذلك.

- إننا ملزمون بأخذ الجثة. فقد تلقينا أوامر تقضي بعدم ترك جثث في المعتقل.

قال تريان:

- يمكنكم أخذه، بالقوّة، ولكنكم ستندمون.

قبض الممرضان على ذراعي تريان وأبعداه بقسوة عن السرير، ونقل جثمان الكاهن على النقالة، بينما كان تريان يتخبط بين أيديهم. ولما مرّ الممرضان بالنقالة من أمامه، لم يستطع إلاّ مشاهدة جبين أبيه، ذلك الجبين المرتفع الوضّاء المنير كالقمر.

كان إيوهان موريتز يمشي في أعقاب الممرضين عاري الرأس، حاملا بين يديه علبة التنك التي وضع داخلها الشمعة المحترقة.

- إنّه إثم ستدفع ثمنه غاليا. لا تنس أن هناك فعالا لا يُصفح عنها. لا تنس أبدا أيها الطبيب أنك منعتني من مرافقة جثة أبي حتّى باب المعتقل.

- لست أنا الذي منعتك، إنّه النظام.

وجاء في تلك اللحظة رئيس سجناء المعتقل، فوقف إلى جانب تريان

وقال له:

- هدئ من روعك. إذا سمعوك تصرخ نقلوك إلى زنزانة تحت الأرض.

قال تريان:

- لن يستطيع شيء بعد الآن أن يسكتني. لم يعد في العالم سجن أو زنزانة تخنق صرخاتي. سأصوم اعتبارا من اليوم حتّى أموت. سأصوم وسط عشرين ألف سجين في هذا المعتقل، وسأذوي ببطء ساعة فساعة، احتجاجا على ما وقع. سيكون موتي صرخة ثائرة تخترق الآذان والعيون والجلود، فيشعر بها كلّ من حولي، وكلّ الذين سجنوا معي، والذين أبقوني سجينا. إن هذه الصرخة ستدوي في الجهات الأربع، ولن يستطيع إنسان أن يفلت منها أبدا، حتّى بعد الموت.

-146-

سأل إيوهان موريتز:

- أتريد أن تموت حقّا؟ أتريد أن تموت جوعا وعطشا؟

لقد انقضت أربعة أيام منذ أن قرر تريان الإضراب عن الطعام. الحرارة شديدة، وهو مستلق على ظهره في ظلّ الخيمة. يتعبه المشي والكلام يتعبه، ويتعبه الوقوف والإصغاء إلى من يتحدّث، والنظر إلى السماء يتعبه. بل إنّ وجوده نفسه صار يتعبه.

قرعت صفارة طعام الظهر، فحاول موريتز إقناع تريان من جديد. قال يسأله:

- ألا تريد أن أحضر طعامك؟

وكان يمسك بيده صحفة تريان ويشير إليها. ثمّ أردفَ:

- سيسّرون لموتك. ولكنّ حبّ الموت إثم.

قال تريان:

- إذا شئت خذ حصّتي من الطعام، فلست في حاجة إليها.

مضى موريتز وعاد بعد قليل وقد ملأ الصحفة بالحساء. ووضعها بين ركبتيه. كان الحساء حارا تفوح الرائحة منه، وكان موريتز يتنسم تلك الرائحة بتلذذ.

سأل تريان:

- لمَ لم تأخذ نصيبي أيضا؟ إنّ ما تأكله لا يكفيك. بل إنّه لا يكفي أحدا.

أجاب موريتز:

- لا أستطيع أكل حصتك لأن الله سيعاقبني إذا أكلتها، إذ كيف أُقدم على التهام نصيبك، بينما أنت تتألّم وتتعذب؟ إنّه إثم ولن أرتكبه.

بعد أن وضع موريتز الصحفة بين ركبتيه، رفع عينيه إلى السماء المغطاة بالغيوم الثقيلة، ولبث لحظات ينظر إلى الغيوم وشفتاه منفرجتان. ثم أسدل نظرته ورسم علامة الصليب.

كان تريان يتابع حركاته، فرأى موريتز يغمس ملعقته في الحساء ببطء الرجل الذي يحتفل بعادة أو طقس ديني. كان يملأ الملعقة حتّى نصفها دائما، ويحملها بعد ذلك إلى شفتيه بحركة جليلة كهنوتية، أشبه بحركة المناولة الدينية. فإذا ابتلع ما فيها توقف برهة محتفظا بالملعقة بين أصابعه، كما لو أنّها لا تزال ممتلئة. وعيناه الكبيرتان السوداوان تحدقان بقوة في اللانهاية، في شيء لم يكن أحد غيره يراه، شيء قائم هناك وراء حدود الأرض والسماء.

ملأ موريتز ملعقته من جديد حتّى نصفها كعادته، فقد كان لا يأكل أكثر من نصف ملعقة من الحساء ولا أقل من ذلك، ثمّ حملها إلى شفتيه بذلك البطء وذلك الجدّ اللذين رافقا حركته الأولى. كان يأكل بخشوع وتلذذ واتزان، وكأنّه يقيم شعائر دينية. فالأكل في نظره عمل مقدس، يعود به إلى جلاله الأصلي، لأنّ المسيح قام بذلك العمل.

وككلّ حركة جوهريّة، كان موريتز يتجنب العجلة، ويقوم بمهمته

بانتباه ووقار، فلا يترك قطرة من الحساء عالقة بشفتيه، أو يدعها تسقط من ملعقته، أو يهملها في الصحفة.

وكانت تلك الحركات الشبيهة بالأفعال القدسية توحي بالصمت وتنفي الريبة والشك. لم يكن فيها شيء مسرحي ولا شيء مجانيّ ولا عبث. كان موريتز، ساعةَ الطعام، يتّحد بنسق الطبيعة الكبير، فيتغذى كما تتغذى الأشجار التي تستمدّ نسغها من غور الأرض. وكان كيانه كله ينسجم مع الحركة التي يقوم بها، فينفصل في تلك اللحظة عن كلّ ما حوله فلا يرى ولا يسمع، بل يعود إلى نفسه يتقمّصها، ويلتقي فيها مع الطبيعة متّحدا معها بشدّة. ولما أنهى طعامه بعد أن نضح بملعقته آخر قطرات الحساء في الصحفة، لبث برهة جامدا في مكانه، يتأمّل المشهد الذي يتعرض لناظريه، ذلك المشهد الذي لم يكن أحد غيره يراه. ثم جمع أصابعه الثلاثة ورسم على صدره علامة الصليب من جديد.

التفت إلى تريان وقال له وكأنه هبط إلى الأرض بعد حلم طويل:

إنّه إثم كبير أن يأكل الإنسان طعام غيره.

ثم نهض واقفا ومضى يغسل الصحفة.

لبث تريان في مكانه يحدق في الأفق البعيد، دون أن يرى الأفق. كان يرى أمام عينيه صورة إيوهان موريتز وهو يُحيي طقس التغذية، ذلك الطقس المحترم الجليل الذي امتنع هو عن إحيائه.

-147-

قال تريان كوروغا:

- إنّني أرفض كل مساعدة طبية.

كان ذلك مساء اليوم الرابع لصوم تريان، وكان آمر المعتقل الملازم جاكوبسون قد أُعلم بوصول لفيف من الصحفيين الأمريكيين الذين كانوا يزورون المعتقلات والسجناء الألمان المنقولين إلى شتوتجارت، فأمر رئيس سجناء المعتقل شميدت والطبيبَ الأول أن يتصرّفا بشكل ما لنقل كوروغا

خلال فترة زمنيّة إلى أي مكان خارج المعتقل فلا ينبغي للصحافة أن تحيط علما بأمره الذي كان يلفت النظر والانتباه. والحقيقة أن تريان كوروغا لم يكن نازيا، وأبوه الذي مات منذ حين كان راهبا أبتر الساقين، وكانت زوجته يهودية، و ذلك كلّه يقدّم كثيرا من عناصر الفضيحة لأي ناقد صحفي وإذا هاجمت الصحف هذا الموضوع، فإن رئيس المعتقل سيستدعى على الفور إلى أمريكا وهو الأمر الذي كان يتحاشاه، لأنه كان على وشك الانتهاء من جمع مجموعة هامّة من الخزف الألماني. كان قد اشترى كل هذه الأشياء لقاء بضع علب من السجائر وحفظها في صناديق خشبية أودعها قبوا في منطقة الاحتلال الأمريكية، فلم يكن ينقصه إلاّ إيجاد الوسيلة لإرسال تلك المجموعة النادرة إلى الولايات المتحدة. كان يعرف أنّه إذا استطاع شراء المجموعة الكاملة الموزعة في عديد من المدن والقرى والأقبية الألمانية، فإنه سيستطيع بعد ذلك أن يعيش بهدوء دون أن يعمل شيئا خلال ما يتبقى له من حياة على الأرض.

ومن أجل ذلك، كان يريد بكلّ ما أوتي من عزم وقوة أن يبقى في مركزه حتّى يستطيع شراء البقية الباقية من تلك الأواني الخزفية.

ولو أن الصحفيين ما كانوا في شتوتجارت لما خشي الملازم من الفضيحة، ولانقضى أمر كوروغا بسكون وسلام، بل إنّه ما كان ليشير إليه في تقاريره، لأن السجناء كانوا يموتون بسبب قلة الغذاء، وموت آخر لأنه يرفض تناول الطعام، لا أهمية له أبدا. ولكن الفضيحة في مثل هذه الظروف ستفسد كل مشاريعه ولم يكن يريد إفساد تلك المشاريع، لأن الأمر يتعلق بالملايين من الدولارات، والفضيحة ستحرمه تلك الملايين.

ولقد وعد رئيس سجناء المعتقل شميدت –وكان سابقا برتبة عقيد في الاستخبارات العسكرية ورئيس شرطة ويمار الألمانية– الملازم جاكوبسون بتسوية قضية كوروغا بأقصر مدة ممكنة وفي سرية تامة.

فقال يحدث تريان:

- كلّ طبيب مرغم على العناية بالمريض، ولو كان هذا الأخير يرفض العناية. وأنت مصاب بالحمى لذلك سننقلك إلى مستشفى المعسكر.

كانت الساعة العاشرة مساء، وإيوهان موريتز جالس بالقرب من سرير تريان. وكان موريتز يجفل كلّما سمع صوت رئيس المعتقل شميدت، لأنه كان يحس بأن ذلك الصوت يكاد يشبه صوت إيورغو إيوردان.

قال تريان:

- لن أغادر مكاني. فأنتم لا تريدون معالجتي لأنني مريض بل لأنكم تخشون الفضيحة التي سيثيرها وجودي هنا، لذلك تحاولون إخراجي من الخيمة. لكنكم لن تستطيعوا دفع الفضيحة. لا ريب أنكم تشعرون بأنني أموت بسرعة أكبر مما تنتظرون؟ لذلك لا تقلقكم العشرون ألف جثة التي يذخر بها المعتقل، فالمساجين الآخرون يموتون بالتدريج وبهدوء أكثر. وإذا مات المرء بهدوء، فلن يثير فضيحة. إنّهم لن يثيروا فضيحة بموتهم البطيء المحقق. وإلاّ، لماذا لا تنقلونهم هم إلى المستشفى؟

قال الطبيب دوروف رئيس أطباء المساجين:

- إن واجبي يحتم عليّ أن أنقلك إلى المستشفى لأن حالتك مقلقة جدا يا سيد كوروغا. ولن نستطيع إبقاءك هنا ليلة أخرى تحت هذه الخيمة.

رفع ممرضان جسد تريان كوروغا ووضعاه على النقالة كأنه شيء وليس إنسانا، فضمّ موريتز قبضته وصرف على أسنانه وأراد الدفاع عن تريان، لكنّه تأكد من أنّه خاسر سلفا.

قال تريان:

- إنها جريمة كبرى أن يقوم المرء بعمل عادل تنفيذا لغاية غير عادلة.

غير أن الطبيب تظاهر بعدم السماع، وقال آمرا:

- هيا بنا.

حمل الممرضان النقالة إلى خارج الخيمة.

أخذ السجناء يبتعدون عن طريقهما ويفسحون لهما ممرا. كانوا

جميعهم مستيقظين وكانوا صامتين جميعا.

كان ذلك الصمت يشبه السكوت الذي يعقبه الموت. وكان السجناء جميعا يدركون أنّ أمرا خطيرا يحدث في تلك اللحظة، ولكن ما من أحد منهم يعرف ما هو على وجه التحديد.

كانت اللّيلة قمراء مضيئة وإيوهان موريتز يمشي وراء النقالة منخفض الرأس، وكأنه في موكب جنازة. كان يحمل بين يديه ثياب تريان وحذاءيه ونظارتيه وغليونه والدموع تملأ عينيه. وفجأة عاد إلى نفسه فأكد لها أن الإنسان الممدد على تلك النقالة صديقه، وأن ذلك الصديق ما زال على قيد الحياة. ولما بلغ الموكب مدخل المستشفى، منع موريتز من الدخول إذ قال له رئيس المعسكر:

- لا يمكنك أن ترافقنا إلى الداخل لأنك لا تحمل تصريحا بذلك. إن الأمر صارم واضح: لا يجوز لأحد أن يتحدث إلى تريان كوروغا، لا يجوز له أن يرى أحدا. سأحمل إليه ألبسته وأحذيته بنفسي.

لبث موريتز طيلة تلك اللّيلة يتجول وحيدا قرب الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستشفى لأنه لم يستطع إقناع نفسه بالابتعاد عن تريان.

-148-

احتُجز تريان كوروغا في إحدى غرف المستشفى. وكانت غرفة تضمّ ستة أسرّة أخرج منها المرضى ليبقى فيها وحيدا.

وقد تلقى ممرضان شابان أمرا بحراسته.

استلقى تريان على السرير وأدار وجهه إلى الجدار. كانت شفتاه جافتين أشبه بالرماد، والأحلام والخيالات تخترق ذهنه كالفيلم الملون. لبث مغمض العينين لكنّه مع ذلك، ظلّ يشعر بنور عنيف يبهر أبصاره يشبه أنوار «النيون». وكان ذلك الضوء ينبعث من داخل نفسه. كان ضوءا ساخنا يحرق جفنيه. وكانت أفكاره كلّها ملونة مضيئة حتّى أنّ جسمه بدا كأنه صنع من نور خفيف محرق كأحلامه تماما.

كان ينتابه انطباع بأنه يحلّق.

ناجى نفسه: «أكاد أفهم الآن سبب صيام الزهاد والنساك. فحين يجوعون يصبحون أكثر قابلية للانفصال عن الأرض. ويغدو الله قريبا جدا منهم. وهذا ما يجعلهم يشعرون بجباههم تلامس السماء».

لبث تريان كوروغا فترة طويلة في حالة وجد وانخطاف، وفجأة أدرك أنهم جاؤوا له بالطعام.

كان أحد الممرضين قد وضع طبقا على الكرسي، بالقرب من سرير تريان الذي كان يدير له ظهره. لم يرَ الطبق لكنّه كان يعرف بكلّ دقة ما يحويه. تحسّس أنفُه بادئَ الأمر رائحةَ البطاطا المقلاّة بالزبد، ثم رائحة القهوة. كان يشعر بالصحاف على الطبق، كما لو أنّه رآها وتذوقها لأن حاسة الشم عنده أصبحت مرهفة جدا فلم يحدث مرّة من قبل أن استطاع تمييز رائحة من أخرى، كما يميزها في ذلك اليوم.

كان على الطبق كذلك قدح كبير مملوء بالحليب الساخن. وكانت رائحة الحليب تشيع في جو الغرفة بشدة كرائحة القهوة. وكذلك كانت رائحة اللحم عنيفة ملحّة. أحسّ تريان بحدّتها كما يرى المرء لونا صارخا يختلف عن بقية ألوان لوحة زيتية. كانت رائحة الزبدة واللحم المشوي تزيد في صرخة الإغراء التي أطلقتها ألوان الطعام الأخرى، مضمّخة الغطاء وملابسه وشعره وجدران الغرفة.

كان تريان يشعر بأنّ رائحة اللحم –المحروق قليلا– والزبدة والحليب والقهوة تلتصق به وكأنها مرهم لزج. ويحسّ بها تخترق رئتيه مع كل شهيق وتغوص حتّى معدته. فتملّكه شعور يشبه شعور الجائع وهو يأكل، وغلب عليه الاعتقاد بأنه حاد عن صيامه بعد أن استمسك به بتجلد وقوة. بذل جهدا كبيرا ليمحو رائحة الأطعمة من سماء الغرفة ومن الهواء الذي يستنشقه. لكن ذلك لم يكن ممكنا، بل كان ذلك العطر –عطر الطعام– يزداد عمقا دقيقة بعد أخرى.

راح تريان كوروغا يحلل تلك الرائحة بعقل مشرق كما يحلل الضوء بتمريره خلال موشور.

قال يخاطب نفسه: «إنها وسيلة كغيرها للتثبت من إمكانيات حاسة الشم.» واسترسل في عمليّة التحليل التي كانت تعطيه إمكانية السيطرة على مشاعره واعتبار الطعام موضوعا للبحث ليس إلا. وقد كانت أولى اكتشافاته أن اللحم المقدّم إليه لم يكن لحم خنزير أو بقر، بل كان من نوع آخر استطاع تريان رغم ما يدخل في صناعة الأطعمة المحفوظة من أجزاء وعقاقير أن يحدس أنّه لحم دواجن، وبصورة أدق لحم دجاج رومي. شعر برغبة تدفعه إلى التثبت من صحة تخمينه، لكنّه قاوم تلك الرغبة ولبث مستديرا إلى الجدار. فاستنتج أنّه صنع من مسحوق الحليب الذي يغلي بسرعة لأنه مركّز جدا. وأدرك كذلك أنّ على الطبق إلى جانب تلك الأطعمة لونًا من «المربّى»، رائحته أضعف من غيرها. أدركتها حاسة تريان بصعوبة، كأنه لون فاتح خافت في لوحة زاهية الألوان، غير أن اكتشاف «المربى» استنادا إلى حاسة الشم جعل تريان يحسّ برضى فكريّ كما لو أنّه حطّم رقما قياسيا أو قام باكتشاف مخبريّ عظيم. وكان الأمر الذي لم يتوصل إلى تحسّسه بأنفه هو وجود الخبز على الطبق أم عدم وجوده. فإذا كان الخبز موجودا فعلا فإنه يجب أن يكون خبز نخّالة أبيض لم يبق من دقيقه إلاّ النشاء، صنع على الطريقة الأمريكية، وقد انقضى على صنعه يوم فأكثر.

اقترب الممرض من سريره، وقال له:

– يجدر بك أن تأكل فورا، لأنّ الطعام إذا برد فقد طعمه ولذته.

غير أن تريان لم يجب. كان يودّ الاستمرار في تحليل محتويات الطبق دون أن ينظر إليها، لكنّ الاستمرار استحال عليه. لقد فقد الهدوء اللازم لهذه العملية كما فقد التركيز الذهني. فاختلطت عليه الروائح في تلك اللحظة حتّى غدت رائحة واحدة مثلما تمتزج أطياف الألوان السبعة

في النور الأبيض. لقد خلطت كلمات الممرض الروائح كما يقطع الحجر الملقى في بحيرة صغيرة تماوج الماء الرتيب.

اكتأب تريان كوروغا لأنه لم يعد يستطع تحليل روائح الأطعمة وتذوّقها بشكل صحيح، لكنّه لم يلبث أن أغمض عينيه ولمّا استفاق صباحا وجد أطعمة الأمس في مكانها، وقد امّحت الرائحة وبدت الأطعمة وكأنها قد ماتت. لم ينظر إليها، غير أنّه تأكد من أنّها باردة وبالتالي ميتة.

كان تريان كوروغا منهكا، فما استطاع أن يتقلب في سريره. ولم يفتح عينيه. بلّل شفتيه بلعابه مرارا، فأزعجه طعمهما المرّ الحامض.

جاء الممرّض بطبق آخر وضعه قرب سريره بعد أن حمل طعام الأمس. كان الطبق الجديد يحتوي هذه المرة على بيض بلغت رائحته من الشدة والنفاذ ما للإعلانات من ألوان صارخة. وإلى جانب البيض وُضع عصير برتقال وقدح من الحليب والقهوة وقطعة من الزبد، غير أنّ تلك الروائح كلها صارت تجرح تريان كوروغا وكأنها نبال تخترق لحمه.فأغمض عينيه وضمّ جفنيه بقوّة لشدة ما كان الألم حادا عنيفا.ثمّ تمتم:

«ربّاه ساعدني على الانتهاء بسرعة، فمقاومة الإغراء المستمر الملح شديدة الصعوبة لمن كان سجينَ جسدٍ حيّ».

عزّى نفسه حينما فكّر أنّ جسمه سيموت خلال يومين أو ثلاثة. فردّد في سرّه: «سأكون ميتا خلال يومين أو ثلاثة»، وعاد إلى النوم من جديد.

-149-

جلس تريان كوروغا في سريره واشرأبّ بعنقه يطل من النافذة. كان الوقت ظهرا، فرأى في فناء المعتقل المساجين واقفين في ثلاثة صفوف منتظمة وهم عراة تماما. كان فناء المعتقل كلّه غاصّا بالرجال العراة.

وتحت نافذة المستشفى، كانت هناك سيارة جيب يحيط بها نفر من الجنود المسلّحين بالعصي، وهم يمضغون اللبان، بينما السجناء يتوافدون أمامهم واحدا إثر الآخر في مشية مترددة. كانوا عراة تماما

يتقدمون بذعر، وكان تريان يعرف هذا اللون من الأحاسيس، لأنه أحس بمثله في ظروف مماثلة.

فقال في سره وهو يتساءل: «إنه تفتيش جديد ومصادرة جديدة؟ ما الذي يأملون إيجاده هذه المرة؟».

كان التفتيش والمصادرة يجريان عدّة مرّات كلّ شهر.

وفي تلك اللحظة وصل عجوز أمام الجنود.

قال تريان: «المطران بالاد، مطران فارصوفيا».

كان المطران طويل القامة نحيلا محدودب الظهر قليلا، عبارة عن هيكل عظمي يغطيه الجلد، يمكن إحصاء عظامه عن بعد. لحيته بيضاء، ولا وجود في الفناء كله لأبيض غيرها، فإذا نظر المرء إليها شعر كأنها تعكس نورا. كانت بيضاء ناصعة، تضفي على صاحبها نبلا. فلما وصل أمام الجنود تضاحكوا ساخرين.

لكن لم يبدُ على المطران أنّه يراهم، بل كان ينظر إلى السماء من فوق خوذاتهم، وكانت السماء في ذلك اليوم زرقاء كقبة كنيسة بيزنطية.

عاين الجنود أصابع المطران، ثم أمره المترجم:

- باعد بين أصابعك.

ففتح الكهل أصابعه وانكبّ عليها الجنود يفحصونها بعناية، رغم أنّ السجين لم يكن يحلي أصابعه بالخواتم.

أمر المترجم المطران:

- ارفع ذراعيك.

رفع الهرم ذراعيه إلى صدره أولا، وكأنه يبارك المصلين، ثم رفعهما فوق رأسه، دون أن ينظر إلى المترجم ولا إلى الجنود، لكن المترجم والجنود كانوا يفحصون جسده بدقة خشية أن يكون قد أخفى حليا تحت إبطيه. ثمّ عاينوا شعره ومؤخرة رأسه، فقد كان شعر المطران الأبيض طويلا يمكن أن تخفى بينه بعض الحلي. أبعد الجنود أوّلا خصلات شعره

بعصيهم ثم بأيديهم، فلم يتركوا مكانا إلاّ وتحسسوه بأصابعهم باحثين. ولم تنج لحيته الطويلة من تفتيشهم مخافة أن يكون قد دسَّ بين شعراتها بعض الخواتم.

قال المترجم:

- استدر.

فاستدار الشيخ موليا ظهره إلى الجندي.

قال المترجم:

- انحن.

فمال حانيا ظهره وكأنه يتضرّع أمام الأيقونات ويبتهل، لكن الانحناء وحده لم يكن كافيا.

فقال المترجم:

- باعد بين ساقيك.

فامتثل المطران وباعد بين ساقيه البيضاوين النحيلتين، فراح المترجم والجندي يفتشون عن الخواتم والأشياء الذهبية الأخرى التي قد يكون المطران خبّأها بين ساقيه أو في مؤخرته.

كان الشيخ منحنيا مديرا ظهره إلى الجنود، مباعدا بين ساقيه. فقال أحد الجنود كلمة إلى زميله، وبعدها تكلم المترجم، فقال:

- يمكنك أن تذهب.

وراح الجنود يفتشون الشخص التالي.

ابتعد المطران بتلك الخطوات المترددة والريح تداعب لحيته وشعره وكأنهما علم حريري أبيض. خيّل لتريان أن المطران لم يكن عاريا كالآخرين. تابعه بنظراته حتّى بلغ نصف الرجال العراة وانتظم بينهم، فتحوّل في تلك اللحظة إلى واحد منهم، دون أن يختلط مع ذلك بالحشد المجتمع. كان هناك شيء يخفق حول رأسه، شيء يستوقف البصر، لعله بياض شعره الناصع، أو بياض لحيته، بل لعله شكل رأسه. على كل حال

كان هناك شيء يرغم الناظر على التأمّل فيه والنظر إليه، كما يتأمل المرء الصور الدينية والأيقونات.

قال تريان كوروغا وهو ينتفض:

- إنّني أعرف الآن كُنْهَ هذا الشيء الذي أراه.

التفت المرضون إليه غير أن تريان ظلّ ينظر عبر النافذة متجاهلا وجودهم.

«إنّ رأس المطران محاط بالنور، إنّه محاط بهالة. إنّ وراء ذلك الجبين نورا ساطعا، أكثر ضياء من «النيون» والكهرباء، وهو الذي يشيع حول رأسه ذلك الوميض، إنّه نور ذهبي».

رفع العجوز عينيه نحو نوافذ المستشفى بعد أن انتظم في صفوف وحدته فازداد لمعان الهالة التي تحيط برأسه شدة.

حدّث تريان نفسه، «إن الهالة ليست إذن اختراع مصوري الأيقونات» وراح يفحص السجناء الآخرين، فشاهد رؤوسا أخرى تحيط بها تلك الهالة، رؤوسا لم يكن يعرف أصحابها. كان رأس مدير مجمع فيينا العلميّ محاطا بهالة أيضا، وكذلك رأس صحفيّ شابّ من برلين، ووزير يوناني، وسفير رومانيا في برلين، وعدد آخر من الناس كانت رؤوسهم جميعا محاطة بهالة براقة من نور. كانت جباههم تعكس وميضا أشبه بالنار المشبوبة أو العاكس الكهربائي. غير أنّه أجمل ممّا يمكن أن تحدثه النار أو الطاقة الكهربائية. كان ذلك الوميض المنبعث من جباههم قادرا على إنارة العالم كله، وما كان يمكن للظلام أن ينتشر على الأرض أبدا بفضل ذلك النور.

-150-

سأل الملازم جاكوبسون:

- لماذا لا تريد أن تأكل؟

كان الملازم قد دخل غرفة تريان، بعد أن خرج منها الطبيب ورئيس

المعتقل ليمكث وحيدا معه. سأل:

- فيمَ ترغب؟ إن هذا المعتقل ليس معرضا على أي حال!

فأجاب تريان:

- انقطعت عن الأكل لأنني لا أشعر بالجوع. لقد اختفت شهيتي فجأة، وأشعر بغثيان رهيب. إن أمعائي مقلوبة. وأنت أيها الملازم ألا تشعر بالغثيان؟

صمت جاكوبسون وأسف لبقائه وحيدا مع تريان كوروغا. خيِّل إليه أنّ السجين قد جنَّ. كانت عيناه تلتمعان، ففكر الضابط في نفسه: «قد يهاجمني ويخنقني!» وألقى نظرة إلى الباب ثم ابتسم وقال:

- هدئ من روعك يا سيد كوروغا، إنك مهتاج شديد الانفعال. وسبب ذلك مفهوم واضح. فأنت لم تذق الطعام منذ ستة أيام ولم تشرب.

قال تريان:

- لا تذهب، أيها الملازم، لست مجنونا فلا تخف. إن سؤالي حول الغثيان كان غريبا شاذا. لا شك في أنّك لا يمكن أن تشعر بالغثيان لأنّ المرء إذا بدأ مغمض العينين مُحكمًا سدَّ أنفه، فإنه لا يتعرّض لشيء والإنسان يتعود كل شيء حتّى الغثيان. إنها مسألة إرادة فحسب، وأنا لا أملك إرادة. لذلك تنتابني موجة الغثيان والقيء. هناك عمال يتناولون إفطارهم وغداءهم وعشاءهم قرب فتحات المجاري العامة أو حفر المراحيض. ولكن ذلك لا يؤثّر فيهم لأنّهم ألفوه. لقد رأيتهم بأمّ عيني يتناولون مرَقًا محشوا وشرائح من الخبز المطلية بالزبد، على بعد خطوتين من حفرة قذارات عضوية، ويتلمظون ويلمقون شفاههم مسرورين هانئين، ويتبادلون الأقاصيص والأحاديث. إنّ المرء يألف ذلك حتّى ولو كانت حاسّة الشمّ عنده مرهفة حادة. لقد كان الألمان يحرقون جثث المساجين في معسكرات الاعتقال، لكنهم بمجرّد أن يغلقوا باب الأتون المعدّ لإحراق الجثث حتّى يمضي كلّ منهم لتناول طعامه

ببشاشة وغبطة، دون أن يشعر بأيّ غثيان. يوجد هنا رجال صنعوا فرشا من شعر النساء المقتولات في معسكرات الاعتقال، واستعملوها للنوم مع عشيقاتهم، ومطارحتهنّ الهوى. وقد أنجبت لهم نساؤهم أبناء بعد نومهم معهنّ على تلك الفروش المصنوعة من شعر نساء قُتلن وأحرقن. لقد مارسوا تلك الشهوات، دون أن يشعروا بأيّ تقزّز أو اشمئزاز، نعم دون أن تتقزز نفوسهم. بل إنّهم كانوا يشعرون بلذة وسرور. لقد كنت في السجن مع امرأة كانت تستعمل في غرفة نومها وفي مخدعها الخاص سجفا مصنوعة من الجلد الآدمي، كانت تحيل الضوء المنبعث إلى أصفر داعر مثير للشهوات. وعلى الضوء الذي كان يتسرّب خلال تلك السجف الآدمية، مارست تلك المرأة الحب، وأكلت، ورقصت، وشربت، واستسلمت لذراعي رجل انحنى فوقها وقبّلها. لقد كانت سعيدة رغم كل ما يحيط بها من فظاعة وقسوة. والكائنات البشريّة تألف الغثيان لأنه مجرد إرادة وعادة. لقد استحيى الروس نساء في الثمانين من أعمارهنّ. لقد استحيوا عددا لا يحصى منهنَّ تناوبوا على مضاجعتهنّ بمعدل عشرة رجال لكل امرأة. لكنهم بعد مضاجعة امرأة في الثمانين، لم يشعروا بالغثيان، بل شربوا الفودكا وطربوا. أما أنتم، فإنكم لا ترتكبون شيئا من هذا. أعرف هذه الحقيقة، وأعرف أنكم لا تستحيون النساء بالقوة، بل تقدمون لهن قطع «الشوكولاته» وتستعملون ما يقيكم العدوى إذا ما ضاجعتموهنّ ولا تتصرّفون كالألمان، لأنّ لكلّ شعب عاداته وتقاليده. ولا تتعرّضون لأيّ خطر، لأنّ الغثيان -وأرجو أن تصدقني- وبال جسيم. اُنظر إلى آلامي وشدّتها. إن أمعائي مقلوبة كما يقلب القفاز. أشعر بها وكأنها في فمي. عصارة الصفراء تنكص في طريقها، وكل معدتي مضطربة لا تعرف قرارا لأنني أشفق على الكائنات البشريّة إشفاقا فظيعا. فكيف تريد مني أن أستطيع الأكل في مثل هذه الشروط. كيف تطلب منّي أن أحتفظ بشهيتي للطّعام؟ هل أدركت أنني لن أعرف بعد اليوم كيف أتناول طعاما؟

كان الملازم جاكوبسون قد اقترب من الباب وهو يأسف لمجيئه. لم يبلغه رئيس المعسكر والطبيب أن تريان كوروغا قد جنّ، بل أبلغاه أن المريض كان محتفظا بكامل إشراقه الفكري. لكن ما سمعه للتوّ، ينفي ذلك القول. لقد كذب كلاهما لأنّ السجين كان مجنونا.

قال آمر المعسكر:

- إنك على حق يا سيد كوروغا. في مثل هذه الأحوال يستحيل عليك أن تشعر بشهية للطعام.

قال تريان:

- لا تذهب. إنّني أنهض بصعوبة كبيرة. اُنظر من النافذة وأخبرني إذا كان التفتيش قد انتهى.

فأجاب الملازم جاكوبسون.

- كلاّ، إنّه لم ينته بعد.

ازداد تعجب تريان كوروغا وذهوله. وتساءل في سره: «كيف يستطيع رجل أن يمضي مباشرة إلى مائدة الطعام كما سيفعل جاكوبسون بعد أن ينظر إلى طريقة التفتيش الذي يجري في الفناء؟»

كان الوقت ظهرا.

قال تريان:

- إنّ التفتيش لم ينته بعد، ولن ينتهي بسرعة لأنّه لمّا يبدأ بعد. لقد فتشتم بادئ الأمر عن الذهب في الحقائب والدور والجيوب وبين الملابس وفي الأحذية والثنيّات وفي السراويل الداخليّة. والآن تبحثون عنه في أفواه الرجال وتحت آباطهم وفي مؤخراتهم. إنكم تبحثون في كل مكان. وعلى الرجال أن يخلعوا ملابسهم ويقفوا عراة أمامكم. ومع ذلك فليست إلاّ البداية. سوف تنتزعون الجلود غدا بحثا عن الذهب تحتها، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثا عن الذهب، وبعدئذ تحطمون العظام لتنظروا ما إذا لم يكن فيها شيء من الذهب، وأخيرا سوف تعصرون

أدمغة الناس وتفتشون في أمعائهم ومصارينهم وتمزقونهم إربا، بحثا عن الذهب وقطع الذهب وخواتم الذهب. ستحطمون القلوب وتجزئونها بحثا عن الذهب. الذهب! الذهب! الذهب! إننا اليوم في البداية: ما زلتم تبحثون فوق الجلد. لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمرّ...

لم يكن الملازم جاكوبسون في الغرفة حينما بلغ كوروغا هذا الحد من كلامه، بل كان قد خرج. لذلك اتّجه تريان مجدّدا نحو الجدار.

-151-

عريضة رقم «6» — الموضوع: اقتصادي (القيم والثروات التي يُعثر عليها مع السجناء).

لقد صودرت من السجناء، في بحر التحريات التي أجريت من قبلكم، خواتم الزينة والزواج والأساور والساعات وأقلام الحبر والنقود الفضية وكل الأشياء القيمة. وعلى الرغم من أنّ تلك التحريات تجري بدقة أدمت البشرة، فإنها مع ذلك ليست تحريات كاملة.

لقد لاحظت اليوم حول رأس عدد من المساجين تيجانا تشبه هالات القديسين التي ترسم على الأيقونات. إن للقديسين كما أعرف تيجانا من الذهب. غير أن هالات المساجين ليست من ذهب أو من أيّ معدن ثمين، ولو كانت كذلك لكانت تلك التيجان -أو الهالات إذا كنتم تفضلون هذا التعبير- قد صودرت من قبل. لكنّها رغم افتقارها للمعدن الثمين، فإن قيمتها أرفع من أن يُغضَّ عنها الطرف.

شخصيّا لست من العلماء. لكنني أعتقد أنّ قيمة تلك الهالات مرتفعة، لأنّها لا يمكن أن تظهر إلاّ نتيجة لإشعاعات تنبثق من أدمغة بعض السجناء وأرواحهم. ومن الضروري لفت النظر إلى أنّ أمورا كهذه لا تظهر في المجتمع الآلي الغربي. لأنّ تلك الظواهر على ما يبدو، من خصائص المجتمعات غير الراقية. لكن ذلك عديم الأهمية. إذ طالما كانت لتلك التيجان قيمة ما، فلا يجب والحالة هذه أن تبقى في متناول

يد المساجين، لأن احتفاظ المساجين بأشياء ثمينة قيمة ممنوع بشدة.

أعتقد أنّ هذا النوع من التيجان أو الهالات كان، في بعض مراحل التاريخ، موضوع مصادرات متعدّدة. فقد كان الغزاة البرابرة من نوع جنكيز خان، يقدرون هذه الزينة التي تُكتشف عند بعض المساجين حق قدرها، وينتزعونها منهم. ولم تكن وسائل النقل في تلك الحقبة من التاريخ مماثلة لوسائلنا اليوم. لذلك كان جنكيز خان -وهو المهووس بالحصول على تلك الهالات وامتلاكها- يعطي الأمر بأن ينقل الرأس مع الهالة إلى قصره كي لا يفسد الإشعاع الضوئي الذي ينبعث منها. فكانت الرؤوس ذات الهالات، رؤوس المساجين من بلاد الصين والعرب، تُربط بخيط، وتعقد إلى سروج الخيل، وتحمل إلى منغوليا. ولكن حدث في الطريق -بسبب الأحوال الجوية وتبدل الحرارة الفجائي ولا شك- أن اختفت الهالات عن كل الرؤوس المقطوعة، وظلت محرومة من الزينة، فألقيت بعد أن ألمّ بها الفساد وراحت تتحلّل.

ولكي تتحاشوا خسارة كهذه، يحسن بكم أن لا تعمدوا إلى قطع رؤوس المساجين كما فعل من قبل جنكيز خان، بل تستطيعون الاحتفاظ بأولئك الذين يملكون هالات حول رؤوسهم، في نواقيس زجاجية ذات جو مقنن وحرارة دائمة، وإرسالهم إلى وطنكم. فمجتمعنا ينعم بسعادة غير محدودة بامتلاكه الوسائل الآلية التقنية اللازمة التي توفر علينا الخسائر التي مُني بها البرابرة من قبل. لقد نقلت الأخبار والأساطير أن نصف مليون هالة قد ضاعت على هذا الشكل في الزمن الغابر.

وتفضلوا كالعادة بقبول عبارات إعجابي العميق. - ابق مبتسماً!

الشاهد

-152-

قال رئيس مساجين المعتقل:

- ستُنقل إلى المستشفى خلال خمس دقائق.

كان يذرع غرفة تريان في مستشفى المعسكر جيئة وذهابا. أردف يقول:

- سيطعمونك هناك رغما عنك، وإنّني آسف لذلك. لقد حاولنا كما حاول الملازم جاكوبسن أن نثنيك عن عزمك، وبذلنا ما بوسعنا. لكنك لم توافق على تبديل سلوكك. أردنا العمل في مصلحتك فأدرت لنا ظهرك.

كان تريان مستلقيا على سريره وظهره إلى رئيس المساجين. فقال هذا الأخير بغضب:

- إنّ سلوكك يدل على افتقار كليّ لروح الزمالة فيك. إنك تضيع وقت الأطبّاء والملازم جاكوبسن عبثا بمسائلك الشخصيّة. لدينا عشرون ألف سجين في المعتقل علينا أن نهتمّ بشأنهم، وليس بك وحدك من دونهم. إنك واحد، بينما هم عشرون ألفا. إنّ المشاكل الخاصة لا ينبغي أن تحتلّ حيّزا في تفكيرنا. إنّ لكلّ من هؤلاء المساجين أسرة: زوجة وأطفالا، ولهم مشاغلهم الشخصيّة أيضا. فماذا يحدث لو حذا كل منهم حذوك؟ لكنّك، لا تفكر أبدا في المجموعة. أنت أناني. لقد تبعتُ نصائح الملازم جاكوبسن، وهو رقيق الشعور يؤمن بالديمقراطية ككل الأمريكيين، فأضعتُ هذه الأيام الأخيرة، بسبب إصغائي لنصائحه، ما لا يقلّ عن خمس ساعات كل يوم في العناية بشخص واحد مفرد، على حساب العشرين ألفا الآخرين. وهذا جنون مطبق.

فقال تريان:

- أنت لا تُعنى بأيّ سجين في هذا المعتقل. إنّك تهتم بآلة إدارية، وأقصد: أنك تُعنى بشيء غير شخصي. إنّ المخلوقات في هذا المعتقل لا يجب أن يخلط بينها وبين تلك الآلة التي تقتصر على سجلات وآلات كاتبة وأرقام. أنت تهتم بهذه الأشياء فقط. أمّا العشرون ألف سجين، فإنك يا سيدي رئيس سجناء المعتقل، لا تهتمّ بأحد منهم. إنّ العشرين ألف رجل مخلوقات من لحم وعظم ودم وروح. إنّهم مخلوقات من ألم وإيمان

ورغبات وجوع ويأس وخيال. وأنت لا تعنى لا بأجسادهم، ولا بدمائهم، أي بعناصرهم الشخصيّة، ولا بآمالهم أو يأسهم، وهي العناصر الأكثر خصوصية وتعلّقا بهم. أنت تهتم بالأوراق والأرقام فقط. إنّك لا تعرف سجينا واحدا منهم، فكيف تزعم أنّك تهتمّ بشأن العشرين ألف سجين بينما أنت لا تهتم بواحد منهم؟ إنّ قولك لمثير للسخرية! إنّ المعلومات والأشياء الأخرى المجرّدة هي وحدها التي تستأثر باهتمامك واهتمام جاكوبسن، وليس الأشخاص أنفسهم. حتّى أنا، فلا أظفر باهتمامك بصفتي إنسانا. لستُ في نظرك سوى ذرّة من وحدة مقسّمة إلى عشرين ألف قسم. ولهذا السبب، يغضبك التفكير في أنك تضيع وقتك معي. أنت لم تنظر إليّ كما يُنظر إلى شخص. حتّى امرأتك، لا يمكن أن تنظر إليها كمخلوق فردي خاص. لقد اعتبرتها ولا شك امرأة تقوم بمهمّة أمّ لأولادك وإدارة بيتك. لكنك كما يبدو، لم تنظر إليها قطّ في فرديّتها. إنّها غير موجودة إلاّ في مجموعها كزوجة. بل إنك لا تعرف نفسك أكثر من معرفتك لها.

أنت لم تعرف أي مخلوق على سطح الأرض. لأنك لو عرفت مخلوقا واحدا، لما شعرت قطّ أنك تضيع وقتك وتصرفه عبثا، إذا صرفته في العناية بإنسان. كلّ ما تعرفه مخلوقات بشريّة معدّلة ومحوّلة إلى مقياس واحد. لكن هؤلاء ليسوا مخلوقات بشرية بمعنى الكلمة، كما أنّ المكعبات التي يؤخذ ضلع واحد منها لا يمكن أن تكون مكعّبات حقيقيّة.

جاء الممرض معلنا أنّ سيارة الإسعاف قد وصلت إلى فناء مستشفى السجن. فقال تريان:

- وددت لو أستطيع وداع صديقي إيوهان موريتز.

- محظور عليك أن تخاطب أيّا من السجناء.

أدار تريان كوروغا ظهره إلى رئيس السجناء، فلفّه الممرّضون في غطاء من الصوف وحملوه إلى عربة الإسعاف كما تحمل الأشياء العادية.

كانت نافذة عربة الإسعاف مغلقة بستارة. لكن تريان كوروغا كان على ثقة من أنّ إيوهان موريتز واقف أمام باب مستشفى السجن، في انتظار رحيل عربة الإسعاف.

ابتسم تريان كوروغا وهو يفكّر في موريتز، وقال بود ورفق: «الوداع!».

-153-

لقد جاءنا أمريكيان بسجين مجنون.

نهض رئيس أطباء مستشفى السجناء في «كارلثروه» من سريره، وأضاء النور الكهربائي، ثم نظر إلى ساعته فألفاها الواحدة صباحا. راح الممرض الذي أنبأه بقدوم السجين المجنون يساعده على ارتداء ملابسه وخرج الطبيب من الغرفة وهو سيّء المزاج.

ما كان السجناء يُحمَلون إلى المستشفى إلاّ جماعات، يظلّون في المعسكر ينتظرون أن يبلغ عددهم مائة مريض لينقلوهم إلى المستشفى. والمرضى الخطيرون كانوا مرغمين على الانتظار في المعسكر، ثلاثة أسابيع أو أربعة حتّى يتم العدد، فيصبح نقلهم جائزا. ولقد وقع خلال العام كله حادثان استثنائيان، وكان هذا الحادث الأخير الثالث من نوعه.

سأل الطبيب وهو يدخل إلى المكتب:

- أي نوع من المجانين يمكن أن يكون، حتّى يأتونا به وحده في هذه الساعة من اللّيل؟

فقال الممرّض:

- إنها حالة خطيرة جدًا ولا شك. لكنني لم أر المريض بعد. لقد كان نائما في عربة الإسعاف. وما دام أمريكيان اثنان قد احتملا عناء نقله في مثل هذه الساعة فإن الأمر لا بدّ خطير.

كان الطقس باردا في الخارج، والطبيب منزعجا لأنه انتزع من فراشه الدافئ، وهو يرتجف من شدة البرد ليوقّع على ورقة إدخال المريض.

صعد الأمريكيان إلى عربة الإسعاف، وعادا من حيث أتيا؛ بينما عاد

الطبيب إلى فراشه، بعد أن رفض معاينة المريض على الفور. لقد كان يرتعد من البرد، لذلك اكتفى بأن أوعز بنقل المريض إلى الجناح الخاص بالأمراض العقلية.

لم يكن تريان كوروغا يعرف المكان الذي وجد نفسه فيه. كان يعرف فقط أن العربة أصيبت بعطب أخّرها حتّى منتصف اللّيل. ولم يكن يهتم بالوقت، خصوصا وأنه لم يفتح عينيه إلاّ عندما اجتاز به الممرضان فناء المستشفى، محمولا على النقالة، وعندئذ فقط فتح عينيه، فرأى النجوم تلتمع في السماء.

قال «طريق المجرّة» وراح يبتسم للطريق البيضاء السامقة هناك في السماء وتذكّر أقوال رئيس السجناء في المعسكر: «سنرسلك إلى مستشفى حيث يطعمونك بالقوة». كان تريان مصمّما على رفض كل معونة طبية: «سوف أرفض تناول الطعام أو الشراب طالما كنت متمالكا قواي الحسية.»

ضحك الممرّضان اللّذان سمعاه يطلق عبارة «طريق المجرّة» ووضعا المحفة على الأرض. اقترب أحدهما من تريان وقال له مستهزئا:

- لقد وصلنا إلى طريق المجرة.

لم يفهم كوورغا غاية الممرّض، ولم ترق له الدعابة، وشعر بأيد تحمله وتمدّده على سرير.

-154-

راح تريان كوروغا يتأمّل الغرفة التي وجد نفسه فيها. كان في سقفها مصباح كهربائي محاط بغلالة معدنية، والنافذة مشبكة بقضبان حديدية متينة. في الغرفة أربعة أسرّة. و مريضان لبثا متقاربين يتحدّثان. وهما يرتديان الثياب العسكريّة الألمانية.

وحين أدخل تريان إلى الغرفة بالأمس لم يعن ذانك المريضان بمجرد الالتفات إليه، بل ظلا يتحادثان. كان يبدو على كليهما أنهما لم يتجاوزا

سن الشباب. أما المريض الثالث فكان ممدّدا على سريره، مخفيا رأسه تحت الغطاء، غير أنّ عيني تريان وقعتا على حذائين ضخمين يبرزان من تحت الغطاء، فتساءل في سره: كيف يستطيع المريض ذو الحذائين الضخمين البقاء نائما في تلك الساعة.

وكان بالقرب من الباب، ممرّض يرتدي سترة بيضاء، يجلس على مقعد. كان رأسه يشبه رأسَ رئيس سجناء المعسكر شميدث: رأس مربع كبير، رأس من خشب. عضلات وجهه كلّها جامدة ميتة، ونظراته زجاجية خامدة. لم يكن للممرض رأس رجل ميت، بل رأس رجل لم يكن حيا أبدا.

اقترب الممرض من تريان وسأله:

- ألا تريد أن تقصّ علينا حكايتك؟

غمز في ذقنه كما يفعل المرء مع طفل يؤنبه فتخلص تريان كوروغا منه ولم يجب.

استطرد الممرض:

- لا تريد إذن أن تقص علينا شيئا! أنت من أولئك الذين يصمتون.

وربت على خده وأردف:

- إذا كان ذلك يروق لك، فلا بأس من أن تتسلى وحدك مع العنكبوت الذي في السقف.

وعاد يجلس على مقعده قرب الباب.

-155-

- لقد سجنوني في مستشفى للمجانين لأنني أضربت عن تناول الطعام.

راح تريان كوروغا يعض شفتيه قهرا. تبدّد كل تعبه، واستعرت في نفسه رغبة هوجاء في النضال.

خاطب نفسه: «إنّني في مستشفى المجانين! إنّ خطتهم ليست رديئة. فلم أصادف مثلها من قبل، حتّى ولا في الروايات التي تصف التعذيب في

السجون الروسية. لقد وقّع كلّ الأطبّاء المساجين وأساتذة الجامعات في المعسكر على شهادة تثبت أنني مجنون. يريدون أن يثبتوا أنّ امتناعي عن الطعام هو ضرب من الجنون، ولكن هناك بعض الأمور في الحياة لا تنتهي بهذه السرعة، وخصوصا بهذه البساطة. سأثابر على النضال.»

ضغط تريان كوروغا على قبضتيه...

قال في سره: «ينبغي أن أثبت لهم الآن أنني متمالك كل قواي العقلية».

واقترب من الممرض مترنحا، وهو يستند إلى الجدار.

سأله الممرض:

- هل جئت تقصّ عليّ حكايتك الصغيرة؟ كنت أعرف أنك ستقصها عليّ.

كان يضحك:

- إن كل من يأتي إلى هنا يحمل معه قصته الصغيرة ليرويها. لكن لا وقت عندي الآن للإصغاء إليك يا صغيري. سترويها لي غدا أو بعد غد. خلال شهر أو سنة إذا شئت، سيكون لك ما شئت من الوقت لترويها لي.

كان الممرض يحمل صحيفة بين يديه، فأراد الاستمرار في القراءة، لذلك قال:

- إن سريرك هناك في الطرف الأقصى فاذهب إليه والبث ساكنا، ولا تشغل سرير غيرك. هل فهمت؟

قال تريان:

- كنت أريد أن أسألك شيئا.

فأجاب الممرّض منزعجا:

- أعرف أنك تريد أن تسألني شيئا، ولكن لا وقت عندي الآن. اذهب إلى فراشك. ينبغي أن تكون غلاما عاقلا وإلا لقنتك درسا صغيرا بالسوط الذي سأريك إيّاه.

وأخرج من درج الطاولة سوطا من سياط الفرسان عرضه على

تريان، ثم أعاده إلى مكانه.

أدرك تريان كوروغا أن كل ما سيقوله لا فائدة منه، وأن كل محاولة من قبله ستعتبر تخريف مجنون، لذلك عاد إلى سريره واستلقى عليه.

-156-

«لم يكن يكفي وجودي في السجن. ها أنني الآن في ملجأ للمجانين.»..

وأغمض عينيه!...

كان يريد تنظيم خطّة نشاطه لليوم التالي، لكنّه شعر بعجزه عن كلّ شيء فنام مطبق القبضتين.

- انهض!

انتفض تريان إذ لم يكن بعد قد أغفى، فرأى الممرض الذي نقله أمس منتصبا أمامه، ذلك الممرض الذي قال له انه موصلو إلى طريق المجرة. لقد عرفه تريان من صوته .

- اعطني كل ما في جيوبك.

نهض تريان وراح يبحث عمّا في جيوبه بيد مرتعدة. أخرج منديله وقدمه للحارس، ثم أخرج من جيب آخر الغليون الذي رافقه في كلّ هذه المحن، فقدمه إليه كذلك. أمّا الجيب العلويّ فقد أخرج منه أيقونة صغيرة. أيقونة القديس أنطوان. فتأمّلها برهة ثم سلّمها إلى الحارس هي الأخرى...

- أليس معك أشياء أخرى؟

فأجاب تريان:

- كلاّ، هذا كلّ ما معي.

فقال الممرّض آمرا:

- ارفع ذراعيك!

رفع تريان ذراعيه إلى مستوى صدره وعجز عن رفعهما إلى الأعلى. وشعر بغشاء رقيق يحجب عينيه.

أمر الحارس:

- ارفعهما فوق رأسك!

أجاب تريان بصوت خافت:

- لا أستطيع. إنّني أشعر بألم شديد وبخدر في أعضائي.

أمسك الممرض بذراعيه ورفعهما ثم شبكهما فوق رأسه. أحسّ تريان بيديه الثقيلتين، كحجر صلد أقيم فوق رأسه. لم يتوقع مرّة أن يشعر بثقل يديه على هذا النحو، وأن يعجز عن إبدال مكانهما أو تحريكهما.

فتش الممرّض جيوبه، فشعر تريان بأنّ الأيدي الغريبة لم تدخل إلى جيوبه فحسب، بل إنّها كانت تخترق جلده ولحمه باحثة عن شيء ما.

- يمكنك أن تخفض ذراعيك.

وأخذ الممرّض بيديه وأسدلهما على جانبي جسده.

- فكّ ربطتيّ حذاءك.

فقال الممرض الذي كان يقوم بالحراسة في الغرفة:

- دعه بسلام انُظر إلى وجهه، ألا ترى أنّه أصفر كالشمع؟

مدّد الممرضان تريان على السرير، وحلاّ ربطتيّ حذائه وحملوها معهما، ثم نزعا من سراويله العسكريّة الداخلية البند الذي يثبتها، وأخيرا نزعا نظارتيه.

هتف تريان بصوت كله ضراعة وتوسل:

- لا تأخذوا نظارتي!

لقد كان بصره شديد الضعف.

- إنك تفكر في قطع أحد شرايينك بزجاجها، أليس كذلك؟

- إنّني لا أرى شيئا إذا لم أثبت نظارتي.

- ليس لديك ما تراه هنا!

حزم الممرض نظارة تريان ومنديله وغليونه والأيقونة في رزمة ربطها بإحكام. كانت تلك الأشياء كلّ ما يملك تريان كوروغا على الأرض. فأخذها الممرض ومضى.

- انهض وكُل!

كان ذلك في صباح اليوم الأول الذي أمضاه تريان في مأوى المجانين.

نظر إلى القصعة المملوءة بالحساء التي كان يمدها الحارس له وقال:

- عبثا. لن آكل.

قال الحارس:

- إذا كنت تظن أنك تستطيع التصرّف على هواك فإنّك تضيع وقتك.

ووضع قصعة الحساء على الأرض قرب السرير واتجه إلى السرير المقابل.

قال تريان:

- إنّني مضرب عن تناول الطعام منذ ستة أيام.

- إن كل الزبائن هنا يلعنون الإضراب، يا دميتي. إنك لست وحيدا في ذلك!

اقترب الممرض من المريض الذي رآه تريان يغطي رأسه والذي كانت أحذيته الضخمة تبرز من الجانب الآخر من السرير.

كان هرما ذا لحية بيضاء، ينظر بوجل إلى الحارس. فلما اقترب هذا منه، أخفى المسكين وجهه في الوسادة وهو يغمغم:

- ماذا تريد مني؟

وعاد يحشر رأسه تحت الوسادة وكأنه بذلك يفرّ من سلطة الحارس.

هتف هذا آمرا:

- انهض، أيها الأب الصغير! ينبغي أن نقدم إليك طعامك.

اقترب الشابان المجنونان من العجوز أيضا. كان يقفان متجاورين وكأنهما يخافان الافتراق لحظة واحدة، وكان الممرّض يدعوهما «البولدوغان».

صاح الحارس.

- أنتما أيهما البولدوغان، هيا اقفزا عليه!

كان يلقي إليهما أمره وكأنهما كلبان حقيقيان. فقبض أحدهما على العجوز من ظهره تحت الإبطين، بينما تناول الآخر رأسه وأرغمه على الجلوس في سريره.

قال الحارس ضاحكا:

- رويدكما. رويدكما لا تحطما عظامه!

كان العجوز يبكي وقد اعتمد ذقنه بصدره، وراح ينظر إلى الأرض بعناد.

قال الممرّض:

- افتح فمك، أيها الأب الصغير! لقد جاءتك المربية بالمصاصة!

غير أن العجوز كان قد ألصق ذقنه بصدره، وأطبق فكيه بكل قواه.

قال الممرض للمجنونين الشابين:

- افتحا «بوزه»، ولكن تصرّفا بلطف!

استوى «البولدوغان» على ركبتيهما فوق السرير، وأدخلا أصابعهما في فم العجوز وفتحا فكّيه عنوة.

أطبق أحد الممرضين بيده على أنف العجوز ومنعه من التنفس عن طريق الأنف، بينما صبّ الآخر الحساء في فمه.

بصق العجوز ما في فمه على المجنونين الشابين اللذين راحا يضحكان بانشراح، بينما أفرغ الممرض ملعقة حساء أخرى في حلق الشيخ، فلم يستطع إخراجها هذه المرة، واضطرّ إلى ابتلاعها، إذ توقف الطعام في بلعومه، فكان عليه أن يبتلعه إذا أراد تفادي الاختناق. لقد كان أنفه متعطلا عن وظيفته بفضل الضغط الذي كان الممرض يمارسه عليه بأصابعه، فكان الفم الطريق الوحيد للتنفس وابتلاع الطعام كذلك.

هتف المسكين:

- إنّني أختنق!

لكن عملية الإطعام بالقوة استمرّت بترتيب، بينما كان العجوز يصيح بين الحين والحين زاعما أنّه سيختنق، ويتخبط بين ذراعي الممرض، ويحاول التخلص من المجنونين الشابّين اللّذين كانا مطبقين عليه بكل قواهما.

قال الممرض:

- ألا ترى، أيها الأب الصغير، إن العملية ممكنة!

كان الشيخ ممتقعا أصفر الوجه كالشمع.

غطى تريان كوروغا عينيه بيديه ليحجب عن ناظريه ذلك المشهد الغريب.

سأله الممرض:

- هل تشعر بالخوف؟ سيحين دورك بعد دقائق قليلة.

سأل «البولدوغان» بصوت واحد:

- هل سنطعمه هو الآخر؟

- سنطعمه كذلك إذا لم يكن عاقلا!

لم يعد المجنونان الشابان ينظران إلى العجوز، بل راحا يعاينان فكي تريان وعنقه بعيون خبيرة!

انحنى تريان كوروغا وأخذ القصعة، وراح يأكل دون أن يمضغ طعامه. فلما انتهى قال:

- إنك على حق. فمن يرفض الطعام، بعد أن يسجن في مأوى للمجانين، لا شكّ مجنون حقيقي. إنّ المجانين لا يستطيعون إعلان الإضراب عن الطعام، لأنهم غير مسؤولين عن تصرّفاتهم. أما أنا، فلست مجنونا. لذلك أكلت حسائي. ومعنى ذلك أنني عدلت عن الصراع الذي بدأته.

-158-

كان تريان يحدّث نفسه قائلا: «ينبغي أن أثبت لهم بكل ما في طوقي من قدرة أنني لست مجنونا.» كان يشعر بألم في رأسه لأن الطعام الذي

ابتلعه منذ حين كان يثقل على معدته وكأنه كمية من الرصاص. لكنّه كان يبذل مجهودا جبارا للوقوف على رجليه والابتسام. اقترب من الممرض المكلف بالحراسة، وقال له:

- أريد أن أتحدث إلى الطبيب المشرف على هذا القسم.

فأجاب الممرض:

- انتظر المعاينة أولا، وعندئذ ستتحدث إليه.

- ألا أستطيع مخاطبته قبل أن يحين دوري في المعاينة؟

- إن مرضى هذا القسم لا يحق لهم أن يستدعوا الطبيب إلاّ في مواعيد زيارته المقررة.

قال تريان:

- إنّني أفهم السبب. لن يُزعج الطبيب نفسه من أجل مجنون. لكنني أقسم على أنني لست مجنونا.

- لمَ إذن، أرسلوك إلى هنا إذا كنت سليم العقل؟

فأجاب تريان:

- ليرغموني على قطع الإضراب عن الطعام الذي بدأته قبل أسبوع. لقد أخبرتك بذلك من قبل. والآن لقد أكلت. فلم يعد إذن أيّ سبب لمعاملتي بوصفي مجنونا. لو أنني رفضت تناول الطعام، لاعتبرتم تصرفي لونا من الجنون، لا احتجاجا صامتا. لكن الأمر قد وضح الآن.

لاحظ تريان أن الممرض يقرأ صحيفته دون أن يصغي إليه أو أن يعير كلماته جزءا من اهتمامه.

فقال بصوت متهدج:

- أما زلت تعتبرني مجنونا حتّى بعد أن رأيتني أتناول الطعام؟

فقال الممرض آمرا:

- امض إلى سريرك واتركني أقرأ صحيفتي.

- لكنني أبلغتك أنني لست مجنونا.

فقال الممرض:

- طبعا، طبعا. والآن، استلق على فراشك والبث هادئا. ينبغي أن تكون عاقلا هنا. فالغلمان الذين لا يهدؤون يؤدّبون بضربات السوط.

-159-

لم يقم الطبيب بزيارته طيلة ذلك الصباح. وحوالي الظهر اقتيد واحد من «البولدوغين» من قبل ممرّض ثم أعيد بعد نصف ساعة محمولا على نقالة في منتصف الغرفة. كان منخراه المسدودان بالقطن يرتعدان وكان شديد الشحوب بينما كان زبد أخضر يسيل من فمه كالكلب المسعور وشفتاه ترتعدان.

- ماذا فعلوا به؟

كان المجنون الآخر «البولدوغ» يضحك وهو يتأمل جسد صديقه متصلبا تهزه تشنجات النزع! وصدر المسكين يرتعد كمنفاخ الحداد، وعضلات يديه وفخذيه تهتز وتضطرب وحدها، وكأنها نزعت عن بقية الجسد أو عزلت عنه، وقد اتخذ جلده لونا جديدا. لم يكن لونه يشبه لون رجل حي. كان عموده الفقري متصلبا تصلب الأشياء الميتة. وحركاته وتشنجاته تشبه ما يصدر عن الدمية الآلية التي تتحرّك من تلقاء نفسها. الشيء الوحيد الحيًّ الذي كان فيه هو ذلك الزبد الأخضر الذي كان يسيل من شدقيه ويبلّل صدره وينتقل منه إلى قماش النقالة.

سأل تريان كوروغا:

- ماذا فعلوا «بالبولدوغ»؟

فأجاب الممرض:

- لا شيء، إنها حقنات تحت الجلد!

- أي نوع من الحقنات هذا؟ لمَ يتخبّط هكذا؟

قال الممرّض:

- لا تكن فضوليّا يا فتاي! ستتلقى مثلها أنت الآخر. ليس أبعد من غد!

- غدًا؟

عاد تريان كوروغا ينظر إلى الجسد المتخبّط على النقالة.

قال الممرّض:

- أيدهشك ذلك؟ ألا تصدّق؟ إنّ كلّ زبائننا يجب أن يعالجوا بالحقنات.

قام الممرّض إلى حيث كان «البولدوغ» مسجّى، فأبدل القطن الذي في منخريه وضغط على خده. ولكن لم يبدر عن الجسد أي رد فعل. قال:

- لو أنك قطعته إربا لما شعر بشيء. فهذه النوبة تجعله عديم الإحساس طيلة الوقت الذي تبقى مستولية عليه. إنكم جميعا في حاجة إلى مثل هذه الزرقات. إنها تجعل الأعصاب وحدها تنشط وتتحرّك. انظر إلى هذه الرياضة الجميلة التي تقوم بها الأعصاب الآن.

جلس تريان على سريره وغطى وجهه بيديه. فُتح الباب فانتفض تريان مذعورا. لم يكن القادم هو الطبيب بل الممرّض وقد جاء يقتاد «البولدوغ» الآخر. قبض على ذراعه وخرج به من الغرفة.

لم يمض وقت طويل حتّى أعيد «البولدوغ» الثاني على نقالة إلى الغرفة وضعت بجوار زميله. كان المجنون الشاب صورة طبق الأصل من زميله الممدّد بجانبه: قطع القطن في منخريه، والزبد الأخضر المتدفق من فمه، ذلك الزبد الذي يُرى عادة على شدقي الكلب الكلِب، والاهتزازات والتشنجات على طول الجسد المسجّى الخالي من الإحساس.

واقتيد العجوز كذلك ثم أعيد على محفة ثالثة وضعت بجانب «البولدوغين».

راح تريان يتأمل الأجساد الثلاثة وهي تتخبّط على إيقاع مماثل ولو كان غير متناسق ولا متزن.

سأل:

- أي نوع من الحقنات هذا؟

فقال الممرّض:

- إنّه الكارديازول، وهو مثير للأعصاب. إنّه يهز دماغك ويبدّد الضباب الذي يكتنفه.

وراح الممرض يضحك.

عاد تريان ينظر من جديد إلى الأجساد الثلاثة الممدّدة عند قدميه. كانت اهتزازاتها تبدو آلية كالحركات التي تقوم بها الآلة الصاقلة. بينما كانت فتحات الأنوف تتمدّد وتتقلص على إيقاع متفق مع الاهتزازات وقوّتها. أمّا الصدور فكانت ترتفع وتنخفض كمكباس الآلات.

لقد تحوّلت كل الحياة التي بقيت في تلك الأجساد إلى حركات آلية تقوم بها العضلات. أمّا الغرائز والعقل والإرادة فكانت ميتة. لم يكن باقيا في تلك الأجساد إلاّ الانعكاسات الآلية وحدها، وقد اتسعت وعمّت الجسد على شكل تشنّج، كذلك الذي يسبق النزع ويرافقه.

خيّل لتريال كوروغا أنّه بهذا المشهد يرى الحياة البشريّة كلّها في المجتمع التقنيّ المعاصر. تصوّر أنّ جدران الغرفة التي كان فيها قد تباعدت حتّى حوت بينها أوروبا كلها، ثم العالم.

كانت في تلك الغرفة ثلاثة أجساد مسجّاة على الأرض تتحرّك وفق تقلّصات آليّة كالآلة الصاقلة، وقد تحوّلت فيها الحياة إلى حركة رتيبة، لا تفكير فيها ولا إرادة، لكن تريان كان يرى في تلك الأجساد، أجساد كل المخلوقات على الأرض.

كان تفكيره مبالغا فيه ولا شك، مطبوعا بطابع الشذوذ. لكنّه ما انفكّ يقلقه ويزعجه. كان يخيّل إليه أنّه أن شميدت رئيس سجناء المعسكر، يرقص على إيقاع تقلّصات تلك الأجساد، رقصة شيطانية يرافقه فيها الملازم جاكوبسون قائد معسكر كورنويسدم، والحاكم براون والطبيب أبراموفيسي وكلّ الآخرين. كانوا جميعا يرقصون على إيقاع «الجاز» والآلة والاهتزازات التي تحدثها حقنات الكارديازول في أعصاب المرضى.

كان يرى مجتمعا كاملا يتخبط متشنّجا كتلك الأجساد. فأغمض عينيه وغطاهما بيديه وصرخ: «لا أريد! لا أريد!».

-160-

- لست أرى على بطاقتك الشخصيّة أيّ تنويه بإضرابك عن الطعام.
كان الطبيب ينظر إلى تريان نظرة مستريبة بحكم مهنته. استطرد يقول:

- لو أنّك أضربت عن الطعام، لذكروا ذلك على بطاقتك. غير أنني أقرأ عليها بدلا من ذلك: «اضطرابات عقلية، تسلّط فكرة الانتحار، نوبات عنف ومشاكسة، اعتقاد بأنه مضطهد» هذا كل شيء، لا شيء أبدا بخصوص إضرابك عن الطعام. إن الإضراب عن الطعام عمل ينجم عن الفكر المشرق والإرادة العاملة. لكنّه غير وارد في بطاقتك. لقد شُخّص مرضك ووقّع عليه أستاذان من أساتذة الجامعات، علَمان من أعلام الطب الألماني، فمن تريد مني أن أصدّق؟ أنت أم الأستاذين؟

كان الطبيب مقتنعا من أنّ تريان قد ابتكر قصته ابتكارا من ألفها إلى يائها.

قال يسأله:

- هل أنت واثق من أن زوجتك سجينة هي الأخرى؟ إنّني شخصيا أميل إلى الظن بأنك لست متزوجا وإلاّ فأين خاتم الزواج؟

- لقد صودر مني خلال التحريات الكثيرة في المعسكر.

قال الطبيب:

- إن هذا معقول، لكنني لا أملك أيّ دليل عليه. ينبغي أن أتقيّد بما جاء في بطاقتك الطبية. فلا يجب أن تغضب إذا وجدتني مضطرا على أن أنطلق –حتى ظهور أدلّة معاكسة– من الوقائع التالية: إن زوجتك لست موقوفة. بل إنّك غير متزوج أصلا. كذلك أبوك، إنّه لم يمت في المعسكر. وأنت لم تسجن دون سبب. إنّني مضطر للتغاضي عن كلّ ما قد ترويه لي.

راح تريان كوروغا يفكّر في موقفه العصيب:

«كيف يمكنه البرهنة على أنّه سليم العقل نيّره؟ إنّ كلّ حركة من الحركات وكلّ كلمة من الكلمات التي كانت حتّى تلك اللّحظة تعتبر طبيعية، تصبح عند وجود المرء أمام الطبيب الفاحص، حركات وكلمات موسومة بالجنون. الكلمات نفسها والأفكار نفسها والآراء نفسها التي تعتبر في الحياة العامة طبيعية، أو تدلّ على الذكاء المفرط، تصبح في مأوى المجانين دليلا على الجنون المطبق. إنّ الحدود بين الحالة الطبيعيّة والجنون لا يمكن أن تُرسم بنقاط دقيقو واضحة، ومع ذلك ينبغي أن أبرهن على أنني لست مجنونا!».

قال تريان:

- أتوسل إليك أيها الطبيب أن تساعدني!

- ماذا أستطيع صنعه؟

- تستطيع أن تصدقني!

قال الطبيب:

- إن هذا لا يبدّل حالك أبدا.

- إنّني لا أسألك رأيك بل أطلب منك أن تصدّقني حقيقة، وأن تخضعني لفحص طبي دقيق.

قال الطيب:

- لا أهميّة لطلبك الأخير لأنّ الفحص الطبيّ ضروريّ وإجباريّ أمّا عن طلبك الأول فجوابي: كلاّ، إنّني رجل علم ولا أصدّق إلاّ ما أتبيّنه، لا أستطيع تصديق شيء دون أدلّة.

- صدقني بوصفي إنسانا!

فكرّر الطبيب قوله وهو يضغط على كل كلمة:

- إنّني رجل علم. وضميري المهني يمنعني من تصدق كائن من كان دون الاستناد إلى الأدلة.

أُخضِع تريان لفحص طبي فأخذت عيّنات من دم أوردة ذراعيه ومن دمِ أصابعه، ثم حُلّل دم ذراعيه للمرة الثالثة وكان تحليلا شديد الأهمية. لقد كان يعطي من دمه بخضوع واستسلام، لأن الإنسان مجبر على إعطاء دمه في كل مكان وزمان، لكن ذلك لم يكن كافيا.

أدخلوا إبرة جوفاء في مؤخرة رأسه ليسحبوا بواسطتها قطرات من السائل الحيوي الذي يغذي النخاع الشوكي. فاحتمل ذلك رغم الألم الشديد، وتكررت العملية فكان تريان مستسلما خاضعا لأنه كان يعرف أن الإنسان ينبغي أن يدفع ثمن الحياة من عقله أيضا وليس من دمه فحسب. فإن لم يدفع، حرم من حقه في الحياة.

أثاروا الغدد وأخذوا عينات من الإفرازات على اختلاف أنواعها، ووضعوها على رقاق من الزجاج، وراحوا يحلّلونها على أضواء المصابيح. حلّلوا البول واللّعاب وإفرازات مختلف الغدد والأعضاء الداخلية والهضمية، وأخضعوها للمجاهر والمخابر، وزنوها وصفّوها في مختبر السجن.

صوّر الأطباء رئتيه بالأشعة، ثمّ رأسه ثمّ هيكله العظميّ عظمة فعظمة، مفصلا بعد مفصل وعرضوها للأشعة البنفسجية.

راح الأطبّاء يبحثون عن الجرح الذي سبّب صرخة الإنسان اليائسة في طلب العدالة لكن الجرح كان غير ظاهر، فازداد الأطبّاء عنادا وراحوا يبحثون عنه في جسد تريان، وفي رئتيه وعظامه ودماغه ونخاعه ودمه. وكان يترك لهم حريّتهم في العمل والاختبار. عادوا يفحصون بدقة عضلاته، عضلة فعضلة، وأعصابه عصبا عصبًا ليختبروا ردّ الفعل فيها. وانتقلوا إلى ركبتيه ويديه ومعدته. فلم يتركوا جزءا صغيرا من مجموع الجسد، إلاّ وأخضعوه للفحص. وأصغت أذن الطبيب الحساسة إلى حركات دمه السرية واستمع إلى ضربات قلبه، وحاول بما أوتي من

علم وخبرة، أن يلمس حركة واحدة غير طبيعية في رئتيه.

صعد تريان إلى الميزان ثم أخذت مقاييسه: طوله، محيط صدره، عظامه، ذراعاه. فتحوا فمه وعاينوا أسنانه؛ فعدوها وتحسّسوها بأيديهم، ثم فحصوا لسانه فكان أشبه بالطعام المتفسخ. لقد فحصوا جسد تريان وكأنه سلعة يُشتبه في جودتها ومصدرها ليتأكدوا ممّا إذا كانت صالحة أو غير صالحة.

وبعد ذلك أخضع للاستجواب الذي تعاين من خلاله الملكات العقلية عند المصابين بالجنون؛ فتناقش الطبيب معه صبحا وظهرًا ومساء وأحيانا خلال اللّيل، فكانت أجوبته على كلّ الأسئلة وأشدّها تفاهة مدوّنة بدقّة. وراح الأطبّاء يبحثون بين كلماته عن دليل من أدلّة الجنون كما يبحث رجال المباحث الجنائيّة عن أدلّة جرمية في منزل الضحية. حرّضوا تريان على الحديث عن طفولته وأمّه وأخواته وأبيه وزوجته وكلّ من عرفهم، وعن النساء اللواتي مررن في حياته. ولما كان تريان يعرف الاتجاهات المتغلغلة في ظلام اللاوعي، تلك الاتجاهات القاتمة المختفية التي يبحث عنها الأطباء، فإنّه راح يساعدهم في مهمتهم على قدر ما يستطيع.

كانت روح تريان تُشرّح وتُعرّى وكأنّها خزانة مملوءة بالألبسة القديمة والثياب القذرة، فُتحت على مصراعيها ليبحث فيها الباحثون. حشر الأطباء أنوفهم فيها دون أن يشمئزوا من شيء، وراحوا يشمّون كل ثوب وثَنْية، ويتحسّسون كلّ زاوية ومنعطف في حياته الخاصة الشخصيّة.

وأخيرا انتهى الفحص فقال الطبيب:

- إنك صحيح تماما! باستثناء مضاعفات لا يمكن تحاشيها وسوء تغذية، وهبوط الوزن عن الحد المقبول الطبيعي. وحاجتك إلى تجديد قواك. وما عدا ذلك، فإن كل شيء طبيعي. لقد شاهدنا بوادر فقر الدم، لأن مفاصلك منتفخة متورّمة بسبب نقص التغذية، وأسنانك مريضة

لهذا السبب أيضا. إن نبضك ضعيف بسبب ضعف جهازك العام، وهناك بعض اللطخات البريئة على رئتيك وبوادر «الروماتيزم». لكن هذه الآلام شائعة معروفة عديمة الأهمية.

قال تريان:

- هل صدقتني الآن وتأكدت من أنني لست مجنونا؟

كان منهوك القوى مُتعبًا تعب يسوع على جبل الزيتون.

- أرجوك أن تعمل على خروجي من هنا على الفور.

فقال الطبيب:

- سوف ندخلك إلى الشعبة الطبيّة لأنك شديد الضعف.

فقال تريان:

- أريد أن أعود إلى المعسكر.

- ما تقوله ليس قولا حكيما.

فكرّر تريان:

أريد العودة إلى المعسكر بأسرع ما يمكن!

وبعد أسبوعٍ من ذلك اليوم، أعيد تريان إلى المعسكر من جديد. عاد إليه مزوّدا بكلّ الأوراق الثبوتية التي تنصّ على سلامة عقله وخلوّه من الجنون. كانت عيناه تلتمعان ببريق الفوز لكنّ جسده كان يترنّح من الضعف والألم والإنهاك وكأنه طيف.

-162-

- إن التوقيف الآلي أسلوب، ولكنّه لا يمكن أن يشكّل سببا للتوقيف. فلكي يُزجّ برجل في السجن ويُعامل كما يعامل المجرمون، ولكي يُقتل بوسائل سريعة أو بطيئة، ينبغي أن يكون هناك سبب موجب، وينبغي أن يكون ذلك الشخص مذنبا. فما هو ذنبي أنا؟ وما هو ذنب امرأتي؟ ماذا جنى أبي من ذنب؟ ماذا ارتكب إيوهان موريتز. إنّني عندما طرحت عليك هذا السؤال بيأس طبيعي محقق بعد أن أمضيت خمسة عشر شهرا

في السجن، اعتبرت صرختي بادرة من بوادر الجنون. إن الكائن البشري يخسر وجوده منذ أن يصبح تعطشه للحرية والعدالة رمزا لجنونه. يستطيع الإنسان أن يبلغ أرقى درجات الحضارة في مراقي التاريخ، لكنّ حضارته لا يمكن أن تكون عونا له في شيء.

كان تريان كوروغا يتحدث إلى الملازم جاكوبسن الذي استدعاه حال عودته إلى المعسكر.

أشعل الملازم جاكوبسن لفافة، وبدا كأنه آسف لما بدر منه نحو تريان. قال:

- إنكم معشر الأوروبيين تنظرون إلى الأمور من الزاوية القاتمة، حتّى ليتبادر إلى الذهن أنّكم لا تعرفون إلاّ التطيّر والتشاؤم.

أجاب تريان:

- يجوز أن تكون على صواب. إن هذا ولا شك خطأ. ولكن أن يشهد الإنسان المأساة البشريّة وتشنّجَ الإنسان والبسمة على شفتيه أمر شديد الخطورة لدرجة لا يمكن مضاهاتها.. إنّه أكثر من مجرد خطيئة أو مجرد شذوذ.

قال الملازم جاكوبسن:

- لقد حاولت أن أقدّم لك معونة، لكنني أخفقت. لقد طلبت إعادتك إلى الحريّة...

فقاطعه تريان قائلا:

- إنّني واثق من أنك عملت ما في وسعك دون أن يؤدي ذلك إلى نتيجة مرضية. فلن يستطيع أيّ رجل بعد الآن تحرير رجل آخر أو تحرير نفسه. لقد أصبح البشر أقليّة موثوقة الأيدي مغلولة العنق، وأصبح الإنسان عاجزا عن مدّ يد العون إلى أترابه. إنّه مربوط إلى سلاسل آليّة أنت تعرفها، هي سلاسل البوروقراطية الآلية، التي تزيّن معاصمنا وأقدامنا. وهي كلّ ما تستطيع الحضارة الغربيّة الحاضرة تقديمه إلى الإنسان: الأصفاد!

قال جاكوبسون:

- عد إلى المعسكر واسترح والبث ساكنا! وحاذر أن ترتكب أية حماقة.

- لم يبق لي ما أعمله إلاّ ما يسمح به المجتمع الآليّ لأيّ رجل.

- أرى أنك عدت إلى أفكارك القاتمة. ولا أحبّ أن أراك على هذا الشكل. هل تريد أن تدخّن لفافة؟

فردّ تريان:

- بكل سرور.

أخذ اللفافة من الملازم ثم سأله قائلا:

- ألا ترى أيّها الملازم جاكوبسون أنّنا متفرجون نتعمّد البقاء في «الصالة» حتّى بعد انتهاء العرض؟ إن هذا العناد لا يجدي لأننا سنطرد جميعا ونلقى على الباب مهما كانت مراكزنا وإمكانياتنا. لن يبقى منا أحد لأن هواء «الصالة» يجب أن يُجدّد، ومقاعدها لا بدّ أن ترفع. وكذلك القارات، فإنّها في حاجة إلى هواء جديد، لأن مشهدا جديدا سوف يمثل على مسارحها بعد حين. سوف يستمر التاريخ على عرض مشاهده دوريا.

بالأمس كانت «عروض الحال» هي التي تعلق وتعرض. وهي ليست إلاّ صرخات توسّل يطلقها الإنسان طالبا من المواطنين في المكاتب أن يدعوه يعيش. غير أن ذلك المعروض الذي كان الرجل المحكوم بالإعدام يتوسل به طالبا منحه الحريّة والعفو، قد رُفض لأنه لم يُقرأ، وبذلك لم يحز المشهد على نجاح، لأنه لم ينته نهاية سعيدة.

وغدًا ستعزف قطعة جديدة عامة عنوانها «المجموعة الميكانيكية» -باليه- وسيكون مشهدا لا رجال فيه. سيعتلي المسرح رجال آليّون وآلات ومواطنون بغير وجوه. لكنني لن أكون حاضرا هذا المشهد، لأنه سيبدأ متأخرا، ولن أستطيع حضوره. أمّا أنت فإن لك شرفة خاصة هناك، ولكن لترى فقط بدء التمثيليات. هيّا إنّها مسليّة! ولكن لا تنس أن الشرفة محجوزة لك لبداية العرض فقط.

صادف تريان كوروغا إيوهان موريتز عند مدخل المعسكر قرب الباب. كان موريتز شديد الحزن فلمّا وقعت عيناه على تريان راح يبكي.

- أهذا أنت؟ ما ظننت أني سأراك ثانيةً.

- وهل كنت ستأسف لذلك؟

قال إيوهان موريتز وهو يضغط على يديه مصافحا:

- كنت سآسف عليك حتّى الموت. فلم أستطع أن أودّعك قبل رحيلك. ولم يسمحوا لي بدخول مستشفى المعسكر. لقد حاولت مرارا أن أصل إليك. أين كانوا يحتجزونك؟

قال تريان:

- بين المجانين.

رفع إيوهان موريتز يده إلى فمه وقال وهو ينظر إلى تريان:

- بين المجانين؟ مستحيل!

قال تريان:

- بل إنّه صحيح، لقد جئت معي بما ندخنه.

حلّ تريان عقدة في منديله وأخرج منه قليلا من التبغ:

- لقد سجنوك هناك؟ يا سيدي تريان المسكين!

جلسا على الأرض المحرقة قرب باب المعسكر وراحا يلفّان التبغ.

كان موريتز غارقا في ذهوله ودهشته فقال تريان:

- لقد أحببت غليوني دائما أليس كذلك؟

فأجاب موريتز:

- عندما يكون للمرء غليون، فإنه يجد دائما ما يدخّنه فيه. إن المرء يستطيع أن يحشو فيه أتفه كمية من التبغ وكل الأعقاب التي لا يمكن أن تدخل في تكوين اللفافة، ولهذا السبب أسفت لأنني لا أملك غليونا. فمن لا يملك غليونا في المعسكر، يشعر بالقسوة والعذاب.

مد تريان كوروغا يده إلى موريتز وفيها الغليون الذي كان يحتفظ به منذ أكثر من عام، والذي لم يفارق فمه حتّى وإن كان خاليا من التبغ. قال:

- إنّني أعطيك غليوني.

فأجابه موريتز:

- إن هذا مستحيل. إن الغليون في المعسكر يساوي كنزا. فبأيّ شيء ستدخن بعد الآن؟

- لن أدخن بعد الآن. إنها آخر لفافة.

- هل منعك الطبيب عن التدخين؟

- كلاّ. لم يمنعني. فقط سأنقطع عن التدخين من تلقاء نفسي.

أخذ إيوهان موريتز الغليون وراح يحشوه بالتبغ، وقال:

- إنّني أشكرك! لكنّك إذا عدت إلى التدخين من جديد فإنّني سأعيد إليك غليونك. تستطيع أن تعتبره دائما معك. أنا لا أقبله منك إلاّ إذا امتنعت فعلا عن التدخين.

- اطمئن. لن أدخن حتما بعد اليوم.

علت شفتي موريتز ابتسامة وقال:

- أنا الآخر وعدت نفسي مرارا بالكفّ عن التدخين لكنني ما استطعت الصمود. فالعدول عن التدخين ليس بالأمر اليسير.

فقال تريان:

- أعرف ذلك. لكنني هذه المرة جاد في عزمي.

أشعل تريان كوروغا اللّفافة وموريتز الغليون وراحا يدخنان بسكون. نزع تريان نظارتيه وراح يتأملهما بعناية وشغف. كانتا نظارتين في إطار من الصفت، راح ينظر إليهما وكأنه سيفترق عنهما بعد قليل.

لم يبق لديه من الأشياء الشخصيّة التي درج على الاحتفاظ بها معه إلاّ النظارتان، أما كيس التبغ وخاتم الزواج وحافظة النقود وقلم الحبر

وقلم الرصاص، فقد صودرت جميعها منه حينا بعد حين.

لم يبق لديه إلاّ نظارتاه.

أمّا الصليب الصغير الذي كان يطوّق عنقه بسلسلته حتّى الأيام القريبة الماضية فقد وضعه على صدر أبيه عند موته ليدفن معه. إن الطقوس الأورثوذوكسية تقضي بأن يدفن القساوسة مرتدين ثوبهم الكهنوتي وعلى صدورهم أيقونة. ولم يتح لأبيه أن يدثّر بثوبه الكهنوتي عند دفنه. لقد كان مرتديا عند موته قميصا أمريكيا عليه الحرفان "س. ح." مطبوعان على ظهره وأكمامه.

بل إنّه لم يكن مرتديا قميصه الداخليّ لأنّه لم يكن قد جفّ بعد غسله. كان إيوهان موريتز قد غسل القميص في صباح ذلك اليوم، فلما مات القس انتزع من تحت الخيمة بسرعة فوّتت على تريان إحضار القميص وإلباسه إياها. لكنّه استطاع أن يدسّ الصليب الصغير الذي كان يحمله حول عنقه تحت القميص الخارجيّ. ولا شك أنّ أباه دفن مع ذلك الصليب الصغير، بل أحرق معه في المحرق.

والآن لم يبق لتريان إلاّ نظارتاه. كانتا الشيء الوحيد الذي يمتلكه بالإضافة إلى شخصه. فكان جسمه ونظارتاه هما كل الأشياء المادية التي استطاع إنقاذها والاحتفاظ بها من حياته السالفة. والآن كان ينظر إلى النظارتين ويتفحصهما في شيء من الأسف و التشاؤم.

قدّمها إلى إيوهان موريتز وقال:

- هل تريد أن تحتفظ بنظارتي؟

فقال موريتز الذي ظلّ يعتبر أنّ حاجة المرء إلى زوج من النظارات يضعه طيلة عمره فوق أنفه عقابا أليما وحملا ثقيلا لا يطاق.

- هل تستطيع الآن أن ترى دون الاستعانة بالنظارات؟

كان موريتز مسرورا سرورا مخلصا لأن تريان أصبح في غنى عن نظارتيه. لكن تريان قال:

- كلا، إنّني لا أستطيع النظر إلى شيء دون نظارات. لكنني إذا تخلّيت عنهما أشعر براحة أكثر. لذلك لن أضعهما بعد اليوم.

- لقد أدهشني دائما أن أراك تضعهما طيلة النهار ولا تنزعهما إلاّ عند النوم. لم أرك أبدا بغير النظارات.

قال تريان:

- إذا أطلق سراحك قبلي فإنّني لن أسألك أن تحمل نظاراتي إلى زوجتي. لعلّك لن تجدها بسرعة ، ولكن احتفظ بهما معك خلال الوقت اللازم، لأنك لا تعرف أين ستراها ومتى وتقابلها. لعلكما تتقابلان في ما بعد في رومانيا. فحاذر أن تحطّمهما.

أخذ إيوهان موريتز النظارتين وراح يتأمّلهما. كان يشعر بأن تريان كوروغا يخفي عنه شيئا، لأنّ تصرّفه بإعطائه الغليون ثمّ النظارات كان عديم المعنى.

قال تريان:

- لا تخف يا موريتز. إنّ كل ما أريده منك هو أن تحتفظ بنظارتي، لأنني لن أستعملها بعد اليوم، ولأنني لا أريد كذلك أن تقعا في أيد غريبة. لقد تطلعت بفضلهما إلى عديد من الأشياء في حياتي، فهل تفهم لمَ أعتز بهما وأحبّهما؟

لقد نظرت من خلالهما إلى زوجتي أوّل مرة، وشهدت عبرهما ألف ألفَ فتاة جميلة، وتأمّلت بواسطتهما اللوحات والتماثيل ومعروضات المتاحف والمدن... لقد نظرت إلى السماء والبحر والجبال وقرأت بواسطتهما في الليالي الطويلة مئات ومئات من الكتب. لقد رأيت أبي يموت عبر هذه النظارات، ورأيتك أنت وكل أصدقائي بواسطتهما، وشهدت أوروبا تنهار والرجال يموتون جوعا ويسجنون، ويعذبون، وتنطفئ شعلة الحياة في نفوسهم في معسكرات الاعتقال.

لقد شاهدت بهذه النظارات قديسين ورجالا ومجانين.

وبهما شاهدت قارّة بأكملها، بما عليها من رجال وقوانين ومعتقدات وآمال، تموت -دون أن تعرف أنّها تموت- سجينة في المعسكرات، حبيسة القوانين الآليّة في ظلّ مجتمع نكص حتّى بلغ الوحشية البربريّة.

إن تينك النظارتين يا عزيزي موريتز تضاهيان عيني. وقد يبلغ بي الأمر أحيانا أن أخلط بينهما، لأنهما متلازمتان. بهما رأيت كل ما شهدته حتّى هذه الساعة.

والآن لم أعد أريد متابعة النظر، لأنني تعبت، ولأن المشهد طال أكثر من المعتاد. فإذا احتفظت بهما أكثر ممّا احتفظت، فلن أرى إلاّ الأنقاض. سأرى مدنا متهدّمة، ورجالا متهدّمين، وبلدانا وكنائس وآمالا كلّها متهدّم ومحطّم.

لقد نظرت من خلالهما إلى أنقاض حياتي الشخصيّة، وإلى دمار الدمار. وأنا لست قاسيا متوحشا، لذلك لا أستطيع النظر إلى هذه النتائج ولا أستطيع احتمال رؤية الأنقاض والدمار في كل مكان.

لقد قام ممهّدون يسوّون الطرقَ فوق تلك الأنقاض استعدادا لفظاعات جديدة. إنّهم المواطنون الذين انبعثوا في التاريخ الجديد، من ذلك العالم الجديد. ولكي يقيموا حضارتهم بدؤوا بالسجون. مع ذلك فإن الأمر يخصّهم. لكنّني شخصيّا، أشعر بعجزي عن متابعة السير معهم. لأن عليّ أن أمضي العمر كلّه على شكل متفرّج. والعيش على شكل متفرّج، يعني أن أتحوّل مجرّد شاهد، وهذا ليس عيشا. إن المجتمع الآلي الغربي لا يعطي بني الإنسان إلاّ مكان المتفرجين.

إنّها لسخرية مرّة أن تكون نظّارتاي الشيءَ الوحيد الذي لم يصادر مني خلال التحريات. وهذا يدلّ بوضوح على الشيء الوحيد الذي يسمح لي به. لقد فكرت أحيانا بأنّ الجنود كانوا كرماء إذ تركوا لي نظارتي. لكنني الآن متأكد من أنّه لم يكن كرما منهم بل وحشية وقسوة، لأنهم لم يحشروني فقط في دور المتفرج، بل دلّوني على ما يجب أن أرى:

المعسكرات. و لا يجوز لي أن أرى شيئا آخر غير المعسكرات ودور المجانين والسجون والجنود ومئات المئات من كيلومترات الأسلاك الشائكة. ولهذا السبب، لم أعد أريد نظّارتي.

إنّني أتخلّى عن الشيء الوحيد الذي ظلّ مسموحا لي به هنا على هذه الأرض. إن النظارات -كالعينين- هي من أكثر الأشياء إبداعا وبعدا عن المقارنة والمضاهاة. ولكن يشترط لكي تكون كذلك، أن يكون صاحبها حيا. فإذا نزعت منه الحياة أو إذا لم يبق له منها إلاّ قطرات تافهة أو حدود ضيّقة أو منفذ صعب شائك، فإن بقاء النظارات عندئذ يعتبر دعابة رهيبة. فهل رأيت مرّة ميتا يضع نظارات على أنفه؟

- ولكن أنت، يا سيد تريان، أنت لست ميتا!

- إن الأمل الوحيد الذي نحتفظ به حتّى الآن هو أن لا نكون أمواتا. غير أن الأمل لا يمكن أن يضاهي الحياة نفسها. فالأمل عشبة تنبت حتّى بين القبور.

قال موريتز:

- ولكن نحن، يا سيد تريان، نحن أحياء!

- نعتقد ذلك ونأمل أن نكون على قيد الحياة.

نظر إيوهان موريتز إلى تريان كوروغا نظرة طويلة. وتذكّر أنّه قد خرج مؤخّرا من مستشفى المجانين. لقد قال ذلك بنفسه.

استطرد تريان:

- لا تخف يا عزيزي موريتز، لست مجنونا. وإذا ظننتني كذلك أشعرتني بأسف مرير. إنك تزعم أنني مازلت على قيد الحياة، لأنني إذا توقفت عن الحياة فذلك معناه في نظرك، لزوم دفني. وعندئذ ستكون عيناي مغمضتين وقلبي متوقفا عن الخفقان وأجفاني مسبلة وجسدي باردا. أي أنك سترى عندئذ جثتي الهامدة. ولكن يا عزيزي موريتز، هناك بعض الميتات التي لا تخلّف وراءها جثثا. فالحضارات مثلا تموت

ولا يبقى منها جثث، وكذلك الأديان إذا ماتت والأوطان. إن البشر أحيانا يموتون دون أن يخلفوا جثثا فهل تفهمني؟

راحِ إيوهان موريتز يبكي بحرقة.

لمَ تبكي يا عزيزي موريتز؟

- إنّك مريض، يا سيدي تريان..

- أتقصد أنني أهذي وأنني مجنون؟

- كلاّ. إنّني لا أزعم ذلك يا سيد تريان! كيف أستطيع التلفّظ بمثل هذا القول؟

قال تريان:

- أنت تعتقد بأنني مجنون ولذلك تبكي. لكنك تبكي عبثا لأنني لست مجنونا، يا عزيزي موريتز. إنّني أكثر إشراقا وصحوا من أي وقت مضى.

- هل صحيح يا سيدي تريان؟

- بالتأكيد، يا موريتز. إنّني متمالك كلّ قواي.

قال إيوهان موريتز:

- لم أزعم أنّك مجنون. لكنّني ظننت أنّك قد تكون مريضا لأنّك لبثت زمنا دون طعام ولا شراب... وهناك حيث كنت، لا شك أنّهم عذبوك: أنت شديد الشحوب. لكنّني لم أفكّر أبدا في أنّك...

وتحاشى إيوهان موريتز أن يلفظ كلمة «مجنون».

لفّ تريان كوروغا سيجارة أخرى وهو يحدّث نفسه بأنّ الناس الذين يتألمون لانهيار الحضارة الغربيّة ينهارون ويختنقون معها تماما، وأن أولئك الذين لا يشاهدون غير ذلك الانهيار فحسب يلبثون غرباء عن المأساة. فهم إمّا أن يكونوا منحدرين من مدينة آليّة كالملازم جاكوبسون مثلا الذي كان يعتبره مجنونا أو من أسر بدائية كإيوهان موريتز، وهؤلاء لا يزالون في مرحلة الإحساس والأوهام والخرافات، لذلك فإنّهم يعتبرونه مجنونا كذلك. لا صلة بين البشر وبين أوروبا. وإيوهان موريتز

كالملازم جاكوبسون، يعتبر كل شخص بلغ ذروة الألم الفكري وحدوده القصوى مجنونا.

إن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يدرك أن الأمر ليس جنونا بل ألما عنيفا بلغ أقصى نهاياته هو بلا شك نورا، زوجته. لذلك فقد ابتهج تريان كوروغا من أجل نورا. ابتسم وقال:

- أشعل غليونك يا موريتز، واذهب إلى الخيمة وضع النظّارت في مكان أمين. إنك تعرف أنني أريدك أن تسلّمهما لزوجتي سليمة.

- فورا، يا سيّدي تريان.

ومضى إيوهان موريتز بخطوات بطيئة مقوّس الكتفين قليلا وهو يجذب أنفاسا من غليونه.

شعر تريان كوروغا بأنّ موريتز لم يكن يجتاز فناء المعتقل بل قرون التاريخ بتلك الخطوات الهادئة الغريبة عن كلّ ما حولها، وأنّ جذوره مغروسة في أعماق الأرض وعينيه تحدقان في المعجزة المتجددة أبدا في زرقة السماء دون أن يتساءل أبدا عن سر هذه الزرقة الشديدة.

سيعيش إيوهان موريتز ونورا وست في أوروبا حتّى ولو كانا في صميم المجتمع الآلي الغربي. لكنهما لن يعيشا طويلا. لعلهما كذلك لن يحضرا إلاّ الفصول الأولى من المشاهد الجديدة، وبعد اختفاء آخر بني الإنسان من البشر ستحفل الأرض بمخلوقات أقوى من الإنسان، مخلوقات آلية تأتي من الشرق والغرب والشمال والجنوب فتعجّ بها الكرة الأرضية.

-164-

اختفى إيوهان موريتز عن ناظري تريان تحت الخيمة فنهض هذا وألقى بلفافته إلى الأرض واتجه نحو باب المعتقل المركزيّ.

لم يكن من حق المساجين أن يدخلوا الباحة التي تشرف على المدخل الرئيسي.

كان تريان كوروغا يعرفُ ذلك. لكنّه استمر يمشي متوغّلا بخطى

ثابتة لا سريعة ولا بطيئة. إنها كالخطوات التي يعود بها الإنسان إلى منزله بعد يوم حافل بالعمل، وهو مدرك أنّه يستطيع السير على هواه لكنّه يرغب مع ذلك في عدم التلكؤ والتأخّر عن العودة إلى الدار.

شاهد السجناء الذين كانوا في الفناء وعددهم لا يقلّ عن ثلاثة أو أربعة آلاف سجينا، تريان يدخل الممشى المحرّم، فاقتربوا من الأسلاك الشائكة ليَروا من قرب حقيقة ما يحدث. لقد ظنّوا أنّه أحد الموظفين لدى مكاتب القيادة أو أحد الأطبّاء المساجين. وهؤلاء وحدهم يملكون الحق في تخطي ذلك الحد.

كان السجناء يتوقون إلى معرفة الأمر بأيّ ثمن. ففي المعتقل، ما كانت تفوتهم شاردة ولا واردة لأنّ ألوفا من العيون كانت تبحث بلهفة وشوق وجشع عن كل التفاصيل. فالعيون ترى كلّ يوم المناظر ذاتها التي رأتها في اليوم السابق، لذلك فإنها تتحرّق إلى الجديد من الأمور، إلى كلّ ما هو غير عاديّ مهما بلغ من تفاهة. إنّها رغبة أزليّة عريقة في تلافيف العقل البشريّ وهي تبحث دائما عن الفريد والمستجدّ وعن العناصر الحميمة والنادرة في الحياة وتتحاشى كلّ ما هو رتيب ووتير.

ومرور سجين في المنطقة المحرّمة حدث جدير بالنظر إليه بعناية وانتباه. إنّه حدث خطير. فهل كان لذلك السجين الحق في اجتياز تلك المنطقة بصفته طبيبا أم موظّفا؟ لقد كان ذلك يستحق المشاهدة ويستحق عناء تجمهر المساجين وشخوص أبصارهم وكأنهم سحروا ببراعة ممثّل على مسرح أو أذهلتهم جرأة هذه الفعلة الممنوعة.

كان تريان يعرف أنّه متبوع بألوف العيون والأبصار، ويعرف أيضا أنّ الحرّاس في أبراج الرقابة الّذين يسيطرون على المعتقل والأسلاك الشائكة حوله مندهشون بالمثل يراقبونه وهم يتساءلون إلى أين يمضي. كان تريان كوروغا لا ينظر إلى المساجين الذين يتبعونه بأبصارهم ولا إلى الحرّاس البولونيين الذين كانوا أمامه على ارتفاع الأبراج.

كان يمشي باستقامة ولكن لم تكن خطواته تشبه خطوات الرجل الثائر الذي صمّم على تخطّي كلّ العوائق التي في سبيله. سار بخطى ثابتة متزنة بل مرنة كتلك التي يخطوها المرء لمجرد الرغبة في السير والتجوّل.

غير أنّ تريان كوروغا ما كان يشعر برغبة في السير. كان يعرف أن فعلته تلك تهدف إلى نتيجة واحدة، وأنها كانت ترضي ذهنه وعقله. ومن أجل ذلك كانت خطواته مزيجا من القسوة والاتزان وليس أشبه بحركات الآلات أو الرجال الذين يتهافتون في سباق أعمى تدفعهم أهواؤهم. لم تكن خطوات تريان كوروغا تدلّ على التعصب والاندفاع الأعمى.

كان يمشي وعيناه متسعتان: لقد كانت قواه البصريّة محدودة بغير النظارات. لكن عيني قلبه وذهنه كانتا مفتوحتين وكان يرى طريقه والهدف من طريقه والسرور والأسى اللذين يلتقيان عند نهاية ذلك الطريق.

يستطيع المدقق في خطوات تريان كوروغا أن يقرأ فيها، في تلك الخطوات على الرمال، تلك الخطوات المتجهة إلى الأسلاك الشائكة والحرّاس، حزنا عميقا. لكنّه حزن مكبوت ومكتوم. إنّه حزن بني الإنسان الذين يغادرون بيوتهم ويمضون بعيدا عنها. إنّه ألم البحّارة عندما تشق السفينة عباب البحر في الخضمّ مبتعدة عن شاطئ الوطن.

ومن يرى تلك الخطوات ويستطيع قراءة ما تعنيه لا يمكن أن يجد فيها غير هذه المعاني. وكانت تلك المعاني مكتوبة على الآثار التي تخلّفها أقدامه على الرمال. لكن العيون التي تستطيع مثل هذه القراءة لم تكن بين ألوف العيون المشاهدة.

كانت عيون الحرّاس البولونيين وعيون المساجين ترى فقط أن تريان يزداد اقترابا من الأسلاك وأن هذا عمل ممنوع محرّم وأنّ أي سجين لا يحق له أن يصل إلى أقرب من متر ونصف من الأسلاك الشائكة.

مع ذلك فقد كان كوروغا يرتكب هذا المحذور.

وضع السجناء أيديهم على عيونهم يحجبون عنها حركات تريان وما قد ينجم عن ذلك. وكان بعضهم يضع قبعته على فمه قلقا من رؤية النتيجة كما لو كانوا يشاهدون صراعا حماسيّا أو فيلما مثيرا أو يقرؤون رواية بوليسية مشوّقة.

كان البولوني في برج الرقابة لا يصدق عينيه. ولعلّه هو الآخر قد رفع يده إلى فمه لكن يده كانت تحمل بندقيته، فلما رفع يده ارتفع السلاح معها. تذكّر أنّ واجبه يقضي عليه بإطلاق النار على السجين الذي يقترب من الأسلاك الشائكة. فضغط أصبعه على الزناد وانطلقت الرصاصة. وعندئذ تذكر البولوني أنّه ارتكب خطأ لأنه لم يصوب بندقيته إلى الهدف. فحين يطلق المرء النار، ينبغي أوّلا أن يسدد إلى الهدف. ذلك هو النظام المتبع وهو يعرفه. وكان عقله الباطن يعرفه كذلك، لذلك فإنه صحح خطيئته بحركة لا شعورية قبل أن يطلق رصاصته الثانية إذ سدد إلى الهدف وكان الهدف هو الرجل.

سمع تريان الطلقة الأولى ثم الثانية. وشاهد بريقا خاطفا يتكسر أمام عينيه ثم شعر بتعب يكتسح جسمه ويدفئه من رأسه إلى أخمص قدميه. تعب يشبه ذلك الذي يشعر به الإنسان في الشتاء عندما يكون في غرفة دافئة وبعد أن يشرب سائلا ساخنا. وشعر بشيء ساخن يسيل على يديه ثمّ ترنّح جسده وسقط على الأرض المحرقة قرب الأسلاك الشائكة. لقد سقط دون ضجة أشبه بالمعطف الذي يسقط تلقائيا عن المشجب إلى الأرض.

شعر تريان بإشفاق عميق على ذلك الجسد الذي انهار رخوا على الأرض، ذلك الجسد الذي كان له أخلص صديق. في تلك اللحظة فقط تحقّق من مقدار حبّه لذلك الجسد. ثمّ فكّر في نورا وفي أبيه وصورة إيوهان موريتز وقاضي التحقيق داميان وعدد آخر من الصور جاءت

كلّها لتسكن فترة في ذهن تريان ثم تتساقط تباعًا كاللوحات التي تسقط من الجدران حالما تنتزع المسامير التي تثبتها.

سقطت اللّوحات التي تمثّل الصور المحبّبة إلى نفسه. سقطت على الأرض مع جسد تريان كوروغا وتراكمت بعضها فوق بعض.

لم يعد الفكر يستطيع إبقاءها أمام العينين لأنه فقد القوّة على ذلك. لكنّ الشيء الوحيد الذي لبث برهة أخرى منتصبا لا يسقط مع تلك الصور كان رأسه الذي رفض التمرّغ على الأرض.

فقد كانت ذاكرته كالعَلم، تسربل في طياتها تلك الصور الحبيبة وذلك الجسد الذي أصبح واهيا وقد فارقته الدماء.

كان تريان كوورغا يعرف ما يريد أن يقول لكنّه لم يقل ما يريده. كان يريد أن يبتهل بصلاة يحبها، لكن تلك الصلاة كان مقدّرا لها كالعديد من الأشياء في الحياة، أن تبقى في طيّ الخفاء. ومع ذلك فإنها لم تكن صلاة طويلة ولو أنّه عاش لحظات أخرى، لحظات بسيطة جدا، لاستطاع أن يردّد هذه الصلاة:

أيّتها الأرض الحبيبة
إنّني أمنحك نفسي بلا رجعة
أنا المجهول الذي أتيت من أقصى الأقاصي إلى هنا[1]

التصقت وجنته وشفتاه بالأرض الحارّة بحركة مفعمة بالحنان والصداقة والاستسلام التام والحب العميق. كان كل شيء خطيرا كاملا لأنه تم ببساطة وبطء جليلين كالنار التي تنطفئ بعد طول اشتعال.

وفي فناء المعتقل، كان إيوهان موريتز يريد إطلاق صرخة مدوية، رفع يده إلى فمه لكنّه تمالك نفسه في آخر لحظة. لم يكن الصراخ هو ما يجب عمله في تلك اللحظة. أطرق برأسه إلى الأرض ورسم إشارة الصليب.

---

(1) من قصيدة للشاعر: ر. م. ريلكه.

بعد مضيّ أربعة أيام على موت تريان كوروغا، تلقى إيوهان موريتز رسالة من سوزانا.

رسالة من سوزانا إلى إيوهان موريتز:

«عزيزي إياني.

لعلّك تظنّ أنّني متّ. إذ مضى علينا زمن طويل لم يتلقّ أحدنا أنباءً عن الآخر. لقد ظننت مرارا خلال الأعوام التسعة الماضية أنّك متّ وأردت أن أتلو صلوات على روحك في الكنيسة كما يجب أن يكون الحال نحو الموتى. ولكني كنت دائما في اللحظة الأخيرة أعدل عن رأيي. كان قلبي يحدثني بأنّك لم تمت. وأنا الآن سعيدة لأنني لم أتْلُ صلوات على روحك ولم أقم قدّاس الدفن فمثل هذه الأمور مَجْلبةُ سوء لغير الأموات.

لقد أعطاني السيد بيروسيه –وهو من الصليب الأحمر السويسري- عنوانك وأبلغني أنّك سجين منذ سنوات.

وبعد أن حمدت الله الجليل الذي حفظك على قيد الحياة، توجّهتُ إليه بصلوات ليتفضّل بفتح عيون أولئك الذين أودعوك السجن دون ذنب جنيته – لأنني أعرف أنّك لست لصّا ولا قاتلا وأعرف أنهم سجنوك دون سب- علّهم يطلقون سراحك.

لديّ أشياء كثيرة أقصّها عليك إذ أنّ كثيرا من الأمور قد وقع خلال السنوات التسع التي انقضت. ولكن لا يوجد في رسالتي متّسع لأقصّ عليك كل شيء.

لعلّك ستنزعج إذا علمت أنّي الآن في ألمانيا وأنّني هجرت البيت والأرض وكلّ ما كنا نملك هناك وجئت أنشئ أبناءنا في أرض غريبة. لذلك فإنّني سأقصّ عليك الأسباب.

لقد غادرتنا في اليوم الثاني من عيد العنصرة.

لقد أخبرني أهل القرية بأنهم رأوك يسوقك الدركي متنكبا بندقيته.

لكنني لم أصدقهم لأنني كنت أعرف أنّك لست مذنبا، لذلك لا يجوز سجنك دون سبب واقتيادك كالمجرمين تحت حراسة الحراب.

وانقضت أربعة أسابيع على ذهابك. فأنضجت خبزا ساخنا وانتظرتك لنأكله معا. كنت أعرف أنّك ستعود جائعا عطشان. فلمّا برد الخبز وفات عليه اليوم أعطيته الأطفال وخبزت خبزا آخر وانتظرتك مجدّدا وكلّ أملي أنّك ستجد عند حضورك خبزا ساخنا تأكله. كان هاتف خفيّ ينبئني بأنّك ستعود، لذلك أنتظرك كلّ يوم. كنت أعتقد أنّك ستصل مساء فأترك الباب مواربا لأجنّبك مشقّة الانتظار إذا طرقت الباب وظللت في الخارج حتّى أفتح لك. كنت أعرف أنك ستعود مُنهَكا وفي قدميك آلام من المشي الطويل، لذلك ما كنت أريد أن أجعلك تنتظر أمام الباب. لكنك يا عزيزي إياني لم تعد. فعدلت عن خبز الخبز من أجلك لأنني لم أجد طحينا مدّخرا ولم أستطع إيجاد الطحين. ومع ذلك لبثت أنتظرك كل يوم.

وذات يوم جميل، وكان ذلك قبل حلول عيد العنصرة الثاني جاءني الدركي معلنا أنّك يهوديّ وأنّهم سيأخذون البيت مني. وأبلغني أنني إذا شئت الاحتفاظ بالبيت والبقاء فيه مع الأطفال فليس عليّ إلاّ أن أوقّع ورقة، ورقة طلاق، فوقعت ولكنّني لم أطلقك بل لبثت أنتظرك كسابق العهد.

ولما دخل الروس، قتلوا القس كوروغا مع خيرة أهل القرية فذهبت أنا وأمك أريستيتزا وأخذنا القس ليلا -لأنه لم يكن قد مات بعد- وأخرجناه من حفرة القاذورات وأردنا أن نخفيه في الغابة. لكننا التقينا بقافلة من الألمان، فأعطيناهم القس ليعنوا به ويحملوه إلى المستشفى. ولست أدري إذا كنّا أحسنا صنعا، لكنّنا ما كنّا نستطيع تركه يموت. وفي اليوم التالي أعدمت أريستيتزا بيد ماركو غولدنبرغ عقابا لها على فعلة الأمس. وأرادوا إعدامي بالمثل. لكنّني حملت الأطفال وفررت من القرية. لقد اشتغلت وتألّمت في أمكنة كثيرة. كنت أخاف أن يقبض الروس

عليّ ويعدموني بالرصاص كما فعلوا بأمّك. لذلك فقد فررت قدر ما استطعت. غير أنّ الروس أوقفوني أخيرا في ألمانيا بعد انتهاء الحرب. لم يقتلوني رميا بالرصاص بل تملّكهم الإحساس بالشفقة عليّ فأعطوني خبزا لأولادك وحلوى وألبسة لأنهم لم يكونوا أبناء شخص ألماني. وقد أعطوني كذلك طعاما وألبسة لي، وإنّني الآن آسف شديد الأسف لأنني فررت من فانتانا خوفا من الروس.

استمر ذلك أربعة أيام كنت أنتظر خلالها أن أشفى من المرض الذي نزل بي لأعود إلى منزلنا. وذات مساء قرع أحدهم النافذة. ولما استطلعت الخبر وجدت أنهم جنود روس. اقتحموا الباب ودخلوا البيت وراحوا يفتشون فيه عن نساء، فأخذوا ابنة صاحبة المسكن التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها وأعطونا خمرا لنشرب وأشهروا مسدساتهم وأفهمونا أنهم سيقتلوننا بالرصاص إذا امتنعنا عن الشرب. ثم أمرونا أن نخلع ألبستنا ونقف عاريات. كان الأطفال، أطفالنا، في الغرفة معنا. قلت إنّهم يستطيعون قتلي إذا شاؤوا لكنني لن أخلع ثيابي أمامهم. فانتزع الجنود ثوبي وقميصي ومزقوهما تمزيقا ثمّ استحيونا واستمرّوا في مضاجعتنا حتّى الفجر. لقد ضاجعونا جميعهم. لقد صبوا في فمي خمرا بعد أن رفضت شربه، وكذلك ملؤوا به أذني وعادوا إلى مضاجعتي من جديد. اغفر لي يا عزيزي إياني إذا كنت أقصّ عليك كلّ هذا لأنني لا أريد أن أخفي عنك شيئا. ولما استيقظت، كان الروس قد ذهبوا ولم يبق حولي إلاّ الصغيران يبكيان بكاء الأحياء على الأموات..

وفي المساء التالي عاد الروس من جديد. كانوا هم أنفسهم جنود الأمس. جاؤوا بابنة صاحب المسكن وعادوا يضاجعوننا مرّة أخرى.

واختفيت أنا مع طفلينا في القبو خشية أن أقع فريسة بين أيدي الجنود الروس من جديد. غير أن اللّيلة الثالثة لم تكن خيرا من سابقتيها، لأن الروس عثروا عليّ في القبو وانقضت تلك اللّيلة كاللّيلتين السالفتين. لكني

لا أعرف ما حدث لأنه أغمي عليّ منذ أن وضعوا أيديهم على ذراعي.

ودام الحال هكذا أسبوعين كاملين ليلة إثر ليلة. كنت أختبئ كل مرّة في البستان أو في مخزن المؤن أو عند الجيران. لكنّ الجنود الروس كانوا يعثرون عليّ دائما فلم أستطع الإفلات منهم ليلة واحدة. قرّرت الانتحار. لكنني كنت حين أرى الصغيريْن، أشعر بالعجز واستحالة تركهم دون أمّ. لقد كان غياب أبيهما وحده كافيا. ما الذي كانا يستطيعان فعله إذا ما لبثا وحيدين في بلد غريب. وإذا كنت لم أنتحر فما ذلك إلاّ من أجلهما. أما أنا، فإنّني منذ الآن أعتبر نفسي ميتة. ولقد اتجهت إلى الغرب فرارا من الروس، فوصلت إلى منطقة الأنكليز ومنها إلى المنطقة الأمريكية حيث أمكث إلى الآن. وقد أوقفني الروس عدّة مرات في الطريق وكانوا كل مرّة يستحيونني أمام الصغيريْن كما هو شأنهم مع كل النساء. وقبل أن أجتاز المنطقة الروسية إلى المنطقة الانكليزية استبقاني الجنود الروس على الحدود ثلاثة أيام لم يفوتوا منها ساعة من اللّيل أو النهار إلاّ وضاجعوني. وفي آخر مرّة، خرجت حبلى. لقد مضت خمسة أشهر على هذه الحادثة، وأشعر الآن بالجنين في أحشائي.

أريد رأيك في ما يجب أن أعمل. اكتب لي إذا كنت ما تزال تعتبرني زوجة لك بعد كل ما حدث، وإذا كنت تقبل بعد كل هذا أن تعود إليّ.

أنتظر جوابك بفارغ الصبر وأنا أبكي، لأعرف ما يجب عليّ فعله.

سوزانا»

-166-

لبث إيوهان موريتز بعد قراءة الرسالة فترة طويلة وأوراقها بين أصابعه المتقلصة. سمع صوت نفير الطعام لكن صوته بلغ أذنيه بعيدا خافتا وكأنه في حلم. سمع نداء الطعام لكنّه لم يتحرك بل لبث مستلقيا على ظهره.

كانت نظرته وحركاته والطريقة التي كان مستلقيا بها مبتذلة كلّها

على عكس عادته. لم يعد إيوهان موريتز المعهود، ذلك الإيوهان موريتز الذي كانه دوما، بل صار إنسانا آخر. كان جسد إيوهان موريتز وروحه كالسّلك الكهربائيّ الذي يمرّ فيه تيار عنيف جدا لم يستطع الصمود أمامه. لم يبق منهما إلاّ رماد ساخن هو كل بقايا موريتز أمس. أمّا موريتز الأمس، موريتز الّذي كان، فلم يعد له وجود. حتّى أنّه لو وخزه أحدهم بإبرة لما شعر بالألم. أصبح إيوهانا جديدا لا يشعر بالجوع ولا بالعطش، إيوهانا لا يدري أهو سعيد أم حزين.

كان يستطيع أن يبكي وأن يضحك معا لأنه لم يعد يساهم في شيء من الحياة ولا يشعر أنّه داخلها أصلا.

نهض إيوهان موريتز عن سريره مغادرا الخيمة وراح يمشي على غير هدى.

توقف أمام الأسلاك الشائكة على خلاف عادته دون أن يعرف السبب. ولو أنّه تجاوز الحد المسموح به وأطلق عليه الجنود النار فقتلوه كما حدث لتريان كوروغا، لما شعر بأي أسف. لكنّه لم يكن يريد العبور إلى الضفّة الأخرى، ولا كان يريد البقاء. فلا هو راغب في شيء ولا هو راغب عن شيء مطلقا.

وبعد لحظات اقترب منه جنديان أمريكيان وفي أيديهما آلات التصوير وأرادا التقاط صورة له.

لم يتحرك مورتيز من مكانه ولم ينظر إليهما. لكنّه انتفض عندما لمح الجندي الثالث. فناداه بهدوء:

- سترول، كيف جئت إلى هنا؟...

توقف الجندي الأمريكي في مكانه، وظل برهة ينظر إلى موريتز وآلة التصوير في يده.

كان هو سترول، موظف الإعاشة السابق في معسكر اليهود في رومانيا، سترول الذي فرّ معه برفقة الطبيب أبراموفيسي إلى بودابست. نظر كلّ

منهما إلى الآخر وتعارفا.

ولما ناداه موريتز باسمه للمرة الثانية، وضع سترول جهاز التصوير أمام وجهه وهو يخفي عينيه ويتظاهر بأنه يصور موريتز.

ثم ابتعد مسرعا دون أن يجيب.

لبث إيوهان موريتز واقفا وراء الأسلاك الشائكة ينظر إلى سترول والجنديين الآخرين وهم يركبون سيارة جيب ويبتعدون.

ولما أقلعت السيارة، عاد سترول فألقى نظرة على إيوهان موريتز لكنّه سرعان ما أشاح بعينيه مرتبكا.

لم يغضب موريتز قط. ولو أن سترول، صديقه في المحنة، تنكّر له وتظاهر بأنّه لا يعرفه في غير ذلك اليوم لغضب غضبا جنونيا.

لكنّه اليوم لم يشعر بأذى لأن كل شيء لديه كان تافها.

لبث إيوهان موريتز واقفا أمام الأسلاك الشائكة.

شعر بيد تلمس كتفه فاستدار مذعورا:

- هيّئ نفسك للذهاب، يا موريتز!

التفت إيوهان موريتز. ظنّ أن أمرا بإطلاق سراحه قد وصل إلى قيادة المعتقل وأنهم يبلغونه ذلك الأمر. فشع في عينيه بريق السرور وقال:

- هل يطلقون سراحي؟

قال رئيس الخيمة الذي بلّغه الخبر الأول:

- كلا وللأسف، يا عزيزي موريتز!

- إنّهم سينقلونني إلى معتقل آخر، أليس كذلك؟

- نعم. إلى نورمبرغ!

هز موريتز رأسه بلا مبالاة. كان يعرف منذ زمن بعيد أنّه اعتُبر بصورة آلية مجرم حرب مثل كل جنود فرق الحرس. وذهابه إلى نورمبرغ حيث اجتمع مجرمو الحرب الآخرون أمثال غورنغ ورودلف هس وروزمبرغ وفون بابن... يمكن أن ينجم عنه الحكم بالإعدام وأن يشنق.

لكن كل شيء في تلك اللحظة بات عنده سيّان.

لذلك استمر ينظر عبر الأسلاك الشائكة إلى الأفق البعيد.

عاد رئيس الخيمة يربّت على كتفيه ويقول:

- ستذهب خلال نصف ساعة.

لم يتحرك إيوهان موريتز. فقال رئيس الخيمة:

- اذهب وهيّئ أمتعتك! إنّ الوقت لا يكاد يسمح لك بذلك. سيكون الاجتماع في الساعة الثانية عشرة.

قال موريتز:

- ليس لديّ أمتعة.

- ألن تأخذ معك شيئا.

- لا شيء أبدا.

- ألن تأخذ غطاءك؟

- ولا غطائي.

فكّر رئيس الخيمة لحظة أنّ إيوهان إذا ترك غطاءه الصوفيّ فإن ذلك سيسمح له هو بإمكانيّة استعمال غطائين. لكنّه سرعان ما طرد تلك الفكرة من رأسه وقال:

- ينبغي أن تحمل معك غطاءك لأن سجن نورمبرغ الدولي بارد رطب. لسوف تحتاج فيه إلى غطائك.

- لن أحتاج إلى شيء.

قال رئيس الخيمة وهو يبتعد:

- لا تتأخر على أية حال. سيكون الاجتماع في تمام الثالثة عشرة.

لبث موريتز في مكانه وطرف حذائه على حافة الخط الأبيض الذي يفصل بين المنطقة المحرّمة على المساجين والمنطقة المباحة. تحرّكت قدم موريتز اليمنى ولامست الخطّ الأبيض، ورفع عينيه إلى البولوني في برج الرقابة. كان الحارس يسدّد بندقيّته في تلك اللّحظة ويقف على استعداد

لإطلاق النّار، غير أنّ إيوهان موريتز لم يتخطّ الحدّ الأبيض بل مكث حيث كان وقدمه على حافة الخط. وبعد نصف ساعة كان في الطريق إلى نورمبرغ مع مجرمي الحرب الآخرين الذي جمعومهم من المعتقل.

لبثت رسالة سوزانا هي الأخرى في الخيمة مع بقية أمتعة إيوهان فحاول زملاؤه قراءتها، لكنهم عزفوا عن ذلك عندما وجدوها مكتوبة بالرومانية وتأكدوا من أنهم لن يفهموا منها شيئا.

كان ورق الرسالة رقيقا جدا فمزقها السجناء قطعا صغيرة وراحوا يلفون فيها التبغ بدلا من ورق السجائر.

وراحوا يدخّنون لفافاتهم.

-167-

عريضة حال رقم «7» – الموضوع: عدالة. عقاب مجرم الحرب إيوهان موريتز (هذه العريضة وصل إلى المكتب بعد موت الشاهد).

قررت محكمة نورمبرغ الدولية باسم اثنتين وخمسين أمّة أنّ صديقي إيوهان موريتز مجرم حرب.

وهذا أمر جميل فمنذ أن يعلن قرار الإدانة لن أتنزه معه في ساحة المعتقل لأنه لا يجوز ولا يستحسن أن يتنزّه المرء في فناء المعتقل بصحبة المجرمين، خصوصا وأنّ ذلك لن يكون خاليا من النقد والاستهجان.

لكن إيوهان موريتز يبدو غير مبال بقرار محكمة نورمبرغ الدولية وبخطورة جريمته.

وهذا هو موضوع هذه العريضة.

إنه يزعم أنّه لم يقتل أحدا في حياته ولا حتّى ذبابة، وأنّهُ إذَنْ ليس مجرما. وهو أمر لا شكّ في خطئه طالما أنّ اثنتين وخمسين أمّة قرّرت في محكمة دوليّة أنّ إيوهان موريتز مجرم. ويزعم إيوهان موريتز كذلك أنّه لا يعرف الأمم الاثنتين والخمسين وأنّه إذن لا يمكن أن يكون قد ارتكب جريمة ضدّها. إنّ مناقشته للموضوع ساذجة ولا شك، لذلك قرأت له

أسماء الأمم الاثنتين والخمسين التي تتّهمه. فوجد بينها بعض الأمم التي لم يسمع بأسمائها قبيل تلك اللحظة بل ولم يكن كذلك يعرف وجودها على سطح الأرض. لكن ذلك لا يمكن أن يكون عذرا.

لقد غضب إيوهان موريتز لما رأى أن اسم فرنسا واليونان في عداد الأمم الاثنتين والخمسين التي تتهمه، وامتقع وجهه من الغضب ورفض بشدّة أن يصدّق ما ورد في لائحة الاتهام. إنّه يزعم أنّه تعرّف من قبل على ستة من الفرنسيين السجناء أنقذهم من السجن. وأنه تعرّف مرّة على يوناني واحد كان سجينا معه في معسكر واحد فاقتسم معه رغيف الخبز الذي كان يملكه. وفي ما عدا ذلك فإنه يزعم أنّه لم يربط أية علاقة أخرى بينه وبين اليونان. لكن ما يرويه ليس إلاّ مجرد مسائل خاصة وشخصية لا علاقة لها بالأحوال العامة.

لذلك فإن إيوهان موريتز يُعتبر مجرما في نظر تيْنكَ الأمّتين أيضا.

إنّ القرار واضح وحازم.

ولكي نقنع إيوهان موريتز بإجرامه حيال الأمم المتحدة فإنّني أقترح أن يقضي مدّة سجنه بمعدّل عام في كلّ من هذه البلدان، وعندئذ يستطيع أن يقتنع بحقيقة كونه مجرمَ حرب. وبذلك فقط تتبخّر لامبالاته.

مع ذلك، ولما كان بقاء إيوهان موريتز حيّا اثنين وخمسين عاما أخرى ضعيف الاحتمال وذلك بسبب ضعفه العام، وهي حالة تشمل في الوقت الحاضر كل المجرمين أمثاله، ولمّا كان موته قبل أن تستطيع كل واحدة من هذه الأمم الاثنتين والخمسين التي هي من ضحاياه، أن تسجنه لديها سيجعلها تشعر بالظلم إذا لم يعاقب في أراضيها، فإنّني أقترح بسبب ذلك أن تخفّض مدّة السجن إلى ستة أشهر في كلّ بلد فيكون مجموع السنين ستةً وعشرين عاما كاملة.

فإذا لم يمت خلال هذه الأعوام الستة والعشرين –وإنه لمؤسف حقا أن يموت قبل أن ينهي فترة العقوبة في كل دولة من الدول الاثنتين

والخمسين- فإنّني أقترح أن يكبّل بالأصفاد وأن يطوف على الأمم الاثنتين والخمسين بمعدّل شهر في كل بلد حتّى إذا انتهى من طوافه أعاد الكرة من جديد.

وهكذا فإنّ كل واحدة من الأمم الاثنتين والخمسين ستأخذ نصيبها في عقابه دون أن تخسر أحدها أو أن يغمط حقها.

ينبغي أن تطبّق العدالة، والعدالة هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الآلي الغربي.

ولما كانت هناك بعض الأمم -كروسيا وبولونيا ويوغسلافيا مثلا- لا ترعى سجناءها ولا تبقيهم في حالة كاملة من الحركة والنشاط، وكان يحدث أحيانا أن تنسى سجناءها في سجونهم زمنا طويلا، فإنّني أقترح وزنَ إيوهان موريتز بميزان دقيق قبل كل طواف وإرفاقه بقائمة دقيقة عن كل الأعضاء العاملة التي يملكها في جسده.

يجب على كل أمّة أن تتعهّد إيوهان موريتز فتتسلمه من محكمة نورمبرغ الدولية وتعيده إليها وفق الحالة التي استلمته عليها من قبل شريطة أن يكون وزنه متساويا وأن تكون الأعضاء العاملة المسجّلة بدقة في جدول الإحصاء ما تزال تعمل بشكل صحيح.

وهكذا يمكن إبقاء إيوهان موريتز في كامل نشاطه واستخدامه في الأشغال الشاقة في كل بلد من بلدان الأمم الاثنتين والخمسين.

إنّ المجتمع الآلي الغربي يقوم على مبدأ عدم ترك شيء يفسد ويتعطل.

وإنه لمن واجبنا أن نطلب إلى الأمم الأقلّ مدنية من أممنا أن لا تتصرف حيال الأشياء التي تسلّم إليها ببربرية ووحشية.

إنّ مهمتنا هي نشر الرقيّ والمدنيّة في العالم أجمع! هذا هو واجبنا وإننا لفخورون بهذا الدور.

الشاهد

الفصل الأخير

انتهى المطاف بإيوهان موريتز إلى خارج المعتقل والسجن فأعيدت إليه حريته.

لقد لبث غائبا عن بيته ثلاثة عشر عاما. مرّ خلالها بمئات من المعتقلات وانتهى به المطاف أخيرا إلى زوجته وأطفاله.

كانت الساعة العاشرة مساء، وكان ذلك هو المساء الأول لموريتز وأسرته. تناول طعامه، ولبث متكئا بمرفقيه إلى المائدة يتأمل أطفاله.

كان بيتر، وهو البكر، في الخامسة عشرة من عمره. وموريتز ينظر إليه ويفرك عينيه خشية أن يكون في حلم. لم يكن يستطيع تصديق ما تراه عيناه والاعتقاد بأن هذا هو ابنه هو، إيوهان موريتز.

كان بيتر يرتدي سترة أمريكية زرقاء اللون ويدخن لفافة، وكانت عيناه تشبهان عيني أبيه. ولم يكن يصدّق هو الآخر أنّ هذا الرجل النحيل ذا الفودين الأشهبين، هذا الرجل الذي يمثل أمامه والذي لم يره قط من قبل هو أبوه.

لكنه في تلك اللحظة بعد أن رأى أنّه سيقطن معه غرفة واحدة فقد بدأ يألف وجوده.

قال بيتر:

- سأحدّث الرئيس، ولعله يجد لك عملا في المصنع الذي أشتغل فيه.

ابتسم إيوهان، بينما أردف بيتر يقول:

- وإذا كنت أنا الذي أرشحك فإن الرئيس سيقبلك حتما. إنّه لا يقبل أبدا عمّالا غير مُختصّين. وأنت لست مختصّا، لكنّه سيستثنيك من هذا الشرط عندما أخبره بأنك أبي.

نظر إيوهان موريتز إلى ابنه الثاني نيكولاي الذي كان يشبه سوزانا. لقد كان هو الآخر أشقر، ونظراته هادئة وديعة كالقطيفة.

وانتقلت عينا إيوهان موريتز إلى الولد الثالث وعمره أربعة أعوام. لم يكن هذا ولده. لقد جاءت به سوزانا نتيجة بقائها في منطقة الروس. لكن إيوهان موريتز صفح عنها لأنها لم تكن مخطئة فيما صنعت ولم تكن مخيّرة فيه.

أشعل إيوهان موريتز لفافة جديدة، لقد قدم له ابنه بيتر علبة كاملة من اللفافات إعرابا عن ترحابه بقدومه .

كان إيوهان موريتز تعبا منهوكا، لكنّه لم يكن يشعر برغبة في النوم.

لم يكن في الغرفة إلاّ سريران. كانت سوزانا ستشغل أحدهما مع الطفل، بينما ينام هو على الآخر وحيدا. أمّا الولَدان، فإنّهما كانا سينامان على دثار يفرشانه على الأرض.

- إن هذه الحال محتملة في الوقت الحاضر حتّى نعثر على غرفة أو على سرير جديد.

فرش الولدان الدثار على الأرض، وبدآ يخلعان ملابسهما.

لبث إيوهان جالسا وراء المائدة، ورأسه بين يديه، ينظر إلى ولديه بيتر ونيكولاي وهما يخلعان ثيابهما ويستلقيان. تمنيا له ليلة طيبة، وكانا يتحدثان بالألمانية. كم ودّ إيوهان موريتز لو أنهما خاطباه بالرومانية، لكن الغلامين كانا يتعثّران عند التحدث بتلك اللغة.

وضعت سوزانا الطفل في السرير «طفل الرّوس» كما غمغم موريتز في سره. كان الطفل جميلا ذا خصلات من الشعر الأشقر.

كان موريتز لا يحب النظر إليه. لكنّه كان -عندما أجاب على رسالة سوزانا من المعتقل- قد أعرب لها عن نيته في اعتبار الطفل مثل ولده.

لم تكن سوزانا تحب أن ينظر موريتز إلى الطفل الأشقر الجميل. نزعت ملابسه وأودعته السرير وكأنها تخفيه عن عيني موريتز.

لبثت واقفة فترة طويلة في وسط الغرفة لا تعرف ما تفعل.

ثم جلست إلى المائدة قبالة زوجها. كانت تعرف أن موريتز منهوكا

تعبا، لكنّها ما كانت تجرؤ على دعوته إلى الإيواء إلى الفراش. كانت تشعر بأنها مذنبة، وبأنها سبب كل ما حدث، علّة سجنه كلّ تلك السنوات التي قضاها في المعسكرات. صحيح أنّ تفكيرها كان أخرق. لكنّه كان أقوى من إرادتها، فلم تستطع العزوف عن التفكير...

شعرت كذلك أنّ استباحة الروس لجسدها ذنب كبير اقترفته، لذلك لم تستطع احتمال نظرة موريتز، وما كانت تجرؤ على تنبيهه إلى ضرورة النوم والاستراحة.

كانت تعرف أنّه سيأتي بعد غياب. فجهّزت له الطعام، وسوّت له السرير. لقد كان جائعا جوع الذئاب، فالتهم كلّ ما وجده على المائدة.

كان في تلك اللحظة قد أتى على نصف علبة اللفافات التي قدمها إليه بيتر. والآن، وقد نام الأولاد، رفعت سوزانا عينها إلى وجه زوجها. وتقابلت نظراتهما ولبثت مترابطة لحظة لا تستطيع عن بعضها فكاكا.

- أهذا هو الثوب الذي كنت ترتدينه ذلك المساء؟

كان موريتز ينظر إلى الثوب الأزرق ذي الياقة الواسعة الذي كانت سوزانا ترتديه ليلة أن قتل إيورغو ايوروان أمها. كانت سوزانا ترتدي ذلك الثوب عندما حملها إلى منزل أبويه، عند أريستيتزا التي رفضت إيواءها، وعند الكاهن كوروغا الذي أعطاه الغرفة الصغيرة قرب المطبخ. كانت سوزانا بادئ الأمر لا تملك إلاّ ذلك الثوب، ولا حتّى قميصا تحته. وظلت خلال أسابيع متعاقبة لا تلبس سواه فلا تخلعه إلاّ مساء عندما كانت تنام عارية تماما. واستطاعت بعد ذلك أن تحيك لنفسها أثوابا أخرى. لكنّها ظلّت تعتبر ذلك الثوب أجملها وأفضلها. وكان هو الثوب الذي يحبه زوجها أكثر من سواه. لأن أجمل أسابيع غرامهما تلك التي انقضت وسوزانا تلبس ذلك الثوب وحده.

قالت سوزانا:

- لم ألبس هذا الثوب منذ رحيلك عن فانتانا. لقد أقسمت يوم

أوقفوك أن لا أضعه على جسدي إلاّ عندما أراك داخلا من الباب. لقد حملته معي في الأمكنة التي تنقلت فيها طيلة الأعوام الثلاثة عشر. ولقد انتظرت طيلة ثلاثة عشر عاما، غير أنني لم ألبسه إلاّ اليوم.

أطرقت سوزانا والخجل يغمرها، ثم عادت فرفعت رأسها وتقابلت نظراتها مع نظرات إيوهان.

ودّ إيوهان موريتز لو يجلسها على ركبتيه ويقول لها ببساطة: «لقد أضناني الشوق إليك.»

لكنّه لم يقل لها شيئا.

أشعل لفافة جديدة وعاد ينظر إلى الأولاد النيام، ثم يتوقف ببصره على وجه سوزانا. إنّها لم تختلف اختلافا بينا. لقد تجعّد وجهها قليلا وفقدت بشرتها نعومتها، وتلوّن شعرها بلون الكتان، وضمر ثدياها وتهدّلا. لكنّها ظلّت هي هي لم تتبدّل عن الأمس البعيد. لم يكن إيوهان موريتز يعتقد أنّه سيجد سوزانته إياها، سوزانة فانتانا. فقد كانت الأعوام الثلاثة عشر دهرا طويلا.

قال إيوهان موريتز:

- إنّني أريد أن أتنزه قليلا.

لكنه لم يتحرّك. لقد كان ينتظر أن تبدأ سوزانا بالحركة.

سألته:

- هل أستطيع أن أرافقك؟

لم يجبها. لكنّه انتظر أن ترتدي ثيابها.

ثم خرجا من الغرفة على أطراف أقدامهما خشية أن يستيقظ الأولاد.

كانا يشعران بشيء من الخجل.

ولما هبطا السلالم، تلامس كتفاهما مرتين. وظلا وقتا لا يتحدثان.

كانت السماء داكنة، وكان موريتز يود رؤية الشارع الرئيسي، فقادته إليه.

أمسكت بيده أمام واجهة زجاجية مضاءة لتريه زوجا من الأحذية كانت تريد ابتياعه له، ثم مضيا بعد ذلك. غير أنّ يديهما ظلتا متعانقتين وراحا يتفرجان ويتنقلان من واجهة إلى أخرى. لم يتحدثا عن المعتقل ولا عن بيتهما في فانتانا. تناسيا الماضي لأنهما يريدان قضاء أمسية هادئة خالية من الذكريات الأليمة.

قال إيوهان موريتز:

- سأستريح يومين ثم أبحث عن عمل. لعل بيتر يستطيع إدخالي في عداد عمال مصنعه.

فأجابت سوزانا:

- ستستريح أولا بضعة أسابيع، ولن تبحث عن عمل إلاّ بعد ذلك. إنك الآن شديد الهزال وإنّني وبيتر نكسب ما يكفي لعيشنا. فأنا أغسل الثياب ولي زبائن كثر.

وضغطت على يديه بشدة. كان يحبّ الأسلوب الذي لجأت إليه لتفهمه أن عليه أن يستريح.

بلغا أبواب المدينة. كانت إلى يمين الطريق ويساره سهول جرداء. والظلام يخيم على الكون، فقال إيوهان موريتز:

- أكاد أعتقد أنّنا في فانتانا.

فأجابت:

- هذا صحيح.

وعادا إلى نزهتهما يفكّران في ليالي فانتانا وفي صراخ البوم. كان كلاهما يفكّر في الأمر نفسه.

قال موريتز:

- إنّ قدميّ تؤلماني، فهل تريدين أن نجلس برهة؟

ودخلا بستانا، وجلسا على العشب فيه.

قال موريتز، وهو يستلقي على ظهره ويضع يديه تحت رأسه:

- إنّ هذا يذكرني بفانتانا.

ثمّ استدار في استلقائه وجعل وجهه إلى الحشائش، وأردف:

- استنشقي شذى العشب يا سوزانا. إنها رائحة الأعشاب في البستان الذي كان قريبا من بيتك. هل تذكرين؟ إنّه البستان الذي كنا نلتقي فيه...

فانحنت إلى العشب تشمّ عبيره. كان قلبها شديد الخفقان وقد ارتج عليها فلم تجبه لأن صوتها، لو نطقت بكلمة، سيبدو ضعيفا متهدجا.

وضع إيوهان موريتز يده على كتف سوزانا فلبثت منحنية كي تستبقيها.

مكثا برهة هكذا لا يتحركان. كانا متباعدين تصل بينهما تلك اليد التي كان إيوهان موريتز يضعها على كتف سوزانا، ولم تكن لديهما الشجاعة على الاقتراب من بعضهما أكثر من ذلك.

قال موريتز:

- أتعرفين يا سوزانا، لقد ذويت شوقا إليك في المعتقل..

كانت بعض النجوم تلتمع في السماء. فنظرت سوزانا إلى السماء ثم ازدادت انحناءً نحو موريتز دون أن تشعر. كانت خجلى.

استطرد معتذرا:

- أرجو أن تغفري لي لأنني في المعتقل كنت أحلم غالبا بأنك عارية أمامي. عندما يسجن المرء يشعر غالبا بذلك. إنّني أريد بذلك أن أطلعك على كل الحقيقة. لقد كنت أحلم بك. لقد كنت عارية تماما كما كنت بين الأعشاب وراء منزل أبيك... سيبقى ذلك الصيف أجمل أيام حياتنا.

ازدادت سوزانا اقترابا منه ووضعت رأسها على كتفه. فراح يرتب على كتفها، ثم انتقلت يده إلى ظهرها ثم إلى ثدييها، وقال:

- سوف تتلفين هذا الثوب الجميل الذي احتفظت به ثلاثة عشر عاما.

همّت أن تقول له إن الثوب لن يتلف. لكنّه استطرد:

- يحسن بك أن تنزعيه وأن تضعيه جانبا كما كنت تفعلين في فانتانا.

نزعت ثوبها، وكانت في حركاتها أشبه بتلك التي تحاول إخفاء جسدها حتّى لا يراه. كانت عارية تماما، وكانت الأعشاب خضراء، فارتسم جسدها البضّ عليها كالرخام الأبيض. طوّقها بيده وقال، وهو يدهش لقوله:

- إنك لم تتبدلي عن ذي قبل. إنك سوزانة الأمس. إنك كما كنت بالأمس البعيد لما كنا نلتقي في البستان. كيف استطعت البقاء دون تبدل؟

جذبها موريتز إليه فابتعدت، فقال:

- إنك تبتعدين كما كنت تفعلين من قبل، وكأن الأعوام الثلاثة عشر لم ترسم دورتها في الزمن.

كانت تفكر في مثل ذلك الأمر:

لقد طوّقها بذراعه كما كان يفعل من قبل، وجذبها وغطى فمها بقبلاته حتّى كاد يخنقها. وشعرت بصدره يسحقها كالدرع الثقيل. كل شيء كان كالماضي.

قالت سوزانا:

- جسدك يفوح برائحة العشب كما كان في فانتانا. لطالما كان محتفظا برائحة العشب والعلف. أنا الأخرى كنت أفكر فيك طوال الوقت، وأقسم لك. لقد أمضيت كل هذه السنوات أفكر فيك بكل قواي وعقلي، أقسم لك. لقد كنت شمسي وزوجي وسمائي، أنت وحدك.

كان إيوهان موريتز يعلم أنّها صادقة. إنها لم تكن لسواه، كانت له وحده. كان يحسُّ بذلك من خلال جسدها المحرق، من خلال ضربات قلبها وكلماتها التي كانت تُلهب أذنيه.

كان إيوهان موريتز يعلم أنّه شمسها وسماؤها وأنها لم تكن تفكّر في سواه ولا تنتظر غيره. كان يحسُّ بأنّ كلّ ما وقع خلال هذه الأعوام الثلاثة عشر قد تبدّد فجأة. وها هما معا من جديد، تماما كما كان الحال عليه في الماضي، معا وأمامهما الحياة.

لم يعد إيوهان موريتز يخاف من الحياة.

نهضا قبل أن ينبلج الصبح بقليل، والخجل بادٍ على ملامحهما معا.

قالت سوزانا:

- ما عدنا الآن الشابَّيْن اللّذين كنّاهما قبل ثلاثة عشر عاما. علينا أن نعود مبكرين إلى البيت.

راح يضحك.

قرّرا أن يعودا إلى المكان ذاته في اللّيلة المقبلة وقال:

- وكل الليالي الآتية سوف نتقابل هنا. هنا فقط. فهنا المكان شبيه بفانتانا، وأحسّ بأننا هناك وبأن ما من شيء ممّا حدث خلال هذا الوقت الطويل قد حدث فعلا.

كانا يضحكان وهما عائدان إلى البيت. ما عاد أحدهما الآن غريبا عن الآخر. ولم يعد أحدهما خجولا من الآخر. لقد طوّق خصرها مرّات عديدة دون أن تمانعه.

قال:

- هل تعلمين أنني ما عدت متعبا قط؟ سأذهب غدا مع بيتر لأبحث عن عمل. لماذا أنتظر أكثر من ذلك؟ سيكون في وسعنا اكتراء غرفتين. سوف أكسب من عملي وسنكون سعداء.

كانت تريد أن يستجمّ أوّلا. لكن موريتز كان قد عقد العزم. قال:

- سأذهب غدا صباحا مع بيتر. إنّني معتاد على العمل. لقد اشتغلت طيلة ثلاثة عشر عاما من الصباح إلى المساء دون أن أستريح. لقد زاولت أعمالا قاسية.

توقفا أمام أحد المخازن، وكانت الواجهة مضاءة.

قال موريتز:

- سأشتري لك، من أجري الأول، هذا العقد من اللآلئ الزجاجية. هذا الأحمر. هل يروق لك؟

فنظرت إلى بطاقة السعر ومنها إلى وجه إيوهان. ما كانت تدري بمَ تجيب. كانت كل أحلامها بأن يعود إياني وأن يشتري لها عقدا من اللآلئ الزجاجية قد تحققت.

قالت:

- لن نفترق بعد اليوم أبدا.

- إذا بدأت العمل غدا فسأشتري لك العقد يوم السبت المقبل.

ولما بلغا الشارع الذي يقطنان فيه كان الصبح قد انبلج أو كاد.

أخذ موريتز سوزانا بين ذراعيه ثم قبّلها وقال:

- لن أستطيع تقبيلك في المنزل لأن الأولاد قد يهزؤون بنا. إنّهم يظنون أننا هرمنا. لكننا لسنا كذلك. ألسنا بعد بعيدين عن سن الشيخوخة؟

شاهد أمام الباب سيارة كبيرة مضاءة الأنوار.

خفق قلب إيوهان موريتز بشدة، وتلمّس الجيب الذي أودع أوراقه فيه. لقد كانت أوراقا قانونية، ومع ذلك فقد ظلّ قلقا. كانت السيارة تشبه سيارة المعتقل، وأنوارها تعطي ذلك الضوء الفجّ نفسه.

كان موريتز يعرف أن أوراقه لا غبار عليها، وأنه يحتفظ بها معه وأن أنوار كل السيارات تعطي ضياءً متشابها.

قالت سوزانا:

- لمَ ترتعد؟

لم يجب. لكنّه تعجّل الدخول إلى البيت.

وبينما كان يصعد السلّم، التقى بدركيين كانا عائدين من مسكنه. كانا قد أيقظا أولاد إيوهان موريتز وقالا لبيتر إن عليهم أن يكونوا جاهزين في الساعة السابعة صباحا أمام الباب ومعهم خمسون كيلوغراما من الأمتعة لكل منهم.

لكنهما لما قابلا إيوهان موريتز على السلم، انتهزا الفرصة ليُطلعاه على الأمر أيضا.

الباب.

سألت سوزانا عن السبب، فأجابها أحدهما:

- إنّ كلّ الغرباء في شرقي أوروبا سيحفظون في المعسكرات. إنّه تدبير سياسيّ لأنّ بلادكم في حالة حرب مع الحلفاء الغربيين. ولكن لا تقلقوا فالحياة في المعسكرات جيّدة. ستأكلون هناك كما يأكل الأمريكيون. إن هذه العملية ليست إلاّ إجراءً بسيطا على سبيل الاطمئنان فلا تخافوا. إنّكم لا تُعتبرون سجناء.

تلك اللّيلة أراد إيوهان موريتز أن يفرّ.

لقد استُدعي مرّة ليقصّ على حاكم المدينة كيف أنقذ الفرنسيين، فصدّق الخدعة آنذاك، وكلّفه ذلك التصديق أعواما طويلة في السجن. غير أنّه الآن لم يعد يصدّق شيئا. أخذ الكيس الذي جاء به قبل ثماني عشرة ساعة من معسكر «داشو» وأيقظ الأولاد ليودعهم.

راح بيتر يضحك وهو يرى أباه على وشك الفرار. كان بيتر يتكلّم الانكليزية بطلاقة وكان صديقا للأمريكيين. سأل:

- إلى أين تريد الذهاب يا أبي؟ لا تكن ساذجا. إنّني أعرف الأمريكيين ولي عدد من الأصدقاء بينهم. إننا نخرج كل مساء معا. إذا قال لك الأمريكيون إن الأمر لا يتعلق بتوقيفك، فيمكنك أن تصدق. وإذا كان الأمر تدبيرا سياسيا، فإن معنى ذلك أننا سنحصل على الطعام الأمريكي والقهوة الجيدة واللفافات «والشوكولاته». بل إنّنا لن نكون مرغمين على العمل. فمن السخف إذن أن تفر. فأنت لا تعرف الأمريكيين.

فكّر إيوهان موريتز في كل معلوماته وفي كل الآلام التي احتملها وكل ما رأى، ثم نظر إلى بيتر. ما أراد أن يفسد على بيتر أحلامه وخيالاته فيقصّ عليه كل ما يعرفه.

ترك إيوهان موريتز كيس أمتعته جانبا، وراح يُحدّث نفسه بأنّه لا

يعرف أين يفرّ. لأنه إذا هرب من الأمريكيين وقع بين أيدي الروس، والحالة عند الروس أ شدّ نكرا. ولم يكن معنى ذلك أنّه يصدّق كلّ ما يقوله بيتر، بل كان يعرف جلية الأمر. غير أنّه كان مرهقا لا يملك القوة على الفرار. فلم يكن لديه ما يفعله إلاّ أن يبقى، ليسجن من جديد.

قال إيوهان موريتز لبيتر:

- أنت على حق. سيكون فراري سخيفا.

فربّت بيتر على كتف أبيه بصداقة وقال:

- سوف ننخرط في الجيش الأمريكي كفدائيين. وعندما ننتهي من دحر روسيا، سنعود إلى رومانيا. إنّها الحرب بين البرابرة والمدنية. ينبغي أن تتطوع أنت الآخر.

لم يصغ إيوهان موريتز إليه. كان يفكّر في الأسلاك الشائكة التي تحيط «داشو» «وهلبرن» «وكورنويستذم» و«أوهر دروف» «وزييجلهم»، في أسلاك ثمانية وثلاثين معتقلا قضى سنواته الأخيرة سجينا فيها. كان يفكّر في تلك المعتقلات حيث مات الكاهن ألكسندرو كوروغا وتريان كوروغا، في تلك المعتقلات التي كاد أن يموت فيها جوعا.

كان يشعر أن تلك الأسلاك الشائكة تدخل في جسده وتدمي قلبه. فكر في قرارة نفسه:

«سأعود الآن إلى معتقل جديد وبذلك أكون قد مكثت حرا ثماني عشرة ساعة. لكنني الآن لا أسجن لأنني يهودي أو روماني أو ألماني أو هنغاري أو من فرق الحرس، بل لأنني من رعايا دول الكتلة الشرقية.»

اغرورقت عيناه بالدموع.

سأل بيتر:

- ما بالك يا أبي لا تحزم أمتعتك؟

كان الفتى متحمّسا لفكرة الرحيل. فقال إيوهان موريتز:

- إنّني على استعداد دائم. منذ ثلاثة عشر عاما لا همّ لي إلاّ التنقل

من معتقل إلى آخر. لقد أمضيت هذا الدهر الطويل وأنا على استعداد دائم للرحيل. ولسوف تألف ذلك أنت أيضا. إنّني أشفق عليك، غير أنّه ينبغي على بني الإنسان أن يألفوا ذلك.

فلن يروا بعد اليوم إلاّ معتقلات وأسلاكا شائكة وقوافل ترحل. لقد مررت في مائة وخمسة معتقلات. وسيكون هذا السادس بعد المائة. من المؤسف أن لا أنال حريتي إلاّ ثماني عشرة ساعة، فمن يدري لعلّي لن أحصل على ساعة أخرى قبل الموت.

ونظر إيوهان موريتز إلى سوزانا وقال لها:

- لكن ذلك جميل الآن. أستطيع أن أموت الآن. فما كنت أجرُؤ على التفكير في أنني سأحيا ساعات جميلة كالتي حييناها. لقد كان ذلك كما سبق لنا في فانتانا، أليس كذلك يا سوزانا؟

الخاتمة

- يا سيدة وست، أريد أن أتحدث معك في أمر شخصي.

وضعت أليونورا وست الأضبارة التي كانت بين يديها على الطاولة، ونظرت إلى الملازم لويس.

كان جالسا إلى مكتبه واضعا ساقا فوق ساق مستندا إلى مقعده وهو يدخن.

كان لويس رئيس مكتب تجنيد المتطوعين الأجانب، وكانت نورا وست موظّفة ومترجمة في ذلك المكتب. بدأت تشتغل معه منذ ستة أشهر. كانت تتساءل: «لمَ لا يضع رباطا لجواربه؟». وظلّت تنظر إلى جوارب لويس المتهدلة دائما، والشبيه بـ «بريمة» حول ربلة ساقه، وتتساءل: «لمَ يجلس على كرسيه وكأنه يمتطي صهوة جواد؟ إنّه يشبه البحّارة عندما ينزلون إلى مرفأ! ومع ذلك فإن لويس شاب من أسرة طيّبة وتخرّج في الجامعة. إنّ الحريّة في مجتمع مهما بلغت درجتها لا يجب أن تبلغ حدّا تجعل إظهار ساق الرجل للمرأة في المكتب مباحا.»

كانت نورا تشعر أنّها تتلقى صفعة كلّما مدّ لها لويس يده بشيء، ولفافته بين شفتيه، أو كلّما ألقى على طاولتها بإضبارة كما تلقى العظمة للكلب. ولم يكن الملازم لويس يعتقد أن نورا تنظر إليه تلك النظرة بل على العكس. لقد كان يظن أنّها معجبة به غير أن نظراتها دائما وجلة. قالت:

- إنّني مصغية إليك.

- يا سيدة وست، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟

ازداد الملازم لويس تشبّثا بمقعده، وراح يتأرجح عليه. فكان المقعد

مرتكزا على قائمتين فقط.

- لا أقبل يا سيد لويس أن أصبح زوجتك.

- هل لديك مشاريع أخرى للمستقبل؟

فأجابت:

- كلاّ ليس لديّ أيّ مشروع للمستقبل. لكن جوابي سيبقى دائما: كلا!

فتحت نورا وست الإضبارة. لكنّها لم تكن تستطيع العمل. كانت عيناها تنظران إلى المصنّف، وعقلُها في مكان آخر.

لقد لبثت عامين في المعتقل، ثم أخلي سبيلها آليا مثلما أوقفت.

ولما استعادت حريتها، لم يكن لديها مال ولا ثياب ولا حليّ، ولا حتّى خاتم زواجها، فقد صودرت كلّ أشيائها. وكانت البنوك الأجنبيةٍ التي تدخر فيها أموالها قد صودرت بالمثل، فغدت شبيهة بأفقر الناس. وأبلغت أنّ تريان مات منتحرا. هذا كل ما عرفته. لكنّها لم تستطع معرفة تفاصيل عن الحادث. وما كانت تستطيع العودة إلى الروس ولا الابتعاد إلى الغرب أكثر مما فعلت. فلبثت في ألمانيا واشتغلت مترجمة في إحدى الصحف. ثم صدر الأمر بتوقيف كل رعايا الكتلة الشرقية، لأن الحرب قد أعلنت بين الكتلتين. فعادت إلى المعتقل من جديد، بشكل آلي كذلك. لكن سجنها هذه المرة لم يكن كالمرة السابقة. لقد قبلت كأمينة سر في مكتب تجنيد المتطوعين الأجانب، فكانت تقطن في المعتقل وتطعم ويُصرف لها أجر. و في ساعات فراغها تكتب. كانت تستكمل رواية «الساعة الخامسة والعشرون» التي لم يستطع تريان إتمامها. فقد استطاعت أن تنقذ في إحدى حقائبها الأجزاء الأربعة التي تُعتبر أساسية في القصة.

لم تكن تفكر في المستقبل. وكان هدفها كله محصورا في إنهاء الكتاب. لا أملا في مشروع مقبل، بل وسيلة لتحاشي إقامة مشاريع مقبلة. كانت تنكبّ على عملها بكيانها كلّه، لأنها أحبّت هذا العمل، فتجهد في محاكاة أسلوب تريان، وإنهاء روايته كما لو كان هو الذي أنهاها.

وبهذه الطريقة، كانت تشعر كلّما انتهت من كتابة صفحة أنّها أقرب إلى تريان. وكأنّها إلى جانبه وهي تكتب معه. لقد قصّ عليها من قبل كل فكرة روايته، فكانت تسعى من جانبها للسير في طريق إنهائها بأقصى ما يمكن من أمانة ودقة.

قال الملازم لويس بعد سكوت قصير:

- أوكي O.K. ! هل يمكن معرفة أسباب هذا الرفض؟

- إذا كنت تلحّ على معرفتها. فهي الفارق في السن.

- هذا لا معنى له!

كان الملازم لويس يضحك بانشراح. واستطرد:

- أنا أكبر منك بعام. لقد اطلعت على أوراقك، فأين إذن وجدت هذا الفارق المزعوم في السن؟ إن الأمر على العكس.

قالت نورا:

- أنت مخطئ.

فأجاب لويس:

- إنك تمزحين. ما هي سنك؟

أجابت نورا:

- لنتحدث عن شيء آخر، إن أردت؟

- ليس قبل أن تذكري لي سنك.

- ليس من اللائق أن تسأل سيدة عن سنّها وخصوصا بمثل هذا الإلحاح. لكنني أستطيع أن أذكر لك سني. لقد بلغت من العمر تسعمائة وتسعة وستين عاما. ولا تنس أن النساء يعترفن بأقل ممّا لهن من العمر كلّما سُئلن عن هذا الموضوع. إنّني في الواقع أكبر سنا من هذا وأبلغ شيخوخة.

- حسنا، يا سيدة ماتوسالم![1]

---

(1) ماتوسالم: جدّ نوح عليه السلام عاش 969 عاما. وهو اسم يُطلق على كلّ إنسان معمّر. (المترجم).

كان لويس مبتهجا منشرح الصدر، منتشيا لدعابة نورا. أمّا نورا، فإنّها لم تبتسم.

ظن ليويس أن نورا ستقبل عرضه. لكنّها كرّرت له رفضها بإصرار.

- لا تغضب، يا سيد لويس. فأنا لا أستطيع العيش أربعًا وعشرين ساعة في منزل واحد معك.

- لماذا؟

أجابت نورا وست:

- لقد قلت لك السبب: الفارق في السن. إنك شاب فتيّ لطيف، أناني ككل الشباب. أمّا أنا فامرأة من عالم آخر.

- لست أفهم.

فأجابت نورا:

- لهذا السبب أرفض إعطاءك التفسيرات التي تطلبها. من الطبيعي أن لا تفهمني. لقد اجتزت أنا ألف عام من الاختبار والحرمان والعذاب، ألف عام جعلتني على حالي الحاضر، أما أنت، فأمامك الحاضر والمستقبل. قد يكون لك المستقبل، ليس لأنني أشك في مستقبلك، بل لأنني ما وثقت قط في المستقبل.

قال لويس بانفعال:

- قولك شديد الغموض.

قال نورا:

- أصغ إليّ يا سيد لويس! إنّني بعد أن أصغيت إلى نجوى بيتراك، جيته، لورد بايرون وبوشكين، وبعد أن أصغيت إلى تريان كوروغا يطارحني الهوى، واستمعت إلى أغنيات شعراء القرون الوسطى وهم يركعون أمامي كما يركع المرء أمام الملكة، وبعد أن شهدت ملوكا وفرسانا يقتتلون من أجلي، وبعد أن تحادثت بلغة الغرام مع فاليري، وريلكه، ودانونزيو، وايليوت، كيف أستطيع أن أنظر إلى طلبك الذي تلقيه في

وجهي مع دخان لفافتك نظرةً جدية.

- هل ينبغي أن يكون المرء جيته أو لورد بايرون أو بيتراك ليطلب الزواج من امرأة؟

فقالت نورا وست:

- كلا، يا سيد لويس. بل إنّه لا يجب أن يكون أيضا لا ريلكه ولا بوشكين ليطلب المرء الزواج من امرأة، بل ينبغي أن يحب تلك المرأة.

أجاب السيد لويس:

- إننا على اتفاق في هذا القول. إذن من الذي قال إنّني لا أحبك؟

ابتسمت أليونورا وست وقالت:

- إن الحب يا سيد لويس عاطفة ولا شك أنك سمعت ذلك أو على الأقل قرأته في كتاب ما.

أجاب:

- إننا متفقان من جديد: الحب عاطفة.

قالت نورا:

- لكنك عاجز تماما عن إظهار أية عاطفة، ولست وحدك العاجز. بل إن أي رجل من حضارتك لا يستطيع إنماء عاطفة في نفسه. إن الحب، تلك العاطفة البليغة، لا يمكن أن يكون إلاّ في مجتمع يؤمن بأن الكائن البشري فريد لا يمكن استبداله. والمجتمع الذي تنتمي إليه، يؤمن بشدة بأن كل رجل يمكن استبداله بسهولة. إنّكم لا تعتبرون أنّ كلّ إنسان وبالتالي كل امرأة، والتي تزعمون أنّكم تحبونها، إنّما هو مثال فريد خلقه الله أو أبدعته الطبيعة في نسخة واحدة لا يمكن أن تتكرّر. إن الإنسان، في نظركم، يُخلق ضمن فصيلة، وكل امرأة، حسب اعتقادكم، يمكن استبدالها بامرأة أخرى..

وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم أن تحبّوا أبدا. إن العشاق في مجتمعي يعرفون أنهم إذا لم يوفقوا في كسب ودّ المرأة المحبوبة، فإنّهم لن يستطيعوا

استبدالها بسواها من بين كلّ نساء العالم. ولهذا السبب، فإنّهم كثيرا ما يقتتلون في سبيل المرأة أو ينتحرون. إنّ غرامهم إذا رُفض، فإنّهم يعرفون استحالة استبداله بغرام آخر. والرجل الذي يحبني حقا، يشعرني بأنني المرأة الوحيدة التي تستطيع إسعاده، المخلوقة الوحيدة. كأن يبرهن لي على أنّني المثال الأوحد الذي لا شبيه له على سطح الأرض. وفي هذه الحالة كنت سأقتنع بصدق قوله وبصحّة زعمه. إن الرجل الذي لا يشعرني بأنه لا مثيل لي ولا يمكن الاستعاضة عني، رجل لا يحبني. والمرأة التي لا تتلقى ذلك الإقرار من الرجل الذي تحب هي امرأة غير محبوبة. وإذا كنت غير محبوبة من رجل ما، فإنّني لا أتزوجه. فهل أنت قادر يا سيد لويس على تقديم مثل هذا الإثبات؟ هل تظنني حقا المرأة الوحيدة التي لا يمكن أن تُعوض بسواها؟ أتظن أنك إذا أمعنت النظر وبحثت بدقة، فإنّك لن تجد من تحلّ محلّي في نفسك؟ كلا. إنك واثق من أنني إذا رفضت فإنك واجد امرأة أخرى تقبل الزواج بك. وإذا رفضت هي الأخرى، فإنك واجد ثالثة ورابعة، أليس كذلك؟

أجاب:

- لعمري إنّه صحيح. لكنني سآسف إذا رفضت الزواج بي. أقسم لك بشرفي أني سآسف.

- يجدر بنا يا سيد لويس أن نتابع عمل مكتبنا المقدس.

وفتحت الإضبارة وقالت:

- إنّ كلّ من في المعتقل يريدون التطوع حتّى الأطفال والنساء والشيوخ. كلّهم يطلبون قبولهم متطوعين. وهم جميعا يريدون الوقوف في صفّكم.

ابتسمت نورا وست وهي تفكّر في الألوف من المواطنين الأجانب الموجودين في الغرب. لقد فرّوا جميعا من الرعب الروسي، والتجأوا جميعا إلى المناطق الأمريكية أو الانكليزية أو الفرنسية. إنّهم لم يفكروا قط في المكان الذي سيأوون إليه، بل كانوا يفرّون من الروس وبربريتهم.

كانوا يهربون من الرعب والموت والعذاب. لقد توجّهوا إلى حيث لم يكن هناك روس. هرعوا إلى ذلك المكان وعيونهم مغمضة، وكلّ ما يريدونه هو عدم العودة إلى الوراء، لأنّ وراءهم ليلا طويلا وفيضا من الدماء، وراءهم الذعر والجريمة. لقد قبلوا تلك الأرض الخالية من الروس، قبلوها وهم جاثون وأطلقوا عليها اسم أرض الآمال والوعود. لقد قبلوها دون أن ينظروا إليها، ودون أن يتساءلوا عن لونها وما تكون.

كانت أرضا خالية من الروس وكان ذلك يكفي، لذلك لا يبالون أكان يقطنها شعب أو تحتلها أمة.

كانوا ينفرون من رؤية الروس فحسب.

وأوقف الأمريكيون الفارين. لكنهم لم يغضبوا، لأنهم كانوا في الأرض الموعودة. كان أقصى ما في نفوسهم أن يوفّقوا في الفرار من الروس والإفلات من أيديهم. ولقد أفلتوا منهم، فكان كل ما يحدث لهم بعد ذلك سهلا مقبولا. لذلك لم يزعجهم أن يعتقلهم الأمريكيون، بل إنّهم لو قتلوهم لما احتجوا على فعلتهم. والآن، أعلنت الحرب، الحرب الثالثة، واللاجئون منهكون جائعون سجناء.

كانوا يريدون الطعام والراحة والعمل والحريّة. لكنهم لم يثوروا حين لم يجدوا ما كانوا يشتهون. كفاهم أنهم نجوا من أيدي الروس، والنجاة وحدها الغاية الأولى في وجودهم.

وعد الأمريكيون بإطلاق سراح أولئك الذين يتطوعون في فصائل القوات الغربية، بمنحهم الحريّة. فطلب كلّ السجناء أن يكونوا متطوعين، ليس حبا في الحرب، بل طلبا للحرية وسعيا وراء إنقاذ أنفسهم من الموت جوعا.

قال السيد لويس:

- إنّه حماس جماعيّ رائع! لقد تبنّى كلّ الناس هنا القضية التي من أجلها يحارب الغرب ضد بربرية الشرق. و كلّ الناس متأكّدون من أن

ساعة الموت أو النصر قد أَزِفَت، ستكون هذه الحرب فريدة من نوعها في مجرى التاريخ. الغرب المتمدّن ضد الشرق البربري المتوحش. إنها حرب عالمية حقا. الحرب العالمية الأولى في التاريخ.

راح لويس يفرك راحتيه مبتهجا:

- إنها سعادة أن يساهم المرء في هذه الحرب. والنصر إلى جانبنا منذ الآن. سوف تنتشر المدنية على الأرض كلها. ولن تكون بعد هذه الحرب جديدة. سيحفل العالم بالتقدم والازدهار والرّفاه. هذا كل ما سيعقب هذه الحرب.

ابتسمت أليونورا وست، فقال لويس ملاحظا:

- لا تبدين متحمسة. أرى أنك لست متحمسة لقضية الغرب. هل تكونين من أنصار الشيوعية؟ أنت الوحيدة التي لم تعربي عن شعورك صراحة، الوحيدة التي لم تتحمسي لقضية الغربيين.

قالت أليونورا وست:

- لا أحد من الناس متحمس. إنّهم فقط يبدون لعينيك متحمّسين!

- أليس كل هؤلاء متطوّعين ضد الشيوعية؟

فأجابت أليونورا وست:

- بلى. ضد الشيوعية. ولكن هذا كل شيء! ومعنى هذا أنهم يريدون العيش في حرية وسلام، والخلاص من جوّ الذعر والإرهاب. إنّهم يريدون النجاة من التقتيل والتعذيب والتشريد والتجويع. إن حماسهم ليس سياسيا. إنّه موقف البشر حيال الجريمة والذعر والعبودية.

سأل السيد لويس:

- وماذا تريدين أكثر من ذلك؟ إن معنى ذلك أنهم تطوعوا بكليتهم في سبيل القضية الغربية. ونحن نقاتل لنمنحهم الحريّة والطمأنينة والحماية والديمقراطية!

قالت أليونورا وست معترضة:

- لا تخدع نفسك بهذه الكلمات. فهذه الحرب التي تسمّيها الحرب العالمية الثالثة، ليست حرب الغرب ضد الشرق. وبعبارة أوضح، إنها ليست حربا على الإطلاق، حتّى ولو امتد خط القتال من قطب إلى آخر وغمر الأرض كلها. إن هذه الحرب ليست إلاّ ثورة داخلية في نطاق المجتمع الآليّ. إنها ثورة داخلية غربية تماما ولا علاقة للشرق بها.

قال لويس:

- لكنّنا نحارب الشرق، أوروبا الشرقيّة كلّها!

فأجابت أليونورا وست:

- هذا خطأ! إنكم، أنتم الغربيين، تقاتلون ضدّ فرع من حضارتكم.

- إننا نحارب ضدّ الروس.

- لقد غدت روسيا، بعد الثورة البولشيفيّة، فرعا من أكثر فروع الحضارة الآليّة الغربية تقدّما. لقد نقلت كلّ نظريّاتها من الغرب. وكلّ ما عملته هو أنّها طبّقت تلك النظريات، فحوّلت الإنسان إلى صفر، كما تعلّمت من الغرب تماما. وحوّلت المجتمع إلى آلة هائلة كبيرة، كما تعلّمت من الغرب أيضا. لقد قلّدت روسيا الغرب بشكل لا يستطيع أن يقلده إلاّ البرابرة والمتوحشون. إنّ ما هو روسيّ حقيقة، وما أضيف إلى المجتمع الشيوعي، ليس إلاّ الوحشيّة والبربريّة. وهذا كلّ ما يميّز الروس. وما تبقّى، فإنه جاء من الغرب. فإذا استثنينا التعطش إلى الدم والبربريّة في روسيا، وجدنا أن كل شيء آخر قد نُقل بأمانة عن الغرب. أمّا أنتم، فإنّكم تحاربون هذه الظاهرة من المدنية الغربية: الفرع الشيوعي من المجتمع الآليّ الغربيّ. ولهذا السبب، فإنّ هذه الحرب العالمية الثالثة، ليست في الواقع إلاّ ثورة داخلية، انفجرت في صميم المجتمع الآليّ. إنّ الفروع «الأطلانطيكية والأوروبية» من المجتمع الغربي، تحارب الفروع الشيوعية الغربية. إنّها حرب داخلية ناشبة بين فئتين، بين طبقتين في مجتمع واحد. وهي -إذا شئت الإيضاح- ثورة طبقية، مشابهة لثورة عام

1848 البورجوازية. إنّ الشرق لا يساهم في هذه الثورة الداخلية الغربية. لا أحد خارج المجتمع الآلي الغربي يساهم في هذه الثورة. ولما كانت هذه الثورة غربية بكل عناصرها، فإنها يا سيد لويس، ليست لمصلحة الإنسان، فالمجتمع الغربي لا يحفل بالإنسان.

- لست أفهم.

- الأمر بسيط تماما. إن مصالح المجتمع الغربي لا تتفق مع مصالح الإنسان، بل على العكس. إن بني الإنسان يعيشون في المجتمع الآلي الغربي، كما كان يعيش القدامى: في كهوف وسجون وأحياء محدودة قذرة، على هامش الحياة. إنّهم دائما مختبئون، محرومون من حق الظهور والوجود جهرا، محرومون من مزاولة الأعمال العامة، وخصوصا في مكاتبكم، لأن حضارتكم استبدلت المذابح بالمكاتب.

والرجال الذين حافظوا على إنسانيتهم، مرغمون على الاختفاء. وإلا فإنّهم سيُجبرون على التصرف وفق القوانين الآلية، وفق قوانين التقنية!

لقد اختُزل الكائن البشري في بُعد واحد، من مجموع الأبعاد التي كان يتمتع بها، وهو البُعد الاجتماعي. لقد تحوّل إلى مواطن، وهذه الكلمة لم تعد مرادفة لمعنى: إنسان!

إنّ المجتمع التقني يجهل الإنسان. إنّه لا يعرفه إلاّ من خلال شكله المجرّد كمواطن، وبما أنّ هذا المجتمع لا يعرف الإنسان، فكيف يثور من أجله؟

ستبقى الثورة الحالية – نظرا إلى طابعها الغربي البحت- غريبة عن مصالح الكائنات البشريّة بوصفهم أشخاصا.

لقد غدا الإنسان، منذ زمن بعيد، أقلية بروليتارية في مجتمعكم. وأيّا كان الرابح للصراع الحاليّ، فإن الإنسان سيبقى دائما، أقليّة بروليتارية، في نطاق المجتمع.

ليس الصراع الحالي، إلاّ صطداما بين فئتين من المخلوقات الآلية

التي تجرّ وراءها عددا من العبيد الأحياء، عبيدًا من لحم ودم.

إنّ البشر لا يمكن أن يعتبروا مساهمين في الصراع الحالي مثلهم كمثل العبيد في سفن الرومان المحاربة. وأولئك العبيد ما كان يمكن اعتبارهم محاربين في سبيل الإمبراطورية الرومانية، فكلّ ما كانوا يعملونه، هو احتمال الأغلال، وأوزار الحرب. ولا يمكن لمخلوق أن يساهم في حرب وهو مكبّل بالأغلال.

سأل السيد لويس:

- ألا يتطوع سجناء هذا المعتقل من تلقاء أنفسهم؟ إن تأكيدك هذا خطير وفيه مغالاة. أنا لا أهدّدك، لكنّني أمنعك بحزم. فكلّ متطوع يأتي إلينا بمحض اختياره. هل تقصدين مثلا أننا أرغمنا واحدا منهم على الانخراط في صفوفنا؟ إنك شاهدة على مواقف الأسى والأسف العميقين التي يقفها أولئك الذين نرفض قبولهم لعدم كفاءتهم. إنّهم يهددوننا بالانتحار إذا نحن امتنعنا عن تسجيلهم. أليس عملهم هذا طوعيا؟ أليس عملهم حماسة؟ إنّهم أشد تعصبا للقضية منّا. وحين نرفض طلبهم يعتبرون رفضنا عقابا شديدا أنزل بهم. أليس كذلك؟

أجابت أليونورا وست:

- لم يعد للإنسان طريق آخر للخلاص. إن الناس يجدون أنفسهم في زنزانة والزنزانة في سجن والسجن محاط بالنيران، فلا يستطيعون إفلاتا إلاّ من طريق واحدة. وهذه الطريق، هي الانخراط في الجندية كمتطوعين. والشكايات الخطية والالتماسات التي تصلنا كل يوم، خير دليل على وجود هذا المخرج الذي تبقّى. إنّهم جميعا يرسلون عرائض وتوسلات وشكايات، ليس الأوروبيون الهاربون من الشرق فحسب، بل كل سكان أوروبا.

قال الملازم لويس:

- هذا خطأ. إن التطوع ليس الطريق الوحيدة للإفلات من النيران.

إنّهم يستطيعون اللجوء إلى الروس. فلمَ إذن لا يذهبون إليهم، لماذا يتهافتون علينا؟

فأجابت نورا:

- إن توجّه النّاس إلى الطريق المؤدية إلى الرّوس يعادل، في هذا المثال، صعودهم إلى أعلى الجدار الملتهب، ليقفزوا من جديد إلى الغرفة التي شبّ فيها الحريق. إنّهم، من أعلى ذلك الجدار، لا يستطيعون إلاّ أن يقفزوا إلى النار والموت! ولن تجد رجلا واحدا يوافق على القفز إلى النار، أو على الأقل، إنّه لا يقفز إلى النار وهو يعرف وجود سبيل آخر. والسبيل الآخر هو: نحن. إنّهم يحاولون الإفلات، ولكنهم لا يحاولون التأكد ممّا وراء ذلك الباب. فما وراءه لا يشغل بالهم. إذ يجب عليهم الخروج من الحريق قبل كل شيء، وإلا فإنّهم سيختنقون ويموتون. ووجود باب يمكن الإفلات منه، أفضل من البقاء قرب الجدار الملتهب. ولو عرف الناس أنّ وراء ذلك الباب نارا، فسيفضّلون الخروج من الباب رغم ذلك! لأنّهم على الأقل يشعرون بلحظة أمل، قبل أن يعاودوا المجاهدة. إن الأمل يراود نفوسهم، والوهم يهدهد أفكارهم. وذلك أفضل من لا شيء. ومن الخير دائما أن يحتفظ الإنسان بوهم أو أمل، مهما بلغ من سخف!

قال الملازم لويس:

- أنت تنظرين إلى الأمور من زاوية مأسويّة. إنّ المتطوعين لا يفكّرون مثل تفكيرك. ونحن، عندما نقبل طلباتهم، نزكّي في نفوسهم الحماس. فيقاتلون حتّى الموت في سبيل قضيّتنا، التي هي كذلك قضيتهم. إنّهم خيرة جنودنا. افتحي الباب وانظري إليهم كيف ينتظرون أمام المكتب.

هناك مئات. وألوف. إنّهم يريدون جميعا التطوع في صفوفنا. يريدون جميعا القتال انتصارا لقضية المدنيّة. ويرغبون جميعا في بذل أرواحهم في سبيل الفوز القريب. وسيحمل ذلك النصر المرتقب للرجال السعادة والحضارة والسلام، والخبز والحريّة والديمقراطية. ألا تصدقينني؟

قالت أليونورا وست:

- كلاّ. إنّ البشر لا يؤمنون بهذه الحرب. قد لا يفكّرون مثل تفكيري تماما، لأنهم تألموا طويلا، ولا يمكن أن يفكروا على هذا النحو بعد، بل إنّهم لا يفكرون في شيء مطلقا. ولكنّهم جميعا يشعرون مثل شعوري، ويتألمون كما أتألم. إنّهم يائسون كما أنا يائسة. مثلي تماما. إن أوروبا كلها تشعر بما أشعر.

- دعي الحوادث تتكلّم، يا سيدة وست! سأثبت لك مبلغ الحماس الذي يعتلج في نفوس هؤلاء الناس الراغبين في التطوع في صفوفنا. سآخذ مثالا عفويا، أترك للصدفة تعيينه.

ونهض الملازم لويس وفتح باب المكتب على مصراعيه. وقال:

- انظري. إن أكثر من خمسمائة شخص ينتظرون اليوم.

وأشار بيده إلى الخط الطويل من المخلوقات البشريّة المرتسم أمام الباب واستطرد:

- لنأخذ الأول في الصف.

أدخل السيد لويس الرجل الأول إلى المكتب. لا شك أنّه جاء قبل الآخرين وكان ينتظر دوره. ولم يكن الرجل وحيدا، بل كان معه كل أفراد أسرته: زوجة وثلاثة أولاد.

كان رجلا ذا شعر أسود وفودين أشهبين. خدّاه مسترخيان وعيناه سوداوان كبيرتان، حزينتان وجميلتان.

نظرت نورا إلى عينيه وقالت في نفسها: «إنّ فيهما حزنا يرجع إلى إشراقات الروح.»

كان الرجل الذي أمامها من فئة العمّال. لكنّ الذكاء كان يشعّ في نظراته. والذكاء يساوي سموّ النفس. لم يكن حزنه حزن جسد، بل كان حزنا روحيّا، مصدره الذهن.

أما المرأة التي كانت إلى جانبه فكانت ترتدي ثوبا أزرق فضفاضا.

شعرها أشقر تبعثرت بينه خصلات بيضاء. لكنّها كانت رائعة الجمال. لم يكن جسمها وحده الجميل، بل كانت أنوثتها تتدفّق من كل مسامات جسدها وتشرق حولها.

تاقت نورا وست إلى أن تبتسم لها كما تبتسم لأخت. لكن المرأة لبثت منخفضة العينين، حزينة مذعورة.

وكان أحد الأولاد الثلاثة ذا عينين سوداوين كعيني أبيه. لكن الحزن لم يكن قد تعمق فيهما. كانت عيناه اللامعتان الجريئتان تتفحصان نورا بتطلع وفضول.

والصبيّ الثاني، كان كذلك مطرق العينين. كان أشقر. وبدا كأنه غير موجود في الغرفة. لقد كان يفكّر في شيء آخر.

أما الثالث والأصغر، فقد كان يناهز الرابعة من عمره. وكان ذا عينين زرقاوين وشعر أجعد. حارت نورا في نوعه: أهو صبيّ أم فتاة. لكنّه كان جميلا كالملك الرحيم.

قال الملازم لويس:

- هذه أسرة كاملة تريد التطوع في صفوفنا. سَلِيهم هل يفكرون مثل تفكيرك. سوف ترين أنهم لم يحضروا إلينا بدافع اليأس. إنّهم يؤازروننا لأنهم متعطشون للحرية والعدالة. إنّهم يطلبون التطوّع في جيشنا، لأنهم يريدون القتال من أجل السلام والمدنية. إنّهم مدركون تماما لما هم مقبلون على صنعه. سَلِيهم ما تشائين. وسترين!

قال نورا:

- لا حاجة لي إلى ذلك. لا أريد معرفة ما في قلوب هؤلاء. إن أملي يكفيني، فلا ترغمني على إيقاظ يأس الآخرين. ابدأ في أسئلتك كما هي عادتك. فليست لي الرغبة في استجوابهم.

- أرجوك أن تسألي كل ما ترغبين في معرفته. إنّني واثق من أنك ستغيّرين رأيك في النهاية.

- ليكن!

كانت الجملتان الأخيرتان بمثابة أمر من الملازم لويس إلى نورا، فرفعت عينيها إلى عيني الرجل الذي كان واقفا أمام الباب وقبّعته في يده، وتقابلت نظراتهما. قالت:

- ما هو اسمك؟

فأجاب الرجل:

- إيوهان موريتز. أريد أن أتطوع مع كلّ أفراد أسرتي. إنّنا نرجوكم قبولنا معا. أرجو أن تتساهلوا قليلا في ما يتعلق بسنّي لأنّني تخطّيت السن المطلوبة كما قرأت في الإعلانات. لكنني أشعر بأنني ما زلت شابا. أما الصبيّان فإنّهما أصغر سنا من الحد المطلوب، لكنهما مجدّان ونزيهان. إننا ضد البلاشفة كما جاء في الإعلانات. ونؤمن بانتصار المدنية كما جاء في الإعلانات الملصقة على باب المعسكر. غير أننا نختلف قليلا عن شروط السن المبينة في الإعلان، لذلك فإننا نرجوكم أن تتساهلوا معنا. إنكم إذا لم تقبلونا، حكمتم علينا بالموت. فنحن لا نستطيع الاحتمال أكثر مما احتملنا.

دفع الغلام ذو العينين السوداوين مرفقه في جنب أبيه كأنه ينبهه إلى أنّه تكلم أكثر مما ينبغي.

توقف إيوهان موريتز عن الكلام وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية. أدرك أنّه ما كان يجب عليه التلفّظ بالكلمات الأخيرة. لقد أخطأ ولا شك في قولها، ولعلّهم سيرفضون قبوله بسبب ذلك.

- أتوسل إليكم أن تقبلونا. إننا جميعا من خيرة العمّال وضمائرنا نزيهة.

كان بيتر قد أوصاه بذكر أشياء أخرى. غير أنه ما كان يريد قولها. لم يكن يستطيع القول إنّه يؤمن بالحضارة وبالغرب وإلى آخر ما هنالك من أقوال.. ما كان يستطيع التلفظ بمثل هذه الأقوال. كان فمه يرفض

استيعاب تلك الكلمات، ولسانه يرفض النطق بها. وكان متأكدا من أن ابنه سيغضب، وسيغلظ له القول عند خروجه من المكتب.

ألقى نظرة متضرّعة إلى وجه المرأة ذات الشعر الأحمر التي كانت في المكتب. كانت هي الأخرى تنظر إليه!

وعمّ سكون شامل!

كانت المرأة التي في المكتب تمتاز بنظرات جميلة دافئة ملتمعة.

ورفعت زوجة إيوهان موريتز –هي الأخرى- عينيها، ونظرت إلى تلك السيدة. وحذا الأولاد حذوها. راحوا جميعا يتأملونها بحزن صامتين.

ابتسم الملازم لويس بينما لبثت أليونورا وست صامتة تتأمل وجه الرجل الماثل أمامها.

- هل تعرف تريان كوروغا؟

انتفض إيوهان موريتز لدى سماعه هذا الاسم. وقال:

- لقد كنّا معا.

ما كان يريد أن يتحدث عن المعتقل، لأن بيتر أوصاه بتحاشي ذلك في البيت.

قال:

- لقد كنا معا حتّى اللحظات الأخيرة. لقد كنت معه ومع القس كوروغا. لقد لبثت إلى جانب السيد كوروغا حتّى وقعت المصيبة..

توقف موريتز برهة ثم استطرد:

- لقد كان أفضل رجل عرفته في حياتي. إنّه لم يكن رجلا بل كان قديسا. هل عرفت السيد تريان أنت كذلك؟

- إنّني زوجته!

استند إيوهان موريتز إلى الباب. وأصبح مكفهرّا ممتقع الوجه. أراد أن يخرج منديله من جيبه، لكنّه لا يملك منديلا. لمس بأصابعه شيئا زجاجيا في جيبه. كان ذلك الشيء نظّارة تريان كوروغا.

لقد أخذها ذلك الصباح بالذات ليصنع لها غلافا من الجلد. كان يخشى أن تتحطّم إذا وضعها في حقيبته هكذا...

أخرجها من جيبه، ونظر إليها فترة، وفكّر في أنّه لم يعد هناك داع لصنع الغلاف الجلدي لها، لأنه لن يضعها في حقيبته بعد اليوم.

وضع إيوهان موريتز النظّارة أمام نورا وست على المكتب.

قال:

- إنّها نظّارة السيد تريان.

ثم سعل لينقي صوته الصدئ، وأردف:

- لقد أعطاها لي قبل موته لأحملها إليك. لقد سلّمها لي قبل...

كان صوت إيوهان موريتز متهدّجا فلم يستطع الاستمرار في الكلام. راح يبحث عن منديله من جديد، المنديل الذي لا يملكه، فلم يجد إلاّ قطعة الجلد التي كان يريد صنع الغلاف منها. أخرجها من جيبه، إذ لم يعد لها لزوم، فوضعها كذلك على المكتب قرب النظّارة، لمجرد حاجته إلى عمل شيء. قال:

- أردت أن أصنع لها غلافا من الجلد لأدفع عنها غائلة الكسر. لديّ الوقت الكافي في المعسكر لصنع الغلاف ولسوف أصنعه، وستحتفظين بها داخل الغلاف. فذلك أفضل، لأنها ستبقى سليمة.

قال الملازم لويس وهو يدخل المكتب:

- هل تأكدت الآن من أنّهم متطوّعون حقيقيّون؟

سعلت نورا. لقد كانت حنجرتها مضغوطة بين أصابع خفية جبارة. وأخيرا قالت بصوت حازم:

- نعم. لقد اقتنعت تماما. إنك على حق مبين. إن هؤلاء جميعا يتضرّعون إليّ أن أمنحهم تسهيلا في شروط السن. إنّهم يريدون التطوع معا، كل الأسرة!

ابتسم لويس وقال:

- حسنا، امنحيهم التسهيل اللازم. سوف ألتقط صورة لهم لتنشر في الصحف!

اقترب الملازم لويس من أصغر الأطفال فداعبه وقال لسوزانا:

- إنّه هو الآخر ضد الروس، أليس كذلك؟

فأطرقت سوزانا بعينيها، ثم فكّرت في أنّها يجب أن تقول شيئا.

قالت:

- نعم، إنّه هو الآخر ضد الروس!

كانت تخشى أن يسمع إيوهان موريتز قولها.

وسمعها إيوهان موريتز فعضت على شتفيها.

راحت أليونورا وست تتأمل الأوراق التي ستسجل الأسماء فيها.

قالت:

تعالوا هذا المساء إلى مسكني، إنّني أقطن في المعسكر أيضا. سوف نحتسي قدحا من الشاي وسنتحدث بهدوء. ستقص عليّ ما تعرفه عن تريان.

وشاعت سحابة على عيني نورا. أردفت:

- والآن، أجب على الأسئلة لأملأ الأوراق الرسمية: أين كنت منذ عام 1938 حتّى الآن؟ قل لي كل شيء. لا تخف. سوف يقبل طلبك.

ابتسم الفتى البكر، لقد ربح الجولة. وكان سعيدا بذلك.

كان أصغر الأطفال سعيدا كذلك. كان يأكل الحلوى التي قدمها إليه الملازم لويس ويضحك كاشفا عن أسنانه البيضاء.

أمّا سوزانا، فقد ظلت مطرقة الرّأس.

أعدَّ الملازم لويس آلة التصوير. كان يريد التقاط صورة لأفراد الأسرة كلّهم، عندما ينتهي إيوهان موريتز من ملء الأوراق اللازمة. كان يجب أن يبدو كل شيء حقيقيّا وشرعيّا.

- لقد كنت عام 1938 في معسكر لليهود في رومانيا، ثم في معسكر

للرومانيين في هنغاريا عام 1940. وانتقلت عام 1941 إلى معسكر للهنغاريين في ألمانيا ثم إلى معسكر أمريكي عام 1941. وقد أطلق سراحي أوّل أمس من معسكر داشو. لقد أمضيت ثلاثة عشر عاما في المعسكرات. لم تمنح إليّ حريتي إلاّ ثماني عشرة ساعة فحسب، وبعدها جاؤوا بي إلى هنا...

قال الملازم ليويس:

- ابتسم! Keep Smiling !

كانت عدسة آلة التصوير مصوّبة إلى إيوهان موريتز وأسرته.

وكان موريتز ينظر إلى نورا وهو يفكّر في مئات الكيلومترات من الأسلاك الشائكة التي رآها.

لم يرفع بصره حين تحدث إليه الملازم ليويس، لم يكن يفهم الانكليزية. كان يشعر بأنّ تلك الكيلومترات من الأسلاك الشائكة تلتف حول جسده.

أردف يقول:

- هذا ما حدث منذ عام 1938 حتّى اليوم. معسكرات ومعسكرات ومعسكرات. لا شيء إلاّ المعسكرات خلال ثلاثة عشر عاما.

قال الملازم لويس:

- ابتسم!

أدرك إيوهان موريتز أن تلك الكلمات كانت موجهة إليه فقال لنورا:

- ماذا يقول الأمريكي؟

- إنّه يأمرك بالابتسام.

نظر إيوهان موريتز إلى نظّارة تريان على المكتب. خيل إليه أنّه يرى في تلك اللحظة جسد تريان يسقط قرب الأسلاك الشائكة، وقد اخترقه الرصاص. كان يفكّر في كيلومترات الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالمعسكرات. تذكّر ساقي الكاهن كوروغا المبتورتين، تذكّر كلّ ما وقع له

خلال الأعوام الثلاثة عشر.

نظر إلى سوزانا، وإلى الطفل الصغير، طفل الروس، فتجهّم وجهه واكتأب، واغرورقت عيناه بالدموع. الآن وهم يأمرونه بالابتسام، شعر أنه لا يستطيع الابتسام. كان يشعر في تلك اللحظة بأنه سينفجر باكيا منتحبا كالمرأة الثكلى، بكل ما أوتي من يأس. لقد كانت النهاية. ولم يكن يستطيع أن يتقدم خطوة أخرى. وما كان أيّ إنسان يستطيع أن يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام.

غير أن الضابط لبث يأمر إيوهان موريتز وهو يحدّق في وجهه:

- ابتسم! ابتسم! ابتسم! ابتسم! ابتسم!....

ألف ــ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

المرجومة

المؤلّف: فريدون صاحبجام
البلد: إيران
ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهري» ليست مجرّد شخصيّة روائيّة من نسج الخيال، إنّما امرأة من لحم ودم، كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفيّ الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهري» المتّهمة ظلما بخيانة زوجها.

وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره،حتّى والدُها الذي أجبر على إلقاء الحجر الأول في عمليّة الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنّه عرّاب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

الحب والظلال

المؤلف: إيزابيل اللندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

في سنة 1979 في بلدة «لونكين» على بعد 60 كيلومترا من العاصمة التشيليّة «سنتياغو»، تمّ اكتشاف مدفن سريّ في منجم مهجور، أخفى فيه رجال الدرك جثث 15 فلاّحا من أهالي المنطقة.

من هذه الواقعة التاريخيّة تنطلق إيزابيل اللّندي لترسم عالما من الحبّ والأمل، في مواجهة عالم آخر من العنف والحقد. وكلّ ذلك في أجواء سحريّة تضيع فيها الحدود بين الواقع والخيال، لتشكّل في نهاية المطاف، عملا أدبيّا رائعا، وشهادة تاريخيّة مأسويّة، تروي وقائع جريمة سياسيّة وقصّة تضامن إنسانيّ.

تعتبر هذه الرواية استثناء في تجربة إيزابيل اللّندي كاملة، وعلامة فارقة في أدب أمريكا اللاتينيّة.

الناشر

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل اللّندي

انقطاعات الموت

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرواية تكاد تكون ملحمة فى مديح الموت و«ساراماجو» الذى يكتب دون ضغينة أو كراهية حتى أنه يدعونا إلى محبة الموت يضمنا حسّه الفكاهيّ وسخريته اللاذعة منذ بداية الصفحات أمام مفاجأة فانتازية صاعقة: «فى اليوم التالى لم يمت أحد»، لقد انقطع الموت فى دولة صغيرة -لا اسم لها- وأصبح سكانها لا يموتون ويبقى مريضهم على حاله، وقد يبدو الأمر رائعا في البداية لمن يتوقون إلى الخلود ولكن سرعان ما يوضّح «ساراماجو» أنّها كارثة تهدد البشرية، فالحكومة لا تستطيع التعامل مع هذا الموقف غير المألوف، ولقد تعثّر نظام المعاشات التقاعدية ولم تعد المستشفيات ودور المسنين تفي بالغرض، وأفلست مؤسسات تجهيز الموتى ودفنهم. لقد أثار غياب الموت فوضى ليس لها مثيل ولم تعرفها المجتمعات من قبل وعلى البشرية أن تقبل به بوصفه وجه العملة الآخر للحياة، فالمرء لا يستطيع العيش من دون الموت، ومع أنه يظهر كتناقض ظاهري للحياة فإنّنا في الحقيقة يجب أن نموت لكي تستمر الحياة.

«ساراماجو»... ماكر وخبيث ولذيذ ..

الناشر

مِيتتان لرجل واحد

المؤلّف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر

عالم يتهاوى

المؤلّف: تشنوا أتشيبي
البلد: نيجيريا
ترجمة: محمد الحبيب الكحلاوي

□ «كاتب في رفقة أعماله انهارت جدران السجن»

الزعيم الراحل نيلسون مانديلا

□ «له موهبة متّقدة وعظيمة، موهبة مفعمة بالحماس والثراء»

نادين غورديمير، جائزة نوبل للآداب سنة 1991

□ «إنّ أعمال أتشيبي تتكلّم من داخل الشخصيّة الإفريقيّة، ولا تصوّر الرجل الإفريقيّ بوصفه شيئا غريبا وعجيبا كما يراه البيض»

وول سوينكا، جائزة نوبل للآداب سنة 1986.

□ «إنّها رواية الخسران العميم، حيث يتهاوى كلّ شيء: الأشياء، والذكريات، وقيم القبيلة، في وجه الحضارة القادمة من الغرب، ولا يبقى غير الصّمت المتدلّي من جذع الشجرة في آخر الرواية، دليلَ إدانة إزاء الاستعمار البريطاني لشعب الإيبو.

والرواية مسكونة بإيقاعين متنافرين، تطغى السكينة على أوّلهما فتكاد أحداثها لا تتقدّم إلاّ لتكشف عمّا يعتمل في صلب الشخصيّات من جَيَشَانٍ، وعمّا يحرّكها من رؤى، بينما يقلب الثّاني كلّ شيء رأسا على عقب، ويفضح بشاعة الكولونياليّة المتحجّبةخلف قناع المقدّس، وبين الإيقاعين تتحرّك الأحداث والشخصيّات والمصائر ومعها تتحرّك ثقافة بأسرها في الطريق إلى حتفها.

الناشر

صدر أيضا

زوربا اليوناني
المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

حديقة الصخور
المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

عالم يتهاوى
المؤلّف: تشنوا أتشيبي
البلد: نيجيريا
ترجمة: محمد الحبيب الكحلاوي

نعاس
المؤلّف: هاروكي موراكامي
البلد: اليابان
ترجمة: رمزي بن رحومة

يصدر قريبا

أيّام قوس قزح
المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

قلب كلب
المؤلّف: ميخائيل بوغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

آخذك وأحملك بعيدا
المؤلّف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

وردّدت الجبال الصدى
المؤلّف: خالد حسيني
البلد: أفغانستان
ترجمة: منير العليمي

قسطنطين جيورجيو

الساعة الخامسة والعشرون

الرواية التي مُنعت في أوروبا كلها حتى سنة 1949

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السرديّة الباعثة على أسئلة جذريّة حول مصير الإنسان المأسَويّ، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية، فإنّ نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا.

رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

كثير من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليل منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأُعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش



